العرب بين القومية والإسلام

قراءة إسلامية فى التاريخ الحديث والمعاصر

أستــاذ دكتــور

زكريا سليمان بيومى

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر

جامعة المنصورة وكلية التربية للبنات بجدة

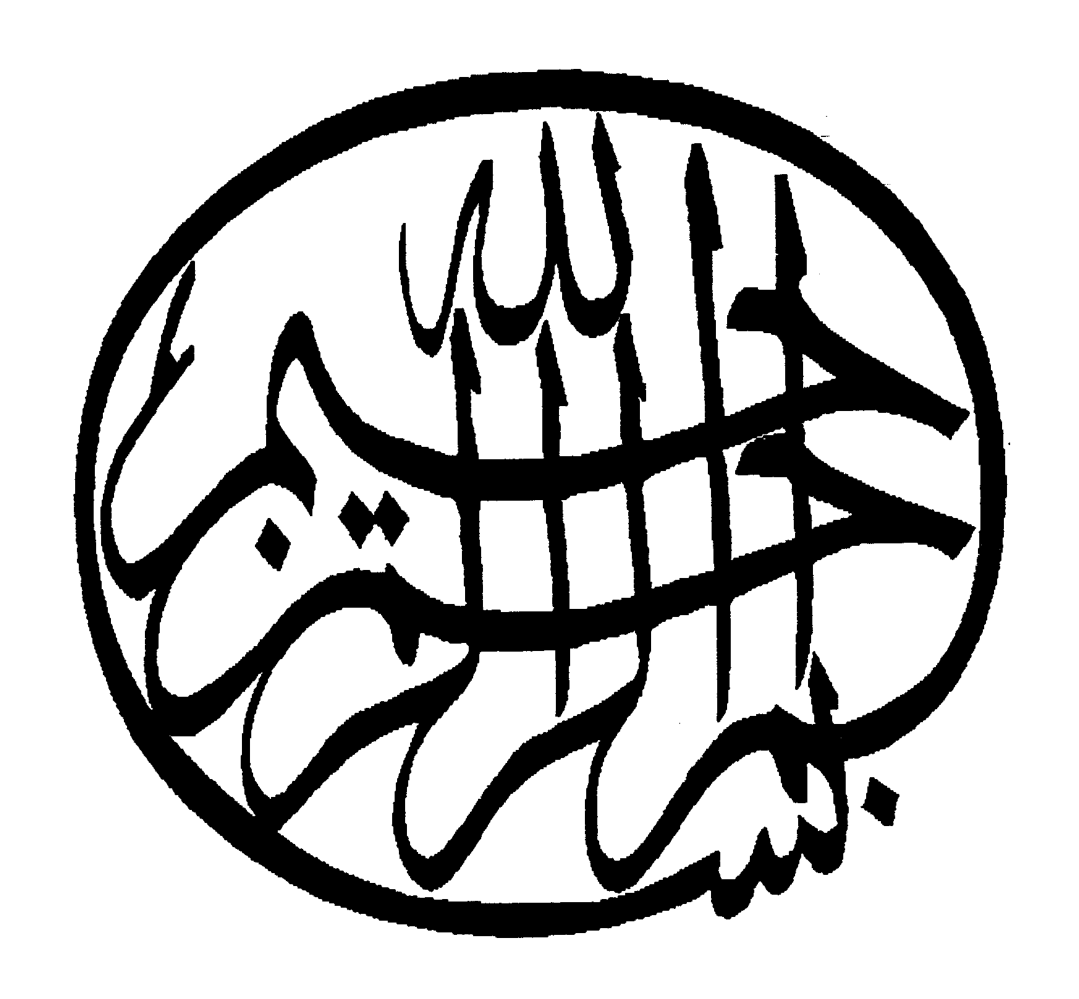
الناشــر

دار القــاهــرة

١١٦ ش محمد فريـــد ـــ القاهـــرة

ت ٣٩٢٩١٩٢

اسم الكتاب	العرب بين القومية والإسلام
اسم المؤلف	الدكتور / زكريا سليمان بيومى
رقم الطبعة	الأولى
رقم الإيداع	٧٥٤٢
الترقيم الدولى	I. S. B. N 977 – 6048 – 04 – 8
سنة النشر	٢٠٠٢
الناشر	دار القاهرة
عنوان الناشر	١١٦ ش محمد فريد ـ القاهرة
بلد الناشر	القاهرة ـ جمهورية مصر العربية
التليفون	٣٩٢٩١٩٢ ـ ٠١٢/٣١٧٧٥١٠
فاكس	٣٩٣٣٩٠٩ ـ ٣٩٢٩١٩٢


بسم الله الرحمن الرحيم

إهـــــداء

إلي صاحب السمو الملكي الأمير

عبد العزيز بن فهد بن عبد العزيز آل سعود

عرفانا وحبا وتقديرا

إلي والدي ووالدتي وشقيقي محمد يرحمهم الله

إلي زوجتي وأولادي

إلي إبني العزيز محمد

إلي الصادقين في عهدهم مع الله

إلي كل من يحفظ للكلمة أمنها فحيثما يوجد الأمان يوجد الإبداع

مقدمـــــة

أفرزت فترة التحول القومي التى تولتها بعض الأنظمة السياسية في العالم العربي بعد الحرب العالمية الثانية، وما صاحبها من تيارات فكرية، العديـــد مـــن المؤلفات التى جنحت بعيدا عن المنهج الإسلامي، وقدمت العديد من الصياغـــات التاريخية وفق هذه التيارات .

وسبقت ذلك العديد من الصياغات التاريخية التي أتى بها المبعوثون إلـــى الدول الغربية أو من تتلمذ على أيديهم من أبناء الوطن العربي، وبالطبع فإن هـذه الصياغات هي الأخرى بعدت عن الأخذ بالمنهج الإسلامي متأثرة بموقف البـــاحث الأوروبي من الدين بشكل عام، ومن الإسلام على وجه الخصوص .

ولكون أوروبا قد سبقتنا في الأخذ بمنهج البحث التاريخى حديثـــا، فـــإن مجمل هذه الصياغات التاريخية، سواء المتأثرة بأوروبا أو التى فرضتها الأنظمـــة السياسية العربية ذات التوجه القومى، ونتيجة لعوامل ومصالح اقتصادية كـــانت وراء نشأة هذه الأنظمة، قد امتلأت بها المكتبة التاريخية وبالتالي بما هـــو بعيـــد عن الموضوعية العلمية .

وبشكل عام فإن الصياغة التاريخية الأوروبيـــة بكـــل تياراتـــها الفكريـــة العلمانية والمادية اليســـارية، وببعدهـــا الدينـــى الصليبـــى واليـــهودى وبعدهـــا الإستعمارى، تعتبر صياغة متجنية في أغلبها على تاريخنا الإســـلامى، ولا تعـــبر هذه الصياغات عن صورة الإسلام في التراث الغربي الأوروبي فقط بل إنها تسهم كذلك في المزيد من ترسيخ هذه الصورة للأجيال الحالية والمستقبلية تجاه كل مـــا هو إسلامي . وبالتالي فلن تفلح محاولات التصحيح لـــهذه الصياغـــة مـــن قبـــل المسلمين في تغييـــر هذه الصورة لدى هذه الشعوب علـــى المـــدى المرئـــي أو القريب .

ومع ذلك فإن على المؤرخين من أصحاب النظـــرة الإســـلامية مواصلـــة دورهم في إعادة صياغة تاريخهم لترسيخ صـــورة حقيقيـــة وموضوعيـــة أمـــام الشعوب الإسلامية والعربية تؤكد لهم نقاء تراثهم، وتقدم لهم نماذج من التـــاريخ تعينهم على الثقة في مقوماتهم الحضارية .

ولعل من الأمور التي تشجع الباحثين من أصحاب المنظـــور الإســـلامي أن أحداث النصف الثاني من القرن العشرين وبكل ما صاحبها من محـــاولات أغلـــب الأنظمة السياسية العربية القومية لم تستطع أن تجعل من التيار القومـــي خيـــارا

جماهيريا، وأن ما بقي – أو ما هو ظاهر منه علي الساحة الإعلامية حتي الآن – تفرضه ضرورات اقتصادية وسياسية لدي القلة المسيطرة من المنتفعين أو التابعين النفعيين بوعي أو بغير وعي، وأن تقبّل الشعوب العربية له ليس إلا لاعتباره جزء من الكل الإسلامي.

وتؤكد الأحداث التاريخية أن السماح بقدر من الحرية السياسية والفكرية يفتح الطريق لأتباع التيار الإسلامي وهم الذين تفرزهم وتؤيدهم الأغلبية، وتجعل منه الخيار الأقوى . فقد أصبح من قبيل المسلمات لدي الأكثرية من الشعوب الإسلامية أن العدل الاجتماعي الذى لم تفلح التجارب أو الأيديولوجيات الأخري كالاشتراكية أو الديمقراطية في تطبيق قدر كاف منه قد يطبّق بشكل أفضل تحت القبة الإسلامية مهما اختلفت صور الاجتهاد حولها أو صادفها من خلل في وسائل وآليات التطبيق، وبرغم كل محاولات التشكيك أو التشويه لمحاولات سابقه أو معاصره، وحتي ولو كان جزء كبير من هذه القناعات راجع إلى بعد التيار الإسلامى فى أغلب الأقطار العربية عن الميدان التطبيقى وانحصاره فى أطر نظرية فإن السعي لاستلهام نموذج إسلامي شمولي عصري يستوجب من بين فرضياته صياغة تاريخية موضوعية .

ولاشك أن مثل هذه الحتمية هى التى دعت المؤرخ الانجليزى توينبى إلى القول بأن حضارة الإسلام وبكل ما يعتريها من توتر فى الاستجابة حيال تحدى الحضارة الغربية ستكون هى حضارة المستقبل لأنها تحمل فى طياتها مقومات صمودها وتجددها .

ولأن التاريخ علم مختار وليس علما ثابتا، ولأنه علم صياغة – أو صناعة – المستقبل على ضوء الماضى، أقدّم هذه الصياغة من منظور إسلامي يتواءم وطبيعة تاريخ شعوب المنطقة العربية الإسلامية أملاً في أن يجدوا فيها ما يعينهم على استلهام جوانب إيجابية في تراثهم . على أنني سألتزم فيها كسابقاتها بالموضوعية والحيدة التي هي عماد الباحث المسلم، كما أنني لا أقصد بها أو من خلالها الانتصار لشخص أو لتيار أو نظام أو أذم فتلك غاية تنقص من قدر البحث العلمي القويم .

والله من وراء القصد خير الشاهدين،،،

أ . د. زكريا سليمان بيومى

الفصـــل الأول

بدايـة مرحلة التاريخ الحـديث
في المشـرق العربي الإسلامي

- متى يبدأ تاريخ العرب الحديث ؟
- الوجود العثماني فى المشرق العربـي بـين طبيعـة الفتـح وتهمـة الاحتلال
- العثمانيون وتهمة فرض العزلة على المشرق العربي الإسلامـي .

فى البداية لابد أن نذكر أن استخدام مصطلح التاريخ الحديث والتاريخ الوسيط والتاريخ القديم ليس استخداما دقيقاً ولا موضوعياً فى أغلبه ويرجع ذلك إلي أنه مصطلح مؤقت وليس مصطلحاً ثابتاً، فلو تصورنا إمكانية استخدام هذا المصطلح بعد نصف قرن من الآن على الأقل فإنه لن يكون استخداما دقيقا، وبالطبع ينطبق هذا على غيره من العصور السابقة ؟ والأجدر أن تربط الأحداث بالقرون أو الدول فهى أمور ثابتة لا تتغير كأن نقول القرن الخامس عشر الهجرى/العشرين الميلادى مثلاً، أو أن نقول تاريخ الدولة السعودية الأولى أو الاستعمار الفرنسى لسوريا، أو تاريخ الدولة العثمانية، أو الحملة الفرنسية علي مصر والشام فهذا أوقع وأدوم .

كما أن تقسيم التاريخ إلى قديم ووسيط وحديث تقسيم أوروبى، وأخذ به الكتّاب في الشرق الإسلامي كجزء من اتباعهم للعديد من الجوانب التى نقلوها عن أوروبا دون تمحيص أو ربما دون وعى فى بعض الأحيان . فقد اعتبرت أوروبا التاريخ السابق لاعتناقها المسيحية تاريخ قديم برزت فيه حضارة اليونان وحضارة روما . ويبدأ التاريخ الوسيط من اعتناقها المسيحية حتى تمردها عليها فى عصر النهضة فى القرن الخامس عشر الميلادى، وذلك لأن الكنيسة المسيحية قد ساندت النظام الإقطاعى وأصبحت جزءاً منه فشاركت فى الظلم الذى عانت منه خلال هذه الفترة فاستوجبت لهذا كره الأوروبيين وثورتهم علي دور الدين فى المجتمع ودور المؤسسات الدينية أيضاً . فضلاً عن أن اعتناق أوروبا للمسيحية من البداية قد قسّمها إلى إمبراطوريتين وامتلأ العصر كله بالصراع بينهما وهو صراع مذهبى، لهذا اعتبرت أوروبا عصر النهضة والثورة على كل ما هو دين فى المجتمع بداية لعصر جديد هو العصر الحديث باعتباره بداية مرحلة انتقال الحضارة إليهم أو بزوغ حضارتهم وأن مجرد التلويح بالعودة هو تخلف ورجعية .

ولكن هل هذا التقسيم التاريخى يتناسب مع مراحل التاريخ فى الشرق الإسلامى ؟ إن مرحلة التاريخ القديم عند المسلمين هى المرحلة السابقة على اعتناق الإسلام، ولكن منذ بداية انتشار الإسلام أو ظهوره تحول سكان الجزيرة العربية ومن حولها من شعوب مفككة متحاربة إلى أمة قوية مهابة الجانب . وبدأ دورهم الحضارى مع هذه الفترة التى التزموا خلالها بالمنهج الذى أمدّهم به الدين الإسلامى، كما أن الخلل التاريخى الذى حدث فى بعض العصور الإسلامية كان

بسبب البعد ـــ نسبياً ـــ عن الأخذ بالمنهج الإسلامى . هذا إلى جانب أن المنـــهج الإسلامى ما زال حتى الآن هو الأساس فى حركة الشعوب الإسلامية وعلاقاتـــها، وأن محاولة اللجوء إلى الأنظمة الغربية والشرقية والسعى لإقصاء هذا المنـــهج عن مواضع التأثير الاجتماعي والإقتصادي والسياسي وصنع التاريخ لـــم تحقـق نجاحاً حتى الآن لتشبث الشعوب الإسلامية به . لـــهذا فـــان الكتّـــاب المســـلمين يؤكدون بأنهم ليسوا فى حاجة إلى اعتبار أى مرحلة من مراحـــل التـــاريخ بعـد الإسلام مرحلة جديدة بل هى امتداد للتاريخ الإسلامى ذلك لأن الإسلام فى نظرهـم كان وما زال يلعب دوراً رئيسياً فى تحديد توجهات الشعوب المؤمنة به والطبقـات الكادحة منها على أقل تقدير ودورها فى كافة الجوانب .

ومع هذا يرى بعض الكتّاب المسلمين أن حجة سهولة دراســـة التـــاريخ تدعو الى قبول ما يسمى بالتاريخ الحديث والمعاصر تجاوزاً باعتبار هذه المرحلـة مرحلة ممتدة للتاريخ الإسلامى وما تتعرّض له الشعوب الإسلام مداً وجزراً وفـق الظروف التاريخية باعتبارهِ المعيار الأساسى لحركة هذه الشعوب سلباً أو إيجاباً . وقد أطلق البعض على هذه الفترة وفقاً لهذه الأمور " التاريخ الإسلامى الحديـــث والمعاصر " .

متى يبدأ تاريخ العرب الحديث ؟

لعل طرح هذه الإشكالية في البداية يفرض ضرورة الرد علي أتباع التيار القومي وغيرهم الذين قصدوا بهذا الطرح التسليم بوجود كيان سياسي عربي قومي له جذوره التاريخية وهو طرح غير صحيح وبعيد كل البعد عن الموضوعية العلمية أو الحقائق التاريخية، ولهذا يستوجب الأمر توضيح طبيعة تاريخ وتطور هذا الكيان من خلال الكل الإسلامي الذي يحاول هؤلاء الكتّاب إهماله علي حساب الموضوعية في البحث التاريخي .

وبشكل عام فقد انقسم الدارسون إلى عدة آراء فهناك رأى يقول أن تاريخ العرب الحديث يبدأ مع الحملة الفرنسية على مصر والشام لأنها كسرت حاجز العزلة الذى فرضه العثمانيون على المسلمين فلم يحتكوا بأوروبا المتحضرة فأصبحوا متخلفين، ولأن هذه الحملة كانت بداية فتح باب الاحتكاك بين الحضارتين وإطلاع المسلمين على الحضارة الغربية فتعد بداية لمرحلة تاريخية جديدة . وبالطبع هذا الرأى يقول به العلمانيون الذين تعلموا فى أوروبا وتأثروا بمظهرها الحضارى وانبهروا به، ولكنه رأى يعبّر عن غرور الأوروبيين فى أن الذى يحتك بهم يبدأ تاريخه والذى يبتعد عنهم يظل على تخلفه، كما أنه يتناسى الطبيعة العدوانية لهذه الحملة التى كانت جزءا من هجمة استعمارية على المنطقة بأكملها، وبالطبع لا يقبل بهذا الرأى علي إطلاقه أصحاب الفكر الإسلامى والقومي كذلك.

وهناك رأى آخر يري أن تاريخ العرب الحديث يبدأ من عصر محمد على لأنه على الصعيد الداخلى قضى على الإقطاع وغير فى وسائل وقوى الإنتاج فى مصر وارتبط بأوروبا فى أسلوب ووسائل تحديث دولته، ثم حاول على الصعيد الخارجى أن يضم المنطقة العربية بعيدا عن العثمانيين، وهذا رأى العلمانيين واليساريين من دعاة القومية على السواء . وبالطبع فان هذا الرأى لم يقبل به أصحاب الفكر الإسلامى لأن محمد على كان قد حول مصر إلى إقطاعية كبيرة بعد أن أصبح هو المالك الوحيد للأرض الزراعية فيها، ثم أشرك معه العناصر الأجنبية دون العناصر المحلية وعلي حسابها في هذه الملكية . وعلى الصعيد الخارجى كان قد حول كل جهده لضرب القوى العربية الإسلامية المناهضة للتدخل الاستعمارى فى المنطقة مسايرة لأطماعه وأضعف بذلك دولة الخلافة فأسهم فى سرعة انقضاض الإستعمار على المنطقة بأسرها، كما أنه لم ينعم بتأييد شعبى فى

كل تحركاته لا فى مصر ولا فى المنطقة العربية، ولم يكن بالتالى معبّراً عن توجهات الشعوب بل مجافياً لها وذلك أنه فيما فعله من إصلاحات لم يكن يبتغى وجه الشعب المصرى أو العربى، ولم يسع لإيجاد شرائح ترتبط مصالحها بمصالحه بل كان ذاتياً له ولأسرته وللعناصر الأجنبية التى ساعدته، وللدول الأجنبيه التى وقفت خلفه .

أما الرأى الثالث فيري أن تاريخ العرب الحديث يبدأ من العصر العثمانى ودخول العثمانيين المشرق العربى، ومع ما فى هذا الرأى من وجاهة وقبول من قبل أصحاب الفكر الإسلامى إلا أنه هو الآخر يشكّل فخاً حيث أن من يقول به يؤكد أن العرب كانت لهم هوية قومية واضحة منذ بداية الحكم العثمانى، يعنى كان هناك عرب وأتراك، وهذا غير صحيح فالجميع كانوا مسلمين ولم تكن هناك هوية قومية أو جنسية تفرّق بين الشعوب الإسلامية منذ عصر صدر الإسلام .

والحقيقة أنه لم يظهر على ساحة التاريخ ما يمكن أن نسميه العالم العربى منذ الدعوة الإسلامية إلا قبل الحرب العالمية الأولى بعد أن نجح أعداء الشرق الإسلامى فى فصل إيران وتركيا والعرب الذين كانوا يشكّلون أركان الدولة الإسلامية الواحدة، ثم سعوا ـ ومازالوا يسعون ـ لتمزيق كل كيان من هذه الكيانات إلى دول أو أشباه دول ضعيفة صغيرة .

ولكن مع هذا يصعب معرفة تاريخ المنطقة العربية منذ الحرب العالمية الأولى فقط حيث أن الإستعمار الأوروبى قد قسّم المنطقة واستولى عليها ووضع لها حدوداً سياسية تستوجب التعرّف علي مخططاته التى وصلت بالمنطقة إلى هذه النتيجة . وتعود إرهاصات هذه المخططات إلى بداية الوجود العثمانى فى المشرق العربى الإسلامى والذى يتوافق تاريخيا مع بداية الهجوم الاستعمارى على هذه المنطقة وما يمثله هذا الدور من تأثير على بداية مرحلة التاريخ الحديث فى أوروبا وكذلك منطقة المشرق العربى الإسلامي .

العثمانيون وبداية التاريخ الحديث فى المشرق العربى الإسلامى

لاشك أن عودة القوة العثمانية من الساحة الأوروبية إلى المشرق العربى الإسلامى يعد معلماً تاريخياً هاماً أسهم فى تشكيل تاريخ هذه المنطقة لعدة قرون لاحقة، فقد استطاعت هذه المنطقة أن تحتفظ بمقومات تلاقيها وترابطها كنتيجة للتدخل العثمانى الذى ساعد حركة الجهاد الإسلامى فى الشمال الإفريقى من جهة،

وحاول التصدى للهجوم الصليبى البرتغالى على المناطق المقدسة فى الجزيرة العربية من خلال مساعدة المماليك ثم التصدى المباشر لهم بعد هزيمة المماليك من جهة أخرى .

وقد حاول العديد من المؤرخين القوميين التقليل من الدور العثمانى وذلك من خلال اعتبار العثمانيين محتلين دون أن ينظروا بميزان العصر نفسه حيث كان المعيار وقتها معياراً دينياً لا يميّز بين المسلمين من حيث الجنس أو المذهب، كما لم ينظروا بمعيار المنهج الإسلامى نفسه الذى يسقط المعيار الجنسى العرقى القومى . واحتوت محاولات هؤلاء المؤرخين من دعاة القومية بالتالى على تفسير العودة العثمانية إلى المشرق الإسلامى لإنقاذه من الهجمة الصليبية الجديدة بإرجاعها إلى أسباب أخرى تتفق وتفسيرهم كطمع العثمانيين فى التوسع ورغبتهم فى تكوين إمبراطورية إسلامية وغير ذلك . وبالطبع كان عليهم وفق هذا التفسير أن يقللوا من شأن الهجوم الصليبى الغربى ويجعلوه أحد العوامل وليس العامل الرئيسى فى التحوّل العثمانى وبالتالي تغير الخريطة السياسية للمنطقة.

والحقيقة أن الهجمة الأسبانية البرتغالية على الشمال الإفريقى ـ بعد نجاحهم فى طرد المسلمين من الأندلس ـ كانت هجمة مدفوعة بدوافع الانتقام من المسلمين بنفس صورة حربهم ضد المسلمين فى الأندلس، فقد سيطرت الروح الصليبية من جديد واندفعت الحملات إلى الشمال الإفريقى برعاية البابوية ومباركة رجال الدين، ووضع كل فرد من أفراد هذه الحملات صليباً فى رقبته وسمع دعاوى الجهاد والشهادة (١)، وتمكنوا من خلال هذه الحملات من الإستيلاء على طنجة وسبته ومليلة ووهران وغيرها، وتعالت صيحات المواصلة إلى احتلال مصر ثم الإنطلاق منها إلى مكة والمدينة وضرورة إعادة المسلمين ـ العرب ـ إلى الصحراء التى خرجوا منها، وقد أطلق المؤرخون على هذه الحركة تجاوزاً الكشوف الجغرافية . ولم تتمكن هذه الحملات الصليبية من تحقيق أهدافها فى البحر المتوسط حيث تصدّى لها المجاهدون المسلمون خلف حركة الأخوين عرّوج وخير الدين بربروسا التى جمعت وراءها مجاهدين من الشمال الإفريقى ومن المسلمين الفارين والمطرودين من الأندلس، كما سارعت الدولة العثمانية بمد يد العون والمساعدة بالعتاد والسلاح والرجال لهذه الحركة حتى أصبحت قوة يخشى بأسها ودون أية فروض أو شروط من قبل العثمانيين مما دعا هذه الحركة لأن تسعى للارتباط بالدولة العثمانية (١).

وقد نتج عن نجاح حركة الجهاد الإسلامى فىالبحر المتوسط إضطرار الأسبان والبرتغاليين للبحث عن طريق بديل يحقق أهدافهم العدائية ضد المسلمين والمقدسات الإسلامية، وسمح هذا الشعور الدينى الجارف فى كلا الدولتين بظهور المغامرين الجغرافيين حيث زيّنوا للحكام الأسبان فكرة الوصول إلى المشرق الإسلامى عن طريق الإتجاه غرباً، أى فكرة كروية الأرض، وزيّنوا للبرتغاليين الالتفاف حول إفريقيا للوصول إلى الحبشة النصرانية واتخاذها منطلقاً لحملات عدائية على غرار حملة أبرهة الحبشى قبل الإسلام تمكّنهم من الوصول إلى مكة والمدينة (٢) .

ولم يكن أمر هذه الهجمة الصليبية قاصراً على أسبانيا والبرتغال بل كانت تخطط لها البابوية حيث دعت ملوك أوروبا إلى مؤازرة مخططها ضد العالم الإسلامى فيما عرف بخطة الهند التي ظهرت من خلال مراسلات البابا " نقولا الخامس" مع الأمير" هنرى الملاح "(٣)،واعتمدت هذه الخطة على الرهبان الفرنسسكان الذين كانوا يقيمون فى بيت لحم بفلسطين حول المقدسات المسيحية حيث كان عليهم الإتصال بملك الحبشة عن طريق الزوّار الأحباش النصارى للمنطقة المقدسة فى فلسطين والتنسيق لشن حملة صليبية ضد المسلمين . وعلى الرغم من استخدام بعض الدول الأوروبية لهذه الخطة بهدف اقتصادى مثل إنجلترا إلا أن العامل الدينى كان العامل الرئيسى للبابوية ولأغلب دول أوروبا وكذلك للرهبان أنفسهم بحكم طبيعة فكرهم، كما أن العامل الاقتصادى فى حد ذاته وهو السعى لكسر احتكار الملسمين لتجارة الهند كان يحتوى على عامل دينى لأنه استخدم بقصد إضعاف قدرات المسلمين وإمكانياتهم الاقتصادية (٤) .

وقد سارع العثمانيون ــ بعد أن تأكدوا من طبيعة الدور الصليبى ضد المقدسات الإسلامية ــ إلى تجميد نشاطهم على الساحة الأوروبية وعادوا إلى الشرق لمواجهة الهجوم الروسى المدفوع بدوافع دينية مدعومة من البابوية، وكذلك الإثارة الصفوية على الحدود، وترقّب أبعاد الهجوم البرتغالى . وأرسل العثمانيون المساعدات المتتالية للمماليك سواء قبل هزيمة المماليك أمام البرتغاليين فى معركة ديو البحرية ٩١٥هـ-١٥٠٩م أو بعدها، لكن المماليك تحولوا إلى ترقّب الدور العثمانى بفعل الدسائس الصفوية البرتغالية، فدخل العثمانيون المشرق الإسلامى ليتولوا الدفاع عنه وعن مقدسات المسلمين .

ومع أن التاريخ لا يتحمل التنبؤات إلا أننا لـــو تصوّرنـــا غيـــاب الـــدور العثمانى بعد هزيمة المماليك ونجاح البرتغاليين فى مهاجمة المقدسات الإســـلامية ومحاصرة طرقهم التجارية لكانت الخريطة السياسية للمشرق العربى الإسلامى قد تغيّرت تماماً، وبخاصة لو أدركنا شراسة الدور البرتغالى وعدائه للمسلمين مـــن خلال المذابح الجماعية للمسلمين فى زيلع وسواكن ومصوّع والاســـتيلاء عليـــها للانطلاق إلى الجزيرة العربية، فكم كان حجم المذابح وطبيعة هذا الدور؟ .

ولذلك فإن حماية العثمانيين للمشرق العربى الإسلامى ومحافظتهم علـــى مقوّمات الوحدة والترابط والتلاقى التى تجمع العرب الآن هو مـــن نتـــاج الـــدور العثمانى الذى يستحق أن يكون للعرب والمسلمين معلماً تاريخياً هاماً، وأن مـــن يتجه إلى رفضه فإنه ينحو بفكره منحى بعيداً عن النظـــرة الإســـلامية أو حتـــى النظرة القومية العربية .

الوجود العثمانى فى المشرق العربى بين الاحتلال والفتح

فى الوقت الذى اتجه فيه أغلب الكتّاب والمؤرخين مـــن أصحـــاب المنظـــور القومى إلى اعتبار التدخل العثمانى فى المشرق العربى فى مطلع القرن الحـــادى عشر الهجرى السادس عشر الميلادى غزوا واحتلالاً اتجه بعض المؤرخين مـــن أصحاب المنظور الإسلامى إلى اعتباره فتحاً . ومع أن مفهوم أو مصطلح الفتـــح لم يستخدم من قبل إلا فى دخول جيش إسلامى لأراض غير إسلامية إلا أنهم رأوا أن التدخل العثمانى لم يكن دافعه التوسع أو السيطرة وإنما كان ضرورياً لحمايـــة المسلمين من مخطط غربى صليبى قادته البرتغال (٥)، وأنه لـــولا هـــذا التدخـــل وهذه الحماية لتغيّر وجه التاريخ الإسلامى فى هذه المنطقة، ولفقـــدت ترابطـــها واستمرار تراثها الذى يعد من أهم مقوّمات وحدتها المعاصرة .

وساق المؤرخون القوميون وغيرهم العديد من الأسباب التى تؤكـــد ـــ أو تبرر ـــ وجهة نظرهم فذكروا أن الفتح العثمانى على الساحة الأوروبية كان قـــد وصل إلى مرحلة من التشبع أو إلى أقصى مدى يستطيعه، وأن القوات العثمانيـــة قد أصبحت فى موقف دفاعى لا فى موقف هجومى مما دعاها إلى التوقف عـــن مواصلة الزحف على هذه الساحة (٦) . واستتبع ذلك بالضرورة ـــ من وجهـــة نظرهم ـــ عودة ثقل هذه القوات إلى الســـاحة الشـــرقية للتصـــدى للمشـــكلات الحدودية مع الصفويين والمماليك، ثم رأت أن الفرصة سانحة أمامـــها لتحقيـــق

الأطماع التى راودت بعض السلاطين العثمانيين والمتمثلة فى تكوين إمبراطورية مترامية الأطراف حول البحر المتوسط وحتى يصبح بحيرة عثمانية (٧) .

ويرى هذا الفريق من المؤرخين أنه قد تهيأت بعض الأسباب التى أسهمت فى صنع الدور العثمانى بالصبغة الإسلامية يأتى فى مقدمتها تصيدهم للأطماع البرتغالية فى البحر الأحمر وبحر العرب، فضلا عن نجاحهم فى وقف نشاط فرسان القديس يوحنا فى البحر المتوسط (٨)، وأنه بغض النظر عن دافعهم فى التصدى لهذه القوى إلا أن موقفهم تجاهها كان ضروريا لتحقيق أهدافهم فى التوسع فى الشرق العربى، وأنهم قد نجحوا فى استثمار هذا النجاح باسم الدين الذى أسهم فى خضوع هذه المنطقة لهم على مدى أربعة قرون أو يزيد .

وبداية فإن هناك أدلة عديدة تؤكد أن وقف العثمانيين لفتوحاتهم فى أوروبا فى عهد السلطان سليم الأول وعودتهم إلى المشرق ترجع فى المقام الأول إلى عامل رئيسى هو التصدى للهجوم الصليبى البرتغالى على الأراضى والمقدسات الإسلامية فى المشرق العربى، وحصار نشاط فرسان القديس يوحنا فى البحر الأبيض المتوسط، وكذلك وقف الخطر الصفوى الذى استشرى وأصبح يشكل خطرا سياسيا عليهم، فى حين أن العوامل الأخرى المتمثلة فى ضعف القوات العثمانية على الساحة الأوروبية وكذلك رغبة العثمانيين فى تكوين إمبراطورية مترامية الأطراف يكون جناحها الشرقى هو المشرق العربى لا تستند إلى دليل تاريخى، وأن هذه النظرة للتاريخ العثماني قد خضعت لأدلة من فترة ضعفه لاينبغي أن تكون دليلا لطمس الحقائق التاريخية لطبيعة هذا الدور برمته .

فقد اندفع الأسبان والبرتغاليون بروح دينية صليبية متعصبة ضد الشرق الإسلامى حيث أغرتهم انتصاراتهم الدينية على المسلمين فى الأندلس ونجاحهم فى طرد المسلمين منه، ولقى اتجاههم هذا تأييدا من البابوية فى روما بنفس القدر الذى أثارت به حماسهم طوال حربهم فى الأندلس (٩)، ونجحت القوات الأسبانية والبرتغالية فى احتلال العديد من المراكز والموانىء الساحلية فى الشمال الأفريقى مثل سبتة ومليلة وطنجة وأصيلا ووهران وغيرها. ووضعت خططها للإجهازعلى بقية هذا الساحل ثم الوثوب منه إلى مصر والجزيرة العربية، وارتفعت الشعارات الحماسية الداعية إلى إعادة المسلمين إلى صحراء العرب التى انطلقوا منها، بل وذهبت هذه الشعارات إلى حد المناداة بنبش قبر النبى صلى الله عليه وسلم فى المدينة وهدم الكعبة وإنهاء الوجود الإسلامى من

أساسه (١٠)، ولكن هذه المخططات قد واجهت صعوبات شديدة بسبب حركة الجهاد الإسلامى المتمثلة فى دور الأخوين عروج وخيرالدين بربروسا فى البحر المتوسط، وقد لقيت هذه الحركة دعما قويا من الدولة العثمانية مما أسهم فى استمرار صمودها وتقويتها واستعادتها لعدة مراكز من القوات الأسبانية والبرتغالية .

وأدى هذا ـ مع عوامل أخرى ـ إلى تحويل مسار الدور الأسبانى إلى الغرب بدوافعه الاقتصادية والدينية عبر المحيط الأطلسى، ودفع الدور البرتغالى إلى الالتفاف حول إفريقيا للوصول إلى الشرق الإسلامى، وقد تأكدت حقيقة الدورالبرتغالى من خلال عديد من المسلمين واليهود الفارين من الأندلس حيث قدموا للسلطان العثمانى الخطط التى وضعها البرتغاليون لتنفيذ مخططاتهم العدائية ضد المقدسات الإسلامية مدعمة بالخرائط، وتضمنت هذه المخططات مايشير إلى تقارب صفوى برتغالى يوضح أطماع الصفويين فى المشرق العربى واتجاههم المعادى للدولة العثمانية (١١) .

ومما زاد من تأكد العثمانيين من صدق هذه المخططات مسيرة الأحداث نفسها، ففى الوقت الذى تدخلت فيه القوات الصفوية واحتلت العراق سنة ٩١٤ هـ ١٥٠٨ م ثم ازداد نفوذهم فى الشام والحجاز، كان البرتغاليون قد بدأوا بالفعل فى تنفيذ مخططاتهم فاصطدموا بالمماليك وهزموهم فى معركة ديو البحرية سنة ٩١٥هـ ١٥٠٩م (١٢)، وبعد عدة أشهر من هذه المعركة تمكن شريف مكة الشريف بركات من القبض على ثلاثة من الجواسيس البرتغاليين داخل مكة سنة ٩١٦هـ ١٥١٠م، وتعرف الشريف منهم على ما يؤكد عزم بلادهم على الاعتداء على هذه المناطق، فأرسلهم إلى السلطان المملوكي في مصر قنصوه الغورى كي يقف بنفسه على حقيقة الأمر (١٣) .

وفى هذه الفترة كان البرتغاليون قد وصلوا إلى مداخل البحر الأحمر، وحاولوا الاستيلاء على عدن ولكنهم لم ينجحوا فى ذلك فاستولوا على جزيرة سوقطرة سنة ٩١٢هـ ١٥٠٦م، واستعملوا العنف والحرق ضد السفن والمدن الإسلامية، و لم تنجح القوى المملوكية فى مواجهة هذا الخطر(١٤) . وحاول البرتغاليون احتلال ميناء جدة والوصول إلى المدن المقدسة فجهزوا حملة برية لذلك لكن عاصفة شديدة قد منعت هذه الحملة من الوصول إلى المنطقة (١٥) .

وفى جهة الشمال الإفريقي تمكن الأسبان من احتلال برقه وتكوين العديد من الدويلات الصغيرة سنة ٩١٦هـ-١٥١٠م (١٦)، وتوالت انتصاراتهم برغم حركة الجهاد الإسلامى، وازداد دور فرسان القديس يوحنا فى البحر المتوسط، وقد أدت هذه الأمور إلى استنجاد الكثيرين من شعوب هذه المنطقة بسلطان الدولة العثمانية باعتبارها أقوى الدول الإسلامية لدرجة دعت قاضى بجاية وغيره من الفقهاء أن يكتبوا إلى السلطان العثمانى قائلين " إن بلادنا لك أو للذئب " (١٧) .

ولم يكن أمام السلطان العثمانى كممثل لدولة اعتبرت نفسها دولة إسلامية لا تقل عن الدولة الإسلامية الأولى (١٨)، وأقامت كيانها السياسى الأول وكذلك كافة مراحل تطوره باسم الإسلام وتحت رايته إلا أن يوقف جهوده ـ مؤقتا ـ فى التوسع على الساحة الأوروبية ويسرع إلى الشرق لـيترقب تطورات الموقف والإعداد لمواجهته وبما يحقق المصلحة السياسية لبلاده.

ومع أن هذه العوامل التى تعرض لها المشرق العربى الإسلامى كانت دافعا ـ أو مبررا ـ قويا ومقنعا للتدخل العثمانى وبخاصة بعد هزيمة المماليك سنة ٩١٥هـ-١٥٠٩م، إلا أن العثمانيين لم يخططوا لذلك أو يسعوا له، فقد بادر السلطان العثمانى بمساندة الأسطول المملوكى بأسطول شاركهم فى التصدى لهجوم من فرسان القديس يوحنا تسانده قوات برتغالية بالقرب من الإسكندرية سنة ٩١٦ هـ - ١٥١٠م (١٩)،كما قام العثمانيون بإرسال معونة عسكرية من المدافع والبارود والمؤن البحرية إلى المماليك سنة ٩١٧هـ-١٥١١م، وأرسلوا كذلك العديد من بناة السفن والبحارة للمساعدة فى إعادة بناء الأسطول المملوكى الذى تحطم فى ديو البحرية، وكان الهدف الرئيسى من ذلك هو تعضيد موقفهم للتصدى للمخططات البرتغالية (٢٠) .

ولم يقف الأمر بالسلطان العثمانى عند هذا الحد، إدراكا منه لخطورة الموقف، بل إنه قبل عرضا مملوكيا بعقد حلف رسمى بينهما سنة ٩١٩هـ-١٥١٣م يقضى بالتنسيق بينهما لمواجهة الخطرين البرتغالى والصفوى (٢١) .

ولا شك أن ذلك التحالف قد أسهم فى اطمئنان العثمانيين تجاه المماليك، وجعلهم يوجهون جهودهم للجبهة الإيرانية التى كانت قد ازدادت خطورتها، فقد فتح الشاه " إسماعيل الصفوى " بلاده لعديد من الثائرين والمتمردين على السلطان العثمانى، وأمدهم بالعتاد والسلاح لمحاربة القوات العثمانية من جهة

وليكونوا فى مقدمة جيشه حين حدوث صدام كان متوقعا بينـــه وبيـــن القـــوات العثمانية من ناحية أخرى . ومن الأمور التى دعت الشاه " إسماعيل الصفـــوى " لأن يوجه سياسته إلى العثمانيين فى الشمال دون الاهتمام بالمنـــاطق الجنوبيـــة والغربية فى الخليج العربى، وهو اتجاه اتسمت به سياسته منذ بداية عـــهده، أن البرتغاليين قد أبدوا توددا كاملا له بشكل طمأنه على ســـلامة أراضيـــه، وكـــان البرتغاليون يهدفون من وراء توددهم للصفويين أن تتاح لـــهم فرصـــة تحقيـــق أهدافهم فى إيجاد مراكز لهم فى الخليج العربى، وكانوا يدركـــون أنـــهم إذا لـــم يكسبوا ود الصفويين فإن تعاون قوتهم مع القوى المحلية فى الخليج العربى قـــد يؤدى إلى فشلهم فى تحقيق أهدافهم ولا سيما أن مشروعاتهم فى إيجـــاد مراكـــز نفوذ فى البحر الأحمر قد منيت بالفشل إلى حد كبير.

وتبدو سياسة البرتغال الرامية إلى التحالف مع الصفوييـــن فـــى رســـالة أرسلها البوكيرك إلى الشاه إسماعيل الصفوى جاء فيها " إنى أقدر لك احـــترامك للمسيحيين فى بلادك، وأعرض الأسطول والجند والأسلحة لاستخدامها ضد قـــلاع الترك فى الهند، وإذا أردت أن تنقض على بلاد العرب أو تهاجم مكة فســـتجدنى بجانبك فى البحر الأحمر أمام جدة أو فى عدن أو فـــى البحريـــن أوالقطيـــف أو البصرة وسيجدنى الشاه بجانبه على امتداد الساحل الفارسى وسأنفذ له كـــل مـــا يريد"(٢٢)، وقد تضمن مشروع التحالف البرتغالى الصفـــوى تقســـيم المشـــرق العربى إلى مناطق نفوذ حيث اقترح أن يحتل الصفويـــون مصـــر والبرتغـــاليون فلسطين (٢٣) .

ومن جهة أخرى كان الصفويون قد حاولوا عن طريق بعـــض العنـــاصر الشيعية الموالية لهم والمنتشرة فى الأناضول القيام بثورة داخليـــة ضـــد الحكـــم العثمانى السنى، وبالفعل تمكنوا من إشعال ثورة بزعامة " شاه قولى " فى نهايـــة عهد "بايزيد الثانى" أخمدها ابنه "سليم الأول" فى بداية توليه الحكم، وقد أدى ذلـــك إلى اتخاذ "سليم" سياسة تتسم بالحذر تجاه العناصر الشيعية الموجودة فى بـــلاده، وسعى لمحاصرة نشاطهم واضطهاد بعضهم اضطهادا وصل إلى حد القتـــل . ورد الصفويون على ذلك بإقامة مذابح جماعية للعناصر السنية الموجودة فى بلادهـــم، ثم التحرش بالقوات العثمانية على الحدود، وأدى ذلك إلى التقاء قوات الدولتيـــن فى سهل جالديران سنة ٩٢١هـ ١٥١٤م وانتهت المعركـــة بانتصـــار القـــوات العثمانية انتصارا ساحقا احتلت على أثره العاصمة الصفوية لبعض الوقـــت (٢٤)،

وقد دعت هذه الأحداث فى مجملها لأن يحمل المؤرخ " أرنولد توينـــى" الجـانب الصفوى مسئولية الصدام بين هاتين القوتين الإسلاميتين (٢٥) .

وأسهمت هذه الهزيمة فى قبول الشاه "إسماعيل الصفوى" لعقــد اتفاقيــة هرمز مع البرتغاليين أقر فيها الجانب الصفوى باستيلاء البرتغاليين على هرمـــز فى مقابل مساعدته على غزو البحرين والقطيف إلى جانب تعهدهم بمساندته ضـد القوات العثمانية (٢٦)، وأن يتنازل للبرتغاليين عن ميناء " جوادر" على ســاحل بلوشتان مقابل فتح " جوار" للتجار الإيرانيين (٢٧) .

وإذا كنا نتفق مع الدكتور "محمد أنيس" فى رفضه الأخذ بنظرية " أرنولــد توينى" القائلة بأن إدراك الصفويين والعثمانيين لعدم قــدرة أى منــهما لإحـداث هزيمة كاملة بالآخر تؤدى إلى سيطرة أحدهما على أراضـــى الآخـر وإخضاعــه لسيادته، وأن ذلك الإدراك قد أسهم فى انتقال الصـــراع بينــهما إلــى المنــاطق المجاورة فى المشرق العربى وسعى كل منهما للسيطرة عليها وهو أمر أدى إلـــى مهاجمة العثمانيين للشام ومصر والحجاز، حيث كان بإمكان القـــوات العثمانيــة هزيمة القوات الصفوية هزيمة كاملة وإخضاع الأراضى الإيرانية لسيطرتها بعــد معركة جالديران، إلا أننا نختلف مع "الدكتور أنيس" فى تفسير أســباب التدخــل العثمانى فى التوسع على حساب هذه الأراضى التى كانت خاضعة للمماليك حيــث فسر ذلك برغبة العثمانيين فى التوسع على حساب هذه الأراضى من ناحية وإلـــى التسابق العثمانى البرتغالى على الإستيلاء على مفاتيح البحار العربية وهى البحــر الأحمر والخليج العربى من ناحية أخرى .

وبقدر ما كان موقف العثمانيين تجاه الصفويين موقفا دفاعيا ـ فى الغالب ـ وليس موقفا هجوميا كما اتضح من مسيرة الأحداث، فإن موقف العثمـــانيين تجاه المماليك كان كذلك، فقد سبق أن أوضحنا قيام العثمانيين بمساندة الممــاليك وإمدادهم بالعتاد والسلاح لتقوية موقفهم أمام البرتغاليين، ومساندتهم للأســطول المملوكى فى البحر الأحمر والعمل على إعادة بنائه، وكذلك الوقوف إلى جانبــهم فى البحر المتوسط أمام فرسان القديس يوحنا، ثم قبول التحالف معهم لمواجهـــة الخطر البرتغالى المتزايد، ولا شك أن هذه المواقف من قبــل العثمـــانيين تجـاه المماليك تدعو لعدم قبول الرأى القائل برغبة العثمانيين فى التوسع على حســاب المماليك، فليس من المعقول أن يمد العثمانيون المماليك بمعونات ضخمة وبخاصة المعونات العسكرية وهم يبيتون النية أو يخططون للتوسع فى أراضيهم .

وتؤكد العلاقات العثمانية المملوكية هذه الحقيقة، فعلى الرغم من حـــدوث بعض المعارك بين الجانبين على الحدود الشمالية للمماليك فى بلاد الشام إلا أنـــها لم تحتدم إلى حد التهديد بحدوث حرب شاملة بينهما، وإن كانت قد أسهمت فى أن يخيم شعور بعدم الثقة بينهما الأمر الذى أدى إلى تعثر مفاوضات الصلـــح ســنة ٨٩٧هـ-١٤٩١م . ومع أن السلطان المملوكى " قايتباى" قد ساورته مخاوف مــن احتمال قيام حرب واسعة بينه وبين العثمانيين سواء لإدراكـــه مـــا كـــان عليـــه العثمانيون من قوة أو لانشغال جزء هام من قواته فى مواجهة البرتغاليين، إلا أن السلطان العثمانى " بايزيد الثانى " قد بدّد له هذه المخاوف حيـــث قـــام بإرســـال رسول من قبله إلى السلطان المملوكى سنة ٨٩٧هـ-١٤٩١م ومعه مفاتيح القلاع التى استولى عليها العثمانيون على الحدود .

وقد لقى هذا الأمر ترحيباً لدى السلطان المملوكى فقام بـــإطلاق ســـراح الأسرى العثمانيين . وأسهمت هذه الأمور فى عقد صلح بينهما فى نفس الســـنة ٨٩٧هـ-١٥١٢ م، وأكدت هذه الأحداث عدم وجود نية للتوسع لـــدى العثمـــانيين على حساب الأراضى المملوكية (٢٨) .

على أن الخلاف بين العثمانيين والمماليك على عهد سليم الأول وقنصـــوه الغورى يتحمل المماليك جانباً كبيراً منه، فقد بدأ ذلك بسبب اســـتيلاء العثمـــانيين على إحدى الإمارات الموجودة على الحدود المملوكية فـــى بـــلاد الشـــام ســـنة ٩٢١هـ- ١٥١٥م، وكانت هذه الإمارة برغم استقلالها، ووجود صلة قرابة بيـــن حاكمها وبين السلطان العثمانى، تحت السيادة الإسمية للمماليك . ويرجع الســـبب الرئيسى فى استيلاء العثمانيين على هذه الإمارة (ذي قار) وقتل حاكمـــها إلـــى موقفه المعادى للقوات العثمانية أثناء مرورها لملاقاة القـــوات الصفويـــة حيـــث رفض تزويدها بالإمدادت وتقديم أى مساعدة لها، ومنع أتباعه أن يبيعـــوا لـــهذه القوات المأكل أو يمدوها بالمياه وغير ذلك (٢٩) .

وعلى الرغم من قيام السلطان العثمانى بإبلاغ السلطان المملوكى بما تـــم تجاه هذه الإمارة وموضحاً له الأسباب التى دعته للإستيلاء عليها مبدياً حرصـــه على ألا يؤدى ذلك إلى إثارة الخلاف بينهما، إلا أن القوة التى ظهرت بها القـــوات العثمانية أمام الصفويين وهزيمتها لهم قد أثارت مخاوف السلطان المملوكى وهـــو ما عبّر عنه ابن إياس بقوله "وقد ملك ابن عثمان غالب بلاد الصوفى من ممـــالك الشرق فلم يرسم السلطان بدق الكوسات لهذا الخبر وكذلك الأمراء أخذوا حذرهـــم

من ابن عثمان وخشوا من سطوته وشدة بأسه لما يحدث منه بعد ذلك إلى جهة بلاد السلطان المملوكى".

وبدأ السلطان الغورى فى اتباع سياسة تتسم بالعداء تجاه العثمانيين، وحدد ابن إياس هذه السياسة بمحاولة المماليك إثارة بعض القادة على العثمانيين فى إمارة الحدود التى سيطروا عليها، كما آوى الغورى أحد أبناء الأمير العثمانى الذى قتله السلطان سليم وهو " قاسم العثمانى" واتخذه أداة لتهديد العثمانيين، وفوق ذلك قام بالاتصال بالشاه " إسماعيل الصفوى " وأكد له وقوف القوات المملوكية إلى جانبه فى أى جولة قادمة للقتال بينه وبين العثمانيين (٣٠) .

وعلى أثر تحرك القوات العثمانية تجاه الأراضى الفارسية سنة ٩٢٢هـ ١٥١٦ م تحرك الغورى على رأس قوات مملوكية حتى وصل بها إلى الحدود العثمانية وهدد القوات العثمانية المرابطة على الحدود، فأرسل السلطان سليم العثمانى رسلا يعرضون الصلح على السلطان الغورى وسلموه رسالة من السلطان سليم تحتوى على عبارات التودد والاحترام ، فقبل الغورى الصلح وقرر إرسال سفراء لهذا الغرض للسلطان العثمانى (٣١) .

ومع أن أعمال السلطان المملوكى وبخاصة تحالفه مع الصفويين قد أثارت السلطان العثمانى وجعلته يرتاب فى موقف المماليك وأن الصلح بينهما بالتالى، وكما توحى مسيرة الأحداث، كان لمجرد كسب الوقت حتى ينتهى من أعماله أمام الصفويين، وحتى لا يصطدم بالقوتين الصفوية والمملوكية فى وقت واحد إلا أن الرغبة فى التوسع على حساب الأراضى المملوكية لم تدر بخلد السلطان سليم، ففى أعقاب الصدام الذى حدث بينه وبين المماليك فى موقعة مرج دابق سنة ٩٢٢هـ ١٥١٦م أدرك سليم أنه قد نجح باستيلائه على الشام فى القضاء على التحالف الصفوى المملوكى (٣٢)، وأبدى رغبته فى عدم استمرار القتال مكتفيا بسيطرته على الشام كى تصبح حائلا بينه وبين هجوم مملوكى جديد أو بين عودة التحالف الصفوى المملوكى الذى يعد من أهم أسباب صدامه مع المماليك كما ذكر ابن أبى السرور البكرى (٣٣) .

لكن السلطان العثمانى على الرغم من ذلك أراد أن يضمن ولاء المماليك فى مصر له، وألا يعودوا لمحالفة الصفويين، فكتب إلى طومانباى، السلطان المملوكى الذى تولى بعد موت الغورى، يطلب منه أن يجعل الخطبة والسكة باسمه، وقيل إنه طلب منه أن يمثل أمامه لتأكيد ذلك وفى نفس الوقت طمأنه على

سلامته ودولته، ولكن السلطان المملوكي رفض ذلك وبدأ في الاستعداد لجولة جديدة مع العثمانيين دون أن يرد على رسائل سليم المتكررة مما جعل سليم يستعد لإرسال قواته إليه حتى يفرغ للقوات الصفوية ولمقاومة الأطماع البرتغالية(٣٤) .

وعند وصول القوات العثمانية إلى مصر، وقبل وقوع الحرب بينها وبين القوات المملوكية أرسل السلطان المملوكي طومانباي يعرض الصلح على السلطان العثماني مشترطا عليه أن يسحب جيشه ويخرج من مصر مقابل أن تكون الخطبة والسكة باسمه، وقبل السلطان سليم هذا العرض وأرسل رسالة من كبار علماء الدين للتفاوض مع طومانباي،لكن بعض معارضي طومانباي من المماليك هاجموا سفراء السلطان العثماني وطاردوهم فأدرك سليم أنه موقف من طومانباي، وأن هذا العرض خدعة حتى يأخذ فرصة للاستعداد وأقدم على الحرب (٣٥) .

ويذكر المؤرخ " أحمد بن زنبل الرمال " قول السلطان سليم الأول لطومانباي بعد هزيمة الأخير في معركة الريدانية وقبل أن يعدم " والله ما كان قصدي أذيتك، ونويت الرجوع من حلب، ولو أطعتني من الأول وجعلت السكة والخطبة باسمي ما جئت لك ولا دست أرضك " (٣٦).

ويتضح من خلال استعراض الصراع الصفوي العثماني وكذلك الصراع المملوكي العثماني أن الصفويين والمماليك، كلا على حدة، هم الذين بدأوا بالتحرش بالقوات العثمانية، وأن الدولة العثمانية كانت مضطرة للدخول في حروب مع كل منهما، وبالتالي فإن نية التوسع في الشرق لم تكن هدفا سياسيا لدى أي من السلاطين العثمانيين قبل وقوع هذه الأحداث أو أثناءها . وإذا كانت التهديدات الصفوية المتكررة من بين الأسباب التي دعتهم للعودة إلى الساحة الشرقية فإن خطر فرسان القديس يوحنا في البحر المتوسط كان على رأس الأسباب التي دعت السلطان العثماني لأن يوقف فتوحاته العسكرية على الساحة الأوربية ويعود إلى الشرق، فتحالف مع القوات المملوكية لهذا الغرض فيالبداية، ثم تحمل العبء الكامل في مقاومة هذه الأخطار بعد سقوط الحكم المملوكي (٣٧)، ونستدل على ذلك بما قاله السلطان سليم الأول العثماني لطومانباي آخر سلاطين المماليك بعد أن هزمه في معركة الريدانية " أنا ما جئت عليكم إلا بفتوى علماء الأعصار والأمصار، وكنت متوجها إلى جهاد الرافضة " ويعني بهم الصفويين " والفجار، ويعني بهم البرتغاليين وفرسان القديس يوحنا " فلما بغى أميركم الغوري وجاء بالعساكر إلى حلب واتفق مع الرافضة واختار أن يمشي إلى مملكتي التي هي

ورث آبائى وأجدادى، فلما تحققت تركت الرافضة ومشيت إليه "، والذى يدعونـــا للأخذ والاستدلال بقول السلطان العثمانى هو أنه كان قد انتصر ولم يكن فى حاجة إلى أن يظهر خلاف ما يبطن أو غير ذلك (٣٨) .

وقد ظل طابع الجهاد هو الطابع الذى يميز الدور العثمانى تجاه البرتغـــاليين فحينما استغـــاث بعض المسلمين فى الهند بالســلطان العثمـــانى سنة ٩٤٣هـــ ١٥٣٧م، استجاب السلطان لهم فأرسل إلى واليه فى مصر " سليمان باشا الخادم " يقول " عليك يا بك البكوات بمصر سليمان باشا أن تقوم فور تسلمك أوامرنا هـذه بتجهيز حقيبتك وحاجتك وإعداد أسطول وتزويده بالعتاد والميرة والذخيرة وجمـع جيش كاف فعليك أن تخرج إلى الهند وتستولى وتحافظ على تلك الأجزاء فـإنك إذا قطعت الطريق وأزلت السبيل المؤدية إلى مكة والمدينة تجنبت ســـوء مـــا فعـل البرتغاليون وأزلت رايتهم من البحر" (٣٩) .

أما الرأى القائل بأن الفتح العثمانى على الساحة الأوروبيـــة قــد توقــف ووصل إلى أقصى مدى يمكن أن يصله، وأن القوات العثمانية على هذه الجبهة قد أصبحت فى وضع الدفاع لا فى وضع الهجوم ولهذا اتجهت إلى الساحة الشـرقية فهو رأى لا يستند إلى دليل تاريخى، فتثبت الأحداث التى دارت على هذه الســـاحة فى عهد السلطان سليمان القانونى عدم صواب هذا الرأى حيث اســتطاعت هــذه القوات الاستيلاء على عدة أراضى حتى استولت على بلجــــراد ســنة ٩٢٨هـــ ١٥٢١ م، وحينما عاودت المجر إعلان التمرد على العثمــــانيين قـامت القــوات العثمانية والتقت مع القوات الأوروبية المتحالفة فيها وسحقتها فى معركة موهاكز سنة ٩٣٣هـ ١٥٢٦م، وأصبح الطريق فى وسط أوروبا وحتى فيينا مفتوحا أمام القوات العثمانية، كما استولت القوات العثمانية على العاصمة المجريـــة " بــودا " وضاحيتها " بست ". وأعد السلطان " سليمان القانونى " حملة عسكرية للســيطرة على فيينا سنة ٩٣٦هـ ١٥٢٩م، وكادت أن تستولى عليها لولا عوامل مناخيــة حيث حل فصل الشتاء واشتد البرد على القوات العثمانيـــة ممـــا اضطرهـــا لفـك حصارها للمدينة .

وفى جبهة البحر المتوسط تمكنت القوات العثمانية من الإســـتيلاء علـــى جزيرة رودس التى كانت معقلا لفرسان القديس يوحنا، وعلى بعض مناطق فـــى إيطاليا، كما منحت فرنسا ـــ التى تحالفت مع الدولة العثمانية لفترة محـــدودة ـــ جزيرة طولون للقوات العثمانية لاتخاذها قاعدة بحرية .

وهكذا يتضح أن الدافع الرئيسى لعودة العثمانيين إلى الشرق كان دافعــا دينيا قبل أن يكون دافعا سياسيا أو توسعيا، وكان أساسه الرغبة فى حماية العـالم الإسلامى من هجوم صليبى استعمارى فى المقام الأول، وحماية الجناح السنى فى المشرق الإسلامى من هجوم شيعى فى المقام الثـــانى، وبالتـــالى فـــإن الوجـــود العثمانى فى المشرق العربى الإسلامى يعد فتحا باسم الدين وليس غزوا واحتـــلالا كما ذهب كثير من المؤرخين (٣٩)، وكما ورد فى الميثاق الوطنى الذى أصدرتــه الحكومة المصرية سنة ١٣٨٢ هـ ــ ١٩٦٢م والذى ذكرت فيه " أنه احتلال باسم الدين وأن الدين منه براء " .

العثمانيون وتهمة فرض العزلة على المشرق العربي الإسلامي

اعتبر كثيرمن المؤرخين الأوروبيين والعرب أن السبب الرئيسى فـــى تخلـــف المشرق العربى يرجع فى المقام الأول إلى العزلة التى فرضها العثمانيون عليه ما يقرب من ثلاثة قرون، وأعتبروا هذه العزلة فى مقدمة السوءات التى يتسم بــــها نظام الحكم العثمانى للوطن العربى .

وبقدر ما يعبر ذلك من قبل المؤرخين الأوروبيين عن غـــرور أوروبـــى يتمثل فى جعل الحضارة الأوروبية محورا أساسيا لتاريخ تقدم أو تخلف الشـعوب، بل وحتى يبدو فى تحديد مواقع الشعوب الأخرى من أوروبا كالشـــرق الأوسـط والأدنى والأقصى وغير ذلك، فإن موقف المؤرخين العرب يعبر فى أغلبـــه عـــن نزعة استسلام وانهزامية نتجت عن انبهارهم بمعطيات هذه الحضارة ومظاهرهــا وإحساسهم بالعجز تجاهها كان من أول آثاره التزامهم بالتبعية الفكرية وانسياقهم وراء تحليلات المؤرخين الأوروبيين للتطور التاريخى .

وحتى تلك المحـــاولة التى قدمـــها الدكتور " عبد العزيز الشناوى " فى كتابه " الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها " والتى حاول خلالها ــ من منظـور إسلامى ــ أن يبرهن على أن العثمانيين لم يفرضوا تلك العزلة علــــى المشـــرق الإسلامى من خلال إثباته لمجموعة معاهدات واتفاقيات تجارية عقدها العثمـــانيون بين كل من جنوة والبندقية وفرنسا ثم إنجلترا وبين ولايـــات المشـــرق العربـــى الإسلامى، وأن الولايات العربية هى التى تقاعست عن العمل بـــهذه المعـــاهدات، فإنه مع ذلك قد برهن على جعل العزلة عن الحضـــارة الأوروبيـــة هـــى الســـبب الرئيسى فيما حاق بالمشرق العربى الإسلامي من تخلف وجمود، كما ســـار فـــى

نفس الإتجاه الدكتور " محمود غرايبة " حين حاول أن يلقى بتبعة التخلف والجمود على العرب أنفسهم وأنهم أرادوا أن يلقوا تبعة كسلهم وسلبيتهم على العثمانيين فابتعدوا عن مجرى الأحداث السياسية والعسكرية وفقدوا اهتمامهم بها ولم يشاركوا فى أحداثها (٤٠)، حيث أكد بهذا التفسير كذلك أن عدم الاحتكاك بحضارة الغرب سواء أكان بسبب العثمانيين أم بسبب العرب يعد عاملا أساسيا فى تخلف وجمود المشرق العربى .

وقبل أن ندلل على أن العثمانيين لم يفرضوا العزلة على المشرق الإسلامي فإننا نوضح بداية أن ذلك ليس تسليما بأن الابتعاد عن الحضارة الأوروبية مهما كانت أسبابه يعد العامل الرئيسي في التخلف والجمود بل إن ذلك يرجع في المقام الأول إلى وجود اتجاه إسلامي عام كان وما زال يرفض الانفتاح الكامل على الحضارة الغربية لما يحسه المسلم والشرقي في الغالب فى نظرة الغرب المتعالية والمشوبة بالحقد والكره له، وقد أسهمت عديد من العوامل فى تكوين هذا الإحساس لعل من أهمها ذلك الرصيد التاريخى الذى خلفته الحروب الصليبية التى أشعلت جذوة الصراع الدينى بين الشرق والغرب والتى استمرت تأخذ أشكالا عدة عبر مراحل التاريخ الحديث (٤٥) . وتبع ذلك اتجاه المفكرين الغربيين إلى التقليل من شأن الحضارة الإسلامية وإنكار استفادتهم منها بل وإرجاع الجوانب المضيئة فيها إلى حضارات أوروبية قديمة كاليونانية والرومانية .

العثمانيون لم يفرضوا العزلة على المشرق العربى الإسلامي

سعت الدولة العثمانية منذ بداية فتحها للمشرق العربى الإسلامي إلى ربطه بالعالم الخارجى وبأوروبا على وجه الخصوص، فقد عقد السلطان سليم الأول معاهدة مع جمهورية البندقية سنة ٩٢٣هـ ١٥١٧م، بقصد إحداث تبادل تجارى بينها وبين مماليك مصر ولكونهم قد أضيروا معا بسبب تحول طريق التجارة إلى رأس الرجاء الصالح (٤٦). وفى سنة ٩٤٢هـ-١٥٣٥م، عقد السلطان سليمان القانونى معاهدة مع فرنسا حصلت فرنسا بمقتضاها على امتيازات اقتصادية متعددة داخل الولايات العثمانية وهى الامتيازات التى طالبت دول أوروبية أخرى أن تحصل على مثلها وفى مقدمتها إنجلترا، واستجابت الدولة العثمانية لهذه المطالب وعقدت معاهدة مماثلة مع الإنجليز (٤٧).

وإذا كانت الدولة العثمانية قد نجحت فى فرض حظر كامل على السفن الأوروبية من دخول البحر الأحمر بسبب نزعتها الدينية المعادية للمسلمين والمقدسات الإسلامية، وأن تلك السياسة قد أدت إلى حدوث ركود اقتصادى لموانىء البحر الأحمر، إلا أنها بعد أن استقرت أوضاعها فى المشرق العربى الإسلامي فى أواخر القرن العاشر والحادى عشر الهجريين السادس عشر وأوائل السابع عشر الميلادى قد فتحت الباب لتنافس شركات تجارية غربية كشركة الهند الشرقية البريطانية والشركة الهولندية لإقامة الوكالات التجارية فى أحد موانىء البحر الأحمر وهو ميناء المخا حيث تنزل البضائع والتوابل والأقمشة الهندية (٤٨) .

وإلى جانب ذلك فقد عادت الحيوية إلى عديد من الطرق التجارية القديمة بين بلدان المشرق العربى الإسلامي، فضلا عن تدعيم الدولة العثمانية لحركة التبادل التجارى بين الموانىء الإفريقية سواكن ومصوع وبلاد الحبشة وبين ميناء جدة وبقية المدن الحجازية المقدسة (٤٩) .

إيجابيات عزلة المشرق العربى عن الغرب الأوروبى

على الرغم من حرص الدولة العثمانية على دوام تدعيم العلاقات الاقتصادية بين الشرق الإسلامى وبين أوروبا إلا أن سياستها تجاه تحركات الدول الغربية العسكرية صوب الشرق والتي ظهرت بطابع ديني عدائي قد اتسمت بالحذر والحيطة الكاملة، واستطاعت هذه السياسة أن توفر عوامل الأمن والأمان للشرق العربى الإسلامي، ومع أن سياسة الحذر هذه كان لها تأثيرها غير المباشر على عدم السماح بالتبادل الثقافى بين الشرق والغرب إلا أن المسلمين في الولايات العربية أنفسهم لم يبد لديهم قبول للأخذ عن الثقافة الغربية لاستقرار حياتهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، إلي جانب تأثرهم بالرصيد التاريخي للغرب والذي يحمل طابع العداء في عديد من المراحل .

ولم يكن باستطاعة الدولة العثمانية أن تسعى لإحداث تغييرات فى النظم الاجتماعية والاقتصادية والفكرية، ويرجع ذلك فى المقام الأول إلى الدور الدفاعى الذى كانت تتولاه ضد القوى الأوروبية وعلى جميع الجبهات سواء على الساحة الأوروبية أم فى الهجمات الأوروبية على البحار والموانىء الإسلامية فى البحرين الأحمر والأبيض المتوسط وفى منطقة الخليج العربى، كما تعرضت هذه الدولة

لحروب من قبل الروس فى الشمال . وقد استوجب هذا الدور إنفاق الدولة لأموال طائلة فى الحروب المتوالية لم تمهلها للقيام بالعديد من جوانب الإصلاح فى الداخل . كما أن الدول الأوروبية قد استغلت انشغال الدولة بهذه الحروب أو ضعفها بسببها وشجعت أصحاب الأطماع الشخصية من حكام الولايات العثمانية على إعلان التمرد والعصيان الأمر الذى أدى إلى مزيد من إضعافها بدلا من مساعدة هذه الولايات لها فى مسئولية الدفاع المتواصلة ضد الأطماع الروسية والغربية .

ويأتى فى المقام الثانى ضعف الرصيد الحضارى العثمانى بسبب هذه العوامل وبالتالى بدا نظام الحكم العثمانى عاجزا وخاليا من الخطط الإصلاحية لإحداث تغييرات فى نظام الدولة أو فى أحوالها الداخلية .

وإذا كان لنا أن نسلم بمسئولية الدولة العثمانية فى تدعيم النظام الإقطاعى فى كل ولاياتها فذلك يرجع إلى أنه كان النظام السائد الذى قام عليه نظامها منذ بداية تكوينها السياسى، لكن الضعف الذى ألم بالحركة التجارية والحرفية (الصناعية) فقد كان بفعل عوامل أخرى سابقة للوجود العثمانى فى المشرق العربى حيث كان الوصول إلي طريق رأس الرجاء الصالح وتحول طريق التجارة إليه منذ ٩٠٤هـ-١٤٩٨م، وما ترتب عليه من إهمال لطرق التجارة القديمة عبر الشرق العربى الإسلامي هو السبب الرئيسى فى ضعف النشاط التجارى والحرفى وبالتالى ضعف الطبقة الاجتماعية التى كانت تعتمد عليه اعتمادا رئيسيا .

ومن جانب آخر فإننا لو جارينا الذين يتباكون على الابتعاد عن أوروبا استعمارا وحضارة ويرجعون إلى ذلك كل أسباب ما أصابنا من تخلف وجمود ويلقون بالتبعة فى هذا على العثمانيين دون أن يذكروا لهم فضل الحماية من هذه الهجمة الصليبية الاستعمارية الشرسة وحفاظهم على استمرار مقومات الترابط والوحدة بين أقطار المشرق العربى بعد أن ظل إبان الحكم العثمانى وطنا واحدا دون حواجز، فإن لنا أن نعرض العديد من نماذج الشعوب التى تعاملت مع الأوروبيين ـ ولم يجدوا من يفرض عليهم عزلة ـ منذ مطلع العصور الحديثة وطوال الوجود العثمانى " المذموم " فى المشرق العربى .

وأول هذه النماذج القارة الإفريقية التى تعرضت ـ طوال أربعة قرون ـ لأسوأ صورة من صور الإستغلال والقهر من قبل الأوروبيين فى العصر الحديث فقد بدأت البرتغال بافتتاح صفحة الرق فى هذه القارة . وقد ربط الكتاب الغربيون

بين هذا الإتجاه وبين الدافع الدينى بصورة تبدو إنسانية، حيث بدأت هذه التجارة حين استطاع أحد الملاحين البرتغاليين أن يأسر عددا من المواطنين الإفريقيين ثم اصطحبهم معه لتعليمهم مبادئ الديانة المسيحية وحتى يعودوا لبلادهم ليسـهموا فى نشر الدين المسيحى بين ذويهم من الأفارقة . ولكـن سـرعان مـا تحولـت المسألة إلى شراء الأفارقة أو خطفهم ثم بيعهم للعمل فى البرتغال، ثم اتسعت هذه المسألة على كل الساحة الأوروبية، وأصبحت لشبونة فـى البدايـة مـن أكـبر العواصم الممتلئة بأسواق النخاسة إلى أن نافستها غيرها من العواصم الأوروبيـة (٥٠) .

وقبل أن تتوغل الدول الأوروبية داخل القارة الإفريقية وتركز وجودها فى مراكز ساحلية بلغ عدد ما وصل إلى الممتلكات البريطانية من الرقيق الأفارقة فـى ست سنوات فقط ١٠٨٩ ــ ١٠٩٥ هــ (١٦٨٠ــ ١٦٨٦م) مـا يقـرب مـن مليونين ونصف، مع العلم بأن هذا العدد هو عدد ماوصل حيا وهو أقل من نصف العدد الذى تم جمعه قبل الترحيل نظرا لأن الأفارقة كانوا يتعرضون لأسوأ أنـواع الرعاية حيث كانوا يجمعون فى (زرايب) وكان أغلبهم يموتون قبل وأثناء رحلات ترحيلهم فيلقى بمن يموت منهم فى البحار، وقدر البعض عدد ما وصل حيا مـن الرقيق الأفارقة إلى المستعمرات الأوروبية فى قرن واحد بـ ٤٠ مليونا فى حيـن يقدره البعض الآخر بما لا يقل عن مائة مليون (٥١) .

وحين أرادت بعض الشركات الأوروبية استثمار المنتجات الإفريقية داخـل القارة الإفريقية استولت على العديد من الأراضى وأقامت فوقها مستعمرات كاملـة للأوروبيين طردت منها الأفارقة أو حولتهم إلى رقيق، ونتج عن هذه السياسة مـا يسمى بالاستعمار الاستيطانى الموجود فى جنوبى إفريقيا الآن فضلا عـن اتبـاع سياسة التفرقة العنصرية التى ما زالت تعانى منها القارة الإفريقية حتى الآن .

أما فى القارة الآسيوية فقد سارع الاستعمار الأوروبـى بالقضـاء علـى الإمبراطورية الإسلامية فى الهند ثم تقسيمها إلى مراكـز نفـوذ بيـن البلـدان الأوروبية، كما استطاع الهولنديون الاستيلاء على جزر الهند الشرقية فى أغلبها، ولعل من أسوأ الصور البارزة للإستعمار الأوروبى فى آسيا التنافس الذى دار بين الدول الأوروبية منذ القرن الحادى عشر الهجرى السابع عشر الميـلادى علـى إخضاع الصين وتحويل عدد كبير من الصينيين إلى رقيق . كما قامت الشـركات البريطانية، مدعومة من حكومتها، بالترويج لتجـارة الأفيـون واسـتطاعت أن

تستولى بهذه السموم على أغلب موارد الشعب الصينى وإضعافه اقتصاديا إلى جانب تأثير هذه السموم، وتمكنت بريطانيا بهذا من السيطرة على الصين، ومعها الدول الاستعمارية، حتى الربع الأول من القرن العشرين حين نجح " تيان تسن " (ت ١٩٢٥م) " وشيان كاى شيك " من إحداث ثورة شاملة حررت الصين من الاستعمار الغربى وأسهمت فى انضمامه إلى المعسكر الشيوعى الشرقى (٥٢).

وفى القارة الأمريكية تمكن المستعمرون الإنجليز والفرنسيون من استيطانها بعد أن تمكنوا من القضاء على سكانها الأصليين من الهنود الحمر، وأصبح هؤلاء السكان من أصحاب البلاد أقلية ليس لها نصيب فى الإشتراك فى إدارة بلادهم أو حتى المشاركة فى تحديد مصير أنفسهم حتى تاريخنا المعاصر، وتمثل الدول الأمريكية المعاصرة نموذجا آخر من الاستعمار الاستيطانى(٥٣).

ولاشك أن هذه الأمثلة المحدودة تؤكد أن الاستعمار الغربى قد استخدم أساليب شرسة لا تتسم بالطابع الإنسانى فى علاقته مع الشعوب الأخرى، ولو قدر له أن يتمكن من استعمار الشرق العربى الإسلامي فى هذه الهجمة فإن نصيبه كان سيصبح على الأقل مماثلا لنصيب هذه الشعوب وإن كان سيزيد عليها بحكم الرصيد التاريخى من العداء الدينى الذى كان ملحوظا فى موقف الاستعمار فى كافة مراحل هذه الموجة الإستعمارية . وإذا كانت أوروبا المعاصرة قد بدت فى أعين الدارسين الشرقيين واحة من الأمان والرخاء والإنسانية والرقى العلمى فإن هذه المظاهر لم تبد جلية إلا فى أعقاب الحروب الدامية العالمية الأولى والثانية التى كانت تعبر عن صراع المطامع بين بلدانها على الإستمرار فى قهر الشعوب الأخرى، كما أن هذه المظاهر بكل ما يحيطها من تقدم وتمدين ترجع فى أساسها إلى دماء الشعوب الأخرى التى ما زالت تعانى من جراء سياسة الاستغلال والقهر هذه وإن كانت قد تلاشت بأسلوبها القديم فى الغالب فإنها مستمرة وبأساليب جديدة يأتى فى مقدمتها الاستعمار الاقتصادى والفكرى، وكذلك إغراق الشعوب المطحونة فى مشاكل متعددة حتى تبعد بينها وبين سياسة التنمية كى تظل فى إطار التبعية والاستغلال . وبالتالى يمكن القول بأن المظاهر الإنسانية المفرطة فى بعض الأحيان التى تظهر فى أوروبا المعاصرة هى رد فعل لسياسة طويلة من اللاإنسانية، كما أنها إنسانية مبتورة لاقتصارها على مساندة جنس دون آخر وخضوعها لمبدأ المصلحة أكثر من التزامها بمفهوم ثابت للقيم الأخلاقية .

إن كثيرا من الدول التى استطاعت أن تبنى نفسها من الداخل قـد اتبعـت سياسة العزلة عن السياسة الأوروبية وفى مقدمتها الولايات المتحدة الأمريكيـة علي الرغم من أنها وليدتها، والإتحاد السوفيتى والصين وغيرها، وقد لا يستطيع المشرق العربى أن يفرض عزلة جديدة على نفسه بحكم أنه بموقعه وخيراته على الأقل مازال مستهدفا من قبل الإستعمار الأوروبى بشكله الحديث . ولو أنه نجـح فى هذه السياسة ونجا من فرض المشكلات الأوروبية فإنه يستطيع فى غضـون مدة زمنية أن يشهد تنمية أوسع مما هو عليه الآن، لكن الاستعمار الغربـى لـن يتركه، ولعلنا نناجى العصر العثمانى مرة أخرى حيث أصبحت العزلة المذمومـة فى عهده مطلبا غاليا وبعيد المنال فى عصرنا الحالى، لكن النزعة الإنهزامية لدى مفكرينا تجاه الحضارة الغربية بشكلها المطلق، وسلسـلة الصراعـات المحليـة، ومحاولة كثير من الأنظمة السياسية العربية كسب ود الغـرب بتطبيـق قوالـب سياسية لا تتفق فى إطارها مع مصالح شعوب المنطقة ولا تناسب واقعها، وكذلك وجود استعمار استيطانى آخر هو إسرائيل، كل هذا يجعل من المسعى إلى عزلـة جديدة للتنمية والبناء أمرا صعب التحقيق .

الهـــوامـــش

(١) د . عبد العزيز الشناوى : أوربا فى مطلع العصور الحديثة، ص ٩ .

(٢) هربرت فيشر : أصول التـاريخ الأوربــى الحديـث . ت د . زينـب راشـد، ود . أحمـد عبد الرحيم مصطفى ص ٧٩ .

(٣) بانيكار : آسيا والسيطرة الغربية، ت : عبد العزيـز توفيـق جـاويد ، دار المعـارف ـ القاهرة، سنة ١٩٦٢ م، ص٢٧، ٢٨ .

(٤) غسان الرمال : صراع المسلمين مـع البرتغـاليين فـى البحـر الأحمـر، السـعودية، ١٤٠٦هـ ص٨٠ وما بعدها .

(٥) حاول البعض، بقصد أو بغير قصد،إطلاق مصطلح الفتح على بعض التوسعات الإستعمارية مما جعل المصطلح يفقد معناه الإسلامى، كأن يصف البعض دخول محمد على للسودان أو الشام أو الجزيرة العربية بالفتح، أو حتى استعمار الدول الأوربية لبعض مناطق فى آسـيا وإفريقيا .

(٦) د . محمد أنيس : الدولة العثمانية والمشرق العربى ص ١٠٢ .

(٧) د . رأفت الشيخ : تاريخ العرب الحديث ص ٣٧ ؛ د. ليلى عبد اللطيف : تاريخ مؤرخـى مصر والشام فى العصر العثمانى ص ١٠ .

(٨) د . عبد العزيز الشناوى : الدولة العثمانيـة، ج ٣ ص ٦٩٨ ؛ د. أحمـد عبـد الرحيـم مصطفى : فى أصول التاريخ العثمانى ص٨٢ .

(٩) د . صلاح العقاد : التيارات السياسية فى الخليج العربى ص ١٤. ؛ ٩ . د. شوقى الجمـل : تاريخ كشف أفريقيا واستعمارها ص ١٣٢ .

(١٠) د . عبد العزيز الشناوى : المرجع السابق ص ٦٩٨ . ؛ د . أحمد عبد الرحيم :المرجـع السابق ص ٨٧ . ؛ د. صلاح العقاد : المرجع السابق ص ١٥ .

(١١) د . أحمد عبد الرحيم مصطفى :المرجع السابق ص ٨٢، ٨٣ .

(١٢) د . أحمد عبد الرحيم : المرجع السابق ص ٧٩ ؛ د . بدر الدين الخصوصى : تـاريخ الخليج العربى ص١٤ .

(١٣) د .عبد العزيز الشناوى : المرجع السابق ص ٦٩٨ .

(١٤) قطب الدين النهروالى : أخبار مكة المشرفة ص ٢٨٤ . ؛ د . سعد زغلول عبد ربـه : البرتغاليون والبحر الأحمر ص ٢٠٩.

(١٥) د. سعد زغلول : المرجع السابق ص ٢١٢ . ؛ د . جمال زكريا قاسـم : الصراعـات المحلية والدولية فى البحر الأحمر ص ٢٣٣.

(١٦) أهدى الأسبان هذه المناطق لفرسان القديس يوحنا سنة ١٥٣٥ م وظلت بأيديهم حتى أستردها العثمانيون سنة ٩٥٧ هـ ١٥٥١م، د . رأفت الشيخ : المرجع السابق ص ٢٧.

(١٧) د . عبد الكريم غرايبة : المرجع السابق ص ٣٦ .

(١٨) د . عمر عبد العزيز عمر : تاريخ المشرق العربى ١٥١٧ ـ ١٩٢٢م. ص ٥١؛ د . أحمد فؤاد متولى : الفتح العثمانى ومصر، ص ٧٨ .

(١٩) د . محمد أنيس : المرجع السابق ص ١٠٩ .

(٢٠) ابن إياس (محمدبن أحمد) : بدائع الزهور، جـ٤ ص ١٩٦؛ د .أحمد عبد الرحيم مصطفى : المرجع السابق ٨٠، ٨٣ ؛ د . سعد زغلول عبد ربه : المرجع السابق ص ٢١٠ .

(٢١) د . أحمد عبد الرحيم مصطفى :المرجع السابق ص٨٠ ؛ابن إياس :المرجع السابق ص ٣٠٨، ٣١٠، ٣١١ .

(٢٢) د صلاح العقاد : المرجعالسابق ص ١٧ ؛ بدر الدين الخصوصى : المرجع السابق ص ١٨ وكان هذا التحالف لأغراض سياسية مؤقتة سرعان ما انتهت وشارك الإيرانيون فى مقاومة النفوذ الأوربى .

(٢٣) د .صلاح العقاد : المرجع السابق ص١٧ .

(٢٤) د.محمد أنيس:المرجع السابق ص ١٠٦ ؛ د . أحمد فؤاد متولى : الفتح العثمانى للشام

(٢٥) د . محمد أنيس : المرجع السابق ص١٠٧ .

(٢٦) د . بدر الدين الخصوصى : المرجع السابق ص ٢٠ ويلاحظ أن القطيف كانت تعنى إقليم الإحساء كله، وقد عقدت هذه الإتفاقية سنة ٩٢١هـ/ ١٥١٥م.

(٢٧) د . صلاح العقاد: المرجع السابق ص٧٨ ومع ذلك ظل الصفويون متوجسين خيفة الأطماع البرتغالية فى الخليج، كما كان البرتغاليون يتوقعون قيام الإيرانيين بإثارة المتاعب لهم فى المنطقة، ولهذا يبدوا التحالف بينهم هزيلا ولأغراض كل منهما السياسية بصورة مؤقته .

(٢٨) د .عمر عبد العزيزعمر:المرجع السابق ص ٤٨،٤٩؛ د . أحمد فؤاد متولى : المرجع السابق ص ٤٠ .

(٢٩) د . عمر عبد العزيز : المرجع السابق ص ٧٠ ؛ د . أحمد فؤاد ممتولى : المرجع السابق ص ٦٣ حيث يذكر أن السلطان سليم قد اعتبر إيواء الثائرين عليه تصرفا عدائيا من قبل المماليك .

(٣٠) د . عمر عبد العزيز عمر : المرجع السابق ص ٧٢، ٧٣ .

(٣١) د . أحمد عبد الرحيم مصطفى : المرجع السابق ص ٨٣ .

(٣٢) د . عمرعبد العزيز : المرجع السابق ص ٣٣ ؛ د. أحمد فؤاد متولى : المرجع السابق ص٨٢ .

(٣٣) د . محمد أنيس : المرجع السابق ص ١١٢ ؛ د .عمر عبد العزيز : المرجع السابق ص ٧٣ .

(٣٤) د . محمد أنيس : المرجع السابق ص ١١٢ ؛ د. أحمد فؤاد متولى :المرجع السابق ص١٦، ١٧٦ .ويذكر أن سليم الأول قد استفزه عدم رد طومانباى على رسائله مما جعله يلجأ إلى التهديد فى رسائله الأخيرة .

(٣٥) د . عمر عبد العزيز عمر : المرجع السابق ص ٨٠ .

(٣٦) د . رأفت الشيخ : المرجع السابق ص ٣٨ .

(٣٧) د . محمد أنيس : المرجع السابق ص ١٣٠.

(٣٨) د . عمر عبد العزيز : المرجع السابق ص ٨٠، ٨٠، ويلاحظ بأن السلطان العثمانى قد اعتبر موقفه تجاه كل من الصفويين والبرتغاليين جهادا، على أن جهاده ضد الصفويين يرجع فى أغلبه لأسباب سياسية أكثر من كونه صراعا مذهبيا .

(٣٩) د . أحمد فؤاد متولى : المرجع السابق ص ١٢٤ . حيث يذكر أن السلطان سليم قد عقد مجلسا خاصا قبل فتح مصر للإستفسار عن شرعية ذلك فأجابه أعضاء المجلس بشرعيةالتحرك إلى مصر وشن حرب عليها لأن أهلها قطاع طرق، والحرب والقتال معهم غزو وجهاد، وقاتلهم غاز ومرابط والمقتول على أيديهم شهيد ومجاهد .

(٤٣) يراعى أن ذكر التركى كان سابقا لانصهار هذا العنصر فى عناصر المجاهدين المسلمين التى صاحبت المرحلة الأولى فى بناء الدولة العثمانية .

(٤٤) د . محمد أنيس : الدولة العثمانية والمشرق العربى، ص١٤١ ؛ د . رأفت غنيمى الشيخ : تاريخ العرب الحديث والمعاصر ص ٥٨، ٥٩ .

(٤٠) د . عبد الكريم غرابية : تاريخ العرب الحديث ص ٢٥ .

(٤٣) يراعى أن ذكر التركى كان سابقا لانصهار هذا العنصر فى عناصر المجاهدين المسلمين التى صاحبت المرحلة الأولى فى بناء الدولة العثمانية .

(٤٤) د . محمد أنيس : الدولة العثمانية والمشرق العربى، ص١٤١ ؛ د . رأفت غنيمى الشيخ : تاريخ العرب الحديث والمعاصر ص ٥٨، ٥٩ .

(٤٥) د . عبد العزيز الشناوى : المرجع السابق جـ٢ ص ٧٣٤ .

(٤٦) د . عبد العزيز الشناوى : المرجع السابق ص ٨٢٧ .

(٤٧) المرجع السابق ص ٨٢٧ .

(٤٨) : marco , e yemem and western world since 11511. 1193 . P . marston , t.e : s imperial role in thered sea area, p . 3

(٤٩) د . جمال زكريا قاسم : الصراعات المحلية والدولية فى البحر الأحمر فى العصر العثمانى ص ٢٤٣ .

(٥٠) د . شوقى الجمل : تاريخ كشف أفريقيا واستعمارها ص ١٣٩ .

(٥١) د . شوقى الجمل :المرجع السابق ص ١٤١ . وزرايب هى أماكن تواجد المواشى .

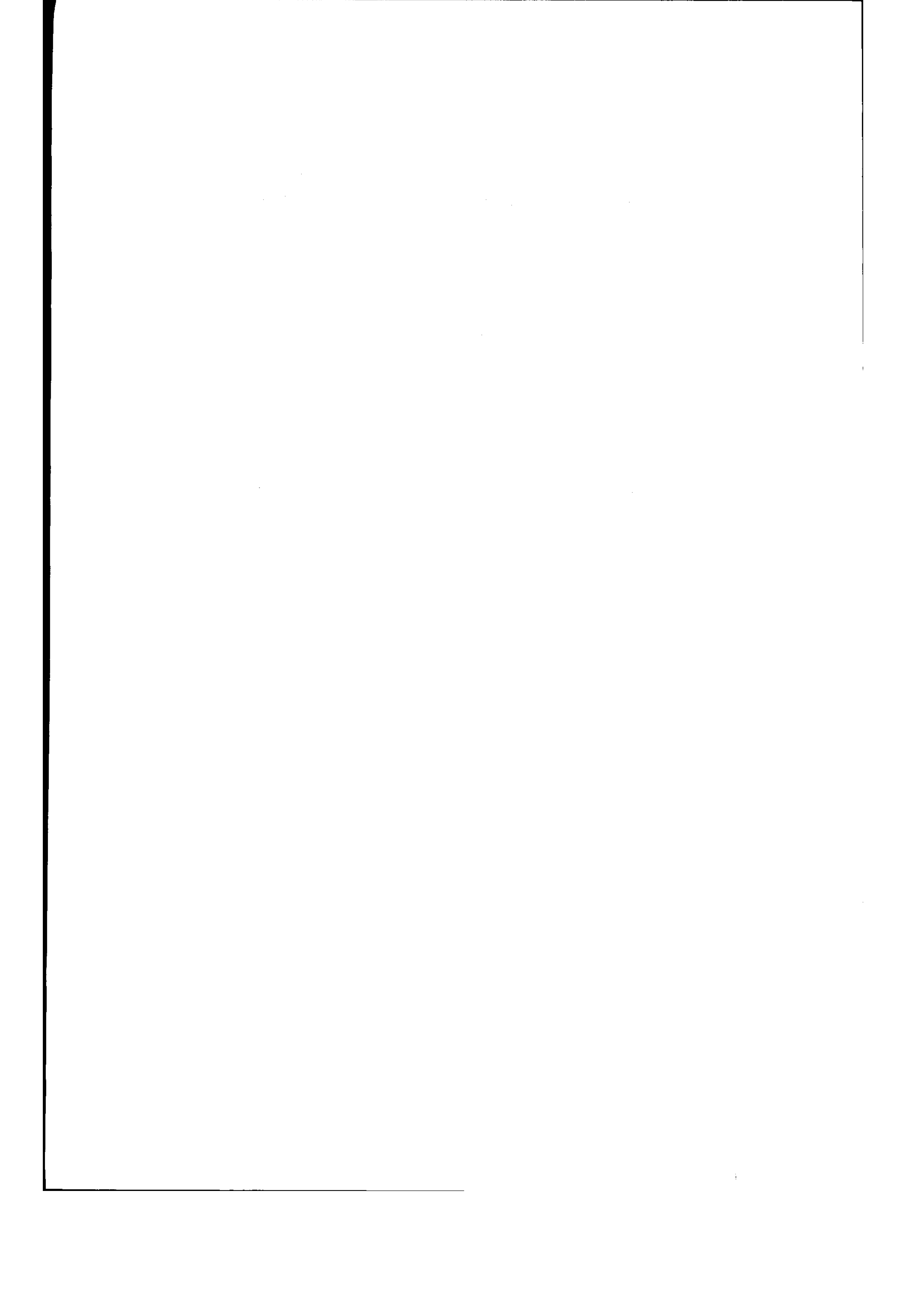
(٥٢) بانيكار :آسيا والسيطرة الغربية ص١٨ وما بعدها .

(٥٣) د . رأفت غنيمى : أمريكا والعلاقات الدولية ص٢٧ وما بعدها .

الفصـــل الثــانى

الحركات السياسية فى المشرق العربى
فى العصـر العثمـانى
بين التـمرّد والإصلاح الدينـى

- حركات التمرد بين الأطماع الشخصية والمساندة الاستعمارية
- الحركات الإصلاحية ذات الطابع الإسلامى .



أوحت كثير من الأنظمة السياسية القومية إلى مؤرخيها بضرورة تعميـق الجذور القومية تاريخياً ووفقاً لمنظورها سواء أكان ذلك فى الإطار العربى العـام أم فى الأطر الإقليمية المحلية المحدودة . وصدرت لهؤلاء المؤرخين العديد مـن الدراسات التى سعت لتحقيق هذا الهدف من خـلال تطويـع وتشـويه الأحـداث التاريخية، وساندتها هذه الأنظمة على نيوع هذه الأفكار وانتشارها من جانب وفى فرض أطر شديدة من الالتزام على أية محاولات تخالف هذا الاتجاه أو تنتقده مـن جانب آخر، فضلاً عن أطر الالتزام التى أحاطت بالأنظمة التـى تتعلـق بالناحيـة المنهجية بل وبالعملية التعليمية والثقافية الأمر الـذى جعـل هـذه الاتجاهـات المأجورة أو المنقولة أو التابعة ــ بوعى وبغير وعى ــ تصل إلى درجة كونـها من البديهيات والمسلمات .

وسبقت الإشارة إلى الدوافع التى جعلت هذه الأنظمة ومؤرخيها يعتـبرون الوجود العثمانى فى المشرق العربى غـزوا واحتـلالا، وبالتـالى فـإن هـؤلاء المؤرخين قد فسروا كافة حركات التمرد التى قامت فى المشرق العربى الإسـلامي إبان الحكم العثمانى على أنها من قبيل العمل الوطنى وتعبيرا عن نمـو الشـعور القوميوبدايات اليقظة القومية والسعى للتحرر مما اعتـبروه اسـتعمارا، فبـدت حركة على بك الكبير فى مصر رمزا من رموز اليقظة القومية وكذلك حركة ظاهر العمر وأحمد الجزار فى فلسطين وآل العظم فى الشام والمعنيون والشهابيون فـى لبنان والقرمانليون فى ليبيا والحسينيون فى تونس والمماليك فى العراق وغـير ذلك .

كما أن صياغة تاريخ العرب القومى بشكل عام قد جعل من كل هذه الحركـات رمزا لليقظة القومية العربية، والتقت في هذا مع توجهات المؤرخيـن الغربييـن الذين اندفعوا إلى اتجاههم فى صياغة تاريخنا هادفين إثارة النعرة القومية لتمزيق وحدة الشعوب الإسلامية . بل إن هؤلاء المؤرخين ــأو كتـاب التـاريخ ــ قـد فسروا الحركات الإصلاحية التى اعتمدت على المبادئ الإسـلامية فـى منهجـها النظرى والحركى كالدعوة السلفية فى جزيرة العرب و الدعوة السنوسية فى ليبيـا والدعوة المهدية فى السودان على أنها حركـات قوميـة أعـادت دور الريـادة الإسلامى للعرب بعد أن ضعف النظام العثمانى ــ التركى ــ (١)، ولم يفطن أغلب هؤلاء إلى رفض الشريعة الإسلامية لأى إطار قومى من جهة، كما أن أيـا مـن دعاة هذه الحركات قد تركز اعتراضه ضد العثمانيين ومن منطلق إيمانه بمبـادئ

شريعته على فساد الإدارة وممارسة الحكم فى حين لم يبد أى داعية رفضه للخلافة كنظام أساسى إسلامى أو سعيه لضرب الوحدة الإسلامية بين كافة الشعوب الإسلامية دون النظر إلى جنسية الخليفة أو مقر الخلافة، كما أن أياً من المتمردين أو المصلحين لم يسع إلي تغيير أساس الولاء لدولة الإسلام ولوحدة هويته (٢) .

ويمكن أن تقسم هذه الحركات فى مجموعها إلى قسمين :

الأول : حركات تمرّد أو عصيان .

الثانى : حركات تصحيحية إصلاحية ذات طابع إسلامي .

أولاً : حركات التمرّد والعصيان

وتشمل حركة المعنيين والشهابيين فى لبنان، وعلى بك الكبير فى مصر، وآل العظم فى الشام، وظاهر العمر وأحمد الجزار فى فلسطين، والمماليك فى العراق، والقرمانليين فى ليبيا، والحسينيين فى تونس . وبشكل عام يمكن إرجاع دوافع هذه الحركات إلى ثلاثة عوامل رئيسية تتمثل في الأطماع الشخصية ببعدها الاقتصادى والسياسى،والتحريض والمساندة لهذه الحركات من الدول الاستعمارية وافتقارها إلي المساندة الشعبية، و ضعف أو إضعاف نظام الحكم العثمانى .

وقبل أن نوضح هذه العوامل ينبغى أن نشير إلى بديهية أكدها أغلب المؤرخين وهى أن الشعور القومى فى هذه الفترة كان غائباً تماماً وأن الإطار الإسلامى هو الذى كان مسيطراً وسائداً في كافة نواحى الحياة وسواء لدي الشعوب أو حتي لدي الصفوة من المغامرين أو أصحاب الطموحات السياسية .

أولاً : الأطماع الشخصية

لم تكن حركة المعنيين فى ولاية طرابلس ومن بعدهم الشهابيين تستند إلى مبادئ واضحة فى موقفهم المعادى للدولة العثمانية، فكان نجاحهم فى بسط نفوذهم على الولاية أو خارجها يرجع إلى انتهازهم فرصة انشغال العثمانيين فى مقاومة القوى الأوروبية، وقد دفعتهم أطماعهم إلى تخليهم عن المبادئ فادعى فخر الدين المعنى الثانى الإسلام لتقريب العناصر الإسلامية إليه، ثم تقنّع بقناع المسيحية لكسب ود العناصر والقوى المسيحية وهو ما يصفه البعض بالحنكة

السياسية(٣) . وسلك الأمير " بشير الشهابى الثانى " الذى تولى سنة ١٢٠٩هـ ١٧٩٥م نفس الأسلوب حيث استخدم الخديعة والحرب والمهادنة والهدايا، وادعى أمام الموارنة، وهو من الدروز، اعتناقه للمسيحية كى يكسب تأييدهم لأطماعه (٤) .

ولم يكن " على بك الكبير" فى مصر ينتمى إلى العرب أو إلى المصريين أو حتى إلى المسلمين، فقد جاء إلى مصر وعمره ثلاثة عشر عاماً كمملوك " لإبراهيم كتخدا "، وهو ابن قسيس رومى أرثوذكسى من الأناضول اسمه يوسف، اختطف وبيع فى القاهرة كمملوك . وحين كبر تزوج من فتاة يونانية مسيحية اسمها " مريم " أظهرت الإسلام وظلت فى الحقيقة محتفظة بدينها، ولهذا فإن على بك قد ظهر بأكثر من إسم يتماشى مع مراتب تطوره فى خدمة سيده ثم مع أطماعه فعرف باسم "جن على" ثم باسم " بنو قبطان" ثم " على بك القازوغلى" ثم " على بك الكبير " (٥) .

ومع أنه قد أبدى مهارة وذكاء أسهمت فى بروزه إلا أنه اتصف بعديد من الصفات الأخرى كالغدر والخيانة والخديعة وغير ذلك، ففى أعقاب وفاة سيده " إبراهيم كتخدا " ساعده ذكاؤه فى أن يحل محله، وساعده كبير طائفة المماليك " القازدوغلية " " عبد الرحمن كاهيا " فى تولى مشيخة البلد سنة ١١٧٤هـ ١٧٦٠م، نكاية فى شيخها " على بك الغزاوى" الذى كان على رأس قافلة الحج، وفور تولى على بك المشيخة أصدر فرماناً بنفى" عبد الرحمن كاهيا " إلى الحجاز، فخرج إلى منفاه فى موكب حزين أثار غضب كل المصريين على شيخ البلد " على بك "(٦) .

وتبع ذلك استخدام على بك لأسلوب القتل والنفى والمطاردة ضد منافسيه مستعيناً برفاقه وأقرانه، وحين تمكن نفوذه وقضى على منافسيه بدأ ينقلب على أقرانه (٧) . وقد وصفه الجبرتى بأنه هو الذى ابتدع المصادرات وسلب الأموال وأنها من مبادئ ظهوره . ثم اتجه إلى القضاء على العربان فى الداخل كالحبايبة فى الوجه البحري والهواره في الوجه القبلي .

واشتطت به أطماعه إلى حد التطلع إلى باشوية مصر فأبدى توددّاً وتقرّباً إلى الدولة العثمانية، لكن السلطان العثماني لم يوافق على ذلك حتى لا يفتح الباب لصراع المماليك على هذا المنصب فيما بعد، ولما كان قد ورد إليه من تقارير عن على بك وكثيرين من مماليك مصر ،فضاق على بك بهذا الرفض وانتهز فرصة

قيام حرب بين روسيا والدولة العثمانية وطرد الوالي من منصبه وحبسه وأعلن توليه الباشوية(٨) . وحاول أن يحصل على اعتراف من السلطان العثماني بمنصبه فأرسل العديد من الهدايا ولكن السلطان ظل على رفضه، فأعلن على بك رفضه لأي باشا يعينه السلطان فى ولاية مصر، وسكّ النقود باسمه، وطرد كل من أبدى ميلاً للعثمانيين (٩) .

وانتهز على بك فرصة أخرى ليزيد من أطماعه حين طلب منه السلطان العثماني التدخل لوقف الصراع على منصب شريف مكة فوجدها فرصة سانحة لضم الحجاز وطرد حاكم جدة المعين من قبل الدولة العثمانية (١٠) . كما انتهز فرصة الحرب الروسية العثمانية وسعى ـ من خلال تحالفه مع الروس ومع ظاهر العمر ـ إلى ضم بلاد الشام، وكاد أن يحقق ذلك لولا تمرد قائده " محمد بك أبو الذهب " الذي بدت أطماعه هو الأخر (١١) .

وظهرت أسرة آل العظم فى بلاد الشام فى القرن الثانى عشر الهجرى الثامن عشر الميلادى بفعل عديد من العوامل أهمها ما ساد البلاد من فوضى بسبب الصراع بين العسكر واصطدام قوات الطامعين والمغامرين وضعف النواحى الاقتصادية . وعلى الرغم من إدراك الدولة العثمانية لحاجتها إلى عصبية قوية تقضى على هذه المظاهر وبالتالى تهيأت الفرصة لآل العظم، إلا أن آل العظم قد عملوا لمصلحتهم أكثر من سعيهم لتأمين مصلحة الدولة العثمانية وظلوا يوسعون إمارتهم حتى اصطدموا بتحالف " على بك الكبير " و " ظاهر العمر" الذى قضى عليهم سنة ١١٨٢هـ ـ ١٧٧١م . ثم عادوا للولاية فترة وجيزة قضى عليهم بعدها " أحمد الجزار" والى عكا سنة ١٢٠٤هـ ـ ١٧٩٠م .

أما ظاهر العمر فهو عربى الأصل استطاع أن يحصل على التزام منطقة طبرية فى فلسطين من باشا صيدا سنة ١١٤٧هـ ـ ١٧٣٣م، وأثبت قدرته على الإدارة فيها، ثم تطلع إلى التوسع فاستخدم أسلوب الملاطفة والمسالمة أحياناً والاحتيال والتهديد أحياناً أخرى حتى تمكن من ضم التزام صفد سنة ١١٥٣هـ ـ ١٧٣٩م (١٢) . ثم اصطدم مع بعض عناصر الشيعة " المتاولة " لرفضهم التنازل له عن الالتزام فى بلادهم، واستخدم أسلوب الخديعة والمكر حتى أخذ بلادهم سنة ١١٥٦هـ ـ ١٧٤٢م واستصدر بها موافقة من باشا صيدا .

وحين استشعر ظاهر القوة تطلع إلى التزام مدينة عكا، وكان رفض باشا صيدا إعطاءها له نذيراً بالصدام مع الدولة العثمانية. فدخلها عنوة سنة

١١٥٨هـ ١٧٤٤م، وطرد الباشا العثماني منها واتخذها عاصمة لـــه، وانطلـق منها ليستولي على الناصرة وحيفا . ودفعته رغبته في مزيد من التوســـع إلـى الصدام مع آل العظم في الشام، ومع باشا صيدا نفسه فـهاجم صيـدا واسـتولى عليها . وأعطاه السلطان العثماني فرماناً بولاية صيدا وما جاورها للظروف التـى كانت تمر بها الدولة العثمانية، ولم يقف عند هذا الحد بل أخذ يتوسع فى المناطق المجاورة حيث ضم القدس والخليل ويافا .

وقد كان ذلك الدور مستفزاً للدولة العثمانية وبخاصة أنها كانت فى حالـة حرب مع روسيا وفى حاجة إلى عون لا إلـــى تمـرد، وأدرك ظـاهر العمـر أن العثمانيين لن يتركوا أمره دون رادع، فلم يجد أمامه، استعداداً لموقف الصدام مع الدولة العثمانية، إلا أن يتحالف مع متمرد آخر هو على بك الكبير فــى مصـر . ومع أن على بك قد أرسل جيشاً لنجدته إلا أن تمرد قائد الجيش محمد بـك أبـو الذهب على سيده وظهور أطماعه الشخصية، قد ساعدت القوات العثمانية علـــى مواجهة ظاهر منفرداً فهزمته، وقتله أحد حراســة سـنة ١١٨٩هـــ ١٧٧٥م، وبخاصة بعد أن أنهت الدولة حربها مع روسيا التي كانت تسانده .

وشهدت تونس تسلّط أسرة " حسين بن على " حيث تودّد حسين إلى أهـل البلاد حتى نادوا به " بايا " على تونس سنة ١١١٩هـ ١٧٠٥م، ثم أعلن تمـرده على الدولة العثمانية سعياً لجعل حكمه وراثياً، وظلت أسرته محتفظة بالحكم حتى فى ظل الاحتلال الفرنسى وحتى سنة ١٣٧٨هـ ١٩٥٩م .

وفى ليبيا (برقه) شهد مطلع القرن الثانى عشر الهجرى الثـــامن عشـر الميلادى حالة من الفوضى سمحت بظهور الكثيرين من الطـــامعين والمغـامرين حتى نجح" أحمد القرمانلى" فى الوصول إلى منصب والى طرابلس سنة ١١٢٥هـ ١٧١١م . وقد حقق نجاحاً آخر فى التخلص من منافسيه من جنـــد الإنكشـارية حيث أعد لهم مأدبة نبحهم بعدها كالتى قام بها محمد على والى مصر بعـد ذلـك للمماليك . وقد استعان القرمانلى فى البداية بأعيان طرابلس، ثم عاد وأهملهم بعد أن حقق أطماعه فى الولاية والتخلص من خصومه .

ومن الملاحظ أن أغلب حركات التمرد فى الولايات العربية قد ظهرت فــى القرن الثانى عشر الهجرى القرن الثامن عشر الميلادى، ولا شك أن ذلك يرجــع إلى سلسلة الحروب التى خاضتها الدولة العثمانية ضد روســيا وعلــى السـاحة الأوروبية،وكذلك أطماع الصفويين الشيعة،وهو أمر أسهم فى مزيد من انشـــغالها

وضعف قبضتها على هذه الولايات علاوة على تدهور إمكاناتها الاقتصادية، ويبدو ذلك جليا فى تسليم الدولة فى الغالب بسلطة المغامرين والاعتراف بهم .

كما يلاحظ كذلك أنه على الرغم من تحالف بعض الطامعين المتمردين مع بعضهم ضد دولة الخلافة أو ضد بعضهم إذا ما اصطدمت مصالحهم وأطماعهم إلا أنهم سرعان ما كانوا يصطدمون ببعضهم لينهى كل منهم الآخر، ويبدو هذا من صدام والى عكا " أحمد الجزار" مع" بشير الشهابى الثانى " و" على بك " ضد " محمد أبو الذهب"وآل العظم مع " ظاهر العمر"، وتشير هذه الظاهرة إلى أن أيا منهم لم يكن يتمتع برصيد شعبى ولا يعبر عن مطالب شعبية بقدر ما كانت تحركه مصالحه وأطماعه الشخصية،ولم يفلح فى أن يوجد فئة ترتبط مصالحها بمصالحه فتؤيده .

ثانيا : دور الدول الأوروبية فى مساندة حركات االتمرد وتشجيع قيامها

أسهمت الصراعات بين الدول الاستعمارية الغربية في العودة إلى إحياء طرق التجارة القديمة عبر الأراضي الإسلامية، وبالتالي لستعادت المنطقة العربية نسبة كبيرة من حيويتها التجارية التي كانت تحتلها قبل الوصول إلى طريق رأس الرجاء الصالح . ولكن إلى جانب ذلك ازدادت تطلعات هذه الدول لبسط نفوذها على المناطق المتحكمة في طرق التجارة، وشهدت المنطقة جهودا من تسابق هذه الدول وتنافسها وبخاصة بين إنجلترا وفرنسا، وأصبحت المنطقة ميدانا للصراع خلال القرن الثانى عشر الهجري الثامن عشر الميلادي .

وبصفة عامة فقد اتسمت سياسة الدول الغربية تجاه المنطقة العربية، وتجاه الدول العثمانية بشكل عام،بروح عدائية ذات طابع ديني، إلى جانب البعد الاقتصادي وهو عامل أساسي، لا تقل عن الروح التي سادت الصراع بين الشرق والغرب إبان الحروب الصليبية . وما كانت مساندة إحدى هاتين الدولتين للدولة العثمانية فى حروبها مع روسيا أحيانا إلا حرصا منها ــ كل وفق سياسته ومصالحه ــ على إبعاد روسيا عن ميدان الصراع الاستعماري في حين كانتا تبديان تعاطفا مع روسيا إذا ما نجحت في اقتطاع أجزاء من الدولة العثمانية بعيدة عن البحار الدافئة التي كانت تعنى بالنسبة لهما المشاركة في الميدان الاستعماري الاقتصادي .

وبقدر غياب الوعي القومي إبان القرن الثاني عشر الهجري الثامن عشر الميلادي الذي شهد أغلب حركات التمرد ضد الدولة العثمانية وأن المفهوم الإسلامي هو المفهوم الذي كان سائداً لدى جماهير المسلمين وفى المشرق العربي على وجه الخصوص، فإن هذه الحركات لم تكن تستند إلى تأييد شعبي في موقفها من دولة الخلافة . ومن هنا التقت في أطماعها ومصالحها السياسية والاقتصادية مع الأهداف الاقتصادية والسياسية الاستعمارية للدول الغربية، ولقيت منها المساندة على تحقيق هذه الأهداف التي كانت ترمى من قبل الدول الغربية إلى إضعاف العالم الإسلامى وتفتيته إلى قوميات متعدّدة يمكن تحقيق المصالح من خلالها، بل إن الكثير من هذه الحركات قد ووجهت بمقاومة شعبية من قبل شعوبها حين بدا أمام هذه الشعوب ما كانوا عليه من تحالف وتأييد ومناصرة للدول الاستعمارية ومعاداة لدولة الخلافة، ومثال ذلك ما حدث لحركة على بك الكبير فى مصر حين اصطدم به قائده " محمد بك أبو الذهب " وفرّ إلى صعيد مصر، وأوضح أبو الذهب إلى الهواره، وغيرهم من المصريين، ما كان عليه سيده من عداء مع خليفة المسلمين وتحالفه مع دولة كافرة في حالة حرب مع دولة الخلافة وهى روسيا، فانضم إليه جمع من الهواره وجموع من المواطنين، وكان هذا أول اشتراك لعناصر محلية في هذه الحركات، وأعلنوا تصدّيهم لموقف على بك الأمر الذى أسهم فى هزيمته وانتهاء حركته، فضلاً عما يوحى به هذا الصراع من بعد اقتصادى واجتماعى فى المقام الثانى .

أما عن دور الدول الغربية فى مساندة هذه الحركات فقد حصل " فخر الدين المعنى الثاني"على معونة من دوق تسكانيا فى إيطاليا ومن كل من أسبانيا وفرنسا وفرسان القديس يوحنا، وأرسل فخر الدين العديد من الدروز لتلقّى العلم فى إيطاليا . كما قام بالاتصال بالشاه عباس الأول الصفوى والتنسيق بينه وبين الأوروبيين (١٣) . وإذا جاز أن نقبل تفسير البعض بأن الهدف من ذلك كان قاصراً على أهداف اقتصادية فإن التفسير الغالب من جانب الدول الأوروبية هو غلبة الأهداف الدينية والسياسية التى كانت تعبّرعن العداء للمسلمين ولدولة الخلافة العثمانية وبخاصة من أسبانيا وإيطاليا وفرسان القديس يوحنا التى لم يكن لها فى تلك الفترة أهداف اقتصادية واضحة فى المنطقة (١٤) .

وقد سمح فخر الدين ببناء العديد من الأديرة والكنائس وقام بتمويل عملية البناء بنفسه وهو أمر جعل أحد الرحّالة الإنجليز الذى زار ولاية طرابلس

١٠٢٧هـ-١٦١٠م بأن يراه مسيحياً وأن إظهاره لإسلامه كـان صورياً أمـام العثمانيين في حين كان لا يبدو في سلوكه أي حرص على الشـعائر الإسـلامية، وهو أمر دعاه لأن يطلب من البابا أن يأمر مسـيحيي لبنـان مـن الموارنـة بمعاونته (١٥) .

ووطد الأمير بشير الشهابيّ الثاني علاقته بفرنسا، والإكليروس الفرنسـي الإيطالي، حتى جاء حكم والي مصر للشام في عهد محمـد علـي فضّيـق علـى المسلمين وسمح ببناء الأديرة والمدارس والإرساليات التبشيرية المسيحية الأمـر الذي هيأ لحدوث صراع بين الدروز والموارنة ونتج عنه مذابح بيـن المسـلمين والنصارى سنة ١٢٧٦هـ-١٨٦٠م .

وقد لعبت فرنسا دوراً واضحاً في حدوث هذه المذابح لتوجد مبرّراً لتدخلها العسكري في ولاية طرابلس، ولولا الضغوط الاسـتعمارية لاسـتمر الاسـتعمار الفرنسي . لكن فرنسا حرصت على تمكين الموارنة المسيحيين من الحكم خـلال فترة وجودها، وفرضت على الدولة العثمانية ضرورة تعيين حاكم مسيحي يساعده مجلس إداري يمثل بقية الطوائف (١٦) . وما زالت فرنسا تمثل الحليف التقليـدي لهذه الأقلية ومن منطلق ديني وسياسي حتى تاريخنا المعاصر (١٧) .

وقامت روسيا بالاتصال بكل من علي بك الكبير في مصر وظاهر العمـر في فلسطين أثناء حربها مع الدولة العثمانية، وقد دفعتهما أطماعهما الشـخصية لسرعة الاستجابة لهذه الاتصالات وبخاصة بعـد أن هـزم الأسـطول الروسـي الأسطول العثماني سنة ١١٨٤هـ-١٧٧٠م(١٨). وعقدت روسيا معـهم بعـض الاتفاقيات السرية ضمن الروس بمقتضاها أماكن لإمداد أسـطولهم فـي البحـر المتوسط لقاء ما وعدت به من مساعدات مادية وعسكرية لعلي بك وحليفه ظـاهر العمر . وقد وعد علي بك وحليفه بإعطاء الروس بعض المـدن العربيـة نظـير مساعدتهم على تحقيق أطماعهم (١٩)، ولعل وهذا يؤكد الأبعاد الاقتصادية للـدور الروسي وللدول التي نافسته مثل إنجلترا وفرنسا .

على أن هدف الروس من هذه الاتفاقيات لم يكن قاصراً على هذا الـهدف المحدود وإنما أرادوا أن يحرموا دولة الخلافة من مساعدات ولاتها فـي الحـرب وبخاصة والي مصر، وقد التقت أهداف الروس مع أطماع علي بك و ظاهر العمـر فجهـزا جيشـاً بقيادة محمد بك أبو الذهب . وبمساندة قـائد الأسطـول الروسـي " الكسيس أورلوف " من البحر للسيطرة على بلاد الشـام (٢٠)، وتمكـن هـذا

الجيش من احتلال الشام وطرد حاكمها العثمانى (٢١)، إلا أن " أبو الذهب " قد عاد دون استكمال السيطرة علي الشام منقلباً على سيده، ولا يستبعد أن يكون موقف أبو الذهب نابعا من ظهور أطماع شخصية له وجد أن الوقت مناسب لتحقيقها، وربما يكون العثمانيون قد اتصلوا به ووعدوه بالولاية إذا ما قضى على " على بك " .

ولا شك أن نمو الدور الروسي الاقتصادي والسياسي في شرقي البحر المتوسط قد أثار قلق الإنجليز، ولا يستبعد أن يكونوا قد لعبوا دوراً في إثارة عصيان " محمد بك أبو الذهب "على" على بك " . وكان " على بك " يدرك ما كان عليه الإنجليز من قوة فى البحر، ولذلك قبل التفاهم معهم، وقامت مباحثات بينهما عن طريق "جيمس بروس" القنصل البريطاني في الجزائر، وأسفرت هذه المباحثات عن عقد اتفاقية بينهما سنة ١١٨٧هـ ١٧٧٣م فتح بمقتضاها " على بك" مرفأ السويس للمراكب البريطانية التى تحمل بضائع من الهند إلى موانىء البحر الأحمر، وأصبح العلم البريطانى أول الأعلام الأوروبية التى ظهرت فى البحر الأحمر بعد جهود العثمانيين فى الحفاظ عليه كبحيرة إسلامية منذ بداية القرن العاشر الهجرى السادس عشر الميلادى (٢٢) .

وكان الإنجليز قد شجعوا " على بك " على القيام بحملة على الحجاز منتهزاً فرصة الصراع هناك على منصب الشريف، فقد شجعه " روزتى " على مشروعه الرامى إلى فتح البحر الأحمر للتجارة الأوربية القادمة من الشرق، وحين نجحت الحملة ١١٨٤هـ١٧٧٠م فى الإستيلاء على الحجاز أوكل " على بك " إدارة جمارك جدة إلى " بلتازار " أحد إخوة " روزتى"، وأصبح للإنجليز نفوذ تجارى واضح وصل إلى حد مطالبة تجارهم بإنشاء خط مباشر بين الهند ومرفأ السويس وهو الأمر الذى استجاب له "على بك" مما جعل هؤلاء التجار ينشئون شركة كلكتا سنة ١١٨٧هـ ١٧٧٣م للمتاجرة مع مصر (٢٣) .

ومما يشير إلى حدوث اتصالات بين "محمد بك أبو الذهب " والإنجليز أن الإنجليز لم يتحركوا لنجدة "على بك " حين قضى عليه " أبو الذهب "، كما أن "أبو الذهب" لم يرفض سريان الاتفاقية التى كان قد عقدها معهم " على بك " وبالتالى لم يشكّل خطراً على مصالحهم الاقتصادية .

كما ارتبط سقوط " ظاهر العمر" بانتهاء الحرب الروسية العثمانية وتوقيع اتفاقية " كتشك فينارجا " بينهما سنة ١١٨٨هـ ١٧٧٤م، الأمر الذى يؤكد اعتماد

هؤلاء المتمردين على مساندة الدول الأجنبية فى تحقيق أطماعهم الشخصية، وكذلك غلبة العوامل الاقتصادية على ما سواها فى هذه الفترة .

وكان استمرار الأطماع الصفوية الاقتصادية والسياسية فى العراق سبباً فى تحولها إلى ميدان صراع بينهم وبين العثمانيين، وفى تهيئة الظروف لظهور العديد من المغامرين والطامعين فى حكمها وبخاصة بعد ظهور الولاة المماليك . وبعد أن تمكنت الدول الأوروبية من التسلل إليها وتكوين مراكز نفوذ لها حول أنهار العراق وبخاصة فى القرن الثانى عشر الهجرى الثامن عشر الميلادى استعان الكثيرون من هؤلاء الولاة بالدول الغربية وبخاصة إنجلترا التى كانت أكثر الدول الغربية نفوذاً فى هذه المنطقة منذ أن أنشأت شركة الهند الشرقية وكالة لها بالبصرة سنة ١٠٥١هـ ١٦٤٣م (٢٤) .

وقد استعان أشهر الولاة المماليك فى العراق وهو سليمان باشا الكبير بالنفوذ البريطانى حيث ساعدته شركة الهند الشرقية البريطانية فى تولى باشوية بغداد سنة ١١٩٤ـ١٢١٦هـ ١٧٨٠-١٨٠٢م، كما أمدته بالسلاح والعتاد وأرسلت له مجموعة من المدربين العسكريين الإنجليز لتدريب جيشه، وفى مقابل ذلك قدّم العديد من التسهيلات لهذه الشركة فى مزاولة نشاط اقتصادى واسع داخل العراق، كما أبدى حرصا ورعاية شديدة على نشاطها (٢٥) .

وقام داود باشا(١٢٣١ـ ١٢٤٦هـ، ١٨١٦ـ ١٨٣١م) بتوسيع دائرة اتصاله بالأوروبيين ففتح لهم ميدان النشاط التجارى بشكل زاد عن ذى قبل . وبخاصة بعد فتور العلاقة بينه وبين الإنجليز، وفتح إلى جانب ذلك الباب للراهبات الفرنسيات والإيطاليات لمزاولة نشاط تبشيرى واسع داخل العراق، كما استعان بمدربين فرنسيين للإسهام فى تدريب جيشه الذى كان يعده لمناوأة دولة الخلافة العثمانية، ولكن السلطان " محمود الثانى " تمكن من القضاء عليه (٢٦) .

ثالثاً : ضعف أو إضعاف نظام الحكم العثمانى

تراكمت العديد من العوامل لتصيب النظام العام فى الدولة العثمانية بحالة من التدهور والضعف، ولا شك أن هذه العوامل ترجع فى المقام الأول إلى الدور الذى لعبته هذه الدولة على مسرح الأحداث الدولية أكثر مما ترجع إلى طبيعة النظام فيها كما يرى البعض، فقد نصّبت هذه الدولة من نفسها القوة المدافعة عن العالم الإسلامى تجاه الغرب المسيحى، وفرض عليها هذا الدور مهام توسعية ثم دفاعية

فى عديد من الجهات حيث كان عليها الحفاظ على توسعاتها ومكاسبها على الساحة الأوروبية، ثم مقاومة الأطماع الصفوية فى إيران، وتمثل هذا الدور فى الوقوف أمام الأهداف الصليبية البرتغالية تجاه المناطق المقدسة الإسلامية طوال القرن العاشر الهجرى السادس عشر الميلادى الأمر الذى أدى إلى إغلاقها للبحر الأحمر فى وجه السفن الأوروبية، وكذلك مقاومة دور فرسان القديس يوحنا المدعوم من الدول الأوروبية على ساحة البحر المتوسط، ومحاولة مساعدة بقايا مسلمى الأندلس، وفوق ذلك مقاومة الأطماع الروسية بعد أن اعتبرت روسيا نفسها وريثة للإمبراطورية البيزنطية (٢٧) .

وفى الوقت الذى كان الأمر يتطلب فيه من السلاطين العثمانيين الاحتفاظ بقوات عسكرية على كل هذه الجبهات، البحر المتوسط وبحر العرب والمنطقة المسماه بالقرن الإفريقى والجبهة العثمانية مع أوروبا والجبهة الشمالية مع روسيا والجبهة الشرقية مع الدولة الصفوية، أصيبت الدولة بتدهور اقتصادى شديد شمل أغلب ولاياتها بفعل تحول طريق التجارة بين الشرق والغرب إلى طريق رأس الرجاء الصالح، بل إن الأمر قد ازداد سوءا بالنسبة للعثمانيين بسبب الآثار الناجمة عن التدهور الاقتصادى حيث أسهم فى قيام العديد من حركات التمرد والعصيان الداخلية، وقد تطلب ذلك جهدا عسكريا من أجل مقاومة هذه الحركات، وترتب على ذلك بالطبع المزيد من النفقات سواء لتجهيز القوات العسكرية أو ما تطلبته بعض محاولات الإصلاح داخل هذه الولايات .

وترتب على توسع العثمانيين فى زيادة عدد من الجنود الإنكشارية لمواجهة هذه المهام، وهو أمر أدى إلى صبغ الدور العثمانى بالصبغة العسكرية، أن أصبحت هذه القوات من أبرز مراكز القوى التى قوضت الكثير من حركات الإصلاح، برغم الدور الذى لعبته هذه القوات فى توسيع رقعة الدولة وفرض مهابتها . واستغلت هذه القوات فرصة وجود بعض السلاطين الضعاف ليفرضوا نفوذا وسيطرة على سياسة الدولة فأبدوا عدم الإكتراث بقوانينها، وتحكموا فى تعيين بعض السلاطين وكذلك في وظيفة الصدر الأعظم و عزلهم وقتلهم فى بعض الفترات(٢٨)، ولم تفلح جهود كثيرين من السلاطين للحد من سطوتهم برغم القيام بتوزيع فيالقهم على الحدود كنوع من محاولة تمزيق قوتهم (٢٩) .

وعلى الرغم من وجود ارتباط وثيق بين فيالق الإنكشارية وبين الطريقة البكتاشية إلا أن إحساس بعض قادة الإنكشارية بجذورهم المسيحية التى سعت

لإثارتها عناصر أوروبية بينهم قد جعلهم يتحولون فى بعض الأحيان إلى عامل هدم للنظام الإسلامى العثمانى والسعى لتشويهه وتشويه القوانين التى ظلت على طابعها الإسلامى طوال التاريخ العثمانى، وكان ذلك الأمر وراء قيام السلطان مراد الثالث سنة ٩٨١ـ١٠٠٢هـ، ١٥٧٤ـ١٥٩٥م، بتجنيد أعداد وفيرة من المسلمين الأحرار(من أب وأم مسلمين) وإدخالهم فى الفيالق الإنكشارية، وقد طالب المجندون المسلمون الجدد بإلغاء الحظر الذى كان مفروضا على جنود الإنكشارية بالزواج، ووافق السلطان على ذلك، مما أدى إلى انشغال الإنكشارية بالحياة العامة بدلا من التركيز على الحياة العسكرية، والانشغال بالعديد من الحرف والأعمال التجارية وإن كان ذلك قد جعلهم يستمرون كمصدر إضعاف للدولة حيث ضعف دورهم العسكرى من جهة وفرضوا العديد من الالتزامات المالية التى زادت من إرهاق ميزانية الدولة من جهة أخري حتى نجح السلطان محمود الثانى فى القضاء عليهم سنة ١٢٣١هـ ١٨١٦م (٣٠) .

ومن هنا لا يمكن أن نحمل العثمانيين وحدهم تبعة ما ألم بولاياتها، والولايات العربية على وجه الخصوص،من ضعف وتدهور. ولا ينبغى أن نسىء إلى دورهم فى الحفاظ على مقومات الترابط والوحدة بين هذه الولايات لمجرد أنها احتفظت بقوات عسكرية عثمانية فيها (٣١)، وهو أمر طبيعى، ونفسر ذلك بأنه قد أثار الإحساس بالضعف وعدم القدرة على الحماية العسكرية لدى العناصر العربية بالارتباط بالخلافة العثمانية إلى ما بعد الحرب العالمية الأولى .

كما أن حرص الدولة العثمانية على جمع الأموال الأميرية كان أمرا طبيعيا لا بحكم كونها دولة مسيطرة أو محتلة وإنما بحكم تطبيقها لقوانين مستمدة من الشريعة الإسلامية حرصت على الحفاظ عليها طوال مدة بقائها . وإذا كانت بعض التجاوزات فى هذا الشأن قد تخللت الأسلوب العثمانى وبفعل العديد من الظروف فإننا لا ينبغى أن ننساق وراء السعى لتعميم ذلك على كل الفترة العثمانية، فعلى سبيل المثال إذا كان العثمانيون قد أخذوا بنظام الالتزام في مصر فإنهم لم يكونوا أول من أوجده على الساحة المصرية أو فى بلاد الشام أو فى غيرهما، كما أنهم لم يلجأوا إليه بشكل مسىء إلا فى القرن الثانى عشر الهجرى الثامن عشر الميلادى بسبب توالى الحروب التى خاضتها الدولة على الساحة الأوروبية وضد روسيا على وجه الخصوص .

ومما لا شك فيه أن هذه الظروف التى مرت بها الدولة قد أسـهمت فـى إهمالها للعديد من جوانب الإصلاح الداخلى مما أدى إلى المسـاعدة علـى قيـام العديد من حركات التمرد والعصيان التى كانت نتيجة وسببا لضعف قبضتها علـى ولاياتها، وسمحت تلك الظروف الاقتصادية والاجتماعية فى هذه الولايات بظـهور المغامرين والطامعين فى نفس الوقت الذى ظهرت فيه أطماع الدول الاسـتعمارية بشكل مكثف فى المنطقة العربية، فشجعت الدول الاستعمارية هذه الأطماع بشـكل تكتيكى يتناسب مع ظهور بعض الكوادر المحلية من أصحاب المصالح الاقتصاديـة والسياسية والذى لم يكن ظهورهم أو توجههم يتناسب مع ظروف ومصالح العالم الإسلامى ويدينون فيه لمن ساعدهم وهي الدوائر الاسـتعمارية اسـتكمالا لـهذا الهدف، وبعد أن تحقق هذا انفردت الدول الأوروبية بالبلاد الإسلامية الواحدة تلـو الأخرى من خلال أصحاب المصالح فيها وهى مرحلة تعرف فى التـاريخ باسـم المسألة الشرقية التى سبقت مرحلة وقوع ولايات المشرق العربى تحت الاحتـلال الأوروبى.

على أن هذه الفترة قد شهدت قدرا من دعم الظلم الاجتمـاعى مـن قبـل المؤسسة العثمانية الحاكمة من خلال دعمها للإقطاع، وبدا الارتباط بين ذلك الدعم وبين اعتمادها على المبادئ الإسلامية، فكررت الصورة التى ثارت عليها أوروبـا وهى ارتباط الدين بالظلم الاجتماعى مما كان أساسا يستوجب الثورة عليهما معا . وإذا جاز التفريق بين التعاليم الكنسية والمبادئ الإسلامية ـ وهذا واضح ـ فإن النظام العثمانى فى هذه الفترة قد قدم نموذجا لا يساعد على هـذا التفريـق فـي بعض فترات وجوده التاريخية.

ثانيا : الحركات التصحيحية الإصلاحية الإسلامية

شهدت المنطقة العربية قيام ثورات أو دعوات تصحيحية إصلاحية ذات طابع إسلامى خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر الهجريين الثامن عشر والتاسـع عشر الميلادى من أبرزها الدعوة السلفية فى جزيرة العرب التى دعا إليها الشـيخ محمد بن عبد الوهاب، والدعوة السنوسية فى برقـة، والدعـوة المهديـة فـى السودان .

ومع أن قيام هذه الدعوات قد واكب قيام بعض حركات التمرد والعصيـان ضد الدولة العثمانية، وأن بعض هذه الدعوات قد اصطدم بدولة الخلافـة وهـى

الدعوة السلفية إلا انه ليس من الصواب إضفاء الصفة القومية على أى من هـذه الدعوات سببا أو نتيجة وذلك لغياب الوعى القومى من جانب ولرفـض المنـهج الإسلامى الذى ارتكزت عليه هذه الدعوات لأى إطار قومى سواء فى فكر دعاتـهم أم فى مسيرتها التطبقية من جانب آخر . بل إن مراحل كفاح الدعوة السلفية فـى أعقاب النجاح الذى حققته داخل الجزيرة العربية وخارجها كان يتمثل فى مقاومـة الأطماع الشخصية التى دعمها الاستعمار الأوروبى والتى سعت لإرساء المنظـور القومى فى المنطقة والذى يتمثل فى دور محمـد علـى(٣٢). كمـا أن الزوايـا السنوسية لم يقتصر انتشارها على المنطقة العربية بل شـملت تركيـا وفـارس والهند، وكانت جميعها متصلة بالزوايا الأم فى واحة جغبوب على الحـدود بيـن مصر وبرقه وبزعامة مؤسس الدعوة محمد ابن على السنوسى الجزائري المولـد (٣٣) .

وعلى الرغم من ارتباط هذه الدعوات بعوامل بيئية محليـة فـى بدايـة ظهورها أو فى مراحل تطورها إلا أن الدعوة السلفية فى جزيرة العرب قد خرجت بمبادئها وأهدافها عن هذه الحدود وذلك لعاملين أساسيين أولهما وحدة العوامـل البيئية الاقتصادية والاجتماعية والفكرية ـ فى الغالب ـ فى المنطقـة العربيـة والإسلامية وعدم قدرة العثمانيين على الإصلاح فى هذا الجانب، والعامل الثـانى يتمثل فى نجاح قوات الدولة السعودية الأولى التى آمنت بهذه الدعـوة وسـعت لنصرتها فى السيطرة على منطقة الحجاز وبث الدعوة بين وفود الحجيـج مـن المسلمين مما أدى إلى قيام بعضهم بنشر مبادئها فى بلاده . بل إن تأثر صـاحب الدعوة السنوسية بمبادئ الشيخ محمد بن عبد الوهاب وإيمانه بها كـانت دافعـا لقيام دعوته ونجاحها، ولولا اعتماده على الزوايا الصوفية لأمكـن القـول بـأن دعوته هى امتداد طبيعى للدعوة السلفية . وقد أصاب البعض فى وصـف هـذه الدعوات بأنها " جاءت ببعث دينى كان له أثر كبير فى أقطار عدة ساعد على حقن هذه الأقطار بمصل جديد للكفاح وعزم أقوى على جـهاد ومقارعـة الأوروبييـن الغزاة " (٣٤) .

ولم تثر الدعوة السلفية فى مراحلها الأولى فـى نجـد حفيظـة الدولـة العثمانية أو غيرها من الدول الأوروبية التى استشرى نفوذها فى الخليج العربـى وذلك لأن إقليم نجد الداخلى لم يكن تابعا للدولة العثمانية إلا من الناحية الإسـمية، وظل الإقليم طوال فترة الوجود العثمـانى تحكمـه قبائلـه بطريقتـهم التقليديـة

المتوارثة دون تدخل من الدولة فى شئون هذه القبائل وبخاصة أن النظام العام الذى اتبعته الدولة العثمانية فى كل ولاياتها هو ترك الأقاليم التابعة لها للقوى المحلية (٣٥) . واتجهت عنايتها إلى أطراف ذلك الإقليم فى الحجاز والبحر الأحمر من ناحية الغرب وفى الإحساء وساحل الخليج العربى من الجهة الشرقية، وذلك لحماية المنطقة من غارات الدولة الأوروبية ولما تمثله من أهمية اقتصادية، وانصبت عنايتها على منطقة الحجاز التى كانت أساسا فى صبغ دورها ووجودها بالصبغة الإسلامية وفى احتفاظ سلاطينها بمنصب الخلافة الذى أكسبهم شرعية ومهابة لدى كافة الشعوب الإسلامية، ولهذا أوقفت الأوقاف والصدقات والهبات على سكان الحرمين الشريفين . كما حظيت مكة والمدينة ببعض النواحى الإصلاحية دون باقى مناطق الجزيرة العربية الأمر الذى أسهم فى تخلفها وضعفها وجعلها مكانا مهيأ لتقبل أية ثورة إصلاحية ومساندتها .

على أن تطور الدعوة السلفية ممثلا فى دورالدولة السعودية الأولى ووصولها إلى الحدود الشرقية فى الخليج العربى وانتشار مبادئها بين قبائل هذه المنطقة، كأهل قطر الذين استدعوا ممثلين عن الدولة السعودية سنة ١٢٠٦هـ ـ ١٧٩٢م . وكذلك أهل البريمى، وتحالف القواسم مع السعوديين سنة ١٢١٣هـ ـ ١٧٩٩م بعد اقتناعهم بدعوتهم، كان ذلك سببا فى توتر علاقة الدولة السعودية بالإنجليز، وبخاصة بعد أن أدى تحالف القواسم مع آل سعود إلى تقوية دورهم فى الجهاد البحرى ضد النفوذ الأوروبى، والإنجليزى على وجه الخصوص والذين وصفوا هذا الدور بالقرصنة، فى الخليج العربى (٣٦) .

وإذا كان نجاح أتباع الدعوة السلفية فى السيطرة على إقليم الحجاز بما فيه مكة المكرمة والمدينة المنورة سببا فى إثارة الدولة العثمانية عليهم حيث أدرك العثمانيون أن فقدهم للأماكن المقدسة سيفقدهم مكانتهم الإسلامية (٣٧)، ببعدها الدينى والاقتصادى، فإن السعوديين قد أبدوا حرصا على إظهار الولاء للخلافة العثمانية مع المطالبة بالقضاء على المظاهر المخالفة للشرع فور دخولهم الحجاز، فعندما دخل " سعود بن عبد العزيز " مكة المكرمة أرسل إلى السلطان " سليم الثالث " رسالة جاء فيها : " .. فقد دخلت مكة المكرمة فى اليوم الرابع من محرم عام ١٢١٨هـ والموافق ٢٥ إبريل سنة ١٨٠٣م .. وأمنت أهلها على أرواحهم وأموالهم بعد ما هدمت ما هناك من أشياء وثنية وألغيت الضرائب إلا ما كان منها حقا، وثبت الوالى الذى وليته أنت طبقا للشرع، فعليك أن تمنع والى

دمشق والقاهرة من المجيء بالمحمل والطبول والزمور إلى هذا البلد المقدس فإن ذلك ليس من الدين فى شيء وعليك رحمة الله وبركاته .. " (٣٨) .

علي أن الوجود السعودى على البحر الأحمر قد أثار بريطانيا فى المقام الأول وبخاصة بعد أن بدت ملامح استعادة الطريق التجارى القديم عبر البحر الأحمر أهميته فى القرن الثاني عشر الهجرى الثامن عشر الميلادى، وقد بدا ذلك واضحا فى مساعى الإنجليز كرد فعل للنشاط الفرنسى على التفاهم مع على بك الكبير وعقد اتفاقية معه سنة ١١٨٨هـ ١٧٧٣م، ثم عقد اتفاقية أخرى سنة ١١٩٠هـ ١٧٧٥م، مع محمد بك أبو الذهب الذى خلف على بك فى الولاية على مصر لتأمين وصول تجارتها من الهند إلى مرفأ السويس عبر البحر الأحمر .

وإذا كانت الظروف قد دعت إلى تعطل العمل بهاتين الاتفاقيتين وزيادة حجم النشاط الفرنسى بشئون البحر الأحمر فإن ذلك قد أثار تحفز بريطانيا وهو أمر بدا واضحا فى تعقب القوات البريطانية للحملة الفرنسية سنة ١٢١٣هـ١٧٩٨م، والتى كان من أهم أهدافها ضرب المصالح البريطانية من خلال السيطرة على هذا الطريق، وكذلك فى سعيها لعقد اتفاقية مع سلطان لحج سنة ١٢١٧هـ ١٨٠٢م بشأن منحها تسهيلات فى ميناء عدن المدخل الجنوبى لهذا البحر (٣٩) .

ولا شك أن المنهج الإسلامى الواضح الذى ميز أتباع الدعوة السلفية والذى فرض عليهم أن يسلكوا سياسة عدائية ضد النفوذ الاستعمارى قد جعل بريطانيا تستبعد إمكانية التفاهم معهم، ولهذا ـ ولعوامل أخرى سنوضحها ـ فإن الرغبة فى ضرب هذه القوة كان يهم الإنجليز قبل غيرهم من القوى وبخاصة الدولة العثمانية من جهة، ويحدد كذلك طبيعة الدور الذى لعبه " محمد على" فى المنطقة من جهة أخرى (٤٠) .

ومع ذلك فإن الدولة العثمانية لم تجد فى دور الدولة السعودية ما يحفزها على إعلان الحرب عليها وبخاصة أن الداعية " الشيخ محمد بن عبد الوهاب " وأتباعه لم يثبت عنهم أنهم دعوا إلى الخروج عن طاعة الخليفة ودولة الخلافة أو التشكيك فى شرعيتها (٤١) . ولم يعرف عنه دعوته لنفسه بهذا الأمر، وقد أكد ذلك فى إحدى رسائله حيث قال : " لا أكفر أحدا من المسلمين بذنب ولا أخرجه من دائرة الإسلام، وأرى الجهاد ماضيا مع كل إمام برا كان أو فاجرا، وأرى

وجوب السمع والطاعة لأئمة المسلمين ما لم يؤمر بمعصية، ومن ولى الخلافة واجتمع عليه الناس ورضوا به وجبت طاعته " (٤٢) .

وكان من الممكن أمام ذلك أن تعتبر الدولة العثمانية أتباع الدعوة السلفية إمارة أو قوة تابعة لها لولا أن أتباع الدعوة أقدموا على التصدى للمظاهر الخارجة عن الشريعة الإسلامية التى كانت تصحب وفود الحجيج من مصر والشام والدولة العثمانية، وهو أمر كان يمثل ضروريات الإلتزام بمنهج الدعوة (٤٣)، إلى جانب إغلاقهم لزوايا الدراويش الصوفية الموجودة فى مكة والمدينة التى ازدادت منذ بداية العصر العثمانى، وهو أمر أوحى بإنهائهم للنفوذ العثمانى المساند لهذه المظاهر والذى لم يكن يعنى النفوذ السياسى العثمانى كما سبق التوضيح (٤٤) .

ومع ذلك فإن الموقف المهاجم من قبل الدولة العثمانية للدولة السعودية قد اقتصر على سعيها لعودة نفوذها السياسى على منطقة الحجاز ثم بعد ذلك الإحساء وكانت مهاجمتها لمنهج دعوة التوحيد لا تعدو أن تكون مبررا لهذا الأمر(٤٥).على أن موقف الشريف غالب شريف مكة قد ساعد الدولة العثمانية فى موقفها المعادى للسعوديين حيث رأى فى سيطرة هم على الحجاز تهديدا لمركزه السياسى والاقتصادى بشكل لم يكن يسمح له بالتصرف الكامل ــ كما كانت عادة الأشراف ــ فيما يفد إليه باسم فقراء مكة والمدينة من أوقاف وصدقات وهبات وعطايا والذى كان الأشراف يستأثرون بنصيب كبير منه لأنفسهم (٤٦) . وعلى الرغم من تأمين االسعوديين له ــ أي الشريف ــ على مركزه السياسى حيث أبقوه فى منصبه فى أعقاب دخولهم مكة سنة ١٢١٧هـ ــ ١٨٠٣م مقابل التزامه بتنفيذ مبادئ الدعوة إلا أن حرصه على مكانته الاقتصادية المرتبطة بنفوذه السياسى قد دعاه لإضمار العداء لهم، ومن هنا فإن عداءه للدعوة السلفية كان من منطلق مصلحى وليس موقفا تمليه المبادئ (٤٧) .

ويعد موقف الإنجليز العدائى من هذه الدعوة هو الموقف الرئيسى، فلم يكن بوسع الدولة العثمانية أن تصطدم مع الدولة السعودية صداما عسكريا مباشرا وذلك نظرا لما تحملته قواتها العسكرية فى الحروب مع روسيا . ثم محاولتها الدفاع عن مصر ضد الحملة الفرنسية التى قادها " نابليون بونابرت " سنة ١٢١٢هـ ــ ١٧٩٨م تلك الحملة التى أكدت عجز القوات العثمانية وضعفها عن القيام بمهمة الدفاع عن الأراضى التابعة لها . كما أن هذه الحملة قد أثارت فى

نفس الوقت شعور المسلمين فى المنطقة ضد الفرنسيين،والأوروبيين بصفة عامة، مما وضع إحتمال تجمعهم حول القوة السلفية الإسلامية الجديدة .

على أن ما ينبغى ملاحظته هو أن قيام قوات "محمد علـــى" ـــ ولا نقـــول القوات المصرية ـــ بمهاجمة الدولة السعودية لم يكن امتثالا منه لطلبات أو أوامـــر الدولة العثمانية (٤٨)، تلك الطلبات أو الأوامر التى مارس الإنجليز ضغوطا شديدة على السلطات العثمانية فى سبيل إصدارها وبخاصة بعد تحسن العلاقات الإنجليزية العثمانية منذ سنة ١٢٢٤هـــ ١٨٠٩م (٤٩)، والتى اتخذ منها " محمـــد علـــى " وحلفاؤه البريطانيون ذريعة لتدخلهم وستارا لطبيعة الدور الذى لعبوه فى المنطقة، حيث كان تعبيرا عن توافق أطماع " محمد على" وسياسته مـــع أبعـــاد السياســـة الاستعمارية فى المنطقة العربية وبخاصة مع الإنجليز(٥٠)، فكـــان الإنجليز أول من هنأوا إبراهيم باشا بسقوط الدرعية (٥١)، كما أن انجلترا كانت تخشـــى مـــن تكوين وحدة سياسية إسلامية كبيرة فى المنطقة وهذا ما يبدو فى رسالة الحـــاكم البريطانى فى الهند إلى إبراهيم باشا والتى هنأه فيـــها بالقضـــاء علـــى الدولـــة السعودية حيث ذكر " أن الهزيمة والانهيار الكامل لدولة ما بعد ارتفاع غير عـــادى إلى درجة السمو أمر أدعى للسرور أن تنفردوا فخامتكم بإخضاعها " (٥٢) .

كما أن الرسائل المتبادلة بين الجانبين تؤكد وجود تنسيق بينهما، ولعـــل أهم الدلالات التى تؤكد ذلك توافق سقوط الدرعية فى يد " إبراهيم باشـــا " ســـنة ١٢٣٤هـــ ١٨١٩م، مع سقوط رأس الخيمة مقر قوة القواســـم المتحالفـــة مـــع السعوديين فى يد الإنجليز سنة ١٢٣٤هـــ ١٨١٩م (٥٣) . وقد أرسل الحاكم العام الإنجليزى فى الهند إلى ابراهيم باشا يهنئه على نجاحه فى القضاء علـــى الدولـــة السعودية، وعبر القنصل البريطانى فى القاهرة عن فرح بـــلاده لانـــهيار الدولـــة السعودية. أما " فرنسيس واردن " فقد عبر عن كره المسئولين البريطانيين للدولة السلفية فكتب يقول : " هكذا قامت وهكذا سقطت ويا ليتها لا تقوم مـــرة أخـــرى طائفة الوهابية تلك الطائفة الشاذة التى حمت وشجعت القرصنة البحرية فى الخليج والبحار الهندية بكل جرأة وبربرية (٥٤) .

أما الدعوة السنوسية فى برقة فقد ارتبط قيامها ودورهـــا فـــى البدايـــة بعوامل محلية تتمثل فيما شاب المجتمع من شوائب أكدت الابتعاد عـــن الشـــريعة الإسلامية لدرجة دعت بعض البدو لإقامة "كعبة" فى الجبل الأخضر علـــى غـــرار البيت الحرام فى مكة المكرمة، وطالبوا الناس بالحج إليها، فضـــلا عـــن بعـــض

العادات التى كانت تشير إلى ضعف الالتزام بالتعاليم الإسلامية كوأد البنات وعدم صوم شهر رمضان وغير ذلك من الظواهر التى لعبت الظروف الاقتصادية فيها دورا واضحا والتى دعت إلى ضرورة وجوب دعوة للعودة للمنهج الإسلامى الصحيح كالتى قام بها السنوسى (٥٥) .

وعلى الرغم من ارتباط دور السنوسية بعوامل أخرى خارجية تتمثل فى الهجوم الاستعمارى الفرنسى على الجزائر، بل ربما كانت فى رأى البعض رد فعل مباشر له (٥٦)، إلا أن ذلك الدور لم يصطدم مع دور دولة الخلافة العثمانية فى محاولة مقاومة الهجوم الاستعمارى الغربى على المنطقة العربية بشكل عام ومنطقة البحر المتوسط بشكل خاص، بل كانت فى أغلب المراحل تأييدا له . ومع ذلك فقد تأثر صاحب الدعوة السنوسية بسقوط الجزائر، فاتهم الدولة العثمانية بالتقصير فى حماية الأقطار الإسلامية، ورأى أنها فى طريقها إلى التدهور، وأن من أهم الظواهر التى دعته إلى ذلك هو سيادة العناصر التركية واستبعاد العناصر العربية والاسلامية بشكل عام مما يشير إلى تسرب بعض الأفكار القومية . ووضع تصورا لما ينبغى أن تكون عليه الخلافة الإسلامية فى حالة سقوط الخلافة التى أصبحت تركية فرأى أن يكون الخليفة من قريش ومن سلالة النبى (صلى الله عليه وسلم) (٥٧) .

ومع ذلك أكد صاحب الدعوة السنوسية على ضرورة الارتباط وإظهار الولاء لدولة الخلافة العثمانية ولخليفة المسلمين فيها، ورأى أن معاداتها أو الخروج عليها أمر خاطىء وغير واجب. ولم يكن ذلك نابعا من خشية السنوسيين من الصدام مع العثمانيين كما حدث مع الدعوة السلفية كما يرى البعض حيث رفض السنوسيون الاستقلال عن دولة الخلافة فى أعقاب دخول الإيطاليين إلى طرابلس سنة ١٣٢٨هـ ١٩١١م، كما أنهم لم يبدوا حرصا على ذلك بعد استكمال قوتهم فى مراحل تالية (٥٨) .

وتولى السنوسيون تحصيل الضرائب للدولة العثمانية، وأكد دعاتها دوام ولائهم للسلطان العثمانى، كما منحهم السلاطين إعفاء لأملاكهم من الضرائب، وأيدوا دورهم فى التوسع لنشر الإسلام داخل القارة الإفريقية، وكذلك فى دعم حركة المقاومة ضد الدول الأوروبية فى البحر المتوسط .

وقد أثار دور السنوسية الدول الأوروبية التى خشيت على مصالحها الاقتصادية فى إفريقيا التى سعت لإثارة السلطان عبد الحميد الثانى عليها مما دعا

السلطان لإرسال وفد للوقوف على أحوال السنوسية وقوتها(٥٩)، لكن ذلك لم يؤد إلى انتهاء علاقة الود والتفاهم،بل إن السنوسية قد دعت إلى دعم سياسة عبد الحميد الإسلامية، وأعلنت معارضتها لدعاة الاتجاه القومي في تركيا، واستنكر السنوسيون ما أقدم عليه الاتحاديون من خلع السلطان عبد الحميد .

وفي أعقاب الحرب الطرابلسية سنة ١٣٢٨هـ-١٩١١م والتي احتلت بعدها إيطاليا ليبيا وانسحاب القوات العثمانية أبدى السنوسيون اعتراضهم على انسحاب هذه القوات،كما رفضوا قبول الاستقلال الذي منحه لهم السلطان العثماني، ورفضوا كذلك قبول الدولة للصلح مع الإيطاليين (٦٠) .

أما عن الدعوة المهدية في السودان فتختلف ظروفها عن ظروف الدعوتين السابقتين، فالسودان لم يرتبط بدولة الخلافة العثمانية بشكل مباشر وإنما تعرض لاستعمار كان دافعه أطماع محمد علي والي مصر، ثم تعرض لاستعمار إنجليزي بعد وقوع مصر تحت الاحتلال الإنجليزي سنة١٢٩٩هـ-١٨٨٢م، ولذلك فإن الدعوة المهدية تعد في الغالب حركة محلية بدت في قالب ديني لاستنادها إلى الطرق الصوفية، كما أن هذه الدعوة قد حظيت في البداية بمساندة - غير مباشرة - من السلطات البريطانية، حيث رأت بريطانيا فيها سبيلا يساعدها على التدخل في شئون السودان واحتلاله بعد ثبوت عجز القوات التابعة لوالي مصر، وكان ذلك يسهم في دعم نفوذ بريطانيا في منطقة القرن الإفريقي، وكذلك فإن دعوة المهدي بضرورة انتقال الخلافة إلى مكة المكرمة ونزعها من الأتراك يوافق أهداف الإنجليز في المنطقة . وقد أثار الإنجليز محاولة السلطان عبد الحميد التوفيق بين الدعوة المهدية والدعوة السنوسية للحفاظ على الوجود الإسلامي ومحاولة انتشاره داخل القارة الإفريقية، ولهذا استفاد الإنجليز من نزعة المهدي العدائية ضد الخلافة في البداية، ثم سعوا للقضاء عليه خشية انتشار الروح الإسلامية المساندة له والتي فاقت تصورهم وتحدت وجودهم في النهاية (٦١) .

الهـــوامـش

(١) د . عبد الرحيم عبد الرحمن : دراسات فى تاريخ العرب الحديث ص ١٠٥ .

(٢) برنارد لويس : الغرب والشرق الأوسط ص ١٠٩ .

(٣) د . رأفت غنيمى الشيخ : دراسات فى تاريخ العرب الحديث والمعاصر ص٦٥ .

(٤) المرجع السابق ص٦٧ .

(٥) المرجع السابق ص١٠٠ .

(٦) د . عمر عبد العزيز : تاريخ المشرق العربى ص١٤٥ .

(٧) د . رأفت الشيخ : المرجع السابق ص١٠١ .

(٨) الجبرتى : عجائب الآثا ر، جـ١ ص٣٩٩ .

(٩) الجبرتى : المرجع السابق ج٢ ص٢١٧، د . رأفت الشيخ : المرجع السابق ص١٠١

(١٠) د . عمر عبد العزيز : المرجع السابق ص١٤٤ .

(١١) أرسل على بك رسالة إلى أهالى دمشق قبل شروع قواته فى دخولها استخدم فيها العـامل الدينى لإثارة الناس ضد الوالى العثمانى عثمان بك دون أى إشارة إلـى تمـرده علـى السلطان العثمانى وهذا يؤكد سيادة العامل الدينى على غيره من العوامل د . عبد العزيـز نوار : الوثائق السياسية، ص١٣٦-١٣٧ .

(١٢) د . رأفت الشيخ : المرجع السابق ص٧٧ .

(١٣) د . عمر عبد العزيز : المرجع السابق ص١٦٩ .

(١٤) د . أحمد عزت عبد الكريم : دراسات فى تاريخ العرب الحديث ص٧٥ .

(١٥) د . أحمد عزت عبد الكريم : المرجع السابق ص١٧٦ ؛ د . عمر عبد العزيز: المرجـع السابق ص١٧٢، وعن استخدام دوق تسكانا لفخر الدين المعنى الثانى كورقـة للضغـط على الباب العالى أنظر : د . عبد العزيز نوار : وثائق سياسية من تاريخ لبنان الحديـث ١٥١٧-١٩٢٠م، لبنان سنة ١٩٧٤م، ص٥١، ٥٤، ٦٦، ٧٤ حيث ورد نص مشـروع عقد معاهدة بين الأمير فخر الدين المعنى الثانى وتسكانيا والبابوية أواخر سنة ١٦٣٤م.

(١٦) د . رأفت الشيخ : المرجع السابق ص٦٩ .

(١٧) برنارد لويس : المرجع السابق ص٩٣ .

(١٨) د . أحمد عزت عبد الكريم : المرجع السابق ص٨٢ .

(١٩) د . عمر عبد العزيز : المرجع السابق ص١٤٨ ؛ وكانت هناك اتصالات بين ظاهر العمر وكل من فرنسا وفرسان القديس يوحنا فى مالطة : د . رأفت الشيخ : المرجع السابق ص٨٠ .

(٢٠) د . أحمد عبد الرحيم مصطفى : فى أصول التاريخ العثمانى ص١٦٥ .

(٢١) د . عبد الكريم غرايبة : تاريخ العرب الحديث، ص٥٣ .

(٢٢) د . عبد الرحيم عبد الرحمن : المرجع السابق، ص١٩٥، ١٩٦ .

(٢٣) على معتوق عبد الله القط : الحجاز فى القرن الثامن عشر ـ رسالة ماجستير غير منشورة ـ معهد البحوث والدراسات العربية ـ القاهرة سنة ١٩٦٩م، ص٥٠ ـ ٥٣ .

(٢٤) د . أحمد عزت عبد الكريم : المرجع السابق ص٦٧ .

(٢٥) د . رأفت الشيخ : المرجع السابق ص٨٣، ٨٤ .

(٢٦) د . أحمد عزت عبد الكريم : المرجع السابق ص٦٩ .

(٢٧) د . أحمد عبد الرحيم مصطفى : المرجع السابق ص١٦٤ .

(٢٨) د . عبد العزيز الشناوى : الدولة العثمانية جـ١ ص٤٩٨ .

(٢٩) المرجع السابق ص٥٠٠ .

(٣٠) المرجع السابق ص٥٥٢ .

(٣١) د . رأفت الشيخ : المرجع السابق ص٥٢ وما بعدها .

(٣٢) د . عبد الرحيم عبد الرحمن : المرجع السابق ص١٠٤ وقد اعتبرها يقظة للوعى القومى .

(٣٣) أنور الجندى : اليقظة الإسلامية فى مواجهة الاستعمار منذ ظهورها إلى أوائل الحرب العالمية الأولى ـ دار الاعتصام ـ القاهرة ١٩٧٨م، ص٦٧، ٦٨ .

(٣٤) برنارد لويس : الغرب والشرق الأوسط ص١٥٤ .

(٣٥) د . رأفت الشيخ : المرجع السابق ص١٢٣ .

(٣٦) د . صلاح العقاد : التيارات السياسية فى الخليج العربى ص٥٨، ٥٩، ٩٧ . ؛ د .سليمان الغنام : قراءة جديدة لسياسة محمد على التوسعية ص٣٤ .

(٣٧) د . سليمان الغنام : المرجع السابق ص٢٦ .

(٣٨) د . فائق حمدى طهبوب : تاريخ البحرين السياسى، ص٨٧ ؛ خير الدين الزركلى : شبه الجزيرة فى عهد الملك عبد العزيز، جـ١، ص٣٨ . ولعل فى ذلك وغيره رد على اتجاهات بعض كتبة التاريخ الذين يحاولون تصوير العلاقة بين الدولة العثمانية والدعوة السلفية بالعداء الشديد، وكذلك تصوير الحركة السلفية فى إطار يقظة قومية .

(٣٩) د . فاروق أباظه : عدن والسياسة البريطانية فى البحر الأحمر ١٨٣٩-١٩١٨،ص٧٣ .

(٤٠) د . سليمان الغنام : المرجع السابق، ص٢٦ ؛ وتتوافق الوثائق التى تشير إلى الرسائل المتبادلة بين محمد على والباب العالى فى التعبير عن مدى طاعة محمد على للسلطان وإن كانت لا تحدد تفسيرا المحاولات محمد على فى نجد وساحل الخليج وتطلعاته فى اليمن والتى أعقب انسحابه منها ودخول البريطانيين فيها، أنظر مجموعة الوثائق الخاصة بشبه الجزيرة العربية فى عصر محمد على . د . عبد الرحيم عبد الرحمن .

(٤١) أحمد فهد بركات الشوابكة : الجامعة الإسلامية، ص١٧، أشار يوسف كنج والى دمشق فى رسالة منه إلى محمد على بأن الشيخ محمد بن عبد الوهاب يجسد السلطان على خلافته للمسلمين ونادى بنفسه خليفة شرعى، وجاء هذا فى إطار تحفيزه على عمل عسكرى ضد الدعوة السلفية بعد أن خشى تهديدها له فى الشام فى حين لم يثبت ذلك على أى من أتباع هذه الدعوة . وثائق أساسية من تاريخ لبنان الحديث - تعليق د . عبد العزيز نوار - بيروت سنة ١٩٧٤، ص١٨٤ .

(٤٢) أحمد فهد الشوابكة : المرجع السابق ص١٧ .

(٤٣) محمد أديب غالب : من أخبار الحجاز ونجد فى تاريخ الجبرتى ص١٠٩ .

(٤٤) برنارد لويس : المرجع السابق ص١٥٣؛ ولا تتفق مع ما أورده حول اتهام السعوديين للسلطان العثمانى باغتصاب السلطة وأن الهجوم قد اقتصر على مسائل شرعية، كما لاتتفق مع جورج أنطونيوس فى نفس الاتجاه أنظر : جورج أنطونيوس : اليقظة العربية ص٨٣ .

(٤٥) د . عمر عبد العزيز : المرجع السابق ص٢١٦ .

(٤٦) إبراهيم محمد الصبحى : الحجاز فى القرن السابع عشر ـ رسالة ماجستير غير منشورة ص١٠٣ .

(٤٧) محمد أديب غالب : المرجع السابق ص١٠٦، ١٠٧ .، د. رأفت الشيخ : المرجع السابق ص١٣٩ . وقد التقى هذا البعد مع مصلحة العثمانيين الاقتصادية التى أصبحت غالبة على البعد الدينى وتستعمله لهذه المصلحة، وبالطبع كانت علاقة العثمانيين مع الإنجليز ومع محمد على كلها علاقات تحكمها المصالح الاقتصادية .

(٤٨) يذكر الدكتور محمد فؤاد شكرى أن محمد على كان يرتاب فى نوايا الباب العالى تجاهه فى طلبهم محاربته للدعوة السلفية وكان لايزال متأثرا بحادث نقله إلى سالونيك ولهذا تعلل كثيرا فى عدم الإقدام على مهاجمة الجزيرة العربية . جـ٢ ص٩٩٠، ٩٩١ . وقد طلب محمد على تأمينه فى حالة هجوم أى دولة أجنبية على مصر فى غياب جنده، ولم

يكن بوسع الباب العالى طمأنته على ذلك وهو أمر يؤكد أنه لم يخرج جنـده إلا بعـد أن إطمأن بنفسه من الإنجليز .

(٤٩) د . سليمان الغنام : المرجع السابق، ص٢٨ .

(٥٠) جورج أنطونيوس : المرجع السابق، ص٨٣ . ولا يستبعد مساندة الفرنسـيين لمؤامـرة جمعت بين سليمان باشا والى الشام والمماليك فى مصر ضـد محمـد علـى وحلفـاؤه الإنجليز ومحاولة محمد على التستر بكسب ود الباب العالى بهذه الحملة . د. عبد العزيز نوار: الوثائق السياسية، ص١٩٥ .

(٥١) د . بدر الدين عباس الخصوصى : دراسات فى تاريخ الخليج العربى، ص ١٩٨ .

(٥٢) د . عبد الرحيم عبد الرحمن : دراسات فى تاريخ الحرب الحديث، ص١٨٩ .

(٥٣) د . محمد أنيس : الدولة العثمانية والمشرق العربى، ص ١٩٧، وقد أثار تحالف محمـد على مع الإنجليز مخاوف الدولة العثمانية فى هذه المرحلة فكتب السلطان العثمانى إلـى محمد على يقول : " إن من لوازم الحكمة عدم الانخداع بحيل الإنجليز إذ ليس قصدهـم من ذلك سوى إيجاد ذريعة للتسلط على تلك الجهات وأن مرماهم ـ كما هو مبيـن فـى المذكرة التى قدمها سفير فرنسا ـ هو الاستيلاء على بعض تلك الجهات " وثائق عابدين ـ وثيقة رقم ٢٧ محفظة رقم ٢ لعام ١٢٣٥هـ .

(٥٤) د . عبد الرحيم عبد الرحمن : الدولة السعودية الأولى، ص٢٧٠ - ٢٧٢ .

(٥٥) د . رأفت الشيخ : المرجع السابق، ص١٥٩ .

(٥٦) أنور الجندى : المرجع السابق، ص٦٧ .

(٥٧) د . رأفت الشيخ : المرجع السابق ص١٨٤ .

(٥٨) المرجع السابق ص١٨٤ .

(٥٩) تولت الدعوة جمع المال المستحق من الأهالى للدولة كى تبدو فى صورة قريبة من دولـة الخلافة الأمر الذى يشير إلى أهمية البعد الاقتصادى سواء فى موقف الدولة العثمانيـة أم فى موقف الدعوة نفسها .

(٦٠) المرجع السابق ص١٨٨ .

(٦١) أحمد الشوابكة : المرجع السابق ص١٩ .

الفصـــل الثــالــث

نشأة القوى السياسية فى الخليج العربى بين البعد الإسلامى والإطار القومى

- الطابع الإسلامى للقوى السياسية على ساحل الخليج العربى .
- اليعاربة والبوسعيديون فى عمان .
- القواسم .
- الدعوة السلفية فى الخليج العربى .
- بنو خالد فى الإحساء .
- هجرة العتوب وتكوين الكويت وقطر والبحرين .

الطابع الإسلامي للقوى السياسية على ساحل الخليج العربي :

يرجع كثير من المؤرخين من أصحاب المنظـــور القومـــي قيـــام الوحـــدات السياسية في الخليج العربي إلى كونها تجمعات عشائرية وقبلية (١)، وينطـــوي هذا المنظور على إغفال ـ متعمد ـ لدور العامل الديني في نشأة هـــذه الكيانـــات وكذلك في استمرارها حتى استقرارها في النهاية .

ومع التسليم بأن التجمعات العشائرية أو القبلية قد ظهرت على الســـطح لهذه القوى، ولعبت دورا واضحا في مراحل التكوين والاستقرار وما تخللها مـــن أحداث سياسية وهو ما يرتكز عليه المؤرخون القوميون، إلا أن ما أحـــاط هـــذه العشائر أو القبائل من قوى وتجمعات من عناصر إسلامية مختلفة والتـــي كـــانت تمثل النسبة الأكبر، إلى جانب طبيعة الأهداف والدوافع التي استوجبت حدوث هذه التجمعات، يدعو إلى التأكيد بأنها تجمعات أو كيانات إسلامية أكـــثر مـــن كونـــها تجمعات أو كيانات أو قوى ذات بعد قومي أو عرقي، وبالتالي يصبح مـــن غـــير الموضوعية حصرها في إطار قومي محدود حتى ولو كانت الظـــروف السياســـية اللاحقة قد أسهمت في ظهورها أو في استمرارها في هذا الإطار .

وتؤكد الدوافع الحقيقية التي ساعدت على تكوين هذه القوى صحة ما نرمـــي إليه من رجوح العامل الديني على غيره من العوامل، ولعل أهم هذه الدوافع هـــو الجهاد ضد التدخل الأجنبي في الخليج بعد تعرض الدولة العثمانية لعوامل الضعف الذي جعلها غير قادرة على القيام بمواصلة مقاومة التدخل، أو ربما جعلها تغيـــب عن الساحة الخليجية إلى ساحات أخرى إستوجبت المزيد من الإهتمـــام . وقـــد أسهم هذا الغياب العثماني إلى بروز قوى محلية لتتولى مهمة الجهاد كاليعاربـــة والبوسعيديون والقواسم وغيرهم (٢) .

كما أن هناك عامل آخر أسهم في إستقطاب هذه القوى والكيانات إلى ســـاحل الخليج وهو العامل الإقتصادي الذي يرجع إلى عوامل جغرافية داخـــل الجزيـــرة العربية كالجفاف والجدب الذي عادة ما يؤدي إلى ضعف موارد البيئة الصحراوية أو المناطق الموازية المحيطة بها أو الموجودة على الساحل المقابل في الخليـــج، وفي المقابل توفر أنشطة أكثر كسبا على ساحل الخليج كصيد الأســـماك واللؤلـــؤ والإسفنج المستخرج وغير ذلك . إلى جانب عوامـــل سياســـية تتصـــل بإهمـــال السلطات العثمانية أو غيرها للتنمية في بعض المناطق الداخلية، وكذلـــك حـــدوث

بعض الصدامات والتنافس بين القوى المحلية التى أسهمت فـى هجـرة بعـض العناصر إلى ساحل الخليج .

ومما لا شك فيه أن هذه العوامل مجتمعة لا تفرض تكون مجتمـع تجمعـه وحدة العرق على ساحل الخليج بل عناصر تجمعـها وحـدة الـهدف أو وحـدة المصالح أو هما معا وهو ما يدعو لأن نرجح البعد الإسلامى كإطار لهذا التكويـن أكثر من البعد القبلى أو العرقى وبحكم أن الجهاد الديني أو الدوافـع الإقتصاديـة يلتقيان فى كونهما جهاد لتقوية المجتمع والحفاظ عليه، وكذلك لأن هذه العوامل لا تفرض هجرة تجمعات قبلية كاملة بل تفرض هجرة العناصر أو الشرائح الضعيفـة إقتصاديا أو المدفوعة للجهاد فيها، وأن تكون مصالح لهذه الشرائح على سـاحل الخليج بعد هجرتها يفرض عليها مواصلة الدفاع عن مصالحها أو أهدافها وهـذا أقرب إلى الإطار الإسلامى منه إلى الإطار القبلى .

ولا يتعرض هذا المفهوم للتغيير فى سبق العوامل الإقتصادية علـى عـامل الجهاد فى فترة لاحقة حين لعب العامل الإقتصادى دورا رئيسيا فى تشكيل القـوى السياسية الخليجية بعد أن نجح السياسيون الغربيون فى ربط مصالح بعض الفئات بمؤسساتهم الإقتصادية جعلتهم يرتبطون بالمصالح ويفضلون الأطـر السياسـية المحلية على البعد القومى العربي العام أو الدينى حماية لهذه المصالح .

على أن ذلك لا ينفى الطابع العربى لهذه التجمعات أو القوى الخليجية حيـث أنه الطابع الحضارى الذى لازم البعد الإسلامى منذ ظهور الإسلام وحتى التـاريخ الحديث، بل إن هذا الطابع هو المميز لحضارة الجانب الشرقي للخليج والجـانب الغربى منه أيضا. فقد حافظت العناصر السكانية فى ضفتى الخليج على هذا الطابع العربى الحضارى فى العصور التى كان العامل الدينى هو العامل الأساسى فيها، ثم حدث بعض التحول النسبى لهذا الطابع فى أعقاب ظهور الطابع القومى المحلـى والعوامل الإقتصادية والسياسية .

ولا نتفق مع الذين يحاولون تأكيد الطابع العربى للخليج مـن خـلال البعـد العرقى القومى المتمثل فى تتبع هجرة القبائل العربية إلى ساحل الخليـج وجـزر البحرين منذ العصور القديمة السابقة على الإسلام ذلك لأن العناصر الفارسية هـى الأخرى كان لها تواجدها منذ مساندتها لحركة مقاومة الأحباش فى اليمن على يـد سيف بن ذى يزن وقبلها، وكذلك منذ حملات قمبيز على الشام ومصر، فضلا عـن استمرار الوجود الفارسى فى العراق وحكمهم للمنـاذرة العـرب قبيـل الإسـلام

مباشرة، وربما يكون تأثير العناصر الفارسية أكثر رجوحاً بحكم سبق وقوة تأثير حضارتهم عما يمكن أن نسميه بالحضارة العربية التى لم تكن تعرف أى قدر من الشهرة والذيوع والتأثير إلا مع قدوم الإسلام . ولهذا فإن تأكيد الطابع العربى للخليج من خلال البعد الحضارى الإسلامى أكثر قبولاً وموضوعية من البعد العرقى القومى، كما أنه يغلق الطريق أمام الأطماع القومية والإقليمية، فضلاً عن توافقه مع الأحداث التاريخية .

اليعاربة والبوسعيديون فى عمان :

لا يقتصر الأمر فى كون التجمعات أو الكيانات الخليجية ذات بعد إسلامي وليست قبلية أو عشائرية على الدوافع التى كانت وراء تكوينها فقط بل يتضح هذا البعد أيضا فى مراحل وجودها وتكوينها منذ البداية كذلك، فتعود بداية تكوين أقدم هذه القوى وهى قوة اليعاربة فى عمان إلى أتباع المذهب الأباضى حيث استقطبت هذه المنطقة بطبيعتها الجغرافية جموعاً من أتباع هذا المذهب الذين وفدوا إليها منذ القرن الأول الهجرى وبعده حيث وجدوا فيها ملاذاً بعيداً عن متابعة الحكومات المركزية فى دمشق ثم بغداد خلال مرحلتى الدولة الأموية والدولة العباسية وما بعد ذلك، وتحصّن هؤلاء بطبيعة المكان الذى تفصله صحراء الربع الخالى وساحل البحر الذى يمكن ارتياده إذا ما واجهوا هجوماً، وبالتالى فإن أساس تواجدهم يرجع إلى عوامل دينية لا إلى عوامل قومية عرقية قبلية .

وتخللت فترة وجود الأباضيين فى عمان فترات محدودة قاموا فيها بحكم أنفسهم كنتيجة للإضطرابات أوالإنقسامات التى كانت تتعرض لها الحكومة المركزية في عاصمة الخلافة أو بسبب ضعف قبضتها على كافة مناطق الدولة الإسلامية، ولكن ذلك كان يتم دون إعلان أو حتى ميول للإنفصال عن الدولة الإسلامية المركزية .

وكان النظام السياسى الذى التزم به الأباضيون فى حكمهم لأنفسهم يرتكز على أساس دينى مذهبى لا على أساس قبلى عرقى بالطبع وإن كانت بعض القبائل قد شاركت فى الحكم فى حدود منطقتها فكان من يختارونه لقيادتهم هو إمام تتوفر فيه شروط الفضيلة والتقوى، ولهم الحق فى عزله أو الثورة عليه إذا ما افتقد هذه الشروط أو بعضها، وهذا غير جائز أو معمول به فى النظام القبلى، كما أنهم لم يكونوا يشترطوا وجود الإمام بل يمكن الاستغناء عنه إذا ما كانت

الظروف غير ملائمة وهى التى يطلقون عليها فترات" الكتمان "، كما كان الخروج من ظروف " الكتمان " إلى مرحلة " الظهور" أمر كان يقرره المشايخ والقضاة فى اجتماع سرى بينهم (٣) .

وبعد قيام دولة اليعاربة إحدى مراحل الظهور لأتباع المذهب الأباضى فى عمان، ذلك المذهب الذى ساهم فى تكوين إطار إقليمى ثم قومى، فكما يشير المؤرخ العمانى " السالمى" أن علماء الدين قد اتفقت كلمتهم على " أن ينصبوا لهم إماما يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر فوقعت خيرتهم على" ناصر بن مرشد " فرضى به الجميع وعقدوا عليه الإمامة بالرستاق (٤). وكان أول عمل قام به الإمام " ناصربن مرشد " ١٠٣٣- ١٠٥٨هـ/١٦٤٢- ١٦٤٩م، وهو أول حكام اليعاربة، وبعد توحيده المنطقة، هو العمل على تطهير منطقة عمان من البرتغاليين أو الإيرانيين الذين كانوا يحاولون أن يحلوا محل البرتغاليين فى الخليج، ونجح الإمام ناصر وخليفته الإمام " سلطان بن سيف " ١٠٥٨- ١٠٧٧هـ/١٦٤٩- ١٦٦٨م، فى طرد البرتغاليين من الخليج وتعقبهم إلى سواحل الهند وسواحل شرق إفريقيا (٥) .

واستطاع الأئمة فى عمان أن يمهدوا لسيطرة تعتمد على العامل الدينى فى بعض مناطق شرق إفريقيا كانت مملوكة للاستعمار البرتغالى (٦)، فقد وصل أسطول المجاهدين المنطلقين من الساحل العمانى فى عهد الإمام " سلطان بن سيف " إلى بمباى وحاصر مستعمرات البرتغاليين فيها، واستمر فى حصارها خمس سنوات حتى استولى على قلعتها ثم واصل سيطرته على بعض الجزر مثل زنجبار، فكانت أعماله هذه مقدمة لسيادة القوى المجاهدة المنطلقة من الساحل العمانى وحكمهم لهذه المنطقة بعد ذلك (٧)، ولعل العامل الدينى قد لعب دورا هاما فى مساعدة وتبرير هذه التوجهات على الساحتين الهندية والإفريقية .

وخلفه إبنه " سيف بن سلطان " ١١٠- ١١٢٦هـ/١٦٩٢- ١٧١١م، الذى واصل سياسة الجهاد ضد البرتغاليين على الساحل الإفريقى وعلى سواحل الهند مستعينا بالعامل الدينى أيضا، فكون لذلك أسطولا ضخما تمكن به من الإستيلاء على مجموعة من جزر الساحل الهندى مثل " بارسالور" و" مانجلور" وضمها إلى سلطته .

على أن الحروب الأهلية قد سادت عمان فى أعقاب وفاة الإمام " سلطان بن سيف " الذى كان قد خلف أبيه، وفتحت هذه الصراعات الباب للتدخل الخارجى من

القوى الأوروبية أو الصفويين فى إيران علاوة على الضعف الذى أصاب هذا الكيان السياسى الإسلامى الناشىء .

ولعل ما يمكن إدراكه هو أنه حين كانت الإمامة إطارا لاختيار الحاكم، وكان الجهاد هدفا لهذا الإختيار، ظهر هذا الكيان السياسى فى صورة قوية ومهابة من كافة القوى الطامعة، وحين تدخلت الصراعات القبلية العرقية وطمعت فى الحصول على المناصب السياسية، وتراجع الجهاد عن كونه هدفا أساسيا، فتح الباب على مصراعيه للتدخل الأجنبى الذى زاد من ضعف هذا الكيان السياسى .

دولة البوسعيد :

كان من نتيجة الحرب الأهلية والصراع على السلطة إتجاه الإمام " سيف بن سلطان الثانى" إلى الإستعانة بالصفويين فى إيران وبعض عناصر المرتزقة بسبب فقدانه التأثير علي المواطنين والتفافهم حول إمام آخر هو " بلعرب بن حمير" ١١٤٨هـ-١٧٣٣م، وتدخلت القوات الإيرانية بناء على طلب الإمام " سيف " ودخلت ميناء جلفار بعد أن هزمت قوات بلعرب، وانتهزت العناصر الإيرانية الفرصة وبسطت نفوذها على البلاد الأمر الذى أثار مخاوف الإمام سيف نفسه .

وفى أعقاب تعزيز الإيرانيين لقواتهم فى عمان وبشكل زاد من حجم سيطرتهم عليها وأثار المزيد من مخاوف الإمام، سارع الإمام سيف بعقد صلح مع خصمه " بلعرب بن حمير" الذى تنازل له عن الإمامة (٨)، وسعى الإمام سيف إلى التقرب إلي الناس وإثارتهم ضد الوجود الإيرانى، وبالفعل واصل المواطنون الهجوم على القوات الإيرانية حتى اضطرت فى النهاية للإنسحاب من ساحل عمان .

إلا أن عودة " سيف بن سلطان " إلى سياسة الإنصراف عن شئون الرعية والإنغماس فى حياته الخاصة قد دعت أهل البلاد للتمرد عليه وبايعوا إماما آخر هو" سلطان بن مرشد " ١١٥٣هـ ١٧٣٨م، ولم يجد الإمام سيف أمامه سوى العودة للإستعانة بالإيرانيين مقابل الإعتراف بنفوذهم فى صحار، وقدم الإيرانيون بقواتهم ثانية ١١٥٧هـ-١٧٤٢م، وتهيأ الناس بزعامة الإمام " سلطان بن مرشد " للمقاومة، وظل " سيف بن سلطان " فى الرستاق حتى مات، فى حين قتل منافسه " سلطان بن مرشد " فى الحرب ضد الإيرانيين ١١٥٨هـ-١٧٤٣م، مما أتاح الفرصة لحاكم إقليم صحار" أحمد بن سعيد " لأن يظهر على الساحة السياسية،

واستطاع أن يجمع الأهالى حوله بعد مهادنة مؤقتة للإيرانيين، ثم أعلن الحـــرب عليهم حتى أجلاهم عن الساحل العمانى، وكان هذا كفيلا بمبايعته إماما على البلاد وبداية حكم أسرة البوسعيد (٩) .

السلطان أحمد بن سعيد :

على الرغم من اختلاف الآراء حول اكتمال البيعة له إلا أنه بغض النظـــر عن ذلك واجه العديد من المشكلات الخارجية والداخلية، أما من حيث المشـــكلات الداخلية فحاول أن يتجنب أى إثارة من جانب اليعاربة الحكام الســـابقين فتقـــرب منهم بالمصاهرة . ثم حاول التقرب إلى عرب الغفارية فى الشمال حيـــث أطلـــق يدهم فى إقليم الظاهرة .ومع ذلك أتته الإضطرابات من مكمنه حيث ثـــار أبنـــاؤه عليه، وما إن مات حتى تجمعت الكلمة حول إبنه "سعيد " (١٠) .

سعيـــد بن أحمـــد :

لم يكن " سعيد بن أحمد " بأحسن حظ من والده حيث حاصرته الصراعـــات الداخلية الأسرية، فقد تمكن إبنه " حمد بن سعيد " من الســـيطرة علـــى الســـاحل العمانى والإنفراد بحكم مسقط بين عامى ١١٩٤ــ١٢٠٧هـــــ/١٧٧٩ــ١٧٩٣م، بعد تمكنه من تخليصها من حاكمها " محمد بن خلفان البوسعيدى"، وحتـــى بعـــد وفاة " حمد بن سعيد " ١٢٠٧هــ١٧٩٣م، لم يتمكن والده من إستعادة الســـيطرة على مسقط وتوحيدها مع الداخل لتخاذله، وتمكن أخوه " سلطان بن أحمد " مـــن السيطرة عليه وحكمه حتى ١٢١٨هـــ ١٨٠٤م .

وقد أسهمت هذه الثنائية فى الحكم إلى تسرب النفوذ الأجنبى إلـــى الســـاحل العمانى، وبدأ الأمر بنفوذ بعض القوى الخليجية مثل إيران والدولة الســـعودية . وعبثا حاول أئمة البوسعيديين وقف النفوذ الخارجى، بل كانت محاولاتهم للتخلص منه قد سمحت للنفوذ الأوروبى ممثلا فى الإنجليز والفرنســـيين لأن يلعبـــوا دورا على الساحة السياسية العمانية .

القـــواســـم :

بقدر ما كان الجهاد ضد البرتغاليين، وبسبب الفراغ العثمانى، يعـــد الدافـــع الأساسى فى ظهور اليعاربة والبوسعديين فى عمان فإن الجهاد ضد الإنجليز ومن

نافسهم من الدول الأوروبية فى التدخل فى الخليج كالفرنسيين والهولنديين كان الدافع الأساسى لظهور القواسم فى الخليج العربى .

وينسب المؤرخون القوميون أصل القواسم إلى شيخهم " قاسم " الذى كان ينصب لنفسه خيمة عند " جلفار" كانت تراها السفن المارة فى الخليج وهو سبب تسمية مركزهم الرئيسى برأس الخيمة، إلا أن الباحثين لم يحددوا بدقة أصل القواسم هل هم من عرب الشمال الذين هاجروا من نجد كما ذهب المستر فرانسيس واردن ؟ ، أم هم من عرب الهولة HAEOLA الذين كانوا يقطنون الساحل الشرقى للخليج كما رأى المؤرخ الإنجليزى بادجر BADGER ؟ أم أنهم قدموا من جهة العراق كما ورد عند كيلى KELLY ؟.

ولم يجد المؤرخون أمامهم سوى التسليم بوجود القواسم كقوة سياسية بعد أن أدركوا أن الحسم فى قضية أصلهم أصبح أمرا صعبا لما يكتنفه من غموض بسبب تضارب الآراء . بل ولم يقف الأمر عند حد التسليم بوجودهم كقوة سياسية فى الخليج العربى خلال القرن الثانى عشر الهجرى الثامن عشر الميلادى قاصرا على الجذور أو الفترة الزمنية وإنما شمل المكان أيضا حيث تثبت المراجع وجودهم على جانبى الخليج حيث تواجدوا فى مدينة لنجة وجزيرة قشم وجزيرة لارك وغيرها من الجزر والمدن على الساحل الشرقى للخليج وكذلك فى رأس الخيمة والشارقة وساحل عمان على الساحل الغربى العربى (١١) .

والحقيقة أن الباحثين الأوروبيين هم الذين يعنون بربط القواسم وغيرهم من القوى التى تجمعت حول شاطىء الخليج بجدور عرقية قبلية، فضلا عن تفسيرهم لمقاومة القواسم وغيرها من القوى المحلية فى الخليج العربى للقوى الأوروبية بأنها قرصنة وهو الإتجاه الذى يدعو المؤرخين الأوروبيين لاستبعاد عامل الجهاد كأساس فى ظهور هذه القوى والسعى للبحث فى جذورهم أو فى أسباب أخرى لظهورهم .

لقد كان أول عمل للقواسم بعد توطيد وجودهم فى أواخر القرن الثانى عشر الهجرى الثامن عشر الميلادى ــ هو شن العديد من الهجمات على السفن الإنجليزية ومنافستهم فى التجارة، واستخدم الإنجليز القوة ضدهم سعيا للإستئثار بالنفوذ السياسى والتجارى . ولم تكن قوة القواسم فى البداية وخلال هذه الفترة قوة نظامية تستطيع الدخول فى معارك حاسمة مع القوة الإنجليزية فاعتمدوا فى جهادهم علي الكر والفر وهو الأسلوب الذى وصفه الإنجليز بالقرصنة .

وإذا جـــاز هذا الوصف من المؤرخين الأوروبيين فهل يجــوز أن يتبعــهم المؤرخون المسلمون دون وعى أو تمحيص ؟ وهل كان على القواسم أن يبـاركوا التدخل الإستعمارى حتى يتجنبوا هذه الإتهامات ؟ وهل يعد دفاعهم عن بلادهم من قبيل القرصنة أم هو الجهاد ؟ وهل يعد أصحاب البلاد قراصنة والوافـدون إليـها لاستغلالها واستعمارها ونهبها متحضرون ؟ (١٢) .

كان القواسم قد سلكوا أسلوب المقاومة فى مرحلة استقرارهم فى ســاحل عمان فى النصف الأول من القرن الثانى عشر الهجرى الثامن عشـــر الميـلادى وكذلك فى الفترة اللاحقة لإعلانهم الإستقلال ١١٥٤هـ-١٧٤١م على أثر سـقوط دولة اليعاربة والذى أعترف لهم به الإمام " أحمد بـن سـعيد " مؤسـس دولـة البوسعيد، واتخذوا من رأس الخيمة قاعدة لهم عند ١١٧٩هـ ١٧٦٥م فى عـهد زعيمهم " رحمة بن مطر القاسمى " (١٣) . وخلال هذه المرحلة تجنب القواسـم ـ مضطرين ـ الإعتداء على السفن البريطانية باستثناء بعض الحوادث المحدودة التى حدثت ١٢١١هـ-١٧٩٧م، والعام التالى، وقدم عنها زعيم القواسم " الشـيخ صقر" إعتذارا للمقيم البريطانى فى البصرة . إلا أن تحول عمليات القواسـم مـن مجرد جهاد غير منتظم إلى جهاد علنى منظم، وضد الإنجليز بالذات، قد جاء فـى أعقاب دخول مجاهدى الدعوة السلفية إلى بعض الأراضى فى الســاحل العمـانى ١٢١٤هـ ١٧٩٩م، وبعد ارتباط القواسم بمبادىء الدعـوة السـلفية وحـدوث تحالف بين الجانبين القاسمى والسعودى . فقد تعرضت السفن البريطانية للعديـد من عمليات الجهاد خلال عامى١٢١٩،١٢٢٠هـ/١٨٠٤،١٨٠٥م، مما أدى إلـى قيام بريطانيا بعمليات عسكرية ضدهم فى نهاية ١٢٢٠هـ ١٨٠٦م، أسفرت عن عقد إتفاقية فى بندر عباس (١٤) . ثم تكرر الصدام بين الجانبين حتى ١٢٢٠هـ ١٨١٩م، حيث عقدت بينهما اتفاقية على أثر دخول الإنجليز رأس الخيمة ودعمهم لدخول قوات والى مصر الدرعية المتحالفة مع القواسم (١٥) .

والجدير بالذكر أن الدور الذى تزعمه القواسم ضد الوجود الإنجلـيزى فـى الخليج العربى قد دفع بعض القوى والفصائل القبلية إلى الارتباط بهم والإنضمـام إلى صفوفهم مثل الخواطر الذين سكنوا رأس الخيمة وهم فروع من قبيلة النعيـم، وبنى قتب الذين استقروا فى الشارقة والعين وبعض مناطق الســاحل العمـانى، وزعاب التى استوطنت منطقة أبو ظبى، والعلى التى اســتقرت فـى منطقـة أم القوين، والشوحوح والحبوس والمزاريع وغيرها (١٦) . وكانت قـوة القواسـم

بهذا الخليط الذى جمع بين سواحل الخليج الشرقية والغربية وما فيها من شـوائح وأجناس وعناصر لا يجمعها إلا دافع الجهاد تعبر عن إرادة شعوب المنطقة ضـد الوجود الأوروبى فى المنطقة بأكملها .

وهناك تجمع آخر وهو تجمع بنى ياس الذى نزل فى جزيرة الظبـاء التـى عرفت بأبى ظبى قد وفد من ساحل عمان، وأدى وجود الماء فى الجزيـرة إلـى توافد العديد من العشائر من الأماكن المجاورة . كما أن التجمعات الأخرى علـى ساحل الخليج كآل نعيم الذين وفدوا من الشام واستقروا فى عجمان وأم القويـن وغيرها واختلطوا ببعض سكانها من البوشاس والسودان والبومهير، كما أختلطوا بقبائل وفدت من صوب اليمن، وكل ذلك يشير إلى أنهم لم يكونوا يمثلون تجمعـا قبليا أو عرقيا، فكان أول عمل قام به " الشيخ عبد الله أحمد بن راشد " حـاكم أم القوين هو إقامة سد لمنع السفن الإنجليزية من دخول موطنهم، وظل هذا السـد قائما حتى هدمه الإنجليز فى حملتهم ١٢٣٤هـ ١٨١٩ م (١٧).

الدعوة السلفية فى الخليج العربى :

يرجع اتجاه أتباع الدعوة السلفية إلى الخليج العربى إلى دوافع دينيـة فـى المقام الأول ذلك لأن القوى السياسية فى نجد بما فيها الدرعية ــ التى نـاصرت هذه الدعوة ــ لم يكن لها أى توجه صوب ساحل الخليج قبـل ظـهور الدعـوة السلفية . وكذلك فإن البعد الدينى المتمثل فى مبادئ هذه الدعوة هو الذى أسـهم فى تكوين هذه القوة السياسية الناشئة فى الدرعية وليس الأطماع السياسـية أو العلاقات القبلية حيث وجد بين أبناء القبيلة الواحدة من ناصر مبادئ هذه الدعـوة ومن عاداها كذلك، وأصبح تجمع هذه القوة من المناصرين للدعوة بغض النظـر عن إنتماءاتهم القبلية، أى أنها تكونت على أسس إسلامية لا أسس عرقيـة . وإذا كانت قوى المعارضة لأتباع هذه الدعوة فى نجد قد ظهرت فى شكل تكتلات قبليـة فإن هذه التكتلات قد تمزقت بفعل انتشار مبادئ الدعوة بينهم، وكان هذا العـامل هو السلاح الذى مكن أتباع الدعوة السلفية من زيادة نفوذهم فى الجزيرة العربيـة حتى نجحوا بهذا العامل في توحيدها، أى أن البعد الدينى حكم نموها وتطورها منذ نشأتها كقوة سياسية.

ومن الطبيعى أن تكون مبادئ الدعوة محورا أساسيا فـى علاقـات الدولـة السعودية بجيرانها فى الخليج العربى، فخلاف الدولة السعودية مع بنى خالد فـي

الإحساء لم يكن بقصد السيطرة على الإحساء والتوسع فيها فى المقام الأول كما يتراءى للبعض وإنما حول مبادئ الدعوة التى عاداها بنو خالد .

وكان تقاربهم مع القواسم يرجع إلى ارتباط القواسم بمبادئ الدعوة، فأصبح أتباع الدعوة السلفية ظهيرا قويا لدور القواسم فى مواجهة الإنجليز وأطماعهم فى الخليج(١٨). وأدرك الإنجليز أن لا يمكن السيطرة على سواحل الخليج إلا بوقف إمدادات الدرعية ودورها سواء مع رأس الخيمة مقر القواسم أم مع الساحل العماني .

وإذا كان الإنجليز قد تحاشوا الدخول فى صراع مع قوات الدعوة السلفية إلا أن ضربهم للقواسم كان بمثابة تجاهل لارتباط القواسم بالدرعية بعد ارتباطهم بمبادئ الدعوة السلفية، لذلك اتبع دعاة الدرعية نفس الأسلوب تجاه الإنجليز وهو عدم الإعلان عن عداء مباشر معهم ولكن فى نفس الوقت واصلوا مساعدة القواسم لاستعادة قوتهم بالشكل الذى مكنهم من العودة إلى النشاط المعادى للإنجليز ١٢٢٣هـ ١٨٠٨م، والذى وصل إلى حد مطالبتهم لحكومة إنجلترا فى بمباى بضرورة دفع رسوم لرأس الخيمة إذا أرادت إنجلترا مزاولة حرية التجارة فى الخليج وهو الطلب الذى قبلته حكومة بمباى مؤقتا، ثم قامت بحملة عسكرية فى العام التالى ١٢٢٤هـ-١٨٠٩م بتأييد من حاكم مسقط حطمت خلالها ميناء رأس الخيمة وهاجمت ميناء شيناص السعودى على الرغم من الحرص على عدم التورط فى صدام مباشر مع السلفيين .

وكان توافق موقف الدعوة السلفية المعارض للإنجليز فى كل من الخليج العربى والبحر الأحمر قد أسهم فى أن يلعب الإنجليز دورا فى التوجه السياسى العثمانى المعادى للدعوة السلفية، كما كان اتفاقهم - أى الإنجليز- مع والى مصر محمد على ودعمه - جزئيا - بالسلاح يشكل العامل الأساسى فى توجيه حملاته العسكرية ضد الدعوة السلفية فى الجزيرة العربية (١٩)، ولعب الإنجليز دورا فى تغطية هذه الحملات بالقناع العثمانى .

وبقدر ما كان استيلاء محمد على على الحجاز مرضيا للعثمانيين لارتباطه بهيبتهم الدينية فإن تقدمه نحو الدرعية كان متوافقا مع مصالح الإنجليز أكثر من غيرهم. وكان سقوط الدرعية يعنى ضعف ظهير القواسم بشكل هيأ الفرصة للإنجليز لضرب رأس الخيمة وغيرها من ممتلكات القواسم فى الخليج والاستيلاء عليها بعد أشهر قليلة من سقوط الدرعية . وسارع مندوب الإنجليز "سادلير"

للسفر من بومباى إلى مسقط ثم إلى الدرعية ليقدم التهنئة لإبراهيم باشا على سقوط الدرعية، وسلمه سيفا كهدية على ذلك، وأعرب له إبراهيم باشا عن أسفه لعدم تسلمه خطط الإنجليز فى وقت مبكر، وأنه كان على اتصال مع السيد سعيد فى مسقط، وهو حليف الإنجليز، فى أعقاب سقوط الدرعية حيث تلقى منه عرضا بعمل مشترك ضد القواسم (٢٠).

وفى الوقت الذى عرض فيه المستر " سادلير"على إبراهيم باشا عرضا مماثلا، أو جدد العرض الذى طرحه " السيد سعيد " بالإتفاق مع السلطات البريطانية، وأرجأ إبراهيم باشا الرد على ذلك حتى يأخذ مشورة والده "محمد على" فى مصر، ولم يبد "محمد على" فى رده على إبنه موافقته حيث تخوف من زيادة تبديد قوته لصالح الإنجليز وحدهم، وفى نفس الوقت فإن حكومة الهند البريطانية أفادت مندوبها " سادلير" بأن يرجىء هذا العرض خشية أن يؤدى العمل المشترك إلى زيادة نفوذ " محمد على" فى الخليج واكتفت السلطات البريطانية فى هذا الصدد بمعاونة حاكم مسقط، وأعدت لحملة عسكرية ضد كل مواقع القواسم فى الخليج على الساحل العربى والساحل الإيرانى والجزر التابعة لهم، وتمكنت من ضرب رأس الخيمة بعد مقاومة عنيفة وباسلة، وفرض الإنجليز اتفاقية سنة ١٢٣٥هـ-١٨٢٠م قوضت نفوذ القواسم إلى حد كبير،فقد فرضوا عليهم صيغة وصفت الأعمال المعادية لهم بأنها من قبيل النهب والقرصنة وأنها منافية للإنسانية، وأن من يرتكبها يهدر دمه. كما فرضت الإتفاقية حق الإنجليز فى مراقبة السفن التجارية واعتماد سجلاتها سواء فى البحر أم فى الموانىء، مع أحقية السفن العربية فى الإتجار مع الموانىء الهندية الخاضعة للإنجليز وتحت مراقبتهم (٢١).

وقد قررت السلطات البريطانية ترك رأس الخيمة وإقامة قاعدة عسكرية لها فى جزيرة قشم الملائمة في موقعها لدورهم العسكرى فى الخليج على أن تقوم بتحطيم الإستحكامات العسكرية فى رأس الخيمة قبل تركها خشية استعمال القواسم لها ضدهم مستقبلا، وسلمت المدينة للشيخ " سلطان بن صقر" مقابل تعهده بحق السفن الإنجليزية فى تفتيش الموانىء ومراعاة حجم السفن الخاصة بالقواسم بعد ذلك . كما أن الإنجليز قد حاولوا إثارة الخصومة بين السلطات الإيرانية وسلطان مسقط حول تبعية جزيرة قشم حتى يمكنها التمكن، من خلال هذه الموازنات السياسية، من القوى الخليجية .

بنو خالد فى الإحساء :

تعد جماعات بنو خالد من أبرز الجماعات التى ظهرت فى الإحساء فى القرنين ١١، ١٢هـ/ ١٧، ١٨م، وقد كانت عبارة عن تجمعات قبلية فى جانب منها، وكان نزوحها إلى الإحساء نتيجة لضعف الدور العثمانى فى الخليج . ومع أنهم قد تولوا حكم المنطقة ومقاومة الأطماع الأجنبية حولها إلا أنهم حافظوا على الارتباط بالسيادة العثمانية التى ترجع فى المقام الأول إلى الرابطة الدينية (٢٢). على أنهم قد ضموا شرائح شيعية ربطتهم بالجانب الإيرانى من الناحية المذهبية أو العرقية فى جانب منها، وكان لهذا أثره على وضعهم السياسى فى صلتهم بالدولة العثمانية،وكذلك فى أبعاد علاقتهم بالدعوة السلفية وموقف هذه الدعوة منهم، فضلا عن تأثير ذلك على تركيبتهم السكانية التى كانت أقرب إلى الدينية منها إلى القبلية .

وإلى جانب دور العامل الدينى فى نزوح بنى خالد إلى الإحساء وكذلك أثره على الانضواء ـ سياسيا ـ تحت السيادة العثمانية المعادية للدعوة السلفية فى البداية لعب هذا العامل دورا رئيسيا فى علاقتهم مع القوى التى برزت داخل الجزيرة العربية، فكان التقارب بينهم وبين شيخ العيينة "عثمان بن معمر" يرجع إلى انصياعه لمطالبهم فى طرد " الشيخ محمد بن عبد الوهاب "، وكانت خصومتهم مع آل سعود فى الدرعية ترجع إلى احتضانهم ـ أى آل سعود ـ لدعوة الشيخ ومناصرتها، وكان هذا العامل المتمثل فى معارضتهم للدعوة السلفية هو السبب فى انحسار نفوذهم ليحل محلهم أتباع الدعوة السلفية فى مساعيهم لتوحيد المنطقة ونشر مبادئ الدعوة (٢٣).

ومع أن تأثير العامل الدينى يأتى فى المقام الأول فإن ذلك لا ينفى أثر العامل الإقتصادى والذى يتمثل فى أهمية الطرق التجارية التى كانت تسلكها القوافل من مينائى العقير والقطيف إلى داخل نجد،إلى جانب وجود مناطق الغوص على اللؤلؤ مما جعلها محط أنظار القوى الداخلية .

على أن ما ينبغى مراعاته فى هذا الصدد هو أن مواطن الزراعة والنخيل على الساحل لم تكن قاصرة على الإحساء وكذلك مواطن الغوص والصيد وأيضا الموانىء التجارية فكانت متواجدة على طول الساحل الخليجى حتى البصرة، وبالتالى كان من الممكن تفادى الصدام بين بنى خالد والقوى الداخلية فى نجد إلى حد ما لو أن البعد الإقتصادى وحده كان السبب الرئيسى فى الصدام، كما أن هذا

البعد كان كفيلا بصدام بين هذه القوى والقواسم أو الكيانات السياسية الخليجية الأخرى كالكويت والبحرين وقطر وعمان وبقية إمارات الساحل العمانى . وعلى ذلك فلا نتفق مع ما أورده ابن بشر فى سبق العامل الإقتصادى على غيره من عوامل وإن كنا لا نستبعد تأثيره القوى الواضح فى أبعاد العلاقات بين القوى السياسية الخليجية فضلا عن تأثيره علي مراحل تكوينها أصلا.

هجرة العتوب وتكوين الكويت والبحرين وقطر :

يعتمد الباحثون عن الجذور التاريخية لتكوين الكويت والبحرين وقطر على بداية هجرة العتوب، ومع ذلك لا يلتقى أغلبهم على تحديد معنى أو توصيف العتوب، فمنهم من يشير إلى أنهم من بنى عتبة (٢٤)، ومنهم من يطلق عليهم العتوب أو العتوبيين استنادا إلى معاجم اللغة العربية ويفسر الأصل الثلاثى وهو " عتب " ويشير إلى أن معناه كثرة الترحال، وعلى ذلك فإن الباحثين لم يجدوا فرقا فى هجرة العتوب بين إنتماءاتهم القبلية أو وصفهم اللغوى كرحالة ويستقر أغلبهم على تسميتهم بالعتوب (٢٥).

ومع أن أغلب الباحثين يربطون بين هجرة العتوب ـ أى الرحالة ـ وبين قبيلة عنزة إلا أن ذلك ليس أمرا دقيقا أو مؤكدا، فالكاتب الإنجليزي " ديكسون " الذى كان معتمدا بريطانيا لدى الكويت ١٣٥٧ـ١٣٧٩هـ/١٩٣٩ـ١٩٦٠م ذكر أن أمير الكويت " الشيخ عبد الله بن سالم الصباح " قد فسر له أصل العتوب بالبعد اللغوى وليس البعد القبلى، أى العتوب بمعنى الرحالة دون أن يربطها بقبيلة عنزة، وقد دعا ذلك التفسير بعض الباحثين فى تاريخ الكويت إلى القول بأن إشتقاق أسماء القبائل من الأفعال أمر مألوف في شرقى الجزيرة العربية، وأن أغلبهم قبائل عربية شتى فى الأصل والنسب، وبالتالى فإن هجرة القبائل إلى ساحل الخليج لا ترجع فى أصلها إلى قبيلة بعينها (٢٦).

أما عن دوافع الهجرة فيرجعها الباحثون إلى أسباب إقتصادية بسبب القحط الكبير الذي ألم بالجزيرة العربية فى النصف الثانى من القرن ١١هـ ١٧م، وأوائل القرن التالى، وأن هذا الجدب الشديد قد أضطر الكثير من القبائل للهجرة إلى شبه جزيرة قطر وأماكن أخرى على ساحل الخليج وهى مناطق كانت فى أغلبها خاضعة لسلطة بنى خالد،ثم عادت وهاجرت إلى الكويت التى كانت خاضعة

لنفس السلطة (٢٧)، ويرجعها ـ أى الهجرة ـ البعض الآخر إلى خلافات قبلية وعشائرية أدت إلى هجرة بعض العشائر والقبائل إلى هذه المناطق (٢٨) .

والثابت من دوافع هذه الهجرة باختلاف آرائها أن البعد الاقتصادى هو الأرجح فى تبريرها، ومن الطبيعى أن البعد الاقتصادى لا يؤثر فى قبيلة بعينها حيث من الواضح أنه جدب عام أصاب شبه الجزيرة العربية، وبالتالى فإن الهجرة شملت كافة القبائل التى أضيرت بفعل هذا الجدب أو فروع منها، وعلى ذلك فإن العتوب كرحالة كانوا يمثلون خليطا قبليا قد تشكل عنزة نسبة واضحة فيه، لكنه مع ذلك كان قد فقد طابعه القبلى فاحتفظ بمصطلح العتوب ـ أى الرحالة وهى تسمية حركية وليست عشائرية ـ دون تسمية محددة لقبيلة بعينها(٢٩)، وأن انتماء الفئة التي تمكنت من الوصول إلي الحكم من عنزة كان الداعى الأساسى لتخصيص ذكرها دون غيرها وربما ربط الهجرة بها .

وأسهم الاختلاف فى الرأى حول الجذور القبلية ودوافع الهجرة إلى عدم إمكانية تحديد الفترة الزمنية لهذه الهجرة، وأن الهجرة إلى هذه المناطق ربما تكون سابقة للهجرة التى قامت بها عشائر من عنزة فى النصف الثانى من القرن١١ هـ١٧ م أو لاحقة لها . كما أن استقرار المهاجرين بشتى انتماءاتهم لم تستمر فى قطر طويلا حيث عادت وهاجرت منها إلى مناطق أخرى من بينها الكويت وبعض الجزر الإيرانية ومنطقة البصرة وبعض مواطن الساحل العمانى (٣٠)، وأنهم خلال هذه الفترة التى أمضوها فى قطر والتى يقدرها البعض بخمسين عاما قد تمكنوا من تعلم ركوب البحر، كما أنهم لم يهاجروا دفعة واحدة من قطر أو الإحساء إلى الكويت، وكذلك تفرقوا فى مختلف موانىء الخليج العربى .

ويمتد الغموض إلى صعوبة تحديد زمن بعينه لبداية تأسيس الكويت وهو مرتبط بالهجرة من قطر إليها، كما يمتد أيضا إلى تحديد معنى الكويت وهوية مؤسسه. ويعتمد الباحثون عن تأسيس الكويت على ظهور إسم القرين وهو تصغير لقرن أو كوت أى تل أو الأرض العالية أو القلعة والحصن على مقولة أهل العراق، أو مجموعة مساكن للفلاحين شبيه بالعزبة فى الريف المصرى، أو البيت الكبير على مقولة أهل البصرة (٣١) .

وكلمة " كوت " لم يرد ذكرها فى المراجع العربية فهى إما فارسية بمعنى القرية الزراعية مأخوذة من الكوة وهو تعريف يستبعده الموقع الجغرافي، وإما

برتغالية بمعنى الحصن أو القلعة التي شاعت فى البصرة بعد دخول البرتغـاليين إلى بعض أجزائها ثم شاعت بين أهل العراق، أو أنها هندية لوجود بلاد فى الـهند سميت بذلك مثل " قال قوت " أى" قلعة قال "، أوأنها ترجع إلـى أصـول بابليـة وكلدانية وأشورية قديمة فى العراق حيث ورد ذكر هذا الإسم فى سفر الملوك فـى العهد القديم على أنه بالعراق وهو ما يرفضه البعض (٣٢) .

أما عن تاريخ تأسيس الكويت فلا يحظى بتلاق بين البـاحثين حيـث يـرى البعض أنها أسست حوالى سنة ١٠٩٧هـ ١٦٨٨م، على يد براك بـن عريعـر (٣٣)،ويعتمد هؤلاء على ظهور القرين فى خرائط الأوروبيين سواء عند الرحالـة الدانمركى " نيبور" الذى ظهرت له خريطة ترجع إلى سـنة ١١٧٩هـ ١٧٦٥م، دون عليها إسم القرين مقرون بإسم الكويت، وكان " نيبور" قد أقام فى بوشهر أو البصرة، وكذلك عند رحالة هولندى سابق على " نيبور" ظهرت له خريطة تعـود إلى منتصف القرن الحادى عشر الهجرى السابع عشر الميـلادى (٣٤)، ويـرى المستر " فرانسيس واردن " أنها بنيت ١١٢٩هـ ١٧١٦م، وهى السـنة التـى دخلت فيها ثلاث قبائل عربية إلى الساحل الخليجى وهى آل صباح والجلاهمة وآل خليفة، وسايره فى ذلك بعض المؤرخين سواء لأنهم اضطروا إلى ذلـك بسـبب غياب المصادر العربية أم لرغبتهم فى ربط التأسيس بهذه القبائل التي أصبحـت حاكمة (٣٥)، فى حين يرفض البعض هذا التحديد لعدم دقته التاريخية (٣٦) .

وعلى ذلك ينبغى الفصل بين تأسيس الكويت وبين ظهور آل الصباح كشـيوخ لها سعوا لإظهار هويتهم السياسية . على أن آل الصباح قد ظهروا مع غـيرهم من عتوب آل خليفه و الجلاهمة فى الكويت كتابعين لبنى خالد فى الإحساء منـذ بداية القرن الثانى عشر الهجرى الثامن عشر الميلادى، وأنهم انفردوا بالسـلطة بعد وفاة " سعدون بن محمد آل حميد " زعيم بنـى خـالد ١١٣٥هـ ١٧٢٢م، وحدوث خلاف بين أبنائه أدى إلى ضعف قبضتهم على هذه المناطق، ولم يتمكنـوا من إستعادة دورهم فيها بسبب صراعهم مع أتباع الدعوة السلفية منذ منتصـف ذلك القرن .

وقد ظهر أول حاكم من آل الصباح وهو " صبـاح بـن جـابر" ١١٧٠هـ ١٧٥٦م، بعد أن تخلصت جماعته إلى حد كبير من نفوذ بنى خالد، ومـن خـلال إتفاق بين العتوب بأن يكون الحكم لآل الصباح وأن يتولى الجلاهمة أعمال البحـر ويتولى بنو خليفة أمر التجارة (٣٧) . وحين لم يجد الخوالد بـدا مـن إمكانيـة

اســتعادة سلطتهم على الكويت لصراعهم مع السلفيين اتصلوا بعبد الله بن الشيخ " صباح بن جابر" وعقدوا معه إتفاقا للصداقة وحسن الجوار مقابل الإعتراف لــهم بحكم مستقل للكويت،وقبل به الشيخ " صباح بن جابر" مؤقتا ثم تخلص منه عندما نجح الموحدون فى القضاء على الخوالد نهائيا فــى نهايــة القرن١٢هـــ ١٨م، (٣٨) . وكان هذا الإستقلال قد تعزز أثناء حكم الشيخ " عبد الله بن صباح " الذى نجح فى الحد من خطورة جماعة أخرى عرفت بالكعبيين شــكلت بتهديدها للعتوب خطورة على موقعهم لكنهم استطاعوا أن يهزموهم فى معركة الرقة (٣٩).

ويرتبط تأسيس البحرين بهذه التطورات حيث هاجر آل خليفة الكويــت فــى أعقاب الصدام بين الكعبيين وآل صباح فى معركة الرقة، ولــهذا يربــط البعــض أسباب هجرة آل خليفة بأنهم كانوا يفضلون تقارب العتوب والكعبيين مــن خــلال المصاهرة حيث كان التقاؤهما يشكل قوة لكليهما وللعتوب بشكل رئيســى، وفــى نفس الوقت كانوا يرون عدم قدرة العتوب علــى مواجهتــهم، لكــن آل صبــاح خالفوهم الرأى، وكان انتصار آل صباح سببا فى عزم آل خليفة على الهجرة .

على أن البعض يرى سطحية هذا السبب ويرجح دور العامل الاقتصادى فــى ذلك حيث استطاع آل خليفة، الذين كانوا يتولون أمر التجارة، أن يحققوا قدرا من الثراء جعلهم يبحثون عن وسائل للاستئثار به وفى نفــس الوقــت يتولــوا هــم بأنفسهم قضايا الحكم والإدارة الكفيلة بتنمية ممتلكاتهم فتطلعوا إلى الهجرة، وقــد هاجروا فعلا إلى الزبارة وهى منطقة فى شبه جزيرة فى الخليج متصلة بــالداخل مع ساحل الإحساء وقريبة من الجزر التى عرفت بجزر البحرين، وبــها اهتمــام كبير بمصايد اللؤلؤ .

ويضيف البعض سببا آخر لهجرة آل خليفة وهو الصــراع علــى الســلطة السياسية بين العتوب وهو أمر يرتبط بالعامل الاقتصادى أيضا حيث أراد آل خليفة الوصول إلى السلطة السياسية بعد الشيخ "صباح بن جــابر" لحمايــة مصالحــهم التجارية ومن خلال مصاهرته، ولكن تعيين الشيخ لابنه عبد الله خلفا له قد قطــع الطريق أمام تطلعاتهم فقرروا الهجرة إلى مكان يتولون فيه السلطة ويكــون لــه أهمية إقتصادية كذلك، فكانت هجرتهم إلى الزبارة (٤٠) .

وكان أول حاكم من آل خليفة فى الزبارة هو " خليفة بن محمد "، وقد حــاول الإتجاه في هجرته إلي جزر البحرين في البدايــة إلا أن حكامــها تصــدوا لــهم

ومنعوهم من ذلك فاتجهوا إلى الزبارة فى المنطقة القريبة من هذه الجـزر بحثـا عن موطن استقرار مناسب .

وحاول آل مسلم فى شبه الجزيرة القطرية إخضاع آل خليفة فـى الزبـارة لسلطانهم لكن آل خليفة لم يكونوا على استعداد لقبول سلطان غيرهم فذلـك هـو سبب هجرتهم، فأبدوا من الليونة فى البداية لكنهم تهيأوا لصراع محتمل، فأقـاموا الحصون والأسوار حول الزبارة فى نفس الوقت الذي سعوا فيه لزيـادة تنميـة مواردهم الاقتصادية .

وقد أسهم نمو الموارد الاقتصادية إلى زيادة الإقبال عليهم، فاستقبلت الزبارة وفودا من الرحل سواء من داخل الجزيرة العربية كنتيجـة للصراعـات فيـها أو لضعف مواردها الإقتصادية، أم من العراق والبصرة التى شهدت هى أخرى حلقات من الصراع الإيرانى العثمانى، وأدى ذلك إلى تأمين الدفاع عن الزبـارة وكذلـك التفكير فى التوسع لاستيعاب هذه الأعداد وهو ما يدعو البعض لربطه بـالوصول إلى جزيرة البحرين (٤١) .

كان على آل خليفة فى الزبارة أن يتابعوا أبعاد العلاقات بين القوى السياسـية فى الخليج كى يتحينوا الفرص لتحقيق طموحاتهم السياسية والإقتصادية، فقد رأوا أن توسعهم فى شبه الجزيرة القطرية مسألة صعبة وتحتاج إلى صـراع طويـل ومحفوف بالمخاطر، وحتى لو تحقق بعد هذا فإنهم سـيحاربون قـوات الدعـوة السلفية التى قد تطيح بهم فى توسعها . كما أنهم لم يكونوا يرغبـون ـ وربمـا يستطيعون ـ الصدام مع بنى خالد إذا أرادوا التوسع فى أراضيهم . كما أن حكـام بوشهر كانوا يتطلعون إلى زيادة نفوذهم أو السيطرة على جزر البحرين بعـد أن زاد حجم التبادل التجارى بين هذه الجزر وبين آل خليفة فى الزبارة ـ وكان هـذا هو العامل الرئيسى فى التطلع إلى البحريـن مـن قبـل آل خليفـة ـ فتكـررت اعتداءات حكام بوشهر على الزبارة حتى ١١٩٦هـ ١٧٨٢م، فى محاولة لحماية المصالح الإقتصادية .

على أن حكام بوشهر لم يكونوا يشكلون خطرا صعبا على تطلعات آل خليفـة للبحرين، وكانوا مستعدون للدفاع عن مصالحهم التجارية فيها، وقد دعاهم هـذا إلى دعم قدرتهم وخبرتهم البحرية بعد أن أدركوا قدومهم علـى صـراع حتمـى لتحقيق تطلعاتهم السياسية والإقتصادية فى جزر البحرين، ولكى ينأوا بأنفسـهم

عن حلبة الصراع على الساحل العربى للخليج ويوجدوا فاصلا بحريا يؤمن هـــذه الطموحات والمصالح (٤٢) .

أما عن الأسباب المباشرة لدخول آل خليفة جزر البحرين فقد بدت ترد نـــذر الحرب بينهم وبين آل مذكور سكان هذه الجزر لحدوث نزاع بحرى بينهما، وقـــد توسعت دائرة الصراع حيث انضم عتوب آل الصباح فى الكويت ومعـــهم عتـــوب الجلاهمة إلى آل خليفة فى الزبارة، فى حين انضم القواسم وهرمز إلى آل مذكور فى جزر البحرين، وبعد عدة معارك تمكن العتوب من الانتصار علـــى خصومـــهم ودخول آل خليفة البحرين ١١٩٧هـــ ١٧٨٣م، وطرد حكامـــها مـــن آل مذكـــور (٤٣) .

ولم يستقر آل خليفة فى البحرين حيث تعرضوا لهجوم من قبل سلطان عمان " سلطان بن أحمد " الذى كانت له تطلعات فى هذه الجزر ورثها عن أسلافه ممـــا دفع آل خليفة إلى العودة إلى الزبارة ١٢١٣هـــ ١٧٩٩م، والاستنجاد بـالموحدين بعد أن عرضوا عليهم الإعتراف بسلطانهم ودفع الزكاة لهم، وتمكنوا من العـــودة إلى جزر البحرين مستغلين خشية " سلطان بن أحمد " من الصدام مع الموحديـــن، مع الاحتفاظ بتواجدهم فى الزبارة (٤٤) .

إلا أن الصدام قد تحول بين الموحدين وعتوب البحرين فـــى أعقـــاب نجـــاح الموحدين فى إقصاء بنى خالد نهائيا عن ساحل الخليج،والـــهجوم علـــى عتـــوب الكويت لمواقفهم السياسية خلال هذا الصراع،وقد اضطر آل خليفة لترك الزبـــارة والاستقرار فى جزر البحرين تجنبا لهذا الصدام (٤٥) .

ومن جهة أخرى فإن صدام العثمانيين مـــع عتـــوب الكويـــت وكذلـــك بيـــن الموحدين والكويت قد أدى إلي استغلال الإنجليز للفرصة والتدخـــل إلـــى جـــانب الكويت ثم التدخل فى شئونها ثم فى شئون غيرها من خلال هذه الظـــروف التـــى صاحبت تشكيل القوى السياسية فى الخليج فى هذه الفترة حيث توافقت مصـــالح القوى السياسية الناشئة مع المصالح البريطانية وهذا الأمر بلا شك يرجح العـــامل الإقتصادى على ما سواه فى هذه الفترة .

وننتقل إلى تأسيس قطر على يد عتوب الجلاهمة الذين كانوا مـــازالوا فـــى الكويت مع آل صباح بعد هجرة آل خليفة إلـــى الزبـــارة . فقـــد كـــان الوضـــع الإقتصادى فى الكويت بعد هجرة آل خليفة لا يسمح باستمرار الجلاهمـــة الذيـــن كانوا يتولون أمور البحر، ففضلوا اللحاق بآل خليفة فى الزبارة . وقد رحب بـــهم

آل خليفة فى البداية، لكن الصراع كان حتميا بينــــهما للضــرورات الإقتصاديـــة وبالتالى السياسية المرتبطة بتطلعات كليهما، وعلى أثر حدوث هذا الصراع هــاجر الجلاهمة إلى مناطق قريبة من الزبارة .

وأثناء استعداد آل خليفة لدخول جزر البحرين وصراعهم مع القوى السياسية الأخرى ساندهم عتوب الجلاهمة ودخلوا معهم جزر البحرين، لكن الخلاف أيضـــا كان حتميا لتطلع كل منهما للمصالح الاقتصادية والسلطة السياسية . فعاد الصراع بينهما فى عهد "رحمة بن جابر" زعيم عتوب الجلاهمة الذى كان قد قتل والده فى الصراع السابق مع آل خليفة . ووصل حد الصراع بين الجانبين إلى حد الإستعانة من قبل عتوب الجلاهمة بإيران وإبراهيم باشا إبن والى مصر محمد على الـــذى كان يقود قوات أبيه فى حملتهم ضد الدعوة السلفية وكذلك بسلاطين البوسعيد فى عمان، وقد ظل هذا الصراع طوال النصف الأول من القرن ١٣هـــ/١٩م، حتـــى استقر عتوب الجلاهمة فى شبة الجزيرة القطريـــة وفـــى إطـــار تغلغـــل النفـــوذ الإنجليزى والأجنبى فى الخليج (٤٦) .

أثر العامل الإقتصادى فى تشكيل القوى السياسية الخليجية :

وبشكل عام فإنه أمام هذه الآراء يجد الباحث نفسه أمام بعض الحقائق التـــى تستوجب الرصد والتحليل والتحديد، فالحقيقة الهامة أن القرن ١١هــ/١٧م، قـــد شهد زيادة النفوذ الأوروبى بدءا من البرتغاليين فى الخليج العربى، كمـــا شـــهد مقاومة من الدولة العثمانية شاركت فيها القـــوى المحليـــة بطابعـــها وتكوينـــها الإسلامى . وأن أواخر هذا القرن قد شهدت قدرا أكبر من مشاركة القوى المحلية على أثر توارى الدور العثمانى وظهور قوى أوروبية أخرى مثل إنجلترا وهولنـــدا وفرنسا كانت تسعى للتنافس التجاري والسياسي علي الساحة الخليجيـــة، ومـــن خلال لعبة التنافس بين القوى المحلية سعت بعض الشـــرائح المحليـــة لتحقيـــق مصالح سياسية واقتصادية من جهة وأسهمت في جذب العديد من موجات الهجرة الداخلية إلى ساحل الخليج وبخاصة خلال فترات القحط والجدب من جهة أخرى .

وبقدر ما كان العامل الدينى يشكل العامل الهام والأساسى فى المرحلة الأولـــى لظهور القوي السياسية في الخليج العربى على الساحة السياسية، وكذلـــك فـــى تشكيل عناصره السكانية حيث وفد إليه الراغبون فى الجهاد من كافـــة العنـــاصر الإسلامية، فإن العامل الإقتصادى الذى نجح الأوروبيون فى إيجاده وتصدره علـــى ما سواه من خلال توسيع رقعة الشرائح التى ترتبط مصالحها بمصـــالح الـــدول

الأوروبية الإقتصادية قد أسهم فى فرض إطار قبلى قومى محلى علـــى التركيبـــة السكانية في الخليج العربى .

ومع ذلك فإن القوى السياسية فى الخليج العربى التى تشكلت خـــلال القـــرن ١١، ١٢هــ/ ١٧، ١٨م، قد ظلت تحافظ على توجهها الإسلامى الذى كان يشــكل حصانة لها من الأطماع والتغيرات بين الدول الأوروبية المتنافسة من أجــل هــذا الهدف . فقد حافظت الكويت مثلا على التبعية لوالى البصـــرة العثمـــانى بعـــد أن طلبت رسميا ذلك ١١٣١هــ ١٧١٨م . وعلى ذلك فإن العامل الدينى قد لعب دورا أساسيا فى ظهور الدور السياسى للخليج العربى فى بداية العصور الحديثة وفـــى تركيبة سكانه إلى جانب العامل الإقتصادى .

ثم عاد العامل الإقتصادى ليتصدر طبيعة هذا الدور فى ظـــل تزاحـــم النفـــوذ الأوروبى ولعب هذا العامل دورا رئيسيا فى تشكيل القوى السياسية القومية مـــع دوام حفاظها على العامل الدينى الذى ظل يشكل الإطار الأساسى لمقومات الوجـــود السياسى لهذه القوى الخليجية العربية، لكن حرصها على مصالحها الإقتصادية قد دعاها لطرح مفهوم ثقافى إقليمى يستخدم البعد الدينـــى كـــأحد مقومـــات البنـــاء السياسى المحلى دون أن يلعب دور مثيرا فى صهر الحدود السياسية وتوحيد هذه القوى فى كيان سياسى واحد .

الهـــوامـــش

(١) د. بدر الدين عباس الخصوصي : دراسات فى تاريخ الخليـــج العربـــى ـــ جـــ١ ـــ ذات السلاسل ـــ الكويت ـــ ب . ت، ص ٦٤ .

(٢) د. محمد حسن العيدروس : دولة الإمارات العربية من الاستعمار إلـــي الاســـتقلال، ذات السلاسل، الكويت ١٤٠٩ هـــ ١٩٨٩ م ص ٤١ ولا نتفق مع تحليلاته فـــي كثـــير مـــن الجوانب .

(٣) د. جمال زكريا قاسم : دولة بوسعيد في عمان وشرق إفريقيا، ص ٨ وما بعدهـــا . ؛ د . بدر الدين الخصوصي : المرجع السابق، ص٦٦ . ؛ د. فاروق عمر : الخليج العربي فـــي العصور الإسلامية، دبي، دار القلم ١٤٠٣ هـــ ١٩٨٣ م ص ١١٢ وما بعدها .

(٤) السالمي : تحفة البيان بسيرة أهل عمان، ج ٢، ص ٣ والرستاق إحـــدى مـــدن الحجـــر الغربي .

(٥) السالمى : المرجع السابق ص ٦٥ وما بعدها، د.جمال زكريا : الأصول التاريخية للعلاقات العربية الإفريقية ص ١٠٨ .

(٦) وصف السالمى سيرة الإمام ناصر بأنها مثل سيرة النبى صلى الله عليه وســـلم وســـاق العديد من الروايات حول ذلك .المرجع السابق ص ١٧ .، وانظر أيضا :حميد بن محمـــد بن رزيق بن بخيت : الفتح المبين فى سيرة السادة البوسعيديين

(٧) : د . عبد المنعم عامر، د .محمد مرسى عبد الله، عمان ١٣٩٧هـــ /١٩٧٧م ص ٢٦٢ وما بعدها .

(٧) د. جمال زكريا قاسم : الأصول التاريخية للعلاقات العربية الأفريقية ص ١٠٨.

(٨) السالمى : المرجع السابق جـــ٢ ص ١٤٨ .

(٩) يشير السالمي إلي أن بداية بيعة أحمد بن سعيد كانت ١١٦٨ هـــ/ ١٧٥٣م، في حين يرى البعض أنها كانت ١١٥٩ هـــ/ ١٧٤٤م، مثل لوكهارت أو ١١٥٦ هـــ/ ١٧٤١م، مثـــل بادجر، أو ١١٦٤هـــ/ ١٧٤٩م، مثل نيبور، لكن الجميع يلتقون عند كونه مؤسس أســـرة البوسعيد، وانظر أيضا، حميد بن رزيق : الفتح المبين،ص ٢٩٥ .

(١٠) تصارع أبناؤه سيف وسلطان وحاول أن يرضيهما بحكم بعض المناطق لكنهما ثارا عليـــه واعتقلا أخيهما الثالث سعيد مما دفعه للتدخل وإنقاذه من الاعتقال ثم مساندته حتى تمـــت له البيعة، وكان له ولد آخر يدعي قيس ارتضي بمنطقة كان يحكمها في البداية لكنه عـــاد

وشارك في الصراع بعد ذلك . وحول الدفاع عن السلطان أحمد بن سعيد أنظر : حميد بن رزيق : المرجع السابق ص ٣٦٣ .

(١١) د . محمد حسن العيدروس : التطورات السياسية في دولة الإمارات العربية المتحدة ـ ذات السلاسل الكويت سنة ١٩٨٣م ص ٣٠.

(١٢) د . بدر الدين الخصوصي : المرجع السابق ص ٩٢.

(١٣) د .صلاح العقاد : التيارات السياسية في الخليج العربي ص ٩٧؛ د . سيد نوفل : الأوضاع السياسية في الخليج العربي ج٢ ص٥١، ٩٢ ويراعى تأثر د . صلاح العقاد بالمؤرخين الغربيين في وصفه القواسم بالقراصنة .

(١٤) كان الإنجليز قد حاصروا جزيرة قشم ورفعوا الحصار عندما بدأت المفاوضات التي إنتهت بالاتفاق بينهما على إقرار السلم في المنطقة وإحترام ممتلكات الجانبين، وتعهد القواسم بإعادة السفن البريطانية التي كانوا قد استولوا عليها وتعهدوا كذلك بمعاونة السفن التي تمر بمواني‍هم مقابل السماح لسفنهم بالتردد على موانى الهند، وقد أضيف بند يقضي بأنه إذا أراد القواسم الخروج على هذا الإتفاق فعليهم إبلاغ السلطات البريطانية قبل ذلك بثلاثة أشهر، وبالطبع أستغرب البعض هذا البند ويبرروه بأنه يرجع إلى أن هذا الإتفاق قد تم دون الرجوع إلى الدولة السعودية حليفة القواسم، فإذا تعرض القواسم لضغط من الدرعية يفرض عليها نقض الإتفاق فعليها القيام بالإبلاغ . أنظر د . صلاح العقاد . التيارات السياسية في الخليج العربي ص٩٥ .

(١٥) د . محمد حسن العيدورسن : المرجع السابق ص ٢٩، ٣٠.

(١٦) لوريمر:دليل الخليج جـ٢ص٩٧٠

(١٧) د . بدر الدين الخصوصي : المرجع السابق ص ٩٤ .

(١٨) د . بدر الدين الخصوصي : المرجع السابق ص ٩٣ .

(١٩) كان الإنجليز في البداية لا يثقون في محمد على ويساعدون المماليك لإبعاده لكن محمد على نجح في إبعاد المماليك واضطر الإنجليز للتعامل معه بحذر لكنهم بعد ذلك أيدوه لتوافق المصالح بينهما . ويبدو أن الفرنسيين كانوا وراء دفع والى الشام سليمان باشا للإتصال بالمماليك في مصر ضد محمد على، لهذا طلب محمد على من السلطان العثماني عزله قبل أن يقوم بمهمة مواجهة الدعوة السلفية وتعيين يوسف كينج مكانه . أنظر تعليق د . عبد العزيز نوار على لوثائق أساسية من تاريخ لبنان الحديث ـ بيروت سنة ١٩٧٤م ص ١٩٢، وثيقة من وثائق عابدين ـ ميعة تركي ص ٧٤ بتاريخ ٢٥ شعبان سنة ١٢٢٥هـ/ ٢٥ سبتمبر سنة ١٨١٠م، على أن صلة سليمان باشا بالفرنسيين من

خلال صلتهم بالشهابيين الدروز قد جعلته يضيق بالدعوة السلفية ويسعد بضــــرب محمــد على لها . أنظر : المصدر السابق ص١٩٨ .

(٢٠) لوريمر : دليل الخليج، جـ ٢ ص ١٠١٣ .

(٢١) د . سيد نوفل : الخليج العربى، جـ٢ ص٣٩٠-٣٩٨، د بــدر الديــن الخصوصــى : تاريخ الخليج ص٢٠٨.

(٢٢) د . عبد الله سراج منســى : المواجهــة العثمانيــة البريطانيــة فــى الخليــج العربــى ١٨٦٩ - ١٩١٤ م ط سنة ١٩٩٤ ص ١٠ .

(٢٣) شن أمير الخوالد عرير بن دجين آل حميدة عدة هجمات على الدرعية فى مطلع القــــرن الثانى عشر الهجرى/ الثامن عشر الميلادى، ورد عليه السعوديون بهجمات متتاليــة لــم يتمكن سعدون بن دجين من صدها , وتمكن السعوديون من الدخول من خلال الخلافــــات الأسرية فى بنى خالد حتى استطاعوا القضاء عليهم فى أواخر القرن الثاني عشــر هــــ/ الثامن عشر م . أنظر : أحمد مصطفى أبو حاكمة : تاريخ الكويت، جـ١ ق ١ ص ١٠٦، ١٠٧. على أن لجوء الجانبين للصراع دون السعي للمصالحة أو الهدنة يرجع إلى عــامل دينى أكثر من كونه عاملا سياسيا، فقد أنقلب على السعوديين العديد من أمراء بنى خـــالد الذين نالوا مساعدة الدرعية فى البداية مثل " زييد بن عريعر " و" براك بن عبد المحسن " أنظر ابن غنام : تاريخ نجد جـ ٢ ص ١٦٤ - ١٦٦ .

(٢٤)عثمان بن سند البصرى : سبائك العسجد فى أخبار أحمد نجل رزق الأسعد ص١٨، وأخذ عنه كل من د . أحمد أبو حاكمة : المرجع السابق ص٢١، د : بدر الدين الخصوصــى : المرجع السابق ص ٩٨.

(٢٥) Dickson : kawait and her neighbours , pp 26 - 27

(٢٦) Dickson op . cit . pp . 26 & 27

ود . بدر الدين مصطفى أبو حاكمة : المرجع السابق ص ٢٢ .

(٢٧) د . بدر الديـــن الخصوصـــى : المرجــع الســابق ص ٩٨، د . أحمــد أبــو حاكمــة : المرجع السابق ص ٢٣ .

(٢٨) عبد ا لعزيز الرشيد : تاريخ الكويت ص ٣٢ .

(٢٩) د . بدر الدين الخصوصى : المرجع السابق ص ٩٩ .

(٣٠) ســيف نــرزوق الشــملان : مــن تــاريخ الكويـــت، ط٢، ١٤٠٦هــــــ / ١٩٨٦ م ص ١٠٦، ١٠٧ .

(٣١) سيف مرزوق شملان : المرجع السابق ص ١٠٠، د . أحمد أبو حاكمة المرجع السابق ص ٢٥ .

(٣٢) حسين خزعل : تاريخ الكويت السياسي، جـ١، ص١٩، سيف الشملان المرجع السابق ص١٠٠ والأخير الذى يستبعد الأصول العراقية لمعنى الكويت .

(٣٣) القناعى ـ يوسف عيسى : صفحات من تاريخ الكويت ص٥ - ٩ .

(٣٤) د . أحمد أبو حاكمة : المرجع السابق ص ١٨ .

(٣٥) د . بدر الدين الخصوصى : المرجع السابق ص ١٠٢ .

(٣٦) د . أحمد أبو حاكمة : المرجع السابق ص ١٨.

(٣٧) د . بدر الدين الخصوصى : المرجع السابق ص ١٠٢ .

(٣٨) د . بدر الدين الخصوصى : الأهمية الإستراتيجية للكويت فى العصر الحديث، مجلة كلية الآداب جامعة الكويت ـ العدد ٦ ديسمبر سنة ١٩٧٤ ص٨ . (٣٩) الكعبيون جماعة عربية هاجرت من العراق إلى الساحل الإيرانى فى الخليج فى منطقة شط العرب، واستقرت فى الفلاحية فى منتصف القرن ١٨م، وتبدل ولاؤهم بين الإيرانيين تارة والعثمانيين تارة أخرى وحاولوا خلال ذلك بسط سلطانهم على بعض المناطق أو القوى فى الخليج العربى ومنها الكويت لكنهم هزموا فى معركة الرقة فتراجعوا عن الكويت .

(٤٠) د . أحمد أبو حاكمة : المرجع السابق ص ٩٤، د . بدر الدين الخصوصى : دراسات فى تاريخ الخليج العربى ١٠٧ .

(٤١) د . أحمد أبو حاكمة : تاريخ الكويت، جـ١ ق ١ ص ١٨٨ .

(٤٢) د . بدر الدين الخصوصى : المرجع السابق ص ١١٠.

(٤٣) تشير الروايات الكويتية إلى دور السفن الكويتية فى هذا الإنتصار فى حين تذكر الروايات البحرينية مساعدة الجلاهمة والعشائر القطرية وإقتصار مساعدة الكويت على التأثير المعنوى إلا فى النهاية فى إشتراك محدود.

(٤٤) كانت الكويت مركزا للصراع بين اليعاربة الذين كانوا بها حتى طردهم الإيرانيون ثم لأحد الموالين لإيران حتى استولى عليها آل خليفة، ومع التسليم بالطابع العربى لهذه الجزر منذ القدم إلا أنه كان طابعا تراثيا حضاريا أكثر منه طابعا عرقيا أو قبليا قوميا، وهو طابع كانت إيران جزء منه ولم يقلل منه إلا التحول القومى فى العصر الحديث . جون . س ولينكسون: المرجع السابق ص ٦٤، ٦٥ .

(٤٥) يصور البعض تلاقى مصالح البريطانيين الإقتصادية مع مصالح آل خليفة فـــى البحريـــن وما نجم عن ذلك من حماية بريطانيا للبحرين لحماية هذه المصــــالح بأنـــه حمايـــة مـــن القرصنة العربية فى الخليج، ولينكسون : المرجع السابق ص ٦٦ .

(٤٦) د . رأفت غنيمى الشيخ : إمارة قطر قبيل الحرب العالميـــــة الأولـــى، مجلـــة الجمعيـــة التاريخية المصرية م ٢٧ سنة ١٩٨١م، ص ١٦٢ .

الفصـــل الرابـــع

دور محمـد على باشـا
فـى ظل الماسـونية الفرنسـية
والحمايـة البريطانيـة

- الحملة الفرنسية ودوافعها الصليبية الماسونية
- الأطماع الإنجليزية وظهور محمد علـى .
- محمد على والسطو على ولاية مصر .
- محمد على بين الماسونية الفرنسية والحماية البريطانية .
- محمد على وضرب الاتجاه الإسلامـى فـى مصر وظلمه لشعبها .

لم تكن مصر فى أى من فترات تاريخها بمعزل عن المؤثرات والأحداث فـــي المنطقة المحيطة بها، ويرجع ذلك إلى موقعها الجغرافى كعامل أساسى إلى جـانب عوامل أخرى حضارية واقتصادية وغيرها، بل إن الفترة التي كانت فيــها مصــر جزءا منصهرا في دولة الخلافة العثمانية لم تكن معزولة عزلة كاملة فى علاقاتها الخارجية وبخاصة مع الدول الأوروبية حيث استمرت بعض العمليات التجارية مع جنوة والبندقية وإن كانت بشكل محدود خلال القرن العاشر الهجرى السادس عشر الميلادى، كما جابها العديد من الرحالة الأوروبيين وكذلك بعــض التجــار خــلال القرنين الحادى عشر والثانى عشر الهجريين السابع عشر والثامن عشر للميــلاد، وفى القرن الثانى عشر الهجرى الثامن عشر الميلادى كذلك كانت مصر مقصــــداً لمحاولات الدول الأوروبية المعادية للخلافة العثمانية لإثارة الطامعين من ولاتـــها وإزكاء حركات التمرد على الخلافة لما تعيه هذه الدول من تأثير دور مصر علـــى المنطقة سلباً أو إيجاباً، ومن هنا تصعب دراسة تطور الأحداث فى مصر بعيداً عن المؤثرات العامة في المنطقة المحيطة بها بشكل عام .

فقد تعرضت مصر، والمنطقة المحيطة بها بالضرورة، منذ مطلع القرن الثالث عشر الهجرى التاسع عشر الميلادى لعديد من الهزات العنيفة التى تركت آثـــاراً بعيدة المدى على كافة الأوضاع الخارجية والداخلية ما زالت آثارها ممتدة حتـــى الآن . وتمثلت أولى دقات الخطر فـــى الحملـــة الفرنســـية علـــى مصـــر ســـنة ١٢١٢ـ١٢١٥هـ، ١٧٩٨ـ ١٨٠١م، حيث أسهمت فى تحويل المنطقـــة إلـــى منطقة صراع بين الدول الاستعمارية وبخاصة انجلترا وفرنسا كان مـــن آثارهـــا وقوع شعوب المنطقة تحت استعمار الدولتين .

على أن الدور الأكثر خطورة من حيث آثاره ونتائجه التى امتدت حتـــى الآن هـــو دور والى مصر محمد على باشا (١)، فلم يكن هذا الدور دوراً قومياً فىظـل غياب الوعى القومى لدى شعوب المنطقة ــ على الأقل ــ طوال القـــرن الثـــالث عشر الهجرى التاسع عشر الميلادى، فى حين كان يفتقد هـــو إلـــى المقومـــات القومية التى تجعل منه حاكماً قومياً كالجنس واللغة وغير ذلك، ولـــم يكـــن دوراً إسلامياً بالطبع لمعاداته لدولة الخلافة الإسلامية وسعيه لإسقاطها،وضربه للقـــوة الإسلامية الصاعدة فى الجزيرة العربية والتى أعلنت تصديها للنفوذ الأوروبى فـــى المنطقة، وكبحه لجماح أتباع الاتجاه الإسلامى فى مصر والشام . وحتى لو سلمنا بأنه دور كانت تحركه الأطماع الشخصية فإن الدول الأوروبيـــة وعلـــى رأســـها

بريطانيا التى كانت تراقب الأمور فى مصر عن كثب حرصاً على مصالحها الشرقية بعد الحملة الفرنسية لم تكن لتتركه يوماً واحداً فى السلطة لو أنها أدركت تعارض ذلك الدور مع مصالحها، وبالتالى فإن استمراره وأبناءه فى الحكم يشير إلى توافق دورهم ومصالحهم مع السياسة الاستعمارية، فما هى طبيعة ذلك الدور ؟ وما هى أهم النتائج التى ترتبت عليه ؟ .

الحملة الفرنسية ودوافعها الماسونية الصليبية
١٢١٢ ـ ١٢١٥هـ/ ١٧٩٨ ـ ١٨٠١م

لم يكن قد مضى عقد كامل على قيام الثورة فى فرنسا ١٢٠٣هـ ١٧٨٩م، تلك الثورة التى تعد فى نظر المؤرخين الأوروبيين، وكثير من مؤرخى الشرق بالتبعية، هى التى أرست دعائم الحرية وجعلت من فرنسا واحة تساند كل دعوة حرة وتحتضن كل مناد للحرية إلا واندفعت جيوش فرنسا ـ قاعدة الحرية ـ للاعتداء على حرية أهل الشرق . وقد اصطحب نابليون معه مجموعة كبيرة من العلماء الفرنسيين فى حملته هذه بلغ عددهم ١٢٢ عالماً أويزيد وهو عدد يزيد عن أضعاف العدد الذى اعتاد أن يصحبه فى حملاته الأوروبية، وقد تأثر فكر هؤلاء العلماء فى الغالب بالدور الفرنسى الذى كان يسعى لإصلاح الكنيسة الكاثوليكية ويعادى حركات الإصلاح البروتستانتية منذ بداية القرن العاشر الهجرى السادس عشرالميلادى، ثم تأثروا فى الفترة السابقة لقدومهم إلى الشرق بأفكار روسو وفولتير ومونتسكيو أبرز مفكرى الثورة الفرنسية والمعروفين بانتمائهم للمحافل الماسونية اليهودية من خلال مارفعوه من شعارات (الحرية ـ الإخاء ـ المساواة)، وهى أفكار واتجاهات تعادى فى مجموعها الدين والأفكار المستمدة منه بشكل عام ، وبالتالى فإنه من السذاجة أن نقبل ما يروّجه كتّاب التاريخ من أن الهدف الرئيسى لهذه الحملة كان قاصراً على ضرب المصالح البريطانية فى الشرق فمثل هذا الهدف لا يحتاج إلى هذا الحشد الهائل من العلماء (٢)، فكان إلى جانبه هدف إقامة إمبراطورية فرنسية فى الشرق إرضاء لطموحات الطبقة البرجوازية فيها والتى تسللت إلى الحكم فى أعقاب الثورة، وإرضاءاً للكنيسة التى وإن كانت الثورة قد وجّهت لها بعض الضربات بشكل قوّض دورها داخل فرنسا عن ذى قبل إلا أنها ظلت لها تأثيرها الواسع والفعال على كثيرين من أبناء الشعب الفرنسى، فضلاً عن الدور الذى كانت تقوم به فى

تدعيم النفوذ الفرنسى فى المستعمرات وكذلك فى الشرق الإسلامى . ومـــن هنـــا كانت أهداف الحملة خليطاً بين أهداف اقتصادية وتوسعية وسياسية ودينيـــة . أو بالأحرى غزو عسكرى وفكرى، ولهذا اصطحب نابليون فى حملته العسكرية هـــذا الحشد الهائل من العلماء .

ولا شك أن هؤلاء العلماء كانوا على دراية بطبيعة وأحوال أهل الشرق مـــن خلال ما هو متوافر لديهم من معلومات، وما أمدهم به الرحالة الفرنسيون الذيـــن كثرت رحلاتهم خلال القرنين الحادى عشر والثانى عشر الهجريين السابع عشـــر والثامن عشر الميلاديين، كما كانوا على صلة ببعض العناصر المملوكية فى مصر وكذلك بعض العناصر المسيحية واليهودية فيها، ودرسوا بعناية كافـــة الجوانـــب السياسية والفكرية والاقتصادية والاجتماعية وبأدق التفاصيل، ولهذا فـــإن كافـــة الجوانب الفكرية التى سعوا لترويجها فترة بقاء الحملة، وحتى بعد رحيلها، كـــانت مدروسة بعناية شديدة قبل قدوم الحملة ولم تكن مفاجئة (٣)، وحتـــى اكتشـــاف حجر رشيد الأثرى وفك رموز اللغة الهيروغليفية للمصريين القدماء فإنه إذا كان مفاجأة – وهو أمر ما زال يحتاج إلى بحث – فإن العناية بهذا الحدث والـــترويج له وما تبعه من فك رموز لغة الفراعنة واستخدامه كان أمـــراً مدروســـاً بعنايـــة كذلك، وكان يدور فى إطار الأهداف الكلية لهذه الحملة المعلن منها وغير المعلن . ويشير المؤرخ المسلم " عبد الرحمن الجبرتى " الذى عاصر هذه الحملة إلى هـــذه الأمـــور فى معرض حديثه عن المعهد العلمـــى الذى أنشأه الفرنســـيون فى حارة الناصرية " فيقول : " وإذا حضر إليهم بعض المسلمين ممن يريدوا الفرجـــة لا يمنعونه الدخول إلى أعز أماكنهم، ويتلقونه بالبشاشة والضحك وإظهار الســـرور بمجيئه إليه وخصوصاً إذا رأوا فيه قابلية أو معرفة أو تطلعاً للنظر فى المعـــارف والأقاليم والحيوانات والطيور والنباتات وتواريخ القدماء وسير الأمـــم وقصـــص الأنبياء وبتصاويرهم وآياتهم ومعجزاتهم وحوادث أممهم مما يحيّر الأفكار " (٤) .

كان الفرنسيون – والغربيون بصفة عامة – يدركون أن الســـر فـــى قـــوة الشرقى المسلم يتمثل فى جانبين هامين الأول هو تمسكه بالدين والثانى فى وحدة بلادهم فى ظل حكومة إسلامية مطاعة مهابة، وقد أكد رجال الحملـــة الفرنســـية إدراكهم لهذين العاملين حين أعلن نابليون وبعـــض رجالـــه إعتناقـــهم للإســـلام واحترام تعاليمه وزواجهم من مسلمات كى يتخذوا من ذلك ذريعة للتقرب للعـــوام املاً فى الاستقرار . وقد بدأ ذلك واضحاً فى المنشور الأول الذى أعلنـــه نـــابليون

على الشعب في مصر حيث ذكر: " أيها المصريون قد قيل لكم أننى ما نزلت بـهذا الطرف إلا بقصد إزالة دينكم فذلك كذب صريح فلا تصد قوه وقولوا للمفترين أننى ما قصدت إليكم إلا لأخلص حقكم من يد الظالمين، وانتى أكثر من المماليك أعبـد الله سبحانه وتعالى وأحترم نبيه والقرآن العظيم (٥). كما سعى رجال الحملة فـى نفس الوقت إلى زعزعة العامل الدينى فى نفوس المشايخ والعلمـاء المسـلمين بعرض نماذج من الحضارة الغربية عليهم . أما العامل الثانى وهو الرامـى إلـى تمزيق وحدتهم فقد بدا واضحا فى سعى الفرنسيين لتجنيد قوة مسلحة من بعـض مسيحى مصر قادها المعلم يعقوب لمساعدة هم فى ضرب الثورة الشـعبية التـي ضمت كل طوائف المصريين من مسلمين ومسيحيين تحـت شـعارات إسـلامية، والوقوف أمام قوات الخلافة العثمانية الإسلامية التي جـاءت لمقاومـة الغـزاة الفرنسيين ومساندة الموقف الشعبي المعادي لهم .

وبشكل عام فقد نجح الفرنسيون فى إسـتثارة بعـض العنـاصر المسـيحية لمعاونة الحملة بمختلف الوسائل، واعتبر بعض الكتاب المسيحيين أن الفائدة التى جنتها مصر خلال سنى الحملة الثلاث أكثر من القرون الطويلة للحكم العثمـانى . والغريب أن هذا البعض من المفكرين قد أشادوا بدور " المعلم يعقوب " فى تعاونه مع الفرنسيين ضد العثمانيين وشعب مصر واعتبروه تعاونا يستحق بموجبـه أن يقام له تمثال من ذهب فى أكبر ميادين القاهرة ويكتب عليه أنه أول مـن نـادى باستقلال مصر فى العصر الحديث (٦) . وكان هذا الموقف الغريب معاديا لرغبـة الأغلبية المسلمة والمسيحية، و بمفهوم الوحدة الوطنية فإن " المعلم يعقوب " يعد من أبرز الذين خرجوا علي الاجماع الشعبي في بلاده، وعلى أية حال كانت هـذه الحادثة بداية لما عرف فى تاريخ مصرى باسم الفتنة الطائفية التي حاولت القوي الاستعمارية استخدامها ضد الانصهار الشعبي في مصر والذي يعبر عنـه الكـل الإسلامي الشامل لكل الفئات والطوائف والمذاهب والأجناس (٧) .

ومن بين الأمور المشوهة كذلك ما صوره بعض كتاب التاريخ من أن هزيمة القوات التى كانت فى مصر أمام القوات الفرنسية بأنها هزيمة حضـارة قديمـة يمثلها المشايخ فى معركة امبابه وغيرها وحضارة جديدة قوية تمثلها الجيـوش الفرنسية (٨)، ولا شك أن ذلك التفسير مغلوط فى أغلبه، كما أنه قصد به نشـر عوامل الإحباط لدى الشرقى المسلم واهتزاز ثقته فى قدرته وتاريخـه، وإثبـات عجز دولة الخلافة فى الدفاع عنهم وهذا من بين الأمـور التـى سـعت الحملـة

للترويج لها، والدليل على ذلك أن الجيوش الفرنسية بقيادة نابليون قد أوقعت العديد من الهزائم الساحقة بعديد من الجيوش على الساحة الأوروبية وبشكل زاد عما حققوه فى الشرق،مع العلم بأن عنصر المفاجأة كان من أهم عوامل انتصارهم فى الشرق حيث لم تتعرض مصر لهجوم عسكرى من البحر منذ الحروب الصليبية،علاوة على أن الحملة كانت سرية فلم يتهيأ أحد لمقاومتها. وبعد أن أحاط الخطر بالمصريين استطاعوا، ومعهم بعض الكوادر المدربة من المماليك، أن يهزموا البريطانيين فى معركة الحماد سنة ١٢٢١هـ-١٨٠٧م، كما أن القوات البريطانية لم تشأ الدخول فى معركة برية ضد نابليون فى مصر فهل كان ذلك لعجز حضارى؟ ومع ذلك فلا ننفى فارق التفوق فى صناعة الأسلحة الذى ميز الجيوش الأوروبية والذى لولاه لما رجحت كفتها، والذى كان جزءا من التقدم المادى الذى شهدته أوروبا .

وتجدر الإشارة هنا إلى أن المصريين - وهم جزء من المشرق العربي الإسلامي - قد افتقدوا روح الجندية خلال فترة زمنية طويلة اعتمد فيها حكامهم على الجنود المرتزقة، وأهملوا إشراك العناصر المحلية، فقتلوا فيهم روح الجهاد والقتال وبالتالى قدرتهم على حماية أنفسهم . ولا ينبغى أن نلقى بتبعة هذا الأمر على العثمانيين وحدهم بل إنه يرجع إلى العصر العباسى الثانى، ويرجع فى مصر إلى العصر المملوكى،ولم يسع العثمانيون إلى تغيير ذلك وبخاصة فى فترات الضعف خشية أن يسهم ذلك فى دعم حركات التمرد المحلية. ومع التسليم بالآثار السلبية لهذا الجانب - البعيد كل البعد عن التعاليم الإسلامية - إلا أنه يلاحظ أن المصريين - شأنهم شأن غيرهم من الشعوب الإسلامية - قد ارتضوا، طوعا أوكرها، أن يحكمهم حاكم مسلم حتى ولو كان عبدا مملوكا، وكانت ثورتهم ضد بعض هؤلاء الحكام فى الغالب قاصرة على سلوكه أو سوء حكمه أكثر من اعتراضهم على وجوده فى الحكم، فى حين لم يرتضوا بأى حال من الأحوال حاكما غير مسلم وهو أمر يفسر ثوراتهم المتعاقبة على الفرنسيين فى السنوات الثلاث التى أمضوها فى مصر فى حين لم يسجل تاريخهم مثل هذا الكم من الثورات ضد أكثر الحكام المسلمين ظلما وهو أمر دعا البعض من كتاب التاريخ، وبعضهم غير مسلمين، لاتهامهم بالتواكل والسلبية .

وقد أكد نابليون هذه الحقيقة فى أحد منشوراته حيث ذكر فى معرض تودده للمصريين " قولوا للمفترين أننى ما قصدت إليكم إلا لأخلص حقكم من يد

الظالمين وأننى أكثر من المماليك أعبد الله سبحانه وتعالى واحترم نبيه والقرآن العظيم " (٩) .

وعلي الرغم من كل وسائل التودد فقد أبدى المصريون عدم تقبلهم للفرنسيين، وعبر الجبرتى عن هذه المشاعر حين اعتبر سنة الاحتلال الفرنسى لمصر " أولى سنى الملاحم العظيمة والحوادث الجسيمة والوقائع النازلة والنوازل الهائلة وتضاعف الشرور وترادف الأمور وتوالىالمحن واختلاف الزمن وانعكاس المطبوع وانقلاب الموضوع وتتابع الأهوال واختلاف الأحوال وفساد التدابير وحصول التدمير، وعموم الخراب وتواتر السباب [وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون] (١٠) . كما لم يتقبل المصريون كافة جوانب التغيير الاجتماعى، فى حين أدرك بعض علمائهم ضرورة الاطلاع عل بعض الجوانب الفكرية التى لمسوا عجزهم فيها وفى إطار لا يتعارض مع عقيدتهم أو تقاليدهم .

وعلى ضوء ذلك يمكن تحديد الأسلوب الذى اتبعه علماء ورجال الحملة لتحقيق هدفهم فى الغزو العسكرى والفكرى لمصر والشرق، ويتضح هذا الأسلوب فى أمرين الأول هو سعيهم لإثارة العامل القومى الذى أدركوا فعاليته فى تمزيق أوصال الإمبراطورية الرومانية المقدسة فى أوروبا برغم نتائجه الإيجابية على الكيانات الأوروبية وهو أمر يختلف فى ظروف الشرق لضعف إمكانياته الاقتصادية والعلمية ولاختلاف منهج ونظرة الشرقى للدين بل واختلاف طبيعة الإسلام عن المسيحية، وقد بدا هذا الأسلوب واضحا فى كافة منشورات الحملة إلى الشعب المصرى . وكذلك فى عرضهم على العلماء تولى المناصب وإقامة المجالس بعيدا عن دولة الخلافة، كما اتضح أيضا فى استغلالهم لاكتشاف حجر رشيد وسعيهم لفك رموز لغة الفراعنة فهذه أمور لا تدخل فى اهتمامات حملة عسكرية يقتصر هدفها على الاحتلال العسكرى . ويصور " عبد الرحمن الجبرتى " هذا الاتجاه من خلال منشور من منشورات الحملة صدر في أكتوبر سنة ١٢١٢هـ ١٧٩٨م، فى السنة الأولى لدخول الفرنسيين مصر جاء فيه : " قطر مصر هو المركز الوحيد، في أنه أخصب البلاد . وكان يجلب إليه المتاجر من البلاد البعيدة، وأن العلوم والصنائع والقراءة والكتابة التى يعرفها الناس فى الدنيا أخذت عن أجداد أهل مصر الأول، ولكون قطر مصر بهذه الصفات طمعت الأمم فى تملكه، فملكه أهل بابل وملكه اليونانيون والعرب والترك الآن، إلا أن دولة الترك شددت فى خرابه لأنها إذا حصلت الثمرة قطعت عروقها فلذلك لم يبقوا بأيدى

الناس إلا القدر اليسير وصار الناس لأجل ذلك متخفين تحت حجاب الفقر وقاية لأنفسهم من سوء ظلمهم . ثم إن طائفة الفرنساوية بعد ما تمهد أمرهم وبعد وصيتهم بقيامهم بأمور الحرب اشتاقت أنفسهم لاستخلاص مصر مما هي فيه وإراحة أهلها من تغلب هذه الدولة المفعمة جهلا وغباوة " (١١) .

ويرتكز الأمر الثانى من أساليب الحملة على نشر الأفكار المعادية للدين الإسلامى ومحاولة زعزعة ثقة العامة والعلماء على وجه الخصوص فيه، ولقد بذلوا في سبيل ذلك العديد من الأساليب التى تخرج عن أهداف حملة عسكرية أو اقتصادية أو سياسية . فلم يكن الأمر يحتاج إلى استجلاب أدوات معامل كيميائية، وعرضها بانتظام على جموع العلماء إلا لتحقيق أهداف أخرى غير هذه الأهداف، وكان الفرق واضحا بين نشر العلوم بقصد التنوير وبين استخدامها كوسيلة لإثبات ضعف المنهج الإسلامى (١٢)، وقد صور الجبرتى ذلك فقال : " وأغرب ما رأيته فى ذلك المكان أن بعض المتقدمين لذلك أخذ زجاجة من الزجاجات الموضوع فيها بعض المياه المستخرجة، فصب منها شيئا فى كأس، ثم صب عليها شيئا من زجاجة أخرى، فغلا الماء وصعد منه دخان ملون حتى انقطع وجف ماء الكاس، وصار حجرا أصفر فقلبه على البرجات حجرا يابسا فأخذناه بأيدينا ونظرناه وأخذ مرة شيئا قليلا جدا من غبار أبيض ووضعه على السندال، وضربه بالمطرقة بلطف ـ فخرج له صوت هائل كصوت الغربانة انزعجنا منه فضحكوا منا ... وغير ذلك أمور كثيرة وبراهين حكيمة تتولد من اجتماع العناصر وملاقاة الطبائع، ومثل الفلكة المستديرة التى يديرون بها الزجاجة، فيتولد من حركتها شرر يطير بملاقاة أدنى شيء كثيف، ويظهر له صوت طقطقة، وإذا مسك علاقتها شخص ولو خيطا لطيفا متصلا به، ولمس آخر الزجاجة الدائرة، أو ما قرب منها بيده الأخرى ارتج بدنه وارتعش جسمه، وطقطقت عظام أكتافه وسواعده في الحال برجة سريعة، ومن لمس هذا اللامس أو شيئا من ثيابه متصلا به حصل له ذلك، ولو كانوا ألفا أو أكثر، ولهم فيه أمور وأحوال وتراكيب غريبة ينتج منها نتائج لا يسعها عقول أمثالنا " (١٣) .

ولأجل تحقيق ذلك الهدف حاول الفرنسيون نشر بعض العادات الاجتماعية التى " استقبحها المصريون كانفلات الرجال والنساء وتحللهم من المثل الأخلاقية كإباحة البغاء العلنى والمساعدة على سفور النساء واختلاطها بالرجال ودفع النساء لارتداء ما هو محرم من ملابس وركوبهن الخيل، وساعدوا على تحدى

الناس لأركان الدين الإسلامى كالجهر بالأكل والشرب فى رمضان وتعاطى المسكرات " . وقد عبر الجبرتى عن استهجان المصريين لهذه العادات بقوله : "إن رجال الحملة الفرنسية خالفوا النصارى والمسلمين ولم يتمسكوا من الأديان بدين، فتراهم دهرية معطلين، وللمعاد والحشر منكرون، وللنبوة والرسالة جاحدون، ويقولون بقدم العالم وتأثير العلوية والحوادث الكونية بالحركات الدورية ... وعقيدتهم السالكون فيها تحكيم العقل ?ما تستحسنه النفوس بحب الشهوات " (١٤)، فهل كان فى ذلك ما يخدم أهداف الحملة أو حتى ماله صلة بإصلاح أو تنوير كما يدعى البعض ؟ .

ولقد أدرك الفرنسيون عزوف المصريين بكل شرائحهم وفئاتهم وبخاصة المشايخ والعلماء عن تقبل هذه الأساليب، وتأكد لدى قادة وعلماء الحملة أن أهدافهم لن تتحقق إلا من خلال حاكم يحمل الهوية الإسلامية وترتبط مصالحه بمصالحهم ويملك من القوة ما يمكنه من تأكيد وجوده،ولا تكون له أخلاق المشايخ والعلماء، ويسلك أسلوب الاستبداد ليتمكن من فرض جوانب التغيير وتحقيق الأهداف التى لم تفلح الحملة فى فرضها وإن كانت قد بذرت بذورها الأولى، ويشير الجبرتى إلى ما يؤكد هذه الحقيقة حين تحدث عن علاقة نابليون بالعلماء الذين أشركهم فى الديوان الجديد الذى شكله، وكيف أنه كان يبحث فيهم عن ضالته فيقول : " طلب صارى عسكر بونابرته المشايخ فلما استقروا عنده نهض بونابرته من المجلس ورجع وبيده طيلسانات ملونة بثلاثة ألوان، كل طيلسانة ثلاثة عروض،أبيض وأحمر وكحلى، فوضع منها واحدا على كتف الشيخ الشرقاوى، فرمى به – أى الشيخ – إلى الأرض، واستعفى وتغير وانتقع لونه واحتد طبعه فقال الترجمان : يا مشايخ أنتم صرتم أحبابا لصارى عسكر وهو يقصد تعظيمكم وتشريفكم بزيه وعلامته، فإن تميزتم بذلك عظمتكم العساكر والناس، وصار لكم منزلة فى قلوبهم، فقالوا له قدرنا يضيع عند الله وعند إخواننا المسلمين، فاغتاظ لذلك وتكلم بلسانه، وبلغ عنه بعض المترجمين أنه قال عن الشيخ الشرقاوي : انه لا يصلح للرياسة ونحو ذلك فلاطفه بقية الجماعة واستعفوه من ذلك أى من الرياسة " (١٥) .

وإذا كانت أهداف الفرنسيين فى الحاكم الذى يحمل الهوية الإسلامية قد تحققت – بعد معاداتهم المماليك وفشل التعاون مع المشايخ والعلماء المسلمين – بعد ذلك فى شخص "محمد على" فلا شك أن هناك حلقة مفقودة بين خروج

الفرنسيين من مصر سنة ١٢١٥هـ-١٨٠١م، وبين وصول " محمد علـــى" إلـــى الولاية سنة ١٢١٩هـ-١٨٠٥م، لعب خلالها الفرنسيون دورا فى ذلك من خـــلال المحافل الماسونية، ولعل من أهم الشواهد الدالة على ذلك اهتمام " محمد علـــى" بإعادة تأسيس هذه المحافل فى مصر وهى ما سنلقى عليه الضوء بعد ذلك، كمـا يفسر ذلك اعتماد " محمد على " على الفرنسيين فى خطواته لتحديـــث المجتمـع المصرى وتعاونهم معه فى هذا المجال وبشكل يحقق أهدافهم التى بدأوها أثنـــاء الحملة برغم اقترابه فى الميدان السياسى من بريطانيا عدوتهم التقليدية، وقد أكد المؤرخ الإنجليزى " أرنولد توينبى " هذه الحقيقة بقولـــه : " إذا كـان الاحتـلال الفرنسى حدثا عابرا فلقد امتد بالجبرتى العمر ليشـاهد " محمـد علـى " يتعـهد ويتولى ثورة اقتصادية اجتماعية رسم الفرنسيون خطوطها " (١٦) .

أما عن أوضاع المماليك إبان الحملة، فلعل من بين العوامل التـــى سـاعدت على تهيئة الظروف لظهور شخصية مثل "محمد على " فشل محاولات الفرنسيين فى تقـريب عناصر مملوكية إليهم، فقد سبق أن عقدت فرنسا اتفاقية مع " مـراد بك " أحد زعماء المماليك سنة ١٢٩١هـ-١٨٧٥م، كرد على اتجاه بريطانى مماثل مع بعض زعماء المماليك، تبعتها بعض الاتفاقيات مع كبـير ملـتزمي الجمـارك وبعض مشايخ العربان لنقل المتاجر من السويس إلى القاهرة، وكان ذلك فى إطار منافسة فرنسا لبريطانيا فى البحر الأحمر . لكن فرنسا فوجئت بقوات " مراد بك " تتصدى لها فى حملتها على مصر (١٧)، وبرغم هزيمة " مراد بك " إلا أنه ظـل يقود مع غيره من المماليك حركات مقاومة ضد الفرنسيين مما جعل الفرنســيون يقفون موقفا معاديا من المماليك .

وتسجل منشورات الحملة فى مصر هذا الموقف العدائى ضد المماليك حيـث ذكر نابليون فى أحد هذه المنشورات أنه جاء لينشر الفضائل وأنه " بين الممـاليك والعقل و الفضائل تضارب " (١٨)، وقـد استمر موقف الحملة من المماليك حتـى نجحت فى هز جذورهم وإسقاط ما كان لهم من هيبة شعبية (١٩) .ومـع أنـه لا ينبغى أن نضفى على موقف المماليك فى تصديهم للفرنسيين الصفة الوطنية سواء لعدم وجود أو وضوح هذه الصفة فى ذلـك الوقـت أم لأن قتالـهم للفرنسـيين وللعثمانيين وكذلك اقتتالهم فيما بينهم كان يعبر عن أطماع شخصية تصارع عليها قادتهم، وهو استمرار للظاهرة التى بدا عليها المماليك فى مصر طـوال القـرن الثانى عشر الهجرى الثامن عشر الميلادى، إلا أنهم فى عدم قبولهم لتحقيق هـذه

الأطماع من خلال السيادة الفرنسية وكذلك تبنيهم لوجهة النظر الشعبية الراغبة في مقاومة الفرنسيين " الكفار" قد استحقوا تعاطف بعض العلماء والمشايخ معهم برغم ما لهم من رصيد ظالم انتقدوا بسببه، وكان الجبرتي واحدا من هؤلاء المشايخ الذين أبدوا تعاطفا وتأييدا لبعض قادة المماليك وبخاصة " محمد بك الألفي"، فقد لقبهم الجبرتي بالأمراء المصرية، وأشار إلى أحقيتهم للحكم . واتجه بعض كتاب التاريخ إلى اعتبار ذلك من المآخذ التي أخذت على الجبرتي، وفسروا إطناب الجبرتي في مدح " محمد بك الألفي" بوجود مصلحة بينهما وهو ما استدلوا عليه بهجوم الجبرتي على البرديسي عدو الألفي (٢٠)، أو بأن لذلك ارتباطا بكره الجبرتي لمحمد علي ولأن الألفي كان من أشد خصوم محمد علي، وأن هذا الموقف دعا الجبرتي لأن يتغاضى عن اتصال الألفي بالإنجليز(٢١)، وفي الحقيقة فإن هذا الموقف من الجبرتي يشير إلى بعد إدراكه وحسن فهمه لتطور الأحداث السياسية الذي من الممكن أن يكون قد أدركه من الألفي نفسه، أو من انضمامه إلى الديوان الذي أنشأه الفرنسيون إبان الحملة، أو من تردده على المعهد العلمي الفرنسي والذي يدعونا لأن نشير إلى استفادته من علوم الغرب حيث لم يكن في هذا يعبر عن معارف بيئية، فقد أدرك الجبرتي أن هدف الإنجليز ينحصر فقط في العداء للفرنسيين والسعي لإخراجهم من مصر. وفيه مساعدة للمسلمين بشكل غير مباشر، بقصد تأمين الطريق إلى الهند، فيقول : " وإذا تأمل العاقل في هذه القضية يرى فيها أعظم الاعتبارات والكرامة لدى الإسلام حيث سخر الطائفة الذين هم أعداء للملة هذه لدفع تلك الطائفة ومساعدة المسلمين عليهم، وذلك مصداق الحديث الشريف في قوله صلى الله عليه وسلم : " إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر " (٢٢) . ولم ير الجبرتي أن في نيتهم – أي الإنجليز – احتلال مصر، ولهذا فإنه قد أبدى أسفه على عدم نجاح جهود الألفي في الاتصال بهم (٢٣)، وكان هذا في تاريخه للأعوام السابقة لهجومهم على رشيد سنة ١٢٢١هـ-١٨٠٧م، ولكن حين فشل الإنجليز في هجومهم على رشيد. في حملة فريزر حمل عليهم الجبرتي حيث كان يتمنى نجاحهم نكاية في محمد علي"، ولكن في نفس الوقت أثنى على دور الأهالي في مقاومتهم، وأخذ على "محمد علي " تخاذله في المقاومة (٢٤) . ويفسر بعض الكتاب اليساريين تقارب الجبرتي من بعض أمراء المماليك بأنه كان يدافع عن شريحة اجتماعية ينتمي إليها حيث كان يملك بعض الأراضي وغير ذلك، ولا شك أن هذا التفسير غير

صائب حيث كان من الأفضل للجبرتى لو أنه استدعاه الفرنسيون وسعوا لتقريبه وتأمينه وغيره من العلماء (٢٥)، لو أن ذلك الوضع كان من الممكن أن يدفعه للارتباط بمحمد على لا بمعاداته، وكذلك فإن معاداته لمحمد على كانت سابقة للإجراءات التى اتخذها محمد على والتى يمكن أن تكون قد سببت بعض الضرر للجبرتى، ولهذا فإن موقف الجبرتى من كل من محمد على أو المماليك يؤكد انحيازه لمبادئه لا لمصالحه كما يرى هذا البعض (٢٦) . كما أن مساندة الجبرتى لهذا الأمير أو لغيره من بعض الأمراء المماليك ولموقفهم المعادى " للكفار" لم يمنعه من توجيه الانتقادات اللاذعة لبعضهم الآخر ممن وقفوا موقفا سياسيا معاكسا، أو بسبب سلوكهم المنافى للعدل الذى شكل الميزان الواضح فى أغلب أحكام الجبرتى (٢٧)، والذى دعاه لأن يعتبر الحملة الفرنسية كانت عقابا لهم (٢٨)، وقصاصا من ظلمهم واضطهادهم (٢٩)، وقد دفع الجبرتى ثمنا باهظا لهذا الموقف تجاه المماليك حيث قام أحد المماليك وهو محمد بك الدفتردار زوج ابنة محمد على بقتل ابنه خليل الأمر الذى ترك أثره على الجبرتى حيث فقد بصره وتوقف عن الكتابة وعاش منزويا إلى أن مات بعد هذا الحادث بقليل (٣٠) .

الأطماع الإنجليزية وظهور محمد على باشا :

سبقت الإشارة إلى أن الحملة الفرنسية قد أسهمت فى دفع مصر والمنطقة العربية إلى دائرة صراع النفوذ الاستعمارى وبخاصة بين إنجلترا وفرنسا . وكان خروج الفرنسيين من مصر سنة ١٢١٥هـ ١٨٠١م، لا يعنى فشل كل أهداف الحملة بل اقتصر الفشل على الناحية السياسية فقط، فى حين كان نجاح الإنجليز فى طرد الفرنسيين يشير إلى زيادة اهتمامهم بالمنطقة لارتباطها بمصالحهم فى الهند .

وكان من الطبيعى أمام ذلك أن تبدى بريطانيا اهتماما بمنطقتى البحر الأحمر والخليج العربى، إلى جانب متابعة تطور الأحداث فى مصر عن كثب تأمينا للطريق الذى بدأ يستعيد أهميته منذ النصف الثانى من القرن الثانى عشر الهجرى الثامن عشر للميلاد بسبب تقدم وسائل المواصلات والنقل كنتيجة لنمو الثورة الصناعية والنشاط التجارى عن ذى قبل (٣١) . ولهذا سارع الإنجليز بعقد اتفاقية مع سلطان لحج لمنحهم تسهيلات فى ميناء عدن سنة ١٢١٦هـ ١٨٠٢م، وفى نفس الوقت كانت بريطانيا قد عقدت اتفاقا مع " سلطان بن أحمد سلطان عمان

لمنحها الأولوية فى استخدام موانىء عمان فى مدخل الخليج العربى، لكن البريطانيين أدركوا أن الخطورة على وضعهم فى المنطقتين لا يأتى من فرنسا فقط، ولكن أصبحت تطورات القوى المحلية هى التى تشكل الخطر الأكبر وبخاصة إذا كانت هذه القوى معادية للنفوذ البريطانى . وكانت القوة المحلية الصاعدة التى تشكل هذه الخطورة على المصالح البريطانية هى الدولة السعودية الأولى التى امتد نفوذها على الخليج العربى والبحر الأحمر، بل إن انضواء قوة القواسم البحرية فى الخليج العربى لنفوذ الدولة السعودية قد خرج بهذه الدولة إلى حيز الدولة المؤثرة المهددة للنفوذ البريطانى (٣٢)، كما أن امتداد نفوذ السعوديين إلى جنوبى العراق قد أتاح لهم إمكانية التأثير على الطريق البرى بين أوروبا والشرق، وفوق هذا وذلك فإن الأسس الدينية التى كانت ترتكز عليها هذه الدولة قد قطع على بريطانيا إمكانية تطويعها أو عقد الاتفاقيات معها حيث كان العداء للنفوذ الأجنبى فى المنطقة من أهم أهداف هذه الدولة .

ولا شك أن هذه التطورات قد فرضت على بريطانيا ضرورة ترقب تطور الظروف الداخلية فى مصر مهما كلفها الأمر وذلك لما كانت تدركه من أن خروج مصر عن دائرة نفوذها يعنى التهديد الكامل لطريق تجارتها فى ظل النفوذ السعودى المتنامى على البحرين الأحمر والخليج العربى من الناحية الخارجية، وكذلك ما كانت تدركه من تأثير الفرنسيين إبان وجودهم فى مصر على إيجاد عناصر موالية لهم وضرب العناصر الموالية للإنجليز وبخاصة المماليك من الناحية الداخلية . وقد أدركت بريطانيا من خلال تطور الأحداث فى المنطقة أن الأمور تسير فى غير صالحها، ففى داخل مصر تقلص دور المماليك واهتزت مكانتهم بسبب قتالهم فيما بينهم وقتالهم مع القوة العثمانية، علاوة على دور الحملة الفرنسية التى قضت على ما بقى لهم من نفوذ وهزت ما بقى لهم من هيبة فى نفوس المصريين، وأسهم هذا فى انتقال السلطة والنفوذ للوالى العثمانى والحامية العثمانية، فى حين كانت الدولة السعودية تواصل توسيع دائرة نفوذها على الخليج العربى والبحر الأحمر .

ووجدت بريطانيا نفسها مدفوعة إلى استخدام القوة المسلحة فهاجم أسطولها القواسم فى رأس الخيمة سنة ١٢٢٠هـ ١٨٠٦م، بحجة محاربة القرصنة(٣٣)، وهاجمت فى العام التالى رشيد سنة ١٢٢١هـ ١٨٠٧م، فيما عرف بحملة فريزر فى محاولة لتمكين أتباعها فى مصر من المماليك من استعادة سيطرتهم على

الأوضاع الداخلية فيها . إلا أن بريطانيا أدركت بعد إخفاقها فى الحملتين أنـــها لا تستطيع توفير القوة العسكرية اللازمة لتحقيق أهدافها وفرض نفوذها فـــى هـذه الظروف، حيث استطاع القواسم ومن خلفهم القوة السعودية استعادة ســـيطرتهم على مياه الخليج العربى والتحسب لأى هجوم آخر، وفى نفـــس الوقـت وقفـت عناصر مملوكية فى مصر إلى جانب الأهالى وتصدت للحملة البريطانية على رشيد واستطاعوا أن يهزموا قوات الحملة فى الحماد مما أدى إلى عودة قوات الحملـــة إلى الإسكندرية لتكون تحت حماية أساطيلهم، وتيقنت من أن الحملة الفرنسية قـد أيقظت روحا عدائية فى الأوساط المصرية ضد كل ما هو أوروبى " كافــر" فلــم يكن أمامهم سوى الاعتماد ــ الحذر ــ على عناصر محلية، وبخاصة إذا توافـرت عوامل الثقة من قبلهم فى هذه العناصر، وتمثل ذلك فى شخص محمد على (٣٤).

ومن جهة أخرى فقد توافرت العديد من الظروف لحدوث تقارب بريطـــاني عثماني أسفر عن عقد معاهدة بين الجانبين سنة ١٢٢٣هـ ١٨٠٩م (٣٥)، حيث كانت بريطانيا تراقب النفوذ الروسي المتنامي على حساب الأراضـــي العثمانيـة وتوسعه فيها خلال سلسلة من الحروب في النصف الثاني من القرن الثاني عشر الهجري الثامن عشر الميلادي، كما كانت بريطانيا تخشى نمو التقارب الفرنســي العثماني ــ بعد التوتر الذي ساد بينهما في أعقاب الحملة علـــى مصـر ــ فـي محاولة لزيادة نفوذها وامتيازاتها في المنطقة وضرب النفوذ البريطـــاني فيــها، وفوق هذا وذاك فكان عداء الجانبين البريطاني أولا والعثماني ــ بنسـبة أقـل ــ ثانيا للدولة السعودية يعد عاملا هاما سمح لبريطانيا بالاشتراك مــع العثمـــانيين ببحث التدابير المشتركة لضرب النفوذ السعودي، وفى نفس الوقت يجعلــها ــ أي بريطانيا ــ تتحاشى إثارة رعاياها المسلمين إذا ما اضطرت للدخول فـــي حـرب مباشرة مع الدولة السعودية. ولم يكن بحسبانهم ــ أي البريطانيين ــ أن محمـــد على سيوفر عليهم ذلك الدور .

محمد على والسطو على ولاية مصر

على الرغم من إعجاب العديد من الكتاب والمؤرخين فى الشـــرق والغــرب بالمؤرخ عبد الرحمن الجبرتى لما اتصف به من الحيدة والموضوعية والدقة إلــى حد كبير (٣٦)، إلا أن بعضهم ــ من العلمانيين ــ قد أعرض عن الالتزام برايـــه

فى " محمد على " باشا التزاما بمنظور فكرى ليست له جذور محلية، فما هو رأى هذا المؤرخ المسلم الدقيق فى محمد على ؟

لقد وصف الجبرتي محمد على، ومن خلال مسيرة الأحداث وليس لخصومة أو عداء شخصي (٣٧)، بأنه مخادع كذاب يحلف الأيمان الكاذبة، ظالم لا عهد له ولا ذمة، يضمر السوء واستخدام العنف والجور فى نفس الوقت الذى يعد فيه بالعدل، لا يخفف من عسفه وظلمه واستبداده استجداء شيخ . ولقد دعت هذه الصفات البعض بأن يصور محمد على بأنه مكيافيللى، أو أنه تعلم على فكر مكيافيللى (٣٨)، فقيل له – أى لمحمد على – مرة أن مكيافيللى ألف كتابا إسمه الأمير، فكلف أحد النصارى المحيطين به، وقد اعتاد أن يكون أغلب المحيطين به من النصارى واليهود، وإسمه أرتين بترجمه هذا الكتاب وأن يوافيه كل يوم بصفحة مترجمة، فلما وصل إلى الصفحة العاشرة توقف عن المواصلة قائلا بأنه يمتلك من الحيل ما لم يخطر لمكيافيللى على بال (٣٩) . و قد علق بعض الكتاب على ذلك بأن هذه الصفات هى التى رشحت " محمد على" لأن يصبح واليا على مصر، وأن اكتسابه لهذه الصفات قد جعله من أهم السياسيين الشرقيين الذين سلكوا درب السياسة بمفهومها الأوروبى، ولا شك أن " محمد على " قد تربى على هذه الصفات منذ صباه سواء لكون موطنه الأصلي ألبانيا أوروبية الموقع أم لأنها قد لفحتها – قبل غيرها – رياح التغيير ودخلتها الفلسفات الأوروبية بعد الضعف الذى ألم بدولة الخلافة العثمانية، كما أنه كان تاجرا وابن تاجر فنظر إلى كل شيء بمنظار الكسب والخسارة المادية دون أن يعبأ كثيرا بالقيم الأخلاقية التى تحظى باحترام الشرقى المسلم على الأقل فى شريعته التى يسعى للا لتزام بها، والتى كانت ومازالت تشكل الوعاء الأساسى الذى يحدد ميزانه فى الحكم على الأحداث والأشخاص .

كيف وصل محمد على إلي الدولة ؟

عاشت مصر حالة من الفوضى والاضطراب فى أعقاب خروج الفرنسيين سنة ١٢١٥هـ-١٨٠١م، فلم يصبح بمقدور أمراء المماليك أن يستعيدوا ما كان لهم من سطوة ونفوذ سواء لهزيمتهم أمام الفرنسيين أم للجهود التى بذلها الفرنسيون خلال مدة بقاء الحملة فى إضعافهم واجتثاث ما كان لهم من شعبية لدى المصريين من جذورها كما سبق التوضيح (٤٠) .

وأسهمت الحملة كذلك فى هز ثقة المصريين فى قدرة الدولة العثمانية على القيام بدورها التقليدي في حمايتهم، وأصبحت الساحة مهيأة لظهور أى من المغامرين الطامعين فى السلطة .

على أن هناك عنصرا آخر قد أفرزته هذه الظروف يتمثل فى القوى الشعبية في مصر حيث أيقظت الحملة روح الجهاد الإسلامي ضد المعتدين " الكفرة " فى صفوف المصريين، ولم يكن ذلك دليلا على اليقظة الوطنية أو القومية التى حاول الفرنسيون إشعالها كما يرى البعض ولكنه كان جهادا ضد عدو المسلمين، فكانت قياداتهم فى الجامع الأزهر وغيره من المساجد، وزعاماتهم تتمثل فى علماء الدين، لكن القلة التى ساندت الفرنسيين واندثرت برحيلهم فلا وزن لها فى مسيرة الأحداث .

وكان العثمانيون قد قرروا إحكام سيطرتهم على مصر من خلال الوالى دون أن يعودوا إلى سياسة الاستعانة بالمماليك فى الحكم، وقد أدى ذلك إلى إثارة مخاوف بريطانيا على مستقبل الأوضاع فى مصر وجعلها تفكر فى مساندة أحد أمراء المماليك وهو " محمد بك الألفى " فى الوصول إلى الحكم، لكن بريطانيا وجدت أن استخدام القوة فى سبيل ذلك سيسىء إلى علاقتها بالدولة العثمانية الأمر الذى قد يؤدى إلى حدوث تقارب بينها وبين الروس أو الفرنسيين وخاصة أنها – أى بريطانيا – لم يكن من أهدافها فى ذلك الوقت السيطرة الدائمة على مصر (٤١)، وكانت تفضل سياسة المحافظة على ممتلكات الدولة العثمانية فى هذه الفترة .

ووسط هذه الظروف التى هيأت للعثمانيين إمكانية تنفيذ سياستهم تعين " خسرو باشا " واليا على مصر سنة ١٢١٦هـ-١٨٠٢م، ولكن لم يمض على توليه سوى عام ونصف إلا وثار عليه الجند الأرناؤود (الألبان) واضطروه للهرب، وأصبحت القيادة بيد قائد هذه القوة وهو " طاهر باشا " الذى أعلن المشايخ اختياره قائمقاما ليحل محل الوالى المطرود، لكنه هو الآخر – أى طاهر باشا – لم يستمر سوى عشرين يوما وقتله أحد جنود الإنكشارية فى ٢٦ مايو سنة ١٢١٧هـ ١٨٠٣م ليتيح الفرصة لتولى "محمد على" قيادة القوة الألبانية، ومع أن الوثائق لا توضح أسباب ثورة الجند الأرناؤود (الألبان) بالذات على الوالى " خسرو باشا " وإبعاده عن الولاية، وكذلك كيفية وأسباب اغتيال " طاهر باشا " قائد هذه القوة إلا أن الأمر لا ينبغى أن يفسر تفسيرا عفويا .

ومما يؤكد ما نرمى إليه أنه فى أعقاب قيام الدولة العثمانية بتعيين والى جديد هو " أحمد باشا " أدرك "محمد على" أن الأمر بهذا قد يخرج من يده فأسرع بالتحالف مع " عثمان بك البرديسى" أحد زعماء المماليك والذى كان يميل إلى الفرنسيين، وطرد الوالى الجديد بعد يوم واحد فقط من توليه الولاية، كما هاجم وحليفه البرديسى " محمد بك الألفى " الذى كان على علم بصلته بالإنجليز . وتترك هذه الأحداث أيضا تساؤلات محيرة لماذا أطاح "محمد على" بالوالى العثمانى الجديد لو أنه لم يكن طامعا فى السلطة ؟ ولو سلمنا بطمعه فى السلطة فهذا يدعونا للتأكد من أن له دورا فى الأحداث السابقة التى بدأت بالثورة على الوالى السابق خسرو باشا، ومما يزيد هذا الرأى صحة أن " محمد على " لم يتحالف مع " عثمان بك حسن " أحد زعماء المماليك الذى كان يرى ضرورة الارتباط بالدولة العثمانية وفضل التحالف مع أشد زعماء المماليك قربا من الفرنسيين وهو " عثمان بك البرديسي" وهو أمر يحتاج كذلك إلى تفسير ووضوح.

ولم يستمر التحالف بين " محمد على " والبرديسى سوى شهر واحد وابتعد عنه "محمد على" بعد ثورة أهالي القاهرة عليه لكثرة ما فرضه عليهم من الضرائب، ووجد " محمد على " أن الفرصة سانحة أمامه للتقرب إلى الأهالى والمشايخ والعلماء فانضم إليهم ضد البرديسى فكسب بذلك ودهم وتأييدهم، ومما لا شك فيه أن " محمد على " قد لعب دورا واضحا فى إثارة الأهالي على البرديسى بعد أن تحقق غرضه خلال الشهر الذى تحالف فيه معه فى طرد الوالى الجديد وإبعاد الألفى وقواته، فقد كان " محمد على " على صلة بالمشايخ والعلماء منذ قيامهم بتعيين قائده طاهر باشا قائمقاما فى أعقاب طرد " خسرو باشا "، كما أن الشهر الذى تحالف فيه البرديسى لم يكن كافيا لأن يفرض فيه البرديسى من الضرائب ما يثير الجماهير عليه، كما أن حماية جند "محمد على" لثورة الأهالى من رجال البرديسى بعد إعلانه المفاجىء بالانضمام إلى الأهالى قد أسهم فى اتساع هذه الثورة واستمرارها حتى خرج البرديسى وقواته من القاهرة .

لقد أدرك " محمد على " بعد أن نجح فى كسب ود المصريين أنه قريب من تحقيق أطماعه فى الولاية فهم القادرون على فرضه كما فرضوا قائده " طاهر باشا " من قبل، وأنه لم يبق أمامه سوى أن يتخلص من المماليك . وقد استغل ذكاءه فى إقناع العلماء والمشايخ بالكتابة إلى السلطان لاختيار " خورشيد باشا " محافظ الإسكندرية واليا. وكان "محمد على" يرمى من ذلك إلى تأكيد صلته

بالعلماء من خلاله حرصه على دورهم فى اختيار الوالى، وكذلك من خلال تعففه أمامهم عن المنصب، وفى نفس الوقت إظهار ما له من فضل على الوالى الجديد فتصبح له اليد الطولى فى البلاد، وكذلك إقرار مبدأ الأخذ برأى المصريين أمام الباب العالى حتى يكون ذلك مقدمة لما يخطط له بعد ذلك .

وتفرغ " محمد على " بعد ذلك لإبعاد المماليك عن القاهرة ثم تعقبهم فى الصعيد حتى ضمن ضعف قدرتهم فى التأثير على الأحداث أو اتصالهم بالقوى الأوروبية التى قد يسهم تدخلها فى فشل ما خطط له .

وبعد أن حقق نجاحا إلى حد كبير فى هذا الأمر عاد مكشرا عن أنيابه للوالى " خورشيد باشا " الذى لعب دورا فى تعيينه، وازداد تقربا من العلماء وعلى رأسهم السيد " عمر مكرم " نقيب الأشراف، وأدرك الوالى " خورشيد باشا " أبعاد ما يخطط له " محمد على "، فسعى إلى تقليم أظافره وإبعاده عن البلاد . ونجحت مساعيه لدى الباب العالى باستدعاء القوة الألبانية التى يقودها " محمد على " إلى الدولة العثمانية، وعادت القوة دون " محمد على" وقليل من الجند حيث أصر العلماء والمشايخ على بقائه فى مصر . فجدد الوالى مساعيه لدى الباب العالى واستصدر فرمانا بتعيين " محمد على " واليا على جدة، لكن ذلك لم يكن يتفق وأطماع " محمد على " فرفض تنفيذ الفرمان ــ وفى هذا عصيان لأوامر السلطان ــ وظل محتميا بسلطة المشايخ والعلماء(٤٢) .

ورد " محمد على" على ذلك بإثارة العلماء والمشايخ يساندهم الأهالى على " خورشيد باشا "، ويصور الجبرتى كيف كان " محمد على " يتردد على " عمر مكرم " نهارا وليلا " يعاهده ويتعاقد معه سرا بل ويحلف له الأيمان الكاذبة على سيره بالعدل وإقامة الأحكام والشرائع والإقلاع عن المظالم ولا يفعل أمرا إلا بمشورته ومشورة العلماء وأنه متى خالف الشروط عزلوه وأخرجوه ــ وهم قادرون على ذلك ــ فيتورط المخاطب ــ أى عمر مكرم ــ بذلك القول ويظن صحته وأن كل الوقائع زلابية " (٤٣).

وتقدم العلماء إلى القاضى بشكوى ضد " خورشيد " فى سنة ١٢١٩هـ ١٣ مايو سنة ١٨٠٥م، بعد أن خدعهم " محمد على" يشكون فيها من استغلاله وسوء تصرفات قواته، وفى اليوم التالى أسفر العلماء عن نواياهم وبشكل يؤكد دور "محمد على" فى تحريك الأحداث فأعلنوا عزلهم للوالى " خورشيد " باشا وتعيين محمد على " واليا مكانه . وبدأ " محمد على " فى دور الممثل البارع فى أداء

دوره حيث أظهر تعففه عن قبول المنصب قائلا : " أنا لا أصلح لذلك ولست من الوزراء ولا من الأمراء ولا من أكابر الدولة " . وقد علق " الجبرتى " على ذلك بأنه كان رياءا ونفاقا من " محمد على " حتى يتمسك الحاضرون به، وفعلا قالوا جميعا مخدوعين قد اخترناك لذلك برأى الجميع والكافة، والعبرة رضا أهل البلاد وجهروا بخلع " خورشيد باشا " من الولاية، وقام السيد " عمر مكرم " والشيخ " الشرقاوى " بتقليده خلعة الولاية، ثم حاصروا " خورشيد باشا " فى القلعة حتى اضطر للنزول على رغبتهم ووافاهم السلطان بفرمان تعيين محمد على واليا (٤٤) .

دور محمد على بين الماسونية الفرنسية والحماية البريطانية

لم يكن من السهل على شاب قليل الخبرة وقليل المعرفة بمصر وطبيعتها أن يصل إلى ما وصل إليه " محمد على " مهما كانت قدرته أو ذكاؤه إلا إذا كان يستند إلى قوة تخطط له وتعينه على تحقيق أهدافه وتسخره فى نفس الوقت لتحقيق أهدافها، وبخاصة أنه كما ذكر عن نفسه " لا يصلح للولاية وليس من الوزراء ولا من الأمراء ولا من أكابر الدولة " وهذه صفات حقيقية له مهما كان غرضه من قولها، ولهذا نجد أنفسنا أمام العديد من التساؤلات، لماذا ثارت الفرقة الألبانية بالذات التى يحتل فيها هو الرجل الثانى دون بقية الفرق العثمانية وأبعدت " خسرو باشا " عن الولاية تحت دعوى تأخر رواتبهم ؟ ولماذا اندفع العلماء لتعيين قائد القوة الألبانية الثائرة " طاهر باشا " قائمقاما ينوب عن الوالى المطرود ثم يقتل بعد عشرين يوما ؟ ولماذا يطرد الوالى الجديد " أحمد باشا " بعد توليه الولاية ثم ينقلب عليه ؟ و كيف استطاع " محمد على " أن يفى برواتب الجند وبخاصة بعد استيلاء المماليك فى الصعيد على مخصصات الأهالى هناك ؟ ولماذا ؟ جوانب كثيرة يكتنفها الغموض !!!

وتشير كثير من الأدلة إلى أن هذه القوة الاقتصادية التخطيطية ــ التى لم تكن ظاهرة ــ هى الحركة الماسونية التى انبعثت فى مصر سنة ١٢١٢هـ-١٧٩٨م، على يد رجال الحملة الفرنسية حيث مهد لها نابليون، ثم أسس خلفه كليبر ومعه مجموعة من ضباط الجيش الفرنسيين الماسونيين محفلا فى القاهرة سمى محفل إيزيس، وأوجدوا له طريقة خاصة به هى الطريقة الممفيسية أو الطريقة الشرقية القديمة (٤٥). وقد تمكن هذا المحفل من أن يضم إليه بعض الأعضاء من المصريين وإن كانوا قلة، ثم انحل هذا المحفل رسميا فى

أعقاب اغتيال كليبر سنة ١٢١٩هـ ـ ١٨٠٠م، وظل أعضاؤه يعملون فى الخفاء وبسرية تامة كطبيعة هذه الحركة حتى أعيد تأسيسه سنة ١٢٤٤هـ ـ ١٨٣٠م (٤٦) .

ويشير المنشور الأول الذى وزعه نابليون على المصريين إلى أنه قد سعى لنشر هذه الأفكار منذ بداية وصول الحملة فيذكر فيه " قولوا لهم ـ أى المصريين ـ أن جميع الناس متساوون عند الله وأن الشيء الذى يفرقهم عن بعضهم هو العقل والفضائل والعلوم فقط " (٤٧)، وكان من أهم الموضوعات التى أثارت الجبرتى فى هذا المنشور هو ادعاء الفرنسيين بأنهم مسلمون ومحبون للإسلام، وأبدى تعجبه من تضمن المنشور لعبارة " لا إله إلا الله لا ولد له " حيث وجد فى ذلك تناقضا مع ديانتهم المسيحية، وعلق على ذلك بقوله " كيف وأن الله خلق الناس بعضهم فوق بعض درجات " " بسم الله الرحمن الرحيم لا إله إلا الله لا ولد له ولا شريك فى ملكه " إن فى ذكر هذه الجمل الثلاث إشارة إلى أنهم موافقون إلى الملل الثلاث، ومخالفون لهم بل وبجميع الملل، موافقون للمسلمين فى ذكر التسمية ونفى الولد والشريك، ومخالفون لهم فى عدم الإتيان بالشهادتين وصحة الرسالة، ورفض الأقوال والأفعال الشرعية المعلومة من الدين بالضرورة، وموافقون للنصارى فى غالب أقوالهم وأفعالهم، ومخالفون لهم فى القول بالتثليث وجحد الرسالة أيضا ورفض ديانتهم وقتل القسس، وهدم الكنائس، وموافقون لليهود فى التوحيد، فإن التوحيد لا يقوله اليهود بالتثليث، وإنما هم مجسمة مخالفون لهم فى ديانتهم، والذى تحرر من عقائدهم أنهم لا يتفقون على دين، ولا يتفقون على ملة فكل واحد منهم ينحو دينا يخترعه بتحسين عقله ومنهم الباقى على نصرانيته المتكتم لها، وفيهم فرق من اليهود الحقيقيين، ولكن كل ذى دين فهو سائر مصر عليه، موافق للجمهور فى ضلالهم المصرين عليه (٤٨)، ولا نتفق مع من يرجع ذلك إلى أثر الفكر العلمانى الذى ساد فرنسا بعد الثورة بل إن مبدأ المساواة بين الأديان ـ لا إنكارها ـ هو أساس فى الفكر الماسونى (٤٩) .

وقد أبدى العلماء المصريون تخوفهم من هذا الاتجاه برغم عدم فهمهم له أو إدراكهم لطبيعته أو لأبعاده (٥٠)، فحينما وضع نابليون طيلسانة موشاة بعلم الثورة الفرنسية المثلث (حرية ـ إخاء ـ مساواة) على كتف الشيخ الشرقاوى ألقى بها الشيخ على الأرض رافضا ارتداءها (٥١)، كما رفض المشايخ كذلك وضع علامة " الجوكار " على صدورهم وهى علامة يقال لها الوردة (٥٢)، ولا

شك أن العلم والعلامة " الجوكار والوردة " هى إشارة ماسونية تشير إلـى تـأثير الحركة الماسونية على الثورة الفرنسية وكذلك تعبير عـن تـأثر قـادة الحملـة الفرنسية بفكر هذه الحركة .

ويبدو تأثرهم بفكر هذه الحركة كذلك وسعيهم لنشره بين المصريـين فيمـا حاولوا فرضه من العادات التى استهجنها المصريون كالبغاء والسفور وتشـجيع النساء من الحرافيش ونساء الهوى علـى ارتكـاب المحرمـات بشـكل علنـى واضح(٥٣)، حيث يعد هذا الأمر من بين أساليب انتشار الماسونية (٥٤) .

وتوحى بعض الدلائل إلى أن الفرنسيين قد نجحوا فى ضم بعض المصريـين من المشايخ والعلماء من بينهم الشيخ حسن العطار إلى المحفل الماسونى الـذى أسسه كليبر سنة ١٢١٤هـ-١٨٠٠م، فبعد أن هرب الشيخ "حسن العطـار " إلـى الصعيد فى أعقاب قدوم الحملة كغيره من العلماء ثم عاد إلى القاهرة علـى أثـر دعوة الفرنسيين للعلماء اتصل على الفور برجال الحملة ونقل عنـهم علومـهم، وفى نفس الوقت تولى تعليمهم اللغة العربية (٥٥)، وقد اندمج إلى حد كبير فـى علومهم، وكثيرا ما تغزل فى أشعاره بأصدقائه منهم (٥٦)، ولقـد دعـت هـذه الأمور أن يوصف العطار بأنه من دعاة التجديد (٥٧) . وقد توثقت صلة الشـيخ العطار بمحمد على بعد توليه الولاية وأصبح من الركائز التى يعتمد عليها " محمد على " فى خطواته التجديدية فى مصر وهو أمر يشير إلى وجود صلة بين " محمد على " والمحفل الماسونى المصرى الذى تأسس إبان الحملة الفرنسية (٥٨) .

كما أن تطور الأحداث يشير إلى تشبع "محمد على" بالأفكار الماسونية التـى كان مهيأ لها بحكم تكوينه الطبيعي، فينقل عن "محمد على" قوله وهـو يفـاوض الفرنسيين على مسألة احتلال الجزائر : " ثقوا أن قراري .. لا ينبع من عاطفـة دينية فأنتم تعرفونني وتعلمون أنني متحرر من هذه الاعتبارات التي يتقيد بـها قومي قد تقولون أن مواطنى حمير وثيران وهذه حقيقة أعلمها " (٥٩) .

وقد شهد عصر " محمد على " تأسيس أكبر محفل ماسونى فى مصر فقـد أنشأ الماسون الإيطاليون محفلا بالإسكندرية سنة ١٢٤٦هـ-١٨٣٠م على الطريقة الاسكتلندية، وذكر البعض أنه لم يكن محفلا ماسونيا بل كربوناريا وأن العامة قـد خلطوا بينهما لوجود بعض السمات المشتركة كالسرية التامة واستخدام الرمـوز ووحدة التعارف بين أعضائها بواسطة إشارات ولمسات، لكنهما يختلفان من حيث التكوين والوسائل الخاصة بتحقيق الأهداف حيث أن الماسونية متدرجة فى تطبيق

أهدافها فى حين أن الكربونارية تلجأ إلى أسلوب الثورة الفجائية (٦٠) .. وكان أول محفل ماسونى أنشأه الإيطاليون سنة ١٢٦٥هـ-١٨٤٩م ثم تلاه العديد من المحافل التى أنشأوها فى مصر (٦١) .

أما الفرنسيون الماسون فقد أسسوا محفلهم الأول من كوادر المحفل المؤسس إبان الحملة سنة ١٢٥٤هـ-١٨٤٥م، فى القاهرة ،وتبعه محفل آخر لهم فى الإسكندرية سنة ١٢٦١هـ-١٨٤٥ م تحت رعاية الشرق الأعظم الفرنسى وضم العديد من أبناء مصر إلى جانب العناصر الأجنبية، وكان منهم الأمير حليم بن محمد على وكذلك الأمير عبد القادر الجزائرى (٦٢) .

محمد على يتصل بالبريطانيين ويطلب حمايتهم

بعد أن وطد " محمد على " أقدامه فى مصر إلى حد ما من خلال اطمئنانه لمساندة القوى الشعبية وابتعاد المماليك عن القاهرة إلى الصعيد لم يكن يثير قلقه سوى أبعاد صراع النفوذ البريطانى الفرنسى على مصر . وكانت فرنسا قد نجحت فى إحداث وقيعة بين بريطانيا والعثمانيين سنة ١٢٢٠هـ ١٨٠٦م، ولم تستطع بريطانيا أن تحاصر أبعاد هذه الأزمة بأسلوب دبلوماسى مما دعاها لأن تستخدم القوة العسكرية، فأرسلت حملة عسكرية بحرية لتهاجم المضايق العثمانية فى فبراير سنة ١٢٢١هـ ١٨٠٧م، وأتبعتها فى الشهر التالى بحملة أخرى على مصر هى حملة " فريزر" كى تحتل الإسكندرية تحسبا لعودة الفرنسيين إليها مرة أخرى، ولمحاولة تمكين الزعماء المماليك الموالين لها مثل " محمد بك الألفى من استعادة نفوذهم فى حكم مصر (٦٣)، لكنها أخفقت فى احتلال رشيد بعد هزيمتها أمام الأهالى فى معركة الحماد، ووجدت أن المماليك بمن فيهم حليفها الألفى، لم يعودوا قادرين على السيطرة على الموقف الداخلى ولهذا استقروا بعض الوقت فى الإسكندرية لتكشف ما تسفر عنه الأوضاع .

وعلى الرغم من أن "محمد على" كان موجودا فى الصعيد أثناء حملة فريزر ليحارب المماليك ويمنعهم من الاتصال بالإنجليز كى تتاح له وحده فرصة الاتصال بهم، وأنه أبدى تخاذلا شديدا فى عدم اشتراك أى من قواته فى مقاومة الإنجليز فى معركة الحماد، إلا أنه قد استثمر انتصار الأهالى لحسابه وجعله مقدمة أتاحت له فرصة القيام بمفاوضة الإنجليز وهو أمر سجله عليه الجبرتى فقال : " وليت

العامة شكروا على ذلك أو نسب إليهم فعل بل نسب كل ذلك للباشا وعساكره وجوزيت العامة بضد الجزاء بعد ذلك" (٦٤).

وتؤكد هذه المواقف أن محمد على لم يكن يريد مقاومة الإنجليز أو حربهم وإنما كان يريد التفاوض معهم والتوفيق بين أطماعه ونفوذهم ومصالحهم الأمر الذى دعاه لمحاربة المماليك فى الصعيد دون أن يأبه بهجوم أجنبى على البلاد (٦٥)، بل إنه ربما كان يتوقع هجوم الإنجليز بعد علمه بحملتهم على المضايق العثمانية وأن هدفهم من الهجوم هو تمكين الألفى أو غيره من المماليك من الاتصال بهم، وحتى لا يجدوا أمامهم سوى مفاوضته هو .

وعلى أية حال لم يضع " محمد على " وقتا حيث أرسل رسله للتفاوض مع الإنجليز فى أعقاب معركة الحماد مباشرة، واستمرت المفاوضات بينهما أربعة اشهر أكد فيها " محمد على " جديته ورغبته المخلصة فى الارتباط بهم بل وطلب وضع نفسه تحت حمايتهم، وهو ما يؤكده تقرير فريزر الذى تولى التفاوض معه، الأمر الذى أدى ــ بعد اقتناعهم بذلك ــ إلى تخليهم عن أصدقائهم من المماليك، وقد تضمن التقرير الذى أعده قائد الحملة فريزر الذى تفاوض مع رسل " محمد على " والذى أرسله إلى الجنرال مور سنة ١٢٢١هـ ١٦أكتوبر ١٨٠٧م، أهم جوانب هذه المفاوضات فقد جاء فيه : " أرجو أن تسمحوا لى بأن أبسط لكم ليكون ... موضع نظركم فحوى محادثة جرت بين باشا مصر والميجور جنرال " شريروك " والكابتن " فيلوز" أثناء قيامهما بمهمتهما لدى سموه، ولدى ما يجعلنى أعتقد أن هذه المحادثة، ومن اتصالات خاصة كثيرة أخرى كانت له معه، بأنه جاد وصادق فيما يقترحه . لقد أبدى " محمد على " باشا والى مصر رغبته فى أن يضع نفسه تحت الحماية البريطانية، ووعدناه بإبلاغ مقترحاته إلى الرؤساء فى قيادة القوات البريطانية كى يقوم هؤلاء بإبلاغها إلى الحكومة الإنجليزية للنظر فيها، ويتعهد محمد على من جانبه بمنع الفرنسيين والأتراك أو أى جيش تابع لدولة أخرى من الدخول إلى الإسكندرية من طريق البحر وبعد الاحتفاظ بالإسكندرية كصديق وحليف لبريطانيا العظمى ولكنه لا مناص له من انتظار أن تعاونه إنجلترا بقواتها البحرية إذا وقع هجوم عليه من جهة البحر لأنه لا يملك سفنا حربية، ويوافق محمد على باشا فى الوقت نفسه على تزويد كل السفن البريطانية التى تقف على بعد من الإسكندرية بما قد تحتاج إليه من ماء النيل عند إعطائها إشارة يصير الاتفاق عليها (٦٦) .

وقد علق القنصل الفرنسي دروفتي على ما بلغه من معلومات حول الاتفاق بين محمد على والإنجليز الذى هو من نوع معاهدة بأن "مثل هذه المعاهدة عند إبرامها سوف تحقق الأغراض التى توخاها الإنجليز من إرسال حملتهم على مصر إن لم يفق أثرها من هذه الناحية كل ما كان يتوقعه هؤلاء من إرسال هذه الحملة " (٦٧) .

ولم يشأ الإنجليز الإعلان عن كل ما احتوته بنود هذه الإتفاقية في أعقاب توقيعها وإخلائهم الإسكندرية وتسليمها إلى باشا مصر حيث رأت بريطانيا ضرورة التريث فى ذلك لما تحتويه من إعلان العداء الواضح للدولة العثمانية لمساندتها لحاكم يريد الاستقلال عنها فى وقت كانت الدبلوماسية الإنجليزية قد اتجهت في طريق رأب الصدع مع دولة الخلافة، ولبدء التخطيط معها، ومع الحليف الجديد على رسم سياسة جديدة تمكن بريطانيا من بسط نفوذها على المنطقة بأكملها (٦٨) .

سياسة محمد على الظالمة ضد شعب مصر

بعد أن نجح محمد على فى الاستعانة بالزعامة الشعبية الممثلة فى المشايخ وعلماء الدين فى مصالحته مع المماليك حتى تهيأت الفرصة أمامه لتنفيذ مخططه ليغدر بالمماليك فى القلعة سنة ١٢٢٥هـ-١٨١١م، راح يخطط لكيفية التخلص من هؤلاء العلماء والمشايخ حتى يخلو له الأمر ويصبح حاكما مطلقا لا تحد سلطته سلطة أو تحاسبه فئة، فبدأ بإشاعة الفرقة بينهم وضرب بعضهم ببعض حتى ساد الفساد بينهم (٦٩)، وقد صور الجبرتى ذلك بقوله : " لقد سادهم التكالب على سفاسف الأمور وفراغ الأعين، والتطلع للأكل في ولائم الأغنياء والفقراء والمعاتبة عليها إن لم يدعو إليها " (٧٠) .

ولعل أهم عمل قام به "محمد على" لضرب الزعامة الإسلامية فى مصر هو ضمه للأوقاف، التى كانت موقوفة على الأزهر لينفق منها على التعليم والمشايخ، إلى ملكية الدولة، فقد مكنه هذا من تحقيق هدفه في تقويض دور التعليم الدينى وإحكام السيطرة على المشايخ والقائمين على التعليم من رجال الأزهر بعد أن فقدوا قدرتهم على معارضته (٧١) .

وقد أحاط " محمد على " نفسه ببطانة ومساعدين من نصارى الأروام والأرمن وكتبة من الأقباط النصارى واليهود، واستجلب لنفسه مماليك جعلهم حكاما للأقاليم

وكان فى كل ذلك مستفزا لجموع المسلمين المصريين ومعبرا عن عدم الاهتمام أو الاكتراث بهم وبخاصة أن هؤلاء المساعدين قد أعانوه على سياسته الاستبدادية بين الفلاحين (٧٢)، ويصور الجبرتى ذلك بقوله : " فتح بابه للنصارى من الأروام والأرمن فترأسوا بذلك وعلت أسافلهم، كما أنه كان يحب السيطرة والتسلط ولا يأنس لمن يعارضه " (٧٣) .

وسلك محمد على ومعاونوه من غير المسلمين سياسة تتسم بالظلم والقهر والاستعباد ضد جموع الشعب المصرى فجمع حجج الأرض من الفلاحين وفرض عليهم السخرة أو دفع ضريبة بديلة وحرم عليهم أن يأكلوا شيئا من كد أيديهم وأبطل التجارة، وزاد فى أسعار المعايش أضعافا مضاعفة، وفرض الضرائب التى لا يطيقون دفعها،وجعل كل نشاط اقتصادى يؤول إليه، ونقم على الناس (٧٤)، وأرجع الجبرتى ذلك إلى ما يتسم به " محمد على" من داء الحسد والشره والطمع والتطلع لما فى أيدى الناس وأرزاقهم (٧٥) . وأرجعها مؤرخون آخرون إلى احتقار محمد على للمصريين جميعا (٧٦)، وقد نتج عن هذه السياسة كره الفلاحين الشديد لمحمد على وأعوانه وهروبهم من الأراضى الزراعية، وترك قراهم فرارا من هذه السياسة الظالمة، وأعرضوا عن الاشتراك فى جيشه، فقد بلغ عدد الفلاحين الفارين فى عام واحد هو عام ١٢٤٦هـ ١٨٣١م، ستة آلاف فلاح (٧٧)، ومما زاد من كره الفلاحين لمحمد على الضرائب المتزايدة التى فرضها عليهم مما دفعهم إلى الهروب من القرى، وعجزت قرى كاملة عن دفع الضرائب، وبدلا من أن يخفف محمد على من قسوته على الفلاحين لجأ إلى نظام جديد ليحكم قبضته عليهم ويجبرهم على دفع الضرائب وهو" نظام العهد" الذى أصدره فى سنة ١٢٥٥هـ مارس ١٨٤٠م وكان هذا النظام ـ وهو أشد قسوة من نظام الالتزام ـ يقضى بمنح شخص من موظفى محمد على أو ضباطه الذين حققوا غنى فى خدمته بأن يأخذوا القرى التى عجزت عن سداد الضرائب مقابل جزء من أرض القرية يزرعها المتعهد لحسابه أو جزء من المحصول، وأن يعمل الفلاحون كعمال يومية على أن تعود الأرض لأصحابها عندما يكونوا قادرين على سداد الضرائب، وقد بلغت مساحة الأرض التى خضعت لهذا النظام ١,٢٠٥,٥٩٩ فدان . كما أن أغلب هذه المساحة لم تعد إلى أصحابها، وتحولت ملكيتها إلى المتعهدين فى عهد سعيد باشا، فقد تحول ٢٣٥ فدان من مجموع أراضى قرية نزلة الفلاحين بالمنيا البالغ جملة ملكيتها ٥٠٠ فدان إلى " كامل باشا " زوج ابنة

" محمد على " والمتعهد على القرية سنة ١٢٦٢هـ-١٨٤٧م وتحولت باقى الأرض فى القرية إلى " يوسف عبد الشهيد " المتعهد الآخر (٧٨) .

وقد أسهمت هذه السياسة المستبدة الظالمة إلى قيام بعض الثورات فى ريف مصر ضد "محمد على" فتزعم " الشيخ أحمد " فى قرية السليمية فى قنا ثورة كبيرة حيث جمع حوله أربعين ألف فلاح وسيطر بهم على المنطقة وعين حكامها وجمع ضرائبها وأعلن عصيانه على الحكومة، واستمرت الثورة قرابة الشهرين حتى ضربها محمد على بقواته العسكرية. وقامت ثورة أخرى أشد قوة بعد ذلك بعامين بزعامة رجل عرف باسم " الوزير" حيث قام بطرد موظفى محمد على وكبر شأنه حتى قضى عليه محمد على وذبحه وذبح معه حوالى ألف فلاح . وقامت ثورة أخرى فى المنوفية قضى عليها " محمد على " (٧٩) وقد أدى ذلك إلى إصدار محمد على لقانون الفلاحة سنة ١٢٤٥هـ ١٨٣٠م، والذى يقضى بمحاكمة وضرب الفلاحين الذين لا يمتثلون لأوامر الحكومة (٨٠) .

وبشكل عام فإن أخطر ما قام به محمد على فى مصر هو قضاؤه على الأسر والعصبيات ولم يدع فيها رأسا يستتر فيه ضمير أنا، وكانت معاناة الشعب المصري في عصره أشد قسوة من أسوأ حكام المماليك (٨١) .

أما فى المدن وبخاصة فى القاهرة فيذكر الجبرتى أن محمد على حين كلف الناس بتعميرها " اجتمع على الناس عشرة أشياء من الرزائل وهى السخرة والعونة وأجرة الفعلة والذل والمهانة وتقطيع الثياب ودفع الدراهم وشماتة الأعداء وتعطيل معاشهم وأجرة الحمام " (٨٢) . ولا شك أن فى ذلك تصويرا دقيقا من مؤرخ معاصر لسياسة النظام التى اتبعها محمد على مع سكان القاهرة والمماثلة لنفس سياسته مع الفلاحين فى الريف المصرى نتج عنها مزيد من الكره فى نفوس المصريين تجاهه . وقد صور الجبرتى نموذجا يدلل فيه على ذلك حين تحدث عن زواج ابنة محمد على من أحد مماليكه وهو " محمد بك الدفتردار" فى سنة ١٢٢٩هـ ١٨١٤م، وهو الذى اتهم بقتل " خليل ابن الجبرتى" بعد ذلك، فيروى الجبرتى كيف أمر محمد على شخصا اسمه " محمد أغا " أن يخلى داره حتى تسكن فيه ابنته، وكيف أمر الباشا بهدم المصاطب الواقعة فى طريق الزفة، وكيف تحمل نساء الأمراء المصريين المنكوبين ما يزيد عن طاقتهم فى تقديم النقوط والتقادم والهدايا. وكانت ابنة الباشا ترد الهدايا التى لا تجدها كافية مما ادى الى أن يصبح أغلب الأمراء مجردين مديونين، ويعقب على ذلك بأن الله قد

أظهر غضبه يوم الزفاف حيث حاصرت الأمطار الزفة واضطر الكثيرون لتركـــها وتلطخت ثياب من اضطر للبقاء فيها بالطين " (٨٣) .

وفى الوقت الذى اتسمت فيه سياسة محمد على بالظلم والاستبداد ضد أبنـــاء مصرمن الفلاحين والحضر قرب إليه الأجانب سواء الذين كانوا موجودين من قبل داخل مصر أم من استجلبهم من أوروبا للاستعانة بهم فى سياسته بشــــكل عـــام (٨٤) .

فقد كان عدد الأجانب فى مصر بضع آلاف قليلة فى نهاية القرن الثـــانى عشر الهجرى الثامن عشرللميلاد، ولكن " محمد على" استجلب منهم الكثير، فبلــغ عدد من استعان بهم من الأجانب سنة ١٢٤٦هـ-١٨٣٣م، خمسة آلاف، وزاد إلى (٦١٥٠) بعد ذلك بعشر سنوات سنة ١٢٥٦هـ-١٨٤٣م، وهو عدد يوازى حوالى مجموع الأجانب الذين وجدوا فى مصر قبل عهده (٨٥) .

ولم تكن استعانة محمد على بالأجانب قاصرة علـــى معونتـــه فـــى برامجـــه لتحديث مرافق البلاد أى لأغراض بناء السدود والجسور والقناطر وشـــق الـــترع والمصارف وبناء الجيش والأسطول والزراعة والصناعة، بل شملت خطط هـؤلاء الأوروبيين وأهدافهم المعادية فى أغلبها للاتجاه الإسلامى كأتباع سان ســـيمون من الفرنسيين الذين سعوا لنشر آرائهم (٨٦) .

كما أن استجلاب محمد على للأجانب لم يقتصر على العناصر التـــى تحقـــق نفعا عاما فى مصر وإنما فتح الباب لهم على مصراعيه فدخلت عناصر لا خـــلاق لها من طلاب الثراء الذين سلكوا أساليب قذرة فى التعامل مـــن غـــش ونصـــب واحتيال لدرجة أزعجت "محمد على " نفسه مما دعاه لأن يكتب إلـــى " بـــاغوص باشا " رسالة سنة ١٢٤٤هـ-١٨٢٩م يذكر فيها : " بالنسبة لتكاثر وجود طوائـــف الأفرنج فى مصر بلا صفة ولا كسب ول مأوى، فقد تذاكر مع قنصلـــى إنجلـــترا وفرنسا الموجودين عنده فى شأن هؤلاء واستصوب تبليغ عموم القناصل بإعـــادة من لا كسب له ولا صفة ولا مأوى منهم "، ثم طلب بعد ذلك سرعة اتخاذ موقـــف لإنقاذ الحكومة من شرورهم (٨٧) .

لكن أطماع محمد على المدعومة بمساندة أوروبية دعته إلـــى عـــدم اتبـــاع سياسة حاسمة مع الأجانب داخل مصر، بل بالعكس كان يحسن معاملتهم ويتلطـــف معهم (٨٨)، فزاد عددهم وزاد دورهم وتأثيرهم على المجتمع المصرى . ولعـــل من أهم الأسباب التى ساعدت على زيادة دورهم السلبى إلى جانب زيادة حجمـــهم

وبالتالى تأثيرهم فى كافة الميادين الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، وأن القوى الاجتماعية التي كان من الممكن أن تقوم بدور فعال فى مقاومتهم قد قضى عليها محمد علي بنظامه الاقتصادى والسياسى فسمح ذلك بفتح الباب للسماسرة والمغامرين الأجانب الذين تسارعوا لنهب اقتصاد البلاد وبمساندة سلطات بلادهم على حساب الفلاحين وجموع الكادحين المصريين(٨٩).أما العامل الثانى الذى جعل دور الأجانب يزداد تأثيرا وقوة داخل مصر هو اتفاقية لندن سنة ١٢٥٥هـ ١٨٤٠م التى أقرت فيها إنجلترا وفرنسا باستقلاله بمصر مما أدى إلى زيادة خضوعه لهم والارتماء فى أحضانهم . واضطر أن يغض الطرف عما يفعله الأجانب داخل مصر ففتح لهم الباب على مصراعيه، وارتبط بالعديد منهم بصداقات وقربهم منه (٩٠) . وازداد نفوذ قناصل الدول ودورهم فى الدفاع عن مواطنيهم بل وعن أى مواطن مقابل مبلغ من المال، وأصبح لكل دولة غربية قائمة بمن تشملهم الحماية، ومكن الأجانب لأنفسهم لا ضد أهالي البلاد فقط بل ضد سلطة الدولة كذلك (٩١) .

وكان من أهم الأساليب التى سيطر من خلالها الأجانب على مقدرات البلاد بمعونة محمد على سيطرتهم على التجارة الداخلية في المدن بعد أن سمح لهم محمد على بالسكن فى مناطق التجارة كالموسكى والأزبكية (٩٢)، ووفر لهم التسهيلات الكثيرة وحماهم من أية قيود.

ومن جهة أخرى فقد سمح لهم ـ دون موافقة دولة الخلافة ـ بامتلاك الأراضى الزراعية ورهنها، بل وأعطاهم مساحات زراعية من قبيل المنح، فقد منح ألف فدان من أبعادية محله كيل والجردات بالبحيرة إلى " توسيجه " قنصل دولة الروم (اليونان) سنة ١٢٥٣هـ ١٨٣٨م، ومائتان فدان من أبعادية قبريط بالغربية " لروستى " قنصل تسكانيا، وخمسة عشر فدانا من المعمور جهة وراق الحضر إلى" اصطفانى حنا " سنة ١٢٥٤هـ ١٨٣٩م من بينها تسعة أفدنة حدائق، كما منح أراضى بناء مساحة فدانين بضواحى مصر القديمة " لألكسان "ومنح قنصل الروم (اليونان) منزلين مساحتهما (٢٥٠٠) ذراع لإقامة مخبز ومنزلين سنة ١٢٥١هـ ١٨٣٦م (٩٣) .

وإذا كان بعض كتاب التاريخ قد رأى أنه لا ينبغى تعميم الأحكام على عصر محمد على من خلال فترة حكمه الأولى التى صورها الجبرتى من منظور إسلامى ـ حيث تعد هذه الفترة فترة إعداد لما قام به محمد على من إصلاحات فى الفترة

اللاحقة من حكمه كبناء القناطر والسدود وشق الترع وتشييد المنشآت والاهتمام بالتعليم وبناء الجيش وغير ذلك، فمما لاشك فيه أن المصريين لم يستفيدوا استفادة تذكر من كل هذه الأعمال التى بنوها بالسخرة، وكان المستفيد الأول، إلى جانب محمد على، الدول الأوروبية، حيث فتح الباب على مصراعيه للتجار الأوروبيين لدخول مصر والسيطرة على الحياة الاقتصادية فيها . وأصبحت مصر هى المزرعة التى تعتمد عليها أسواق أوروبا فى المنتجات الزراعية، وارتبطت مصر ـ من خلاله ـ بذلك ارتباطا وثيقا بأوروبا تجارة وحضارة . وأصبح اعتماد طبقة التجار الناشئة فى مصر اعتمادا على الأسواق الأوروبية وبشكل جعلها تتأثر بأى دور يقوم به الأوروبيون من الناحية الاقتصادية وبالتالى السياسية (٩٤)، إلى جانب تمكين دعاة الثقافة الأوروبية من السيطرة على الحياة الفكرية بعد أن شل دعاة الاتجاه الإسلامى (٩٥) . وأوقف مناهج التعليم القائمة على الدين تنفيذا لسياسة نابليون الماسونية، وهو أمر أكده المؤرخ الإنجليزى أرنولد توينى فى قوله : " كان محمد على ديكتاتورا أمكنه تحويل الآراء النابليونية إلى حقائق فعالة فى مصر " (٩٦) .

وحتى لو جارينا القائلين بأن الإصلاح أدوم من صاحبه وأن استمرار هذه المنشآت قد أفاد شعب مصر على المدى لبعيد، إلا أن الإصلاح ليس إصلاحا ماديا فقط، وقد حقق الاستعمار الأوروبى هدفه فى الاستفادة من هذه المنشآت حتى منتصف القرن العشرين (٩٧) . أما شعب مصر فقد خيم عليه اليأس ودفع ثمنا يفوق حجم كل إصلاح وهو تحطيم هويته الحضارية التى صقلها الإسلام والتى ميزت دوره خلال العصور القبطية والإسلامية والتاريخية بشكل عام (٩٨) .

ولقد علق أحد المؤرخين على ذلك العصر بقوله بأن سياسة الاحتكار التى اتبعها محمد على فى مصر كانت أفتك سلاح أضعف الفردية المصرية والشخصية الوطنية، ولا يمكن لقومية أن تقوم على أجساد عجاف ولا أرواح يستبد بها حاكم فينكر عليها حق الوجود (٩٩)، وعلق مؤرخ أخر بأن صراعه أى محمد على من أجل الاستقلال لم يكن صراعا من أجل استقلال مصر، بل كان من أجل ضمان ملك وراثى لأبنائه من بعده (١٠٠) .

على أن أخطر اتجاه رعاه محمد على هو الاتجاه إلى الدعوة القومية فى ظل سياسة التضييق التى مارسها على دعاة الفكر الإسلامى من العلماء والمشايخ فكان هذا الاتجاه مسيرا لمساعيه الرامية إلى الاستقلال بمصر وبالتالى إبعادها

عن الارتباط بدولة الخلافة الإسلامية (١٠١)، وقد لقى فى اتجاهه هذا عونا من المحافل الماسونية التى يعتبر هذا الاتجاه من صلب أهدافها، ومن أبرز الذين عاونوه فى هذا الاتجاه " الشيخ حسن العطار" سنة ١١٢٠ـ ١٢٥٠هـ ١٧٧٦ـ ١٨٣٥م، الذى تشير الدلائل على انضمامه للمحفل الماسونى المصرى، فقد كان العطار يرى أن البلاد " لا بد أن تتغير أحوالها ويتحدد بها من المعارف ما ليس فيها "، وكانت وجهته فى هذا التغيير هو الاتجاه إلى الثقافة الأوروبية بعد أن عجز ـ فى رأيه ـ المشايخ والعلماء عن مواصلة جهود المسلمين الأوائل (١٠٢) .

وتبع العطار فى اتجاهه تلميذه رفاعة الطهطاوى سنة ١٢١٥ـ ١٢٨٩هـ ١٨٠١ـ ١٨٧٣م، حيث ابتعثه محمد على إلى فرنسا خمس سنوات سنة ١٢٤١ـ ١٢٤٦هـ ١٨٢٦ـ١٨٣١م، عاد بعدها لينشر ما يزكى الفكرة القومية وغيرها من الأفكار الاجتماعية التى عايشها فى فرنسا والتى لم تكن تتلاءم مع أوضاع المجتمع المرتبط بالفكر الإسلامى، وقد بدت هذه الأفكار فى العديد من القصائد التى نظمها وكذلك الكتب التى ترجمها بعد توليه الإشراف على مدرسة الألسن(١٠٣) .

وكان اتجاه الطهطاوى يميل إلى الوطنية القريبة من القومية المتعصبة دون أن يحاول دمجه بالفكر الإسلامى على الرغم من محاولاته حشد العديد من الأدلة المستمدة من كتاب مسلمين لتدعيم أفكاره، كما أنه فى أغلب ما طرحه من أفكار قد أكد بأنه قد تأثر بتيارات الفكر الأوروبى من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار بشكل فاق تأثره بالفكر الإسلامى، حيث أبدى فى عديد من جوانب فكره، وفى كافة مراحل حياته، إعجابه بأفكار الحرية والمساواة وضرورة الاعتماد على العقل، وهى نفس الآراء التى أثارها نابليون إبان الحملة الفرنسية، والتى أكدت مدى تأثر الطهطاوى بآراء مونتسكيو، كما أشارت إلى تشبع الطهطاوى هو الآخر بالفكر الماسونى، ولم يربط بين هذه الأفكار وبين أصولها الإسلامية (١٠٤) .

وتبع الطهطاوى كثيرون ممن واصلوا الدعوة إلى القومية وإلى ضرورة الاتجاه الكامل إلى الحضارة الغربية من أمثال " على مبارك " و" إبراهيم أدهم " و" صالح مجدى " و" محمد عثمان جلال " و" عبد الله أبو السعود " و" عبد الله فكرى " وغيرهم، وواصل الجميع هجومهم على التيار الإسلامى من كافة الجوانب، وتعد أخطر دعوة تبناها بعض من هؤلاء، ونقلوها من فرنسا. وهى

الدعوة إلى سيادة اللهجة العامية لتحل محل اللغة العربية، وعندما لم تلـق هـذه الدعوة قبولا من بعض المفكرين استخدمت اللغة العربية الفصحى لإثارة النعـرة القومية العربية وهو تيار حمله المفكرون الشوام، والذين كانوا فى أغلبهم مـن النصارى، إلى مصر واستخدموه فى تدعيم اتجاههم الرامى إلـى ضـرب فكـرة الجامعة الإسلامية والسعى لفصل العرب عن دولة الخلافة الإسلامية .

الهـــوامــش

(١) نتفق فى هذا مع اتجاه الدكتور سليمان الغنام الذى يعتبر من أسبق من نبه إلى طبيعة هـذا الدور فى كتابه القيم " قراءة جديدة فى سياسة محمد على باشا التوسعية "، وإن كنا نـأخذ عليه معالجته للموضوع من بعد إقليمى أكثر من كونه بعدا إسلاميا .

(٢) د . سليمان الغنام : قراءة جديدة لسياسة محمد على التوسعية، ص١٢، ويصف الدكتـور محمد محمد حسين الثورة الفرنسية فى شعارها بأنها يهودية لأن - هذا الشعار من وضـع مجمع بورد الماسونى : حصوننا مهددة من داخلها، ص٨٣ .وأنظر أيضا : صالح بن عبـد الله العبود : فكرة القومية العربية على ضوء الإســلام ـ دار طيبـه ـ الريــاض سـنة ١٤٠١هـ، ص٨٦، وقد آثار وليام غازى كار فى كتابه أحجار على رقعة الشطرنج تـأكيد النواب الفرنسيين فى مجلس النواب المنعقد سنة ١٩٠٤م أن الثورة الفرنسية من صنـــع الماسونية وهو أمر يعلنونه عل الملأ ..

(٣) د . محمد أنيس : الدولة العثمانية والمشرق العربى ص٩٩ .

(٤) عبد الرحمن الجبرتى : عجائب الآثار فى التراجم والأخبار، جـ٣ ص١٢٠ . وقد نقلنا عـن الجبرتى دون تصحيح الأخطاء النحوية .

(٥) د . إبراهيم أحمد العدوى : الصراع الفكرى بين أجيال العصور الوسطى والعصر الحديــث كما صوره الجبرتى، بحث مقدم فى ندوة الجبرتى ص٨٣ .

(٦) د . لويس عوض : تاريخ الفكر المصرى الحديث . الخلفية التاريخيـــة، جـــ١ ص١٨٠ـ ١٨٨، أحمد فهد الشوابكة : الجامعة الإسلامية ص١٦٣ .

(٧) د . سليمان الغنام : المرجع السابق ص١٣، وقد منح الفرنسيون المعلم يعقوب لقب جنرال وجهزوه بالسلاح هو ومن جمعهم من النصارى واستخدموه ضد الجيش المملوكى والجيش العثمانى الذى جاء لإنقاذ مصر من الاحتلال الفرنسى، وضد الإرادة الشعبية الثــائرة ضـد الوجود الفرنسى، ويلقبه بعض النصارى فى هذا الموقف الخائن بأنه كان بطل للاستقلال .
أنظر : د . سليمان نسيم : الأقباط والتعليم فى مصــــر الحديثــة ـ منشــورات الكنيســة المصرية ـ د . ت ص٥٧ .

(٨) الجبرتى : عجائب الآثار جــ٣ ص٦ .

(٩) د . إبراهيم العدوى : المرجع السابق ص٨٣ .، وكانت رسالة نابليون إلى شــريف مكـة الشريف غالب فى ١٣ ربيع أول ١٢١٣هـ / ٢٥ أغسطس ١٧٩٨م تسير فى نفس خط التودد للمسلمين حيث ذكر فيها أن فرنسا صديق وفى للمسلمين وأنه سيكون حاميا للكعبـــة المقدســة

وهذا شرف كبير له، ورد عليه الشريف غالب بالتقدير وطلب الأمور [illegible] ـئق وترجمتها محفظة بدون - وثائق عابدين بحر برا . ولعل ذلك يوضح غلبة العوامل الاقتصادية على غيرها من العوامل فى هذا الموقف .

(١٠) الجبرتى : عجائب الآثار جـ٣ ص١

(١١) الجبرتى : عجائب الآثار جـ٣ ص٢٣، وقد عز على بعض المؤرخين غياب الوعى القومى فاستدل عليه من منشورات نابليون وأطلق عليه الشخصية المصرية، أنظر : د . يونان لبيب رزق : الجبرتى والشخصية المصرية ص١٢٤ .

(١٢) د . سليمان الغنام : المرجع السابق ص١٣ .

(١٣) د . إبراهيم العدوى : المرجع السابق ص٨٥ .

(١٤) د . أحمد عبد الرحيم مصطفى : الجبرتى مؤرخا، ص٣٧ .، وقد اعتبر بعض الكتاب هذه المظاهر المحدودة ظاهرة تدل على حرية المرأة، د . حكمت أبو زيد : المجتمع القاهرى على عهد الحملة الفرنسية كما صوره الجبرتى ص١٦٤ .

(١٥) د . إبراهيم العدوى : المرجع السابق ص٨٤ .

(١٦) أرنولد توينبى : عبد الرحمن الجبرتى وعصره ص١٣ .

(١٧) د . عبد الرحيم عبد الرحمن : دراسات فى تاريخ العرب الحديث ص١٩٦ .، د . محمد أنيس : المرجع السابق ص١٩١ .

(١٨) د . إبراهيم العدوى : المرجع السابق ص٨٣ .، على أن موقف المماليك المعادى للفرنسيين لا تحكمه الأبعاد الوطنية أو الدينية فى دعمهم للسلطة العثمانية بل يرجع إلى حرصهم على مصالحهم الاقتصادية فى ظل حكم إسمى للعثمانيين يسمح لهم بحرية التحكم وهو أمر لم يكن ليتحقق فى ظل السيادة الفرنسية .

(١٩) د . سليمان الغنام : المرجع السابق ص١٦ .

(٢٠) الجبرتى : عجائب الآثار جـ٤ ص٢٧، ٤٣، ٤٦ .

(٢١) د . جمال زكريا قاسم : عبد الرحمن الجبرتى : سيرة وتقييم ص٦١ .

(٢٢) د . أحمد عبد الرحيم مصطفى : الجبرتى مؤرخا ص٤٠، د . مصطفى رمضان : مخطوطة من تأليف الجبرتى ص٢٤٥ .

(٢٣) زار الألفى لندن سنة ١٨٠٢م، سنة ١٨٠٤م لإبداء الولاء لهم. د . سليمان الغنام : المرجع السابق ص١٦ .

(٢٤) د . محمود حلمى مصطفى : الجبرتى ومعاصروه من أمراء المماليك ص٣٠٥

(٢٥) د . جمال زكريا : المرجع السابق ص٥٦ .

(٢٦) صلاح عيسى : منهج عبد الرحمن الجبرتى فى رؤية الظواهر التاريخية ص١٣٩ وما بعدها .

(٢٧) الجبرتى : عجائب الآثار، جـ٢ ص٩٣، جـ٣ ص ١٩٢، جـ٤ ص ١٨٨ .

(٢٨) د . محمود حلمى : المرجع السابق ص٢٩٧ .

(٢٩) المرجع السابق ص٣٠٥ .

(٣٠) المرجع السابق ص٣٠٧ .

(٣١) د . سليمان الغنام : المرجع السابق ص١٤ .

(٣٢) د . فائق حمدى طهبوب : تاريخ البحرين السياسى ـ ذات السلاسل ـ الكويت سنة ١٩٨٣، ص٨٧ وما بعدها .

(٣٣) ما زال بعض كتبه التاريخ يعتبر القواسم قراصنة فى كل مراحل ظهورهم التاريخى دون دراية بتطور دورهم فى مقاومة النفوذ الأجنبى، ومثل هؤلاء لا يستوجبون فيما كتبوه أى عناية .

(٣٤) د . محمد فؤاد شكرى : مصر فى مطلع القرن التاسع عشر (١٨٠١ــ ١٨١١) ـ القاهرة سنة ١٩٥٨م جـ٣ ص٨٥٧ .

(٣٥) د . سليمان الغنام : المرجع السابق ص٢٨ .

(٣٦) د . محمد أنيس : مدرسة التاريخ المصرى فى العصر العثمانى ص٢٧،٢٨، د. ليلى عبد اللطيف : تاريخ ومؤرخى مصر والشام إبان العصر العثمانى ص٢١٣ .

(٣٧) يرى البعض أن الجبرتى قد تأثر فى موقفه من محمد على بأمرين أولهما تأثر الجبرتى بإجراءات محمد على تجاه أراضى الالتزام، والثانى دور محمد على فى قتل إبن الجبرتى. ولكن الجبرتى لم يضر من إجراءات محمد على . كما أن رأيه فى محمد على كان سابقا لقتل ابنه . أنظر : د . أحمد عزت عبد الكريم : الجبرتى مؤرخ مصرى على مفرق الطرق ص٢٧، د . إبراهيم العدوى : المرجع السابق ص٨٨ .

(٣٨) ورد فى البروتوكول الأول من بروتوكولات حكماء صهيون، وهو ما يلتقى مع ما جاء فى كتاب الأمير لميكافللى " أن السياسة لا تتفق مع الأخلاق فى شىء، والحاكم المقيد بالأخلاق ليس بسياسى بارع، وهو لذلك غير راسخ على عرشه، لابد لطالب الحكم من الالتجاء إلى المكر والرياء فإن الشمائل الإنسانية العظيمة من الإخلاص والأمانة تصير رذائل فى السياسة، وأنها تبلغ فى زعزعة العرش أعظم ما يبلغه أشد الخصوم أنظر : محمد خليفه التونسى : بروتوكولات حكماء صهيون، ط٧، دار الكاتب للنشر والتوزيع .

(٣٩) أحمد خاكى : الجبرتى ومحمد على، ضمن مجموعة بحوث الجبرتى القاهرة سنة ١٩٧٦، ص٣٧٦، ٣٨١، ٣٨٢.

(٤٠) د . عمر عبد العزيز : المرجع السابق ص٢٩٩ .

(٤١) د . عمر عبد العزيز : المرجع السابق ص٣٠٠ .

(٤٢) د . عمر عبد العزيز : المرجع السابق ص٣٠٣ .

(٤٣) أحمد خاكى : المرجع السابق ص٣٨١ .

(٤٤) سليمان الغنام : المرجع السابق ص١٧ .

(٤٥) حسين عمر حماده : الماسونية والماسونيون فى الوطن العربى ـ دار قتيبة ـ دمشق ـ ب ـ ت ص٣١٥، مجلة المجتمع الكويتية : حقائق فى وثائق، النشاط الماسونى فى مصر، حلقة ٤ فى ١٥ نوفمبر سنة ١٩٨٣م العدد (٦٤٥) بقلم : العقيد محمد كامل إبراهيم . والماسونية منظمة سرية خفية لم تتضح هويتها أو تاريخها برغم كثرة الكتابات عنها، لكنها تتخفى وراء أهداف تبدو نبيلة فى مقاصدها كدعوتهم للخير والمحبة والسلام والتعايش السلمى فى حرية وإخاء ومساواة تحت ظل حكومة عالمية موحدة بعيدة عن التعصب، وقد ظهرت حديثا أسماء متعددة كالروتارى والليونز وغيرها، ومن بين الذين ذكروا تاريخها أشاروا إلى أنها ترجع إلى الحكم البابلى . وأرجعها آخرون إلى نشأة الحركة النقابية فى أواخر العصور الوسطى فى أوروبا، لكن المتفق عليه بين كل من تناولوها هو صلتها باليهودية كديانة ثم بالحركة الصهيونية . وبالتالى تحولت أغراضها إلى سياسية دون أن يكون ذلك أمرا معلنا . وقد ارتبط الفكر الماسونى بالفكر الليبرالى وبخاصة فى انجلترا، وبفكر الطبقة الوسطى فى مرحلة نشوء وتطور الرأسمالية . واهتمت المحافل الفرنسية منذ بدايتها بالأمور السياسية والدينية، وسلكت أسلوب العمل الخفى حتى تستطيع أن تسيطر على كافة الأمور . على أن اهتمامها بالنواحى الدينية ليس إيجابيا بل ترى أن كافة الأديان هى العدو الحقيقى للبشرية وأنه لا بد من العمل على إبادتها . أنظر : د . عبد لصبور مرزوق : الغزو الفكرى، أهدافه ووسائله، ط٣ رابطة العالم الإسلامى ص٩٢، ٩٣ (ب . ت) .

(٤٦) حسين عمر حمادة : المرجع السابق ص ٢١٦، أبو الفدا " محمد عزت محمد عارف " نهاية اليهود، جدة سنة ١٤١٠ هـ ص ١٣٢،

(٤٧) د .ابراهيم العدوى : المرجع السابق ص ٨٣ . وحول الأسس والجوانب البراقة لهذه الحركة . انظر: أبو إسلام أحمد عبد الله : الروتارى ـ شرخ فى جدار . دار الاعتصام القاهرة سنة ١٩٨٨م ص ٣٧، ٣٨ .

(٤٨) د. صلاح العقاد : الجبرتى والفرنسيين، بحث ضمن مجموعـــة دراســات الجــبرتى ص ٣١٣ .

(٤٩) المرجع السابق .

(٥٠) تعجب الجبرتى من ادعائهم الإسلام ثم قيامهم بالعبث بالأماكن المقدسة أنظر : عجــائب الآثار : جـ٣ أحداث سنة ١٢١٣ هـ، جـ ٣، ص ٢٦ .

(٥١) د .صلاح العقاد : المرجع السابق ص ٣٢٠ .

(٥٢) د . إبراهيم العدوى :المرجع السابق ص ٨٥ .

(٥٣) الجبرتى : عجائب الآثار جـ٣ ص ١٦١ .

(٥٤) عبد الجبار الزيدى :الماسونية تحت الأضواء ـ بيروت سنة ١٩٨٨م، ص٣٣.

(٥٥) د . إبراهيم العدوى : المرجع السابق ص٨٥.

(٥٦) د . صلاح العقاد : المرجع السابق ص ٣١٦ .

(٥٧) د. جمال زكريا قاسم : المرجع السابق ص ٥٩ .

(٥٨) أصبح اسم " محمد على " رمزا من رموز الماسونية، واسما لأحد محـــافل الإســكندرية، وعن صلة " محمد على " باليهود انظر محمد على الزغبى : الماســونية فــى العــراء : مؤسسة الرسالة، بيروت سنة ١٩٨٨م ص ٣٠٠ولا شك أن هذا الارتباط هو الذى وفـر لمحمد على وسائل القدرة المادية لتنفيذ مؤامراته فى علاقاته وفى حل مشــكلات الجنــد والاتفاق عندما خرجت القوات العثمانية وظل هو وحده فى مصر وكذلك فى اســـتقطاب العناصر المحلية وغير ذلك الأمر الذى يرجح العامل الاقتصادى على غيره من العوامـــل فى توجيه الأحداث والمسيطرين عليها،وقد ذكر البعض كيف أن العناصر الماسونية كانت تمارس الإجرام فى المدن المصرية بالقتل وغيره، ثم تجــد مــن محافلــها الماســونية الحماية والمأوى والعون : أنظر د . على شلش : المرجع السابق ص ٢٢٢ .

J . M . Landau : prolegamena to astudy of secret societies In modern Egypt , p . 139 .

(٥٩) د .سليمان الغنام: المرجع السابق ص ٨٤ .

(٦٠) حسين عمر حمادة : المرجع السابق ص ٢١٧ .

(٦١) حسين عمر حمادة : المرجع السابق ص ٢١٨ .

(٦٢) المرجع السابق ص ٢١٩، وقد انتشرت المحافل الماسونية فى بعض المــدن الداخليــة على يد الفرنسيين مثل بور سعيد والسويس والإسماعيلية .

(٦٣) د . عمر عبد العزيز : المرجع السابق ص ٣٠٨ .

(٦٤) الجبرتى : عجائب الآثار، جـ ٤ ص ٥٨ .

(٦٥) د . سليمان الغنام : المرجع السابق ص١٨ .

(٦٦) د . محمد فؤاد شكرى : مصر في مطلع القرن التاسع عشر (١٨٠١ ـ ١٨١١م) ـ القاهرة سنة ١٩٥٨م ج٢ ص٨٥٦، ٨٥٧ ، د . سليمان الغنام : المرجع السابق ص١٨،١٩.

(٦٧) د . محمد فؤاد شكرى : المرجع السابق جـ٢ ص٨٢٦ وما بعدها، د . سليمان الغنام : المرجع السابق ص١٨ .

(٦٨) آثار هذا التقارب بين محمد على والإنجليز مخاوف الفرنسيين وهو أمر دعاهم إلى احتمال تغيير سياستهم مع محمد على وبدا هذا فى اتصالهم بسليمان باشا والى الشام لمعاودة الاتصال بالمماليك أعداء محمد على فى مصر سعيا لعرقلة مساعيه فى الاعداد لحملة على الجزيرة العربية التى كانت تسير فى صالح السياسة الإنجليزية، مع مراعاة أن سليمان باشا كان على صلة بالإنجليز قبل ذلك لنفس الغرض، وقد أدى ذلك إلى مطالبة محمد على السلطان العثمانى بإبعاد سليمان باشا من الولاية وتعيين يوسف كنج مكانه . الوثائق السياسية للبنان – د . نوار : ص١٧٩ وما بعدها .

(٦٩) د . عمر عبد العزيز : تاريخ الشرق العربى، ص٣٢٤ .

(٧٠) الجبرتى : عجائب الآثار جـ٤، ص٦٩ .

(٧١) أحمد خاكى : الجبرتى ومحمد على، ص٣٩١، شولش : مصر للمصريين، ت : د . رؤوف عباس، ص٤٤ .

(٧٢) د . جمال زكريا قاسم : المرجع السابق، ص٦٣، أحمد خاكى : المرجع السابق : ص٣٦٣ .

(٧٣) الجبرتى : عجائب الآثار، جـ٤، ص١٥٠، نقلا عن د . جمال زكريا : المرجع السابق، ص٦٢ .

(٧٤) أحمد خاكى : المرجع السابق، ص٣٩١، ٣٩٤، بلغت المساحة التى استولى عليها " محمد على " (٣٣٤,٢٨٦) فدان، وكانت أغلب هذه الأساليب قد تمت بعد سنة ١٨٤٠ أى بعد استقرار أسرة محمد على فى مصر بعد اتفاقية لندن . د . على بركات : ص ٣٤٣، وكان السلطان العثمانى قد سمح لمحمد على بامتلاك (١٥٠) ألف فدان، وخصص لكل واحد من أنجاله (٣٠) ألف فدان وكان أعضاء أسرته يملكون سنة ١٨٤٥م (٦٧٧) ألف فدان، أنظر : شولش : المرجع السابق، ص٣٠ .

(٧٥) الجبرتى : المرجع السابق، جـ٤، ص١٥٠ .

(٧٦) ك . أبير : التجديد والرجعية وإمبراطورية محمد على، ت : مكى حبيب المؤمن: مجلة المؤرخ العربى ـ العدد ١٨ لسنة ١٩٨١م، ص٢٠٥ . وسبق أن أشرنا إلى أن "محمد على" كان ينظر إلى المصريين على أنهم "حمير وثيران" د . سليمان الغنام : المرجع السابق ، ص٨٤ .

(٧٧) د . عمر عبد العزيز : المرجع السابق، ص٣٤٦ .

(٧٨) استعنا فى هذا الجانب بدراسة للدكتور على بركات : حركة المطالبة بالأرض فى الثورة العرابية ضمن مجموعة أبحاث بعنوان ـ " مصر للمصريين "، ص٢٤٤ .

(٧٩) د . بير : تـ . عبد الخالق لاشين : دراسات فى التاريخ الاجتماعى لمصر الحديثة، ص٢٢٠ - وما بعدها .

(٨٠) المرجع السابق .

(٨١) د . طلعت إسماعيل : محمد شريف باشا، ص٢١، ٢٢ .

(٨٢) أحمد خاكى : المرجع السابق، ص٣٩١ . نقلا عن الجبرتى .

(٨٣) المرجع السابق، ص٣٨٥، ويذكر شولش أن سياسة " محمد على " كانت تقضى بعدم منح المصريين وظائف كبرى فى الجيش أو الخدمة المدنية .

(٨٤) بدأت استعانته بالأجانب منذ سنة ١٢٣١هـ ١٨١٦م واستعان بهم فى صناعات كثيرة، لكن فتح الباب لهم قد جعل الأمر يسمح بدخول عناصر كثيرة غير صالحة باعتراف محمد على نفسه، د . جوزيف حجار : أوروبا مصير الشرق العربى، تـ : بطرس الحلاق وماجد نعمه، بيروت سنة ١٩٧٦ م، ص١٦ .

(٨٥) يرى البعض أن عدد الأجانب فى مصر حتى نهاية القرن الثامن عشر لم يزد عن عدة مئات، انظر : ج . بيير . ت : د. عبد الخالق لاشين : المرجع السابق، ص٤١٠، ٤١١. ويذكر نفس المرجع أن عدد الأجانب فى عصر محمد على قد بلغ عشرة آلاف ـ نصفهم من اليونانيين وألفين من الإيطاليين . ويذكر البعض أن عددهم فى نهاية القرن الثامن عشر قد بلغ حوالى سبعة آلاف منها خمسة آلاف من اليونانيين وألفين من الأرمن، ولكن صاحب الدراسة قد أبدى شكوكه فى هذا العدد لعدم وجود وثائق واضحة حول ذلك انظر : د . عبد الرحيم عبد الرحمن : الريف المصرى فى القرن الثامن عشر . ط٢ـ مدبولى ص ١٤٨، وانظر أيضا : د .نبيل عبد الحميد سيد أحمد: الزحف الإمبريالى على مصر فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر. الأهرام ـ القاهرة سنة ١٩٨١م، ص١١

(٨٦) د. نبيل عبد الحميد :المرجع السابق،ص١٠ ،. وكانت الجالية الفرنسية في مصر لها دور يفوق أى جالية وصاحبة النفوذ الأقوى فى عصر محمد على، محمد نور عارف : تاريخ غزو رأس المال الأجنبى لمصر (١٨٥٤ ــ ١٨٨٢)، رسالة دكتوراه غير منشورة ،كلية الآداب ــ جامعة المنيا، سنة ١٩٨٠م، ص ٠٧، وعن استعانة إبراهيم ابن محمد على بالأجانب فى حدائقه الخاصة أنظر : د. أحمد الحته : جهود ابراهيم باشا فى خدمة الزراعة والصناعة والتجارة ضمن كتاب عن ابراهيم باشا ــ الجمعية التاريخية المصرية سنة ١٩٤٨ م ص ٩١ .

(٨٧) د . على بركات : المرجع السابق ص ٣٤٦ .

(٨٨) د . نبيل عبد الحميد : المرجع السابق .

(٨٩) د . على بركات : المرجع السابق، ص ٣٤٧ .

(٩٠) عن صداقات محمد على للأجانب من نصارى ويهود أنظر : د . محمد فؤاد شكرى : بناء دولة مصر محمد على ــ القاهرة عام ١٩٤٨م، ص ٢٢، ٢٣، لنفس المؤلف : مصر والسودان ــ القاهرة عام ١٩٦٣م، ص ٤٩ .

(٩١) د . على بركات : المرجع السابق، ص ٣٥٠ .

(٩٢) د . على بركات : المرجع السابق،ص ٣٦٠ .

(٩٣) د . على بركات : المرجع السابق، ص٢ ٣٥ . وأشار إلى أن دولة الخلافة لم تسمح بامتلاك الأجانب العقارات إلا سنة ١٨٦٧ م (أى بعد عصر محمد على) واشترطت خضوعهم للوائح والقوانيين التى تطبق على الرعايا المحليين أما محمد على فقد أعطى الأجانب حق الرهن فى تشريع صدر فى ١٨٤٦م وهو أمر فاق حقوق الفلاحين . نفس المرجع، ص ٢٤٢ .

(٩٤) تعرض جيش محمد على فى الشام لخيانة بعض العناصر الأجنبية التى عملت معه زمنا طويلا وانضمت لجيوش الأوروبيين المعادية له مما أسهم فى هزيمته وتوقيعه على اتفاقية لندن سنة ١٢٥٦هـ/ ١٨٤١م، وانسحابه من بلاد الشام .أنظر د . جوزيف حجاز : أوروبا ومصير الشرق العربى ص ٢٠٨ .ولعل ذلك يشير إلى أثر العامل الدينى من جهة وكذلك تأثير المحافل الماسونية من جهة أخرى .

(٩٥) د . عمر عبد العزيز : المرجع السابق ص٣٢٢، ٣٢٣ ،. د . أحمد عزت عبد الكريم : المرجع السابق ص٢٤٨ .

(٩٦) أرنولد توينى : عبد الرحمن الجبرتى وعصره ص١٤ .

(٩٧) حول دور بريطانيا فى تحطيم الصناعة فى مصر . وكذلك آثار معاهدة بالطليمان بين بريطانيا وتركيا سنة ١٨٣٨م، أنظر : د . أحمد عزت عبد الكريم : المرجع السابق ص٢٥٠.

(٩٨) عن الأحوال الشخصية للفلاحين وتطبيق نظام السخرة أنظر : د . أحمد عزت عبد الكريم : المرجع السابق ص٢٤٨ .

(٩٩) أحمد خاكى : المرجع السابق ص٣٩٤ .

(١٠٠) د . عمر عبد العزيز : المرجع السابق ص٣٢٣ .، د . مكى شبيكه : تاريخ شعوب وادى النيل ص٥٥٨ حيث يذكر كيف قتل محمد على الروح الشعبية .

(١٠١) د . محمد فؤاد شكرى : مصر فى مطلع القرن التاسع عشر ١٨٠١ ــ ١٨١١، جـ٣ ص١٢٣٢ وما بعده، د . مكى شبيكة : تاريخ شعوب وادى النيل ص٥٥٨ .

(١٠٢) د . زكريا سليمان بيومى : التيارات السياسية والاجتماعية بين المجددين والمحافظين، دراسة فى فكر الشيخ محمد عبده ص٢ .

(١٠٣) المرجع السابق ص٢٣ .

(١٠٤) د . زكريا سليمان : المرجع السابق ص٢٤، ٢٥ . وأصحح هنا بعض ما سبق أن توصلت له فى هذا الكتاب حيث لم يحاول الطهطاوى أن يربط بين هذه الأفكار وجذورها الإسلامية كالحرية والعدل والمساواة وغيرها، وكذلك الأساس العقلى فى الفكر الإسلامى.

الفصل الخامس

محمد على يقضى على القوى الإسلامية
فى المشرق العربى
ويهيىء المنطقة للاستعمار الغربى

- محمد على والاتجاه الإسلامى فى الجزيرة العربية .
- محمد على والقوى الإسلامية فى الخليج العربى .
- محمد على والاتجاه الإسلامى فى الشام .
- محمد على يفتح الطريق لفرنسا لاحتلال الجزائر .
- نتائج سياسة محمد على فى عدن وجنوب الجزيرة العربية .

إذا كان اتفاق " محمد على" مع البريطانيين قد أسهم فى إزالة القلق الذى كان يحيط به تجاه الأوضاع الخارجية فإنه إلى جانب ذلك قد أكّد النية العدائية له تجاه الدولة العثمانية، حيث تضمّن تقرير فريزر طلبه للحماية من أى هجوم خارجى سواء من الفرنسيين أم من الأتراك .

ولم تكن هذه هى الإشارة الأولى التى توضح موقف "محمد على" العدائى للسلطان العثمانى بل سبقت الإشارة إلى رفضه تنفيذ الفرمان الذى أصدره السلطان بتعيينه والياً على جدة حين اختلف مع والى مصر " خورشيد باشا "، هذا بخلاف دوره فى التآمر على ولاة السلطان " خسرو باشا " و" أحمد باشا " ثم " خورشيد باشا " لتهيئة الولاية لنفسه .

وكان " محمد على " ـ تسانده بريطانيا ـ قد وجد غطاء لدوره فى مهاجمة القوة الإسلامية فى الجزيرة العربية وهو ما ادّعاه أنه ينفّذ أوامر السلطان العثمانى منتهزاً فرصة الخلاف بين الدولة العثمانية والدولة السعودية الذى كان من الممكن أن ينهى دوره بدخول الحجاز فقط، لو افترضنا أن لذلك الدور ضرورة، لكنه لم يستطع أن يجد أى غطاء لدوره فى ضرب القوى الإسلامية الأخرى فى الشام ومصر والخلافة نفسها، فبدا فى صورة المعادى لدولة الخلافة بعد أن انكشفت أطماعه .

ولما كان الدين الإسلامى يمثل أهم مقوّمات الترابط والصمود لشعوب المنطقة ويشكّل أهم ملامح هويتها، فإن دور محمد على بهذا يتمثل فى تنفيذ السياسة المعادية للمنطقة ببعدها الماسونى الصليبى الاستعمارى والتي نتج عنها تحطيم هويتها وبالتالى تهيئتها لسيطرة الاستعمار الغربى، فسيطر الفرنسيون على الجزائر ثم تونس فى نفس الوقت الذى وجّه فيه قوته إلى الشام والدولة العثمانية، كما سيطر الإنجليز على مداخل البحر الأحمر، وبالاتفاق أو التنسيق استولوا على كثير من مناطق الخليج العربى والتى ظلت مستعصية عليهم قبل أن يهاجم هو الجزيرة العربية. ثم أسهمت سياسته فى النهاية لتسليم مصر للاستعمار البريطانى تلك السياسة التى يصفها البعض من أصحاب المنظور المادى والعلمانى بالنهضة والأخذ بأسباب الحضارة الحديثة، ولكن لكونها لم تقم على أكتاف أهل البلاد أو لتحقيق مصالحهم سرعان ما كانت سبباً فى وقوعهم تحت الاحتلال .

محمد علي وضرب الاتجاه الإسلامي في الجزيرة العربية :

سبقت الإشارة إلى أن الخلاف الذى قام بين الدولة السعودية والدولة العثمانية لم يصل إلى حد العداء الذى يستوجب إعلان الحرب، فلم يطلب أتباع الدعوة السلفية الخلافة أو حتى يبدو اعتراضهم على التبعية لها . ولكن الخلاف قد انحصر فى أمرين أساسيين الأول هو مطالبة السلفيين بضرورة التزام وفود الحجيج بمنهج الإسلام والإقلاع عن كل ما فيه خروج عليه من وجهة نظرهم، والأمر الثانى هو شعور الدولة العثمانية بالحرج والضعف أمام سيطرة السلفيين على المدن المقدسة فى الحجاز حيث أدركوا أن فى ذلك إسقاط لهيبتهم ولمكانتهم السياسية .

وتؤكد رسالة سعود بن عبد العزيز إلى السلطان سليم الثالث فور دخوله مكة المكرمة حرص أتباع هذه الدعوة على الولاء لدولة الخلافة ــ كما سبقت الإشارة ــ وأن الخلاف هو فيما رأوه من خروج محمل الحج الوافد من دمشق والقاهرة في رأي أتباع الدعوة على مبادىء الشريعة الإسلامية (١).

ويشير الجبرتى إلى ما ينفى شعور العداء بين الجانبين في?كر فى أخبار يوم ٩ رجب ١٢٢١هـ ــ ٢٢سبتمر١٨٠٦م، أن مندوب السلطان كتخدا القبودان حين وصل ومعه مرسوم استمرار محمد علي واليا علي مصر ذكر أن السلطان طلب منه " طلوع الحج ولوازم الحرمين الشريفين ووصول العلائف إلى أربابها على النسق القديم " (٢) . وقد أرسل السلطان مندوباً آخر فى الشهر التالى ليؤكد نفس المطالب . وأشار فى نفس الوقت إلى موقف الدعاة السلفيين من وفود الحجيج حيث ذكر مطالبهم من " عبد الله باشا " أمير الحج الشامى فى محرم سنة ١٢٢٢هـ ــ ٩ إبريل ١٨٠٧م، بألا يأتوا إلا على الشرط الذى اشترطوه عليهم وهو " أن يأتى بدون المحمل وما يصحبهم من الطبل والزمر والأسلحة وكل ما كان مخالفاً للشرع. فلما سمعوا ذلك رجعوا من غير حج ولم يتركوا مناكيرهم" (٣) . كما ذكر موقفاً مماثلاً من موكب الحج المصرى (٤) .

واقتصر مرسوم السلطان العثمانى القاضى بطلب الحرب مع السعوديين من محمد على، وبدافع من رسائل شريف جدة وكذلك بوحى وتشجيع من الإنجليز، على " استخلاص الحرمين والوصية بالرعية والتجار" (٥). وتكرر نفس الطلب بعد ذلك مجددا الاقتصار على تخليص الحرمين الشريفين . وفى أعقاب نجاح

القوات العسكرية فى الاستيلاء على بلاد الحجاز، بعد أن هزمت وأخفقت عدة مرات أمام الدعاة السلفيين، أرسل السلطان محمود الثانى مرسوماً إلى مصر يقرأ فى المساجد باستعادته للحرمين الشريفين (٦)، وهو أمر يوحى بأن السلطان العثمانى ليس له هدف أخر سوى عودة الحجاز للسيادة العثمانية . وكان من الممكن أن تنتهى هذه الحرب إلى هذا الحد فقد سيطرت قوات " محمد على " على مدن الحجاز، وعيّن " محمد على" شريفاً جديداً على الحجاز التى اضطر للسفر إليها وقام بطرد " الشريف غالب " الذى ساند قواته وساعدها على دخول الحجاز (٧)، كما أن قادة الدعوة السلفية السعوديين قد عرضوا عليه الصلح، لكن " محمد على "وضع شروطاً صعبة التحقيق لقبول الصلح، وكذلك ضمّن رده على طلب الصلح تهديداً يرويه الجبرتى فيقول : "وأما الصلح فلا نأباه بشروط وهو أن يدفع لنا كل ما صرفناه على العساكر من أول ابتداء الحرب إلى وقت تاريخه، وأن يأتى بكل ما أخذه واستلمه من الجواهر والذخائر التى كانت بالحجرة الشريفة، وكذلك ثمن ما استهلك منها وأن يأتى بعد ذلك ويتلاقى معى وأتعاهد معه ويتم صلحنا بعد ذلك وإن أبى ذلك ولم يأت .. فنحن ذاهبون إليه " (٧) .

وتجدر الإشارة إلى أن هذه الحرب لم تكن بين قوات يدين طرفاها بالإسلام، كما لم تكن حرباً عربية عربية كما يحاول البعض أن يصفها (٨)، بل إن هذه الحرب كانت بين قوة إسلامية ليست لها أية أطماع سياسية ولكنها أبدت غيرة وحرصاً على العودة إلى المبادىء الأساسية للدين الإسلامى وهى القوة السعودية، كما أبدت حماساً شديداً فى دفع خطر المستعمرين " الكفّار" عن الديار الإسلامية، أما القوة التى حاربتها والمرسلة من قبل والى مصر ــ والتى لم تكن مصرية بأى صورة من الصور ــ فأغلبها من الأرناؤود وبعض الأتراك والنصارى (٩)، وبعض الضباط الفرنسيين (١٠). ولا يحمل أغلب قادتها من الإسلام سوى الإسم، ويصوّر الجبرتى طبيعة هذه القوة من خلال تعليق من وصفه بالصلاح والورع ــ وهو شاهد عيان ــ على هزيمة هذه القوات فى البداية أمام أتباع الدعوة السلفية فيقول : " أين لنا النصر .. وأكثر عساكرنا على غير الملة !، وفيهم من لا يتدين بدين، ولا ينتحل مذهباً، وصحبتنا صناديق المسكرات ولا يسمع فى عرضينا آذان ولا تقام به فريضة، لا يخطر فى بالهم ولا خاطرهم شعائر الدين . والقوم (يقصد السلفيون) إذا دخل الوقت أذّن المؤذنون وينتظمون صفوفاً خلف إمام واحد بخشوع و خضوع . وإذا حان وقت الصلاة والحرب قائم، أذّن المؤذن وصلوا

صلاة الخوف فتتقدم طائفة الحرب وتتأخر الأخرى للصلاة ... وعسكرنا يتعجبون من ذلك لأنهم لم يسمعوا به فضلا عن رؤيته . وينادون فى معسكرهم هلموا إلى حرب المشركين، المحلقين للذقون المستبيحين الزنا واللواط الشاربين الخمور، وكشفوا عن كثير من قتلى العسكر فوجدوهم غلفا غير مختونين، ولما وصلوا بدرا واستولوا عليها وعلى القرى والخيوف وبها خيار الناس وبها أهل العلم الصلحاء نهبوهم وأخذوا " نساؤهم " وبناتهم وأولادهم وكتبهم " (١١) .

وإذا كان محمد على قد وجد غطاء لهذه المرحلة من الحرب ضد هذه القوة الإسلامية والتى انتهت باستيلائه على الحجاز وهو الغطاء العثمانى، فإن إعلان السلطان العثمانى لاكتفائه بعودة الحرمين الشريفين، إلى جانب طلب السلفيين للصلح وفرضه لشروط لا يستطيع السعوديون الوفاء بها ثم يلحقها بتهديد واضح، كلا العاملين قد أسهما فى توضيح طبيعة الدور الذى كان يقوم به محمد على، فمهاجمة الدرعية لم تكن مطلبا ملحا أو ضروريا للدولة العثمانية، بل إن ظهوره بمظهر المطيع لأوامر السلطان العثمانى فى المرحلة الأولى من الحوب كان ستارا لحقيقة أهدافه بعد أن أكد من قبل عدم حرصه على هذه الطاعة . ومن هنا فإن الهدف الحقيقى من هذه الحرب فى كل مراحلها كان لخدمة أطماعه التوسعية فى إطار تسمح به أهداف السياسة البريطانية فى المنطقة، بعد أن أصبحت الدولة السعودية تشكل خطرا بالغا على الوجود البريطانى فى المنطقة بأسرها سواء فى البحر الأحمر أم فى الخليج العربى أم فى وصولها إلى الطريق البرى عبر العراق، وأصبحت بريطانيا تحس بتهديد حقيقى لمصالحها فى الشرق . ولهذا فإن وصف هذه الحملة بأنها حملة استعمارية تحت غطاء إسلامى يعد وصفا حقيقيا (١٢) .

وإذا كان العثمانيون قد أثاروا غضب وعداء الدولة السعودية بقتلهم للأمير " عبد الله بن سعود " الذى أسره "محمد على" وأرسله إلى السلطان إلا أن ذلك لم يسهم فى ظهور أى نعرة قومية تثير الروح العربية وتبدى الكره للترك لدى السعوديين الذين ظلوا على تمسكهم بالإسلام، وانحصر الأثر لهذه الواقعة وغيرها فى الإطار السياسى .

ولهذا فإنه ليس من الموضوعية القول بأن الدعوة السلفية قد أثارت مشاعر العرب القومية ضد السيطرة التركية أو أنها كانت تعبيرا عنها، أو أنها أسهمت فى إظهار الفكرة العربية القومية، فالدعوة السلفية دعوة إسلامية فى كل مبادئها سعت

للإنتصار لهذه المبادىء فى كافة مراحل تطورها سواء فى توجهها نحو الشرق فى الخليج أم فى الاتجاه إلي البحر الأحمر حيث كانوا فى كل هذه المراحل دعاة ولم يكونوا محاربين أو غزاه، بل إن حربها ضد أطماع " محمد على" كانت جهادا ــ بالبعد الإسلامى ــ أمام الأطماع الشخصية والتوجهات القومية التى حاول الاستعمار أن يفرضها سعيا لتفتيت الدولة الإسلامية الواحدة، ومحاولة لتكوين وإرساء دعائم قوة إسلامية تسهم فى تجديد وإحياء دولة الخلافة العثمانية فى محاولة للتصدى للهجمة الصليبية الاستعمارية التى كان " محمد على " من أهم أعوانها وكان دوره من أهم وسائلها .

كما أن هذه القوة الإسلامية الجديدة لم تكن تمثل تجمعا قبليا، فهناك من ناصرها إيمانا بمبادئها وهناك من لم يؤمن بهذه المبادىء، بل ناصبها العداء سواء من الدرعية أو من العيينة فى نجد وبنو خالد فى الإحساء وغير ذلك . كما أن أتباعها حين اتجهوا إلى الحجاز آمن بمبادىء دعوتهم الكثير من وفود الحجيج الذين يمثلون انتماءات متعددة من الشعوب الإسلامية، وانضم الكثير منهم إلى صفوف الجهاد فيها، ولهذا فهى دعوة إسلامية سواء فى مبادئها أم فى أتباعها وكذلك فى زعامتها وفى دورها التاريخى .

محمد على والقوى الإسلامية فى الخليج

الطابع الإسلامى للقوى السياسية على ساحل الخليج العربى

يرجع كثير من المؤرخين من أصحاب المنظور القومى قيام الوحدات السياسية فى الخليج العربى إلى كونها تجمعات عشائرية وقبلية (١٣)، وينطوى هذا المنظور على إغفال ــ متعمد ــ لدور العامل الدينى فى نشأة هذه الكيانات، وكذلك فى استمرارها حتى استقرارها فى النهاية .

ومع التسليم بأن التجمعات العشائرية أو القبلية قد ظهرت على السطح لهذه القوى، ولعبت دورا واضحا فى مراحل التكوين والاستقرار وما تخللها من أحداث سياسية وهو ما يرتكز عليه المؤرخون القوميون، إلا أن ما أحاط هذه العشائر أو القبائل من قوى وتجمعات من عناصر إسلامية مختلفة والتى كانت تمثل النسبة الأكبر، إلى جانب طبيعة الأهداف والدوافع التى استوجبت تكون هذه التجمعات، يدعو إلى التأكيد بأنها تجمعات أو كيانات إسلامية أكثر من كونها تجمعات أو كيانات أو قوى ذات بعد قومى أو عرقى، وبالتالى يصبح من غير الموضوعية

حصرها فى إطار قومى محدود حتى ولو كانت الظروف السياسية اللاحقة قد أسهمت فى ظهورها أو فى استمرارها فى هذا الإطار .

وتؤكد الدوافع الحقيقية التى ساعدت على تكوين هذه القوى صحة ما نرمى إليه من رجوح العامل الدينى على غيره من العوامل، ولعل أهم هذه الدوافع هو الجهاد ضد التدخل الأوروبى فى الخليج بعد تعرض الدولة العثمانية لعوامل الضعف الذى جعلها غير قادرة على القيام بمواصلة مقاومة هذا التدخل، أو ربما جعلها تغيب عن الساحة الخليجية إلى ساحات أخرى استوجبت المزيد من الاهتمام، وقد أسهم هذا الغياب العثمانى فى بروز قوى محلية تتولى مهمة الجهاد كاليعاربة والبوسعيديون والقواسم وغيرهم (١٤) .

كما أن هناك عامل آخر قد أسهم فى استقطاب هذه القوى والكيانات إلى ساحل الخليج وهو العامل الاقتصادى الذى يرجع إلى عوامل جغرافية داخل الجزيرة العربية كالجفاف وضعف الموارد الاقتصادية فى هذه المنطقة الصحراوية، أو توفر أنشطة أكثر كسبا على ساحل الخليج كصيد الأسماك واللؤلؤ وغير ذلك، ومما لا شك فيه أن كلا العاملين، الجهاد أو العامل الاقتصادى، لا يفرض وجود تجمع قبلي بل تجمع إسلامي، وإذا كان ذلك يبدو جليا فى عامل الجهاد فإنه لا ينتفى فى العامل الاقتصادى حيث أن السعى لتأمين المصالح الاقتصادية أو الدفاع عنها درب من دروب الجهاد كجزء من الدفاع عن الدين والوطن . ولا يقتصر الأمر فى كون هذه التجمعات أو الكيانات إسلامية وليست قبلية أو عشائرية على الدوافع التى كانت وراء تكوينها فقط بل يتضح هذا البعد فى مراحل وجودها وتكوينها منذ البداية كذلك فتعود بداية تكوين أقدم هذه القوى وهى قوة اليعاربة فى عمان إلى أتباع المذهب الأباضى حيث استقطبت هذه المنطقة بطبيعتها الجغرافية جموعا من أتباع هذا المذهب الذين وفدوا إليها منذ القرن الأول الهجرى وبعده حيث وجدوا فيها ملاذا بعيدا عن متابعة الحكومات المركزية فى دمشق ثم بغداد خلال مرحلتى الدولة الأموية والدولة العباسية وما بعد ذلك، وتحصن هؤلاء بطبيعة المكان الذى تفصله صحراء الربع الخالى وسواحل البحر الذى يمكن ارتياده إذا ما ولجهوا هجوما، وبالتالى فإن أساس تواجدهم يرجع إلى عوامل دينية لا إلى عوامل قومية عرقية.

وتخللت فترة وجود الأباضيين فى عمان فترات محدودة قاموا فيها بحكم أنفسهم كنتيجة للاضطرابات أو الانقسامات التى كانت تتعرض لها الحكومة

المركزية أو بسبب ضعف قبضتها على كافة مناطق الدولة الإسلامية ولكن دون إعلان أو حتى ميول للانفصال عن الدولة الإسلامية المركزية .

وكان النظام السياسى الذى التزم به الأباضيون فى حكمهم لأنفسهم يرتكز على أساس دينى مذهبى لا على أساس قبلى عرقى بالطبع، فكان من يختارونه لقيادتهم هو إمام تتوفر فيه شروط الفضيلة والتقوى، ولهم الحق فى عزلة أو الثورة عليه إذا ما افتقد هذه الشروط أو بعضها، وهذا غير جائز أو معمول به فى النظام القبلى، كما أنهم لم يكونوا يشترطوا وجود الإمام بل يمكن الاستغناء عنه إذا ما كانت الظروف غير ملائمة وهى التى يطلقون عليها فترات "الكتمان"، كما كان الخروج من ظروف " الكتمان " إلى مرحلة " الظهور" أمر كان يقرره المشايخ والقضاة فى اجتماع سرى بينهم (١٥) .

وبعد قيام قوة اليعاربة إحدى مراحل " الظهور" لأتباع المذهب الأباضى فى عمان، فكما يشير المؤرخ العمانى " السالمى" أن علماء الدين قد اتفقت كلمتهم على " أن ينصبوا لهم إماما يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر فوقعت خيرتهم على " ناصر بن مرشد " فرضى به الجميع وعقدوا عليه الإمامة بالرستاق (١٦) .

وكان أول عمل يقوم به الإمام " ناصر بن مرشد " سنة ١٠٣١ــ ١٠٥٦هــ ١٦٢٤ ــ ١٦٤٩م، وهو أول حكام اليعاربة، وبعد توحيده المنطقة، هو العمل على تطهير منطقة عمان من البرتغاليين أو الإيرانيين الذين كانوا يحاولون أن يحلوا محل البرتغاليين فى الخليج . ونجح الشيخ ناصر، وخليفته " الشيخ سلطان بن سيف " سنة ١٠٥٦ــ ١٠٥٧هــ ١٦٤٩ــ ١٦٦٨م، فى طرد البرتغاليين من الخليج وتعقبهم إلى سواحل الهند وسواحل شرق إفريقيا (١٧)، واستطاع أئمة عمان أن يمهدوا للسيطرة الإسلامية على بعض مناطق شرق إفريقيا كانت مملوكة للبرتغاليين .

وسارت أسرة البوسعيد ــ بعد اليعاربة ــ على نفس النهج فى البناء السياسى وتولت دور الجهاد ضد القوى الأوروبية فى الخليج . وإذا كانت الصراعات والمنافسات حول الإمامة وغنائم التوسع قد تسببت فى أن يدب الضعف فى هذه القوى وبالتالى وجدت التدخلات والمنافسات الاستعمارية سبيلها إلى المنطقة فإن هذا لا ينفى البعد الإسلامى لهذه القوى سواء من حيث التكوين الأساسى أو من حيث الدوافع الحقيقية لهذا التكوين فى البداية على الأقل .

وبقدر ما كان الجهاد ضد البرتغاليين،وبسبب الفراغ العثمانى، يعد الدافع الأساسى فى ظهور اليعاربة والبوسعيديين فى عمان فإن الجهاد ضد الإنجليز، ومن ينافسهم من الدول الأوروبية فى التدخل فى الخليج، كان الدافع الأساسى لظهور القواسم فى رأس الخيمة .

وينسب المؤرخون القوميون أصل القواسم إلى شيخهم " قاسم " الذى كان ينصب لنفسه خيمة عند " جلفار" كانت تراها السفن المارة فى الخليج وهو سبب تسميتهم للمكان برأس الخيمة . إلا أن الباحثين لم يحددوا بدقة أصل القواسم هل هم من عرب الشمال الذين هاجروا من نجد كما ذهب " المستر فرانسيس واردن " ؟، أم هم من عرب الهولة (Hawala) الذين يقطنون الساحل الشرقى للخليج كما رأى المؤرخ الإنجليزى (بادجر Badger) ؟، أم أنهم قادمون من العراق كما ورد عند كيلى (Kelly) ؟ .

والحقيقة أن الباحثين الأوروبيين هم الذين يعنون بربط القواسم وغيرهم من القوى التى تجمعت حول شاطىء الخليج بجذور عربية قبلية عرقية، فضلا عن أنهم قد اعتبروا مقاومة هذه القوى للوجود الأوروبى نوعا من أنواع القرصنة فى حين أن تجمع القواسم، وغيرهم من القوى على شاطىء الخليج (١٨)، لم يكن له من دافع سوى الجهاد ضد الأجانب فى المقام الأول، ثم العامل الاقتصادى الذى يعد نوعا من أنواع الجهاد فى المقام الثانى كما سبقت الإشارة .

فقد كان أول عمل قام به القواسم بعد توطيد وجودهم فى أواخر القرن الثانى عشر الهجرى الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر الميلادى هو شن الهجمات على السفن الإنجليزية ومنافستهم فى التجارة لدرجة جعلت الإنجليز يتهيأون لاستخدام القوة ضدهم . ويفسر المؤرخون الأوروبيون موقف القواسم من الإنجليز باتهامهم بالقرصنة والقيام بأعمال السلب والنهب، وإذا كان بعض المؤرخين أو كتاب التاريخ العرب قد تبعوهم فى هذا فإن ذلك قد أدى إلى تساؤل البعض بتعجب : هل كان على القواسم كى يتجنبوا هذه الإتهامات أن يقفوا مكتوفين ويباركوا التدخل الاستعمارى فى بلادهم ؟ وهل يعد دورهم فى الدفاع عن أراضيهم ومصالحهم قرصنة أم هو الجهاد بعينه ؟ وإذا جاز للمؤرخ الأوروبي أن يتهم القواسم بالقرصنة فهل يجوز اتباعهم دون وعى أو تمحيص ؟ (١٩) .

وكان القواسم قد سلكوا أسلوب المقاومة الذى وصف القرصنة فى مرحلة استقرارهم فى ساحل عمان فى النصف الأول من القرن الثانى عشر الهجرى

الثامن عشر الميلادى، وكذلك فى الفترة اللاحقة لإعلانهم الاستقلال ١١٥٤هـ-١٧٤١م، على أثر سقوط دولة اليعاربة والذى اعترف لهم به " أحمد بن سعيد " مؤسس دولة البوسعيد، واتخذوا من رأس الخيمة قاعدة لهم من ١١٧٩هـ ١٧٦٥م، فى عهد زعيمهم رحمة بن مطر القاسمى (٢٠) .

وخلال هذه المرحلة تجنب القواسم ـ مضطرين ـ الاعتداء على السفن البريطانية باستثناء بعض الحوادث المحدودة التى حدثت عام١٢٩٢هـ ١٧٩٧م، والعام التالى، وقدم عنهما زعيم القواسم " الشيخ صقر " اعتذارا للمقيم البريطانى فى البصرة . إلا أن تحول عمليات القواسم من مجرد جهاد غير منظم إلى جهاد علنى ومنظم، وضد الإنجليز بالذات، قد جاء فى أعقاب دخول مجاهدى الدعوة السلفية إلى الأراضى العمانية عام ١٢١٤هـ ١٧٩٩م، وارتباط القواسم بمبادىء الدعوة السلفية . فقد تعرضت السفن البريطانية للعديد من عمليات الجهاد خلال عامى ١٢١٩هـ ١٢٢٠هـ (١٨٠٤-١٨٠٥م) مما أدى إلى قيام بريطانيا بعملية عسكرية ضدهم فى نهاية عم ١٢٢٠هـ ١٨٠٦م، أسفرت عن عقد اتفاقية بينهما.

ومع أن الإنجليز قد تحاشوا الدخول فى صراع حربى مع قوات الدعوة السلفية إلا أن ضربهم للقواسم كان بمثابة تجاهل لارتباط القواسم بالدرعية، لذلك اتبع دعاة الدرعية نفس الأسلوب تجاه الإنجليز وهو عدم الإعلان عن عداء مباشر معهم ولكن فى نفس الوقت واصلوا مساعدة القواسم لاستعادة قوتهم بالشكل الذى مكنهم من العودة إلى النشاط المعادى للإنجليز عام ١٢٢٣هـ ١٨٠٩م، والذى وصل إلى حد مطالبتهم لحكومة إنجلترا فى بمباى بضرورة دفع رسوم لرأس الخيمة إذا أرادت إنجلترا مزاولة حرية التجارة فى الخليج وهو الطلب الذى قبلته حكومة بمباى مؤقتا، ثم قامت بحملة عسكرية فى العام التالى ١٢٢٤هـ ١٨٠٩م، بتأييد من حاكم مسقط حطمت خلالها ميناء رأس الخيمة وهاجمت ميناء شيناص السعودى على الرغم من الحرص علىعدم التورط فى صدام مع السلفيين .

وإذا كان الإنجليز قد استغلوا الخلاف بين القوى الخليجية فينبغى الإشارة إلى أن خلاف أتباع الدعوة السلفية مع حكومة مسقط كان خلافا دينيا قائما على عدم تقبل السلفيين لمبادىء المذهب الأباضى، فيذكر أحد الرحالة الإنجليز وهو " جيمس مودير" ما جاء فى رسالة " الأمير سعود " إلى حاكم بمباى " أن سبب الخصومات المتواصلة بينى وبين من يدعون أنفسهم مسلمون هو زيغهم عن كتاب الله ورفضهم الامتثال لنبيهم محمد صلى الله عليه وسلم (٢١) .

وهناك تجمع آخر وهو تجمع " بنى ياس" الذى نزل فى جزيرة الظباء التى عرفت بأبى ظبى وافدا من ساحل عمان، كما أدى وجود الماء فى الجزيرة إلى توافد العديد من العشائر من الأماكن المجاورة . وكذلك فإن التجمعات الأخرى على ساحل الخليج " كآل نعيم " الذين وفدوا من الشام واستقروا فى " عجمان " " وأم القوين " وغيرها اختلطوا ببعض سكانها من البوشاش والسودان والبومهير، كما اختلطوا بقبائل وفدت من صوب اليمن، كل ذلك يشير إلى أنهم لم يكونوا يمثلون تجمعا قبليا أو عرقيا . وكان أول عمل قام به " الشيخ عبد الله بن أحمد بن راشد " حاكم " أم القوين" هو إقامة سد لمنع السفن الإنجليزية من دخول موطنهم، وظل هذا السد قائما حتى هدمه الإنجليز فى حملتهم سنة ١٢٣٤هـ ١٨١٩م (٢٢) .

أما جماعات " بنى خالد " التى تعد من أبرز الجماعات التى ظهرت فى الإحساء فى القرنين ١١، ١٢هـ ١٧، ١٨م، فمع أنها كانت تجمعات قبلية فى الغالب إلا أن نزوحها إلى الإحساء كان نتيجة لضعف القوة العثمانية فى الخليج، ومع أنهم قد تولوا حكم المنطقة ومقاومة الأطماع الأجنبية حولها إلا أنهم حافظوا على الارتباط بالسيادة العثمانية التى ترجع فى المقام الأول إلى الرابطة الدينية(٢٣) .

وإلى جانب دور العامل الدينى فى نزوح " بنى خالد " إلى الإحساء وكذلك أثره فى الانضواء تحت السيادة العثمانية لعب هذا العامل دورا رئيسيا فى علاقتهم مع القوى التى برزت داخل الجزيرة العربية، فكان التقارب بينهم وبين شيخ العيينة " عثمان بن معمر " يرجع إلى انصياعه لمطالبهم فى طرد الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وكانت خصومتهم مع آل سعود فى الدرعية ترجع إلى احتضانهم — أى آل سعود — لدعوة الشيخ ومناصرتها، وكان هذا العامل المتمثل فى معارضتهم للدعوة السلفية هو السبب فى انحسار نفوذهم ليحل محلهم أتباع الدعوة السلفية فى مساعيهم لتوحيد المنطقة .

وكانت التجمعات القبلية التى اتجهت إلى الكويت وقطر والبحرين من داخل الجزيرة العربية قد اندفعت إلى هذه الأماكن لغياب العثمانيين ولعوامل جغرافية داخل الجزيرة أو لعوامل اقتصادية، وظلت تحافظ على توجهها الإسلامى سواء فى المشاركة فى مقاومة التدخل الأجنبى فى البداية أو الاقتراب من الدولة العثمانية (٢٤) . كما أن ارتباط مصالحهم الاقتصادية بالعراق قد دعاهم لطلب انضمامهم للوالى العثمانى فى البصرة سنة ١١٣١هـ ١٧١٨م، وصارت الكويت تابعة تبعية

إسمية للبصرة، وكذلك " بنو خالد " فى الإحساء، وإملم عمان وشـيوخ البحريـن (٢٥) . ولذلك فإن العامل الدينى لم يكن مجرد عنصر أو مقـوم مـن مقومـات التكوين القومى لهذه القوى بل كان الإطار الأساسى الذى انصبت فيه بقية مقومات هذا التكوين . على أن هذا الأمر كان قاصرا على الفترة الأولى لظهور هذه القـوى وانصهارها فى إطار الجهاد، ثم عاد العامل الاقتصادى ليلعب الدور الأساسى فـى تشكيلها كقوى سياسية بعد أن تلاقت مصالح القوى الاسـتعمارية مـع توجـهات أصحاب المصالح فى هذه الكيانات الأمر الذى أسفر عن عقد الاتفاقيات التى حددت أبعاد هذه القوى ومستقبلها فى تشكيلها السياسى وكذلك فى إطارها القومى المحلى الذى جاء نتيجة لذلك بعيدا عن بعضها البعض أو عن ارتباطها بالدولة العثمانيـة ذات السيادة الشرعية .

موقف محمد على من القوى الإسلامية فى الخليج :

سبقت الإشارة إلى التنسيق بين دور محمد على فى الجزيرة العربيـة ضـد الدعوة السلفية وبين الدور الإنجليزى فى الخليج وهو ما أكدته التقارير والرسـائل المتبادلة بين الجانبين فى أعقاب سقوط الدرعية فـى أواخـر سـنة ١٢٣٣هـ ١٨١٨م، وسقوط رأس الخيمة فى أوائل سنة ١٢٣٤هـ ١٨١٩م. وكان بعـض القادة الإنجليز يفكرون فى دعوة إبراهيم باشا لعمل مشترك ضد القواسم فـى رأس الخيمة، إلا أن هذه الفكرة قد رفضت لعدم رغبة الإنجليز فى إخضاع ساحل الخليج أو جزء منه لقوات تـابعة لـحاكم مصر (٢٦) . فيذكر " لوريمـر" أن " سـادلر" كلف بالاتفاق مع إبراهيم باشا على أن يشن هجوما بريا على رأس الخيمـة فـى حين تقوم القوات البريطانية بمهاجمتها من البحر (٢٧) ولم يكن بوسع الإنجلـيز أن يوقعوا معاهدة يملوا فيها شروطهم على أمراء رأس الخيمة وغيرها إلا بعد أن فقدوا ـ أى القواسم ـ مساندة السلفيين وهو الدور الذى كان نتيجة لدور والـى مصر (٢٨) . وأدرك الإنجليز جدوى سياستهم فى انصياع محمد على لتحذيراتـهم المتعددة بألا تكون له أطماع فى الخليج، فقد ذكر" كيلى" أنه طلب من" سـادلر" أن يؤكد لإبراهيم باشا أن بريطانيا لن تقدم له مساعدات ضد السعوديين إلا إذا احترم حقوق دويلات الخليج (٢٩) . كما أن الدولة العثمانية حين أدركت بعد ذلك طبيعـة دور" محمدعلى" ومخططه الرامى إلى تقويض الوجود العثمانى فى المشرق العربى سعت من خلال سلطاتها فى العراق لاستقطاب القبائل فى نجـد وسـط الجزيـرة العربية وإثارة القلاقل أمام جيش محمد على، وحدث تقارب عثمانى قام به علـي

رضا باشا مع الأمير السعودى فيصل بن تركى وغيره من أمراء ومشـــايخ شـبه الجزيرة للتصدى لأطماع محمد على وطبيعة دوره (٣٠).

وعلى أية حال فقد أسهم انسحاب قوات " محمد على" إلـــى تـرك الميـدان لبريطانيا لتبسط نفوذها على إمارات الخليج، واتبعت سياسة تقسيم هذه المنطقـــة إلى ولايات ومراكز وإمارات صغيرة، وفرضت عليها معاهدة السلم العامة في ربيع أول ١٢٤٥هـ ٨ يناير ١٨٢٠م، وكانت جزءا من مخطط إنجليزى يرمـــى إلـــى تفتيت وحدة الدولة العثمانية (٣١)، وفى نفس الوقت الوقوف أمام قيام قوة جديدة وبخاصة إذا كانت ذات طابع إسلامى أو حتى ذات طابع إقليمي كقوة محمد علي.

على أن ما حدث فى أعقاب انسحاب قوات " محمد على" لم يكن فى حسبانه أو فى حســبان حلفائه البريطانيين حيث تمكن أتباع الدعوة السلفية بزعامة الإمام " تركى بن عبد الله " من استعادة السيطرة على نجد والإحساء ولم يفت فى عضـد البيت السعودى ما حدث من خلاف أدى إلى مقتل " الإمام تركى" على يد ابن أخته " مشارى بن عبد الرحمن " إذ سرعان ما استعاد ابنه الإمام " فيصل بـــن تركـــى" زمام الأمور وانتقم لمقتل أبيه (٣٢) .

ولم يكن في استطاعة الإنجليز القيام بعمل عسكرى داخـــل الجزيـــرة ضـد السلفيين، كما أنهم كانوا يدركون عدم جدوى أية محاولة للاتصال بهم، وفى نفس الوقت كان من الصعب عليهم أن يستكملوا مخططهم فى تحقيق السيطرة والنفـــوذ أو استمرارهم فى الخليج إذا لم يتنبهوا لتنامى دور السلفيين فى المنطقة .

كما كان محمد على قد فتح جبهة نجد والخليج فى نفس الوقت،ولهذا لعـــب الإنجليز دورا واضحا فى توقيع صلح " كوتاهية " سنة ١٢٤٨هـ١٨٣٣م، بينـــه وبين الدولة العثمانية في الشام لكى يعاود دوره فى الجزيرة والخليج .

ولم تكن حملة محمد على التالية على أتباع الدعوة السلفية تنعم بقناع زائف كسابقتها وهو الدفاع عن المقدسات باسم دولة الخلافة حيث كان الحجاز تابعا لـــه، كما أن الدولة العثمانية نفسها كانت قد تقربت من السلفيين وكافـــة القـــوى فـــى الخليج والجزيرة ضد دور محمد على بعد أن تكشف لها أبعاد ذلك الدور، فـــاتصلت بقبائل عسير لإثارتهم ضد الخطوط الخلفية لقوات محمد على،وقد وصل نبأ هـــذه الاتصالات إلى خورشيد قائد هذه القوات (٣٣) .

إلا أن ما وصلت إليه قوات محمد على من قوة وما حققته من تدريب فـــى ميادين كثيرة قد جعله يوازن بين أطماعه الشخصية فى توسيع الأراضـــى التـــى

يحكمها وأطماع الإنجليز وهو الأمر الذى أدى إلى وجود حذر شديد لدى الساسة الإنجليز تجاه تحركاته مع الاستفادة منها قدر الإمكان، ولهذا لم يشكل الإنجليز أى عائق لوصول قوات محمد على إلى ساحل الخليج (٣٤)، ولكن فى نفس الوقت تلقى " بالمرستون " وزير خارجية بريطانيا العديد من التقارير من القاهرة وبغداد والخليج لمتابعة تحركات قوات محمد على للوقوف على نواياه الحقيقية بعد أن علم بإمكانية تقدم قواته بين الشام والخليج لدخول العراق والحلول مكان العثمانيين مما يجعل الوجود البريطانى فى المنطقة ومصالحها الهندية فى قبضة محمد على .

ولهذا أرسل " بالمرستون" إلى " كامبل" القنصل العام البريطانى فى القاهرة فى ١٢٥٣هـ ـ ٨ ديسمبر ١٨٣٨م، وطالبه بأن يبلغ محمد على، بنوع من الصداقة، أن الحكومة البريطانية ستأسف لرؤية أية خطوات من جانبه تشير إلى وجود نية لديه لمد سلطته صوب بغداد، ثم عاد وطلب من كامبل مخاطبته بلهجة أشد على أثر تلقيه لتقرير آخر وإبلاغه بأن الحكومة البريطانية لا يمكنهاأن تغض الطرف عن تنفيذ مثل هذه النوايا، وأبلغ محمد على " كامبل " مطمئنا بأنه لا يفكر فى مد سلطته نحو منطقة الخليج (٣٥)، فلصالح من كانت جهوده اللاحقة فى الخليج ؟.

وحين شرع قائد قوات محمد على فى الخليج وهو " خورشيد " فى السيطرة على البحرين طلب من أخيه عباس، الذى كان محل أبيه محمد على فى الحكم لوجوده ـ أى محمد على ـ فى السودان، أن يرسل إليه سفينتين حربيتين حيث كان يصعب نقل المؤن العسكرية عن طريق داخل الجزيرة، أو البصرة والكويت، ووافق " عباس" مبدئيا، ثم عاد وعدل عن موافقته بسبب رفض الإنجليز لإرسال سفن من جدة إلى الخليج وطلب منه " خورشيد " ألا يعرض نفسه لمثل هذا الأمر (٣٦) .

وتشير الوثائق إلى أن كل مساعى محمد على تجاه البحرين كانت بغرض إبعادها عن الارتباط بالدولة العثمانية من جهة وبخاصة بعد أن أبدى شيوخها قبولا لتبعيتهم للدولة العلية الأمر الذى أثار الإنجليز(٣٧)، وكذلك السعى لإنهاء أى صفة من صفات التبعية والارتباط بين البحرين والإحساء التى كانت فى يد السلفيين، أو بشكل واضح بأتباع الدعوة السلفية .

وفى أعقاب الاتفاق الذى تم بين " خورشيد " وشيخ البحرين والذى تضمن قطع الصلة بين البحرين والدولة العثمانية والسلفيين فى نجد تـهيأ البريطـانيون للسيطرة على البحرين،فأوفد " خورشيد " مبعوثا إلى جزيرة " خارج " التى كـانت مركز تجمع القوات البريطانية وهو " محمد أفندى رفعت " الذى تولى المفاوضـات مع شيوخ البحرين ووصل معهم إلى الاتفاق وذلك لإطلاع المقيم البريطـانى فـى الجزيرة بفحوى الاتفاق كرد على.تحذير ذلك المقيم " هينل" " لخورشـيد " لعـدم إحاطته بأبعاد الاتفاق، وأوفد " هنيل " مبعوثا إلى شيخ البحرين للتأكد من صحة ما أبلغه به " خورشيد " (٣٨) .

ويبدو جليا سياسة الحذر التى كانت بريطانيا تحيط بها دور محمد على فـى المنطقة، كما يبدو أن هذا الدور لم يكن بعيدا بالشكل المثير للقلـق عـن دائـرة التنسيق مع دور بريطانيا ومصالحها، فقد رد " خورشيد " على الرسالة التى كـان قد بعث بها "هنيل " إليه فى ١٢٥٤هـ ٢٨ فبراير ١٨٣٩م، وأبلغـه فيـها بـأن الحكومة البريطانية ستنظر بقلـق إلى أى محـاولة من جانبه لغـزو البحريـن، فذكر " خورشيد " فى رده بأنه " يأسف لتحذير " هنيل " وأنه ما كان له أن يـهتم لهذه الدرجة بالبحرين طالما أنه استولى عليها باسم محمد على ولكى لا تسـتخدم ملجأ للموحدين " وطالما أنها كانت لا تزال تابعة لنجد ومن ثم ليـس لأى دولـة أخرى حق فيها ــ يقصد الدولة العثمانية بالطبع ــ، فى الوقت الذى كانت تنظـر فيه السلطات البريطانية المسئولة إلى أى محاولة من جانب محمد علـى لامتـلاك جزيرة البحرين بالقوة بمثابة إعطاء الإنجليز حق القيـام باحتلالـها أو مسـاعدة سلطان مسقط فى مشروع مماثل (٣٩) .

وعلى الفور بدأ وزير خارجية بريطانيا " بالمرستون" فى النظر فـى تنفيـذ الفكرة التى كانت تختمر فى ذهنه من قبل وهى غزو البحرين،بعد أن هيأ له محمد على الطريق، فطلب من حكومة الهند البريطانية التعرف على موارد البحرين ليقف على ما يمكن أن يعود على بريطانيا من غزوها، وأوضحت له التقارير قيمة هـذه الموارد، فقدرت قيمة لآلئها بحوالى ٣٥٠ ألف ريال بالإضافة إلى النخيل وسـبائك الذهب وبعض الموارد الأخرى، وقدرت الصادرات بحوالى ٨٠٠ ألف ريال سـويا، وكانت الموارد من الأرز والأقمشة والتوابل من الهند بحوالى ٦٠٠ ألـف ريـال سنويا، وكان يعاد تصدير ثلاثة أرباع هذه السلع إلى جهات أخرى فـى الخليـج، وقدر الإنجليز دخلهم إذا ضموا البحرين بحوالى ٣٠ ألف روبية سنويا (٤٠) .

وبدأ " هنيل " فى اتباع سياسة ترمى إلى ضم البحرين وفض اتفاقـــها مــع محمد على بالأسلوب التفاوضى، ولكن هذه السياسة لم تجد قبــولا مــن جـانب البحرين، حيث كان قبول البحرين لحماية الإنجليز من قبل بسـبب خشـيتهم مــن جيش محمد على، ولكن بعد الاتفاق مع " خورشيد " فإن الظروف قد تغيرت، وبـدأ " هنيل " يلوح بالتهديد ويطلب تمزيق الاتفاق الذى تم بين شيخ البحرين ومحمـــد على، وبدا العامل الدينى واضحا فى موقف شيخ البحرين الذى أصر على رفــض تهديد " هنيل " وفى رده على هذا التهديد حيث ذكرله " إن كنتــم تشـرعون فــى الحرب قوة واقتدارا فإننا سنبذل كل ما فى وسعنا فى سبيل حماية ملكنـــا وأهلنـــا وعيالنا وديننا وليحصل بعد ذلك ما يحصل"، وهذا الرد يدعو إلى عدم قبــول مــا ذكره " لوريمر" من أن شيخ البحرين عاد وعرض على المقيم البريطانى بإمكانيــة نقضه للاتفاق مع " خورشيد " إذا قدمت الســلطات البريطانيــة وعــدا صريحــا بحمايته، وبأن يكون تابعا للحكومة البريطانية، وأنه رفض كتابة هذه الاقتراحــات خوفا من تسربها إلى والى مصر .

وتؤكد الوثائق المصرية دور العامل الدينى فى حفاظ شيخ البحريــن علــى اتفاقه مع محمد على، ورفضه تهديد الإنجليز فذكرت أن شــيخ البحريــن أبلــغ مبعوث " خورشيد " الشيخ شافعى " شيخ بنى حجر شفويا : " ما دمت علــى قيــد الحياة فإنى لا أستسلم للإنجليز وأنهم منذ ثلاثين سنة وهم يحتالون علينا وســأبذل جميع مالى وقوتى إننى فى الثمانين وقد بلغت آخر العمر فلأن نموت جميعا أولــى من أن نكون رعية للكفار وأفضل شىء وأشرفه أن لا نرى ذلك اليوم (٤١) .

وأدرك الإنجليز أن محمد على قد بدأ يفكر فى الخروج عن إطـــار الاتفــاق معهم والعمل لحسابه بعد أن حقق جيشه نجاحا كبيرا لدرجة أوحت إلـــى شــيوخ الخليج بأن الإنجليز لن يكون بوسعهم ملاقاة هذا الجيش برا،وقد بدا هذا الأمر فــى الاحتجاج الذى قدمه " هنيل " لشيخ البحرين فى نهاية مباحثاته معه حيث ذكر عن الاتفاق بين البحرين و محمد على أن ذلك "خلافا محضا للقول المتأتى من جنـــاب محمد على باشا فى جواب مطلب أمناء الدولة العلية الإنجليزية فيما أظهروه لــــه من عدم رضاهم بحركات " خورشيد " باشا بطوارف بنادر العرب المتصل بخليـــج فارس هذا ليكون معلوما " (٤٢).

وازداد قلق الإنجليز بعد قيام " خورشيد " بإرسال مندوب عنه هو " سعد بن مطلق " إلى إمارات الساحل العمانى طلبا لارتباطهم به واتفاقهم معه على غرار ما

حدث مع شيخ البحرين،وسارع " هنيل " بتتبع دور،"سعد بن مطلق" الـــذى حقــق نجاحا فى البداية، واستخدم " هنيل " التلويح بالتهديد تارة والإسراف فى الوعـــود تارة أخرى مع مشايخ إمارات حتى تمكن من الاتفاق معهم على رفضهم الانضواء لنفوذ " خورشيد "، وبدأ الأمر ينذر بمواجهة محتملة بين الإنجليز وقوات محمـــد على فى الخليج .

وعلى الرغم من الاتفاقات التى تمت بين " هنيل " وشيوخ الساحل العمـــانى إلا أنه لم يكن مطمئنا لإمكانية احترامها وأن توقيعها كان مـــن قبيـل المنـــاورة الدبلوماسية ولكن هؤلاء الشيوخ أقرب إلى التفاهم مع " خورشيد " الذى بدأ يثـير العامل الدينى فى نفوسهم، وكان هذا سر نجاحه، وأن محمد على لو حققت قواتــه نجاحا على جبهة الشام فقد يغريه هذا على التركيز على الخليج، وبالتـــالى فـإن النفوذ البريطانى فى الخليج قد يتعرض كلية للخطر، وتزايد هذا الإحساس من قبل الإنجليز لاتجاه نشاط محمد على إلى واحة البريمى ثم إلى مسقط والكويـــت بـل والعراق، وبدا الأمر لديهم بوضوح أن المسألة أصبحت تتعلق بكامل وجودهم فـــى الخليج بأسره .

وكانت قوات محمد على قد حققت انتصارا على القوات العثمانية فـــى بـلاد الشام، فبدا الموقف أمام الإنجليز أكثر تأزما، ولم يكن بوسعهم القيام بعمل حاســم فى الخليج ضد قوات محمد على وبخاصة بعد أن تطلـــب موقفـــهم فـــى الصيــن الاستعانة بأغلب قطع أسطولهم الحربى فى الهند فيما عرف بحرب الأفيون الأولـــى التى انتهت بمعاهدة " نانكنج " سنة ١٢٥٧هـــ ١٨٤٢م، كما أن استئثارهم بالنفوذ فى الخليج دون بقية الدول الأوروبية الأخرى قد استبعد فكرة الاســـتعانة بجـــهود هذه الدول فى وقف دور محمد على فيه . ولهذا لم يكن أمامهم سوى القيام بعمل أوربى جماعى على جبهة الشام، وتمكنوا من إلحاق الهزيمة بجيش محمد علـــى، وعقدت اتفاقية فى الإسكندرية فى سنة ١٢٥٥هـــ نوفمبر وديسمبر ١٨٤٠م أقـــر فيها محمد على بالتنازل عن ملكيته فى الشام والجزيرة العربية والخليج والحجـــاز وجزيرة كريت .

وأعقب هذا الاتفاق انسحاب قوات " خورشيد " من الخليج، وترتب على ذلك عودة حكومة الموحدين فى نجد بزعامة " فيصـــل تركـــى"، وتمكـــن العثمـــانيون المتحالفون معهم من دخول الإحساء، ولكن فى نفس الوقـــت تـــهيأت الظـــروف

لبريطانيا لتحقيق أهدافها وزيادة نفوذها فى بقية إمارات الخليج من خلال اتفاقيات حماية (٤٣) .

محمد على والقوى الإسلامية فى الشام

حققت السياسة البريطانية نجاحا فى دفع محمد على للإشتراك فـــى ضـرب الثورة اليونانية تحت غطاء مساندة السلطان العثمانى فـــى حيــن كـــان الــهدف الأساسى منها هو الوقوف أمام النفوذ الروسى ومنعه من التسرب إلـــى ســواحل البحر المتوسط من خلال مساندة الروس للثورة اليونانية، وانتهى الموقف بعقــد اتفاقية بين بريطانيا وروسيا سنة ١٢٤١هـ ١٨٢٦م تقضى بألا يكون للـــروس نفوذ أو قاعدة على البلاد الواقعة على البحر المتوسط (٤٤)، واستطاع الروس أن يعوضوا ذلك بمكاسب هائلة تمثلت فى زيادة نفوذهم فى الدولة العثمانية إلى درجة كبيرة أقرت بها الدولة العثمانية فى معاهدة " أدرنة " سنة ١٢٤٤هـــ ١٨٢٩م، كنتيجة لهزيمتها أمام القوات الروسية (٤٥) .

ومع أن هذا الوضع الذى أصبحت عليه روسيا فى الدولة العثمانية قد أثــار قلق البريطانيين،والفرنسيين كذلك، إلا أن بريطانيا لم تكن تريد أن تتخــذ موقفــا إيجابيا مباشرا حيث كانت تدرك أن إعلانها الوقوف إلى جانب الدولة العثمانية ضد الأطماع الروسية سيكون لصالح روسيا فى هذه الظروف (٤٦) .

واتجهت أنظار البريطانيين، والفرنسيين أيضا، إلى قيام محمد علـــى مــرة أخرى بالتصدى للنفوذ الروسى المتزايد بتوجيه جيشه إلى الشام ثـــم الأنــاضول وتحت نفس الغطاء وهو الوقوف إلى جانب دولة الخلافة، وقد لقـــى هــذا الأمــر استجابة ــ بل ترحيبا ــ من جانب محمد على سواء لكونه كـــان مـــا زال يــأمل تحقيق أطماعه التوسعية، وأن الشام قد تسمح له بها السياسة البريطانيـــة نظــير دوره السابق معها، أم سعيا منه لتنفيذ أهداف أصدقائه البريطانيين .

ومما يدعم وجهة النظر هذه أن البريطانيين قد عارضوا بشدة شروع محمد على فى تنفيذ العرض الفرنسى بغزوه الجزائر لحسابهم قبل هجومه على الشـــام بعام واحد، وهددوه بالهجوم عل أسطوله وجيشه إذا هو أقدم علـــى مثــل هــذه العملية الأمر الذى دعاه إلى التراجع عن التنفيذ على الرغم من أنه كان قد عقـــد اتفاقية بهذا الخصوص مع الفرنسيين، وهو أمر يدعو للقول ــ بل الجزم ــ بأنـــه ما كان له أن يشرع فى توجيه جيشه إلى الشام بدون موافقة بريطانيا، ومن هنـــا

يمكن إدراك السبب الحقيقى لاتجاه محمد على للشام والذى يتمثل فى الوقوف أمام النفوذ الروسى في الأراضي العثمانية .

على أن بريطانيا لم تشأ أن تعلن عن اتفاقها مع والى مصر حتى لا يكون فى ذلك إقرار منها بتقسيم الدولة العثمانية فتتخذ منه روسيا ذريعة لمزيد من التدخل الذى قد يجر إلى حرب ومواجهة (٤٧)، كما أنها ـ أى بريطانيا ـ كانت ترى أن الدولة العثمانية، وليس والى مصر، هى التى ينبغى أن تظل حاجزا أمام التوغل الروسى صوب البحر المتوسط (٤٨) .

وعلى أية حال فقد حاول محمد على أن يخفى حقيقة دوره وأن يتذرع بأسباب سطحية يبرر بها أمام الباب العالى هجومه على بلاد الشام مثل إيواء "عبد الله باشا " والى عكا لستة آلاف من المصريين الفارين هربا من التجنيد فى جيشه خلال سنة ١٢٤٦هـ-١٨٣١م فقط ورفضه إعادتهم، وكذلك قيام " عبد الله باشا " بعمليات ابتزاز للتجار التابعين للباشا . وكتب محمد على إلى الباب العالى يبلغه بقيامه بمهاجمة "عبد الله باشا " لهذا السبب، ورد عليه الصدر الأعظم بما يشير إلى مدى الضعف الذى كانت عليه الدولة العلية وعدم قدرتها على التصدى لمحمد على فقال : " إن شكوى بعض التجار لا يمكن أن تسوغ تحكيم الحسام وإشعال النار والحرب، وأن ما ينشب من نزاع بين الباشوات المتجاورين لا يمكن أن يسوى بإشهار السيف بل بتدخل الباب العالى " (٤٩) .

ولم تكن مثل هذه الخطابات لتؤثر على ما عزم عليه محمد على ـ أو دفع له ـ من احتلال الشام، فزحف جيشه وعلى رأسه ابنه " إبراهيم باشا " قبل أن يصله رد الصدر الأعظم، وعاونه "بشير الشهابى الثانى" الذى كان يعيش فى كنفه منذ خروجه من لبنان، ومع أن مساندة " بشير الشهابى" لجيش " إبراهيم باشا " كانت سببا فى ثورة الدروز بزعامة أسرة جنبلاط التى تولت الزعامة بعد خروج الشهابيين إلا أن وقوف الموارنة " المسيحيين " ضدهم لم تكن دوافعه هى مساندة الأمير بشير فقط بل ويرجع فى حقيقة الأمر إلى الدور الفرنسى الذى دعاهم لتأييد جيش " إبراهيم باشا "، وأمدوهم بالسلاح مما أدى إلى هروب بعض الزعامات الدرزية وانضمامهم إلى الجيش العثمانى الزاحف لملاقاة جيش والى مصر(٥٠) .

ومن الأمور التى تؤكد ذلك إعلان نصارى بلاد الشام، إلى جانب الموارنة، بأن " إبراهيم باشا " صديق لهم، وأبدوا استعدادا تاما لمساعدته،كما أن "إبراهيم باشا"قد ألغى كافة القيود المفروضة على النصارى واليهود فقط فى كل بلد سيطر

عليه تحت دعوى المساواة والحرية (٥١)، وهى أمور تشير إلى تـأثير المحفل الماسونى عليه ودور هذا المحفل ــ التابع لفرنسا ــ فى دعم أطماعه وأبيه (٥٢) .

وعلى الرغم من أن جيش إبراهيم باشا قد تمكن من هزيمة الجيش العثمانى واستطاع أن يستكمل سيطرته على الشام إلا أن العثمانيين، ومعهم الإنجليز الذين خشوا زيادة النفوذ الفرنسى، قد تمكنوا من إثارة الأهالى ضد إبراهيم باشا مستغلين العديد من العوامل سواء أكانت عوامل دينية، بعد أن ضيق إبراهيم باشا الخناق على المسلمين فى حين منح حريات واسعة للنصارى واليهود، أم عوامل سياسية واقتصادية بدت فى حرص الاقطاعيين على أوضاعهم ومصالحهم بعد الإجراءات التى اتخذها إبراهيم باشا للتقليل من دور هذه الأوضاع وضرب هذه المصالح، وانتهى الأمر بعقد اتفاقية لندن سنة ١٢٥٥هـ-١٨٤٠م التى حددت الوجود العسكرى ــ لوالى مصرــ فى الشام بحياة محمد على (٥٣) .

ولم يكن هدف محمد على من القضاء على النظام الإقطاعى فى الشام هو إتاحة الفرصة لنمو النظام الرأسمالى وما يصحبه من نمو الأفكار القومية لكن هدفه كان قاصرا على القضاء على الزعامات الإقطاعية المعارضة لوجوده واستمرار حكمه وحرمانها من مصادر قوتها وهى ثروتها، فى حين كان الفرنسيون يقصدون من وراء مساعدتهم له فى هذا الاتجاه توسيع السوق التجارية لهم اقتصاديا وزيادة نفوذهم سياسيا إلى جانب تحقيق أهدافهم الفكرية الرامية إلى إشعال الدعوة إلى القومية التى تنمو فى ظل سوق اقتصادى موحد فى المجتمع الرأسمالى وفى إطار علمانى، وهى أهداف لا يمكن تحقيقها فى ظل سيادة النظام الإقطاعى لكونه " يتحكم فى العلاقات الاقتصادية والاجتماعية وبالتالى يحول دون ظهور الحركات القومية، فالإقطاع من شأنه تفتيت المجتمع إلى وحدات منعزلة أو شبه منعزلة فكريا واجتماعيا واقتصاديا ويحول دون الانسجام التام والتماذج بين أجزاء المجتمع ويحول دون نمو مقومات التوحيد الموجودة كاللغة والتاريخ وقد يضعف منها ويقيم فى وجهها العقبات ويحرمها من النمو والإزدهار" (٥٤) .

ومع أن مراحل احتلال قوات محمد على للشام قد أكدت اتجاهه المعادى للمسلمين والمساند للنصارى واليهود، وكذلك ما أحدثه من تقسيمات إدارية جديدة

لصالحهم، إلا أن سياسته العدائية ضد الاتجاه الإسلامى فى الشام والتى تركت أثرا بعيد المدى على الحركة الفكرية والثقافية قد تجلت فى الناحية التعليمية .

وقد يبدو الهجوم على نشر التعليم والتوسع فيه، وهو ما قام به " إبراهيم باشا " فى الشام،أمرا مذموما ورجعيا ومتخلفا،لكن الأسلوب الذى تمت به هذه السياسة كان أسلوبا مغرضا قصد به هدم التعليم القائم على الدين الإسلامى من جهة، وأنه لم يتح الفرصة لأتباع الاتجاه الإسلامى أو يسمح لهم بفرصة كالتى سمح بها للنصارى واليهود فى القيام بدورهم ـ المغرض ـ فى مجال التعليم من جهة أخرى،وقد أدى هذا إلى أن تصور البعض أن هذه الأقليات التابعة للغرب هى التى حملت لواء التعليم فى هذه الفترة،كما أن ذلك يوحى بأن الذين تعرضوا للاضطهاد هم المسلمون وليس غيرهم كما يرى البعض (٥٥) .

وعلى عكس مايرى البعض أيضا فقد سلك العثمانيون مسلكا عادلا مع غير المسلمين من الأقليات الطائفية وبخاصة فى بلاد الشام، فقد سمح الحكم العثمانى بوجود بعض البعثات التبشيرية الفرنسية منذ مطلع القرن الحادى عشر الهجرى السابع عشر الميلادى، وأتاح لها فرصة إقامة عدد من المدارس والمعاهد فى أماكن متفرقة، لكنه حدد مجال عملها فى إطار رعاية الطوائف المسيحية دون غيرها، كما سمح بعدد قليل من البعثات الأمريكية لكنه حصر جهودها داخل بيروت فقط (٥٦) .

وبقدر ما كان محمد على وابنه إبراهيم منفذين للأهداف البريطانية على الصعيد السياسى كانا منفذين كذلك للأهداف الفرنسية على الصعيد الثقافى فى بلاد الشام، سواء لتأثير المحافل الماسونية الفرنسية عليهما أم تحقيقا لأطماع محمد على التوسعية فى الشام التى تؤيدها فرنسا بعد أن أبدت بريطانيا معارضتها فى ذلك . فما إن نجحت قوات إبراهيم باشا فى السيطرة على بلاد الشام سنة ١٢٤٨هـ ـ ١٨٣٣م، إلا وبدأ فى تنفيذ الأهداف الفرنسية، ففتح الباب على مصراعيه لدخول البعثات التبشيرية الفرنسية والأمريكية، وألغى كافة القوانين الاستثنائية وجميع ما كان يسرى على النصارى وحدهم، ويعتبر بعض الكتاب أن عام ١٢٤٩هـ ـ ١٨٣٤م، عام تحول تاريخى حيث عاد اليسوعيون، وتوسعت البعثات الأمريكية، وتم نقل مطبعة الإرسالية الأمريكية من مالطة إلى بيروت، وأسست مدرسة للبنات فى بيروت على يد " إيلى سميث " وزوجته (٥٧)، وزودت بعض الأديرة بمطابع أخرى فى إطار حرص الدول الأوروبية على حصر المطابع

فى يد المسيحيين فقط (٥٨)، حتى تتمكن من تحقيق أهدافها فى ظل عجز المسلمين عن امتلاك وسيلة التعبير عن آرائهم أو نشر أفكارهم فى هذا المجال (٥٩) .

ويذكر "جورج أنطونيوس" أن دخول " إبراهيم باشا " إلى الشام يعد نقطة تحول لدور المبشرين، وأنه لولا تأييده لهم " لبقيت عقولهم مشلولة وأفكارهم آسنة "، فقد تمكنت كلية "عين طورة" التى أعيد افتتاحها – والتى ما زالت قائمة حتى الآن – من القيام بدور كبير فى تكوين كوادر من الكتاب والمفكرين . وفى نفس الوقت طبق سياسة تعليمية بين المسلمين كان الهدف منها إيقاظ الوعى القومى بينهم، واستدعى أحد الفرنسيين من مصر وهو" كلوت بك "(٦٠)، ليشرف على تطبيق هذه السياسة بعد أن اكتسب خبرة تطبيقها فى مصر، ووضع تحت يده مطبعة كاملة لنشر الكتب العربية لتعينه فى تحقيق هدفه، وتمكن بكل هذه الأساليب – تشاركه الإرساليات التبشيرية ورجال الكهنوت فى الأديرة – من أن يقلب أساليب التربية والتعليم فى مدى سنوات قليلة، ويحقق أهداف المحافل الماسونية الفرنسية على حساب الاتجاه الإسلامى الذى ظل سائدا طوال الحكم العثمانى، وقد أرجع " جورج أنطونيوس" ثورة المسلمين على هذه السياسة المعادية لهم من كل جوانبها إلى تعصبهم وجهلهم بمعانى الوطنية (٦١) .

وبشكل عام فقد ترتب على دور محمد على فى المنطقة بأسرها أن تنبهت الدول الأوروبية إلى مدى الضعف الذى أصبحت عليه الدولة العثمانية، وبالتالى استعدادها لتقسيم أراضيها حينما تتهيأ الظروف السياسية، واتجهت العديد من الآراء فى أوروبا للدعوة لسرعة حدوث هذا التقسيم، ولم يكن جانب التوسع وحده هو الدافع وراء هذه الدعوة بل كان جانب العداء للإسلام والشعوب الإسلامية من العوامل البارزة وراءها، وهو أمر تؤكده الاتصالات الدبلوماسية فى أوروبا فى هذه الفترة . فقد أرسل " شاتوبريان " رئيس وزراء فرنسا رسالة عن طريق سفيره فى روما إلى قيصر روسيا للتفاهم حول تقسيم المقاطعة العثمانية الأوروبية قال فيها :"إذا أردتم – أى القيصر – الذهاب إلى القسطنطينية فقوموا مع الدول المسيحية بتقسيم عادل لتركية الأوروبية، أما الدول التى ليست فى موقع يسمح لها بالتوسع جهة الشرق فتحصل على تعويضات فى مناطق أخرى"، كما وقعت إنجلترا مع روسيا بروتوكول فى سان بطرسبرج سنة ١٢٤٠هـ ١٨٢٥م، قبل الطرفان بمقتضاه مبدأ التدخل الأوروبى فى الإمبراطورية العثمانية (٦٢) .

وفى أعقاب هزيمة الجيوش العثمانية أمام جيش محمد علـــى فـــى الشـــام والأناضول اضطرت الدولة العثمانية للاستنجاد بروسيا بعد أن لمســـت أن محمـــد علي يحظى بتأييد البريطانيين والفرنسيين، عقدت معاهدة " انكيار اسكله سى" سنة ١٢٤٨هـــ ١٨٣٣م، فى أعقاب هدنة كوتاهية، وكانت المعاهدة بمثابـــة تحـــالف دفاعى بين روسيا والعثمانيين، مما أدى إلى مسارعة كل من بريطانيـــا وفرنســـا بالتصدى لمحمد على خشية المزيد من التدخل الروسى، وفرضت عليـــه اتفاقيـــة لندن سنة ١٢٥٥هـــ ١٨٤٠م (٦٣) . وقد ترتب على هـــذه الأحـــداث إجـــهاض محاولة الإصلاح الجادة التى حاول السلطان " محمود الثانى " أن يقوم بـــها فـــى الدولة العثمانية والتى كانت تتم فى إطار إسلامى (٦٤)، مع فتح الباب للاســـتفادة من الأساليب الأوروبية الحديثة،واضطرت الدولة العثمانية لقبول وصايـــة الـــدول الأوروبية فى مقابل حمايتها من أطماع محمد على (٦٥) .

ولعل فى توضيح أبعاد الدور الذى لعبه محمد على ما ينفـــى مـــا يحـــاول البعض أن يسنده إليه وهو محاولة إقامة دولة ــ أو وحدة ــ عربية، فقـــد نفـــى أغلب المؤرخين وجود أى تفكير عربى لدى محمد على لكونه من أصل ألبانى ولا يعرف العربية (٦٦)، كما أجمع كثيرون من المؤرخين على غياب الوعى القومـــى فى هذه الفترة (٦٧)، بل إن أحد المؤرخين قد ذكر بوضوح أن محمد على لم يكن صادقا فى عواطفه نحو العرب ولم يكن يتحدث لغتهم، كمـــا أنـــه كـــان يســـتهين بمواهبهم وخصائصهم، وكان يرمى إلى أن يكون " صحبه من الأتراك والألبان هـــم عماد السلطة وصرح الحكم فى إمبراطوريته المقبلة وأن يكون العرب هم الرعية " (٦٨) .

بل إنه، بدور العمالة الذى لعبه لصالح الأوروبيين وضد مصـــالح شـــعوب المنطقة، قد حطم محاولة جادة لوحدة الشعوب الإسلامية من الأناضول إلى بحـــر العرب ومن الخليج إلى البحر الأحمر التى كـــادت أن تتحقـــق علـــى يـــد الدولـــة السعودية الأولى (٦٩)، بل ربما كانت قد توافقت مع محاولة الإصلاح الإســـلامية العثمانية وكان فى ذلك إحياء قوة الخلافـــة الإســـلامية، وهـــى حقيقـــة لايـــروق للمؤرخين العلمانيين والماركسيين وغير المسلمين ذكرها أو طرحها كبديـــل لمـــا يطرحونه حول محمد على لما توحى به من أفكار إسلامية حول الماضى والحاضر والمستقبل .

وهكذا استطاع محمد على أن يقوم بما لم يستطع الاستعمار الغربى أن يقوم به بشكل مباشر فى العمل على تحطيم الهوية الإسلامية التى كانت أساسا فى صمود الشرق الإسلامى ضد الموجات المعادية عبر مراحل تاريخية طويلة، وتسبب نتيجة لذلك فى توسيع الهوة الحضارية بين الشرق والغرب، وهيأ المناخ اللازم لإقامة المؤسسات المعادية للدين الإسلامى وللمسلمين من محافل ماسونية وإرساليات تبشيرية وأديرة وكنائس ومدارس نجحت فى بذر بذور القومية العرقية، وبث الأفكار المعادية لمصالح الاقتصاد، ومنح امتيازات واسعة للأوروبيين واليهود، وهى أمور لم تكن تمثل مصالح شعوب المنطقة أو تعبر عن رغباتها . وتنافست مع سياسة الاحتكار والظلم التى مارسها فى ضياع موارد شعوب المنطقة دون أن يجنى أبناؤها أية فائدة، وأسهم كل هذا فى تهيئة المنطقة بأكملها لمرحلة استعمارية،وما زالت المنطقة تعانى من آثار تلك السياسة حتى تاريخنا المعاصر .

على أن هناك جانب خطير يتعلق بنتائج سياسة محمد على فى فلسطين حيث أتاحت هذه السياسة الفرصة لليهود بوضع تصورات لسياسة استعمارية، ففى سنة ١٢٤٤هـ ١٨٣٩م قام " السير موسى مونتيفور" اليهودى البريطانى بزيارة لفلسطين، ثم اتجه إلى مصر والتقى بمحمد على لإجراء مشاورات حول تحقيق مشروع توطين اليهود فى فلسطين وذلك من خلال استئجار عدد من القرى بين المائة والمائتين لمدة خمسين عاما لزراعتها على أن يدفع ضريبة الأرض التى يستغلها، وأنه فى حالة نجاحه فى عقد هذه الاتفاقية يعهد لشركة إنجليزية بتولى هذا الدور مقابل تشجيعها لعودة اليهود إلى فلسطين . وبالفعل نجح "مونتيفور" فى لقاء محمد على فى الإسكندرية وعرض عليه هذا الرأى إلى جانب بعض الآراء الأخرى كإنشاء بنك تسليف زراعى وغير ذلك، ولقيت هذه الأمور آذانا صاغية من محمد على ولكن دون اتفاق على شىء محدد من جانب محمد على بسبب تردى الأوضاع السياسية حول سيادته على المنطقة ودور الدولة الأجنبية وأولها إنجلترا التى كان " مونتيفور " أحد رعاياها (٧٠) .

وقد تطورت هذه المسألة بحيث ساندتها الكثير من الدول الأوروبية خلاصا من اليهود، وكونها كانت تعنى من وجهة النظر البريطانية تحقيق مصلحة خاصة بنظرة بريطانيا للمسألة الشرقية تتمثل في السعي لاستعمار استيطاني في المنطقة العربية . وظلت المساعى فى هذا الصدد قائمة حتى بعد معاهدة لندن التى أبعدت سلطة والى مصر عن فلسطين وعودتها الى السيادة العثمانية . وعلى الرغم من

المساعى البريطانية واليهودية عبر القناة الماسونية فى الدولة العثمانية التى كان يمثلها مصطفى رشيد باشا الذى وصل إلي منصب الصدر الأعظم و والذي نجح فى إصدار دستور جديد إلا أن وجود المؤسسات التقليدية ذات البعد الإسلامى فى العاصمة العثمانية قد أدت إلى رفض الباب العالى لمثل هذه المخططات (٧١) .

كما رفض الباب العالى مشروعا آخر يسمى مشروع القدس كان يرمى إلى بناء كنيسة إنجليكانية فى القدس إلى جانب المشروع اليهودى فيها، على أن هذا المشروع الأخير لم يحظ بتلاقى وجهات النظر الأوروبية التى ربطت بينه وبين المرامى البريطانية وزيادة النفوذ على حسابها فى المنطقة، وطرح الأوروبيون مشروعات دينية وسياسية أخرى كان من شأنها النظر فى تدويل القدس (٧٢) .

محمد على يفتح الطريق لفرنسا لاحتلال الجزائر

الطابع الإسلامى للمغرب العربى :

على الرغم من الضعف الذى ألم بالمسلمين فى شمال إفريقيا كجزء من الضعف الذى أصابهم فى بلاد الأندلس خلال عصرى المرابطين والموحدين، وسواء أكان ذلك بفعل النظام الإقطاعى الذي كان سائدا فيها أم بفعل ضعف العلوم وعدم الاهتمام بالمعرفة كنتيجة لهذا النظام، إلا أن هؤلاء المسلمين قد استيقظوا على صيحات إخوانهم الفارين أو المطرودين من الأندلس حيث أدركوا من خلالهم قدوم الخطر الصليبى الجديد، فأحيوا فيهم روح الجهاد سواء لملاقاة الخطر الخارجى القادم أم لمقاومة المنتفعين من الإقطاعيين المتسترين خلف بعض المفاهيم الدينية .

ومع أن الكثيرين من المسلمين قد التفوا حول نداء الجهاد إلا أن شرائح المنتفعين المسيطرين على النواحى السياسية والاقتصادية والاجتماعية كانت تمثل الثغرة الحقيقية فى صفوف المجاهدين والتى نفذ منها الأسبان والبرتغاليون وتمكنوا من السيطرة على بعض المراكز الساحلية .

على أن ما ينبغى توضيحه هو أن الصياغات القومية للتاريخ قد حاولت أن تضفى صبغة قومية علي هذه الفترة حيث اعتبرها البعض بداية لنشر الوعى القومى العربى فى حين أن البعد القومى لم يكن موجودا حتى منتصف القرن الثالث عشر الهجرى التاسع عشر الميلادى بعد احتلال الفرنسيين للجزائر

ووضعها داخل حدود سياسية كجزء من مساعى حكومة الثورة الفرنسية الماسونية فى إثارة النعرة القومية بين الشعوب على غرار ما سعت إليه فى مصر إبان حملتها عليها فى نهاية القرن الثانى عشر الهجرى الثامن عشر الميلادى .

وبشكل عام فإنه يصعب ـ بل يستحيل ـ التحديد أو التمييز العرقى أو القومى لشعب شمال إفريقيا منذ أن اعتنق الإسلام واندمج فيه (٧٣)، فقد شارك فى مواكب الجهاد واستقبل أفواج المسلمين من دعاة وعلماء وحتى الفارين من الخوارج كالأباضية والصفرية وأصحاب المذاهب الفقهية والسياسية، وخرجت منه وفود شاركت فى الأحداث السياسية منذ البداية وللحج وزيارة المناطق المقدسة، واستقر العديد منهم فى مصر والشام والحجاز والعراق والأندلس وصقلية وجزر الأرخبيل والأناضول وحتى مشرق العالم الإسلامى، واستقبل الهجرات الوافدة من الأندلس وجزر البحر المتوسط والذين أقبلوا على الإسلام من أهل أوروبا ثم تعرضوا لعقاب الطرد، وأصبح بعد فترة زمنية جزءا من الكل الإسلامى الذى امتد منه ومعه إلى إفريقيا السمراء . ولهذا فإنه من غير الصواب أن تحدد الهوية القومية لأى إقليم من أقاليم المغرب الإسلامى بعيدا عن الإطار الإسلامى سواء قبل الهجوم الاستعمارى فى القرن الثالث عشر الهجرى التاسع عشر الميلادى أم حتى بعده حيث ظل الإسلام يمثل العامل الأول والأقوى فى مراحل مقاومة الاستعمار وحتى الاستقلال، وظلت الثقافة الإسلامية تمثل الصوت المعبر عن هذه المقاومة وأساس التميز لهذه الشعوب تاريخا وحضارة، وأصبح من غير الموضوعى التحدث عن العرب والبربر أو أى بعد عرقى وغير ذلك من التقسيمات العرقية التى يقصد بها ومن خلالها تمزيق هذا التاريخ وهذه الحضارة .

وإذا كانت هناك بعض الحدود قد ظهرت من خلال انقسام القوى السياسية فى مطلع العصور الحديثة كجزء من التقسيم الإدارى إبان العصر العثمانى فإن هذه الحدود لم تكن قائمة على أسس عرقية أو قومية كما كانت كذلك خلال الفترات التى تسيدتها بعض القوى السياسية المحلية حيث كانت تزيد أو تنقص مع زيادة قوة السلطة السياسية الحاكمة أو ضعفها، كما أن هذه القوى كانت تحكم باسم الدين ولا تستند إلى شعور قومى أو جنسى . " فبنى مرين " فى المغرب مثلا حين دب بينهم الضعف انتقل فرع منشق منهم ليكون دولة الحفصيين فى تونس، كما كان يطلق على الجزائر المعاصرة المغرب الأوسط، وكذلك فإن تسمية الجزائر قد استمدت من مدينة الجزائر لا من تسمية قومية، وتسمية المغرب ترجع إلى عوامل

جغرافية مستمدة من موقعه فى أقصى الغرب وليس إلى عوامل قومية، كما أن تسمية عاصمته بالرباط دلالة على أن المنطقة قد ظلت لفترة طويلة المكان الذى رابط فيه المجاهدون المسلمون .

كذلك فإن حركة الجهاد البحرى التى ظهرت منذ أواخر القرن التاسع الهجرى الخامس عشر الميلادى قد جمعت فى صفوفها كل المسلمين، فقيادتها المتمثلة فى " عروج " و " خير الدين " كانت من جزر الأرخبيل العثمانية، والمجاهدون كانوا خليطا يجمع بقايا المسلمين الفارين من الأندلس، والمسلمون من أهل المنطقة، ومجاهدون جاءوا من الأراضى العثمانية، ومن تجار ودعاة غرب إفريقيا .

و " السعديون" فى مراكش كانوا من البيت النبوى الشريف حيث يرجع نسبهم إلى " الحسين بن على"، وتبعتهم أسرة " الأشراف العلويين " التى ترجع إلى نفس النسب، وبشكل عام فلم يكن لأى منهم عبر كل هذه المراحل، وخلال كافة الأحداث من هوية سوى الهوية الإسلامية.

وعلى الرغم من محاولة بعض المؤرخين الأوروبيين ومن تبعهم لرصد بعض الملامح المميزة لعناصر السكان الأصليين ممن يطلق عليهم البربر إلا أن نسبة كبيرة من هذه العناصر اختلطت ــ بعد إسلامها ــ فى عناصر المسلمين جنسا وثقافة، وأصبحت اللغة البربرية القديمة لغة تعامل أو حديث فى مواطن محدودة، وخاضعة للغة العربية حتى كادت تصبح إحدى لهجاتها، وارتضت هذه العناصر المنصهرة أن تكون اللغة العربية ــ عن إيمان ــ لغتهم الثقافية الوحيدة (٧٤)، وفى المقابل لم يتمسكوا بلغتهم أو يحاولوا كتابتها كدلالة من دلالات انصهارهم فى الإسلام دينا وثقافة، وكان من دلالات هذا الانصهار أيضا الفشل الذى لقيه الفرنسيون فى مساعيهم لإثارة النعرة القومية لدى عناصر البربر القبلية بسبب إدراك هذه العناصر لعدم وجود هوية جنسية لها ولما أبدت من بداية إسلامها من حرص على الانخراط فى الثقافة الإسلامية العربية، وقد لعبت الطرق الصوفية "كالدرقاوية " و" التيجانية " دورا بارزا فى هذا المجال (٧٥) .

أبعاد العلاقة بين القوى المحلية المغربية ودولة الخلافة العثمانية :

فى الوقت الذى لم يبد فيه العثمانيون حرصا على مد نفوذهم السياسى إلى شمال إفريقيا بذلت شعوب هذه المنطقة من المسلمين مساعيهم للارتباط بالدولة

العثمانية، ومع أن السبب الأساسى فى ذلك راجع إلى اشتداد حدة الصراع بين المسيحيين والمسلمين فى حوض البحر المتوسط الغربى إلا أن توجه شعوب المنطقة إلى العثمانيين لدعم جهادهم، وإستجابة العثمانيين لهذا المطلب بشكل إيجابى وسريع يشير إلى طبيعة الهوية الإسلامية فى الجانبين معا (٧٦)، وكذلك يسهم فى دحض الرأى القائل برغبة العثمانيين فى تكوين إمبراطورية واسعة كهدف لتوجههم إلى الشرق فى محاولة للتقليل من الدافع الدينى كدافع أساسى لهذا التوجه .

ولعل من أبرز الأمور التى ترجم فيها العثمانيون صدق توجههم الإسلامى هو عدم ربطهم بين دعمهم للجهاد فى هذه المنطقة وبين رغبتهم فى تحقيق أى نفوذ سياسى، فكان انضمام ولايات المغرب إلى العثمانيين عن طواعية ورغبة، وكان إضفاء الألقاب العثمانية عل الحكام المحليين فى هذه الولايات مثل بكلر بك (أى رئيس البكوات) وغيرها يأتى استجابة لرغباتهم، ولهذا فإن تغير الأوضاع السياسية فى هذه الولايات كنتيجة لثوراتهم على بعض الحكام لم يغير من طبيعة ولاء الحكام الدائم لدولة الخلافة، بل كان ضعف هذا الولاء أحيانا من أسباب دعم هذه الثورات من قبل القوى الشعبية المسلمة .

وكان حرص هؤلاء الولاة وتنافسهم على نيل رضاء الخليفة العثمانى وإرسالهم بعض قواتهم العسكرية لمشاركة دولة الخلافة فى حروبها، دون أن تكون دولة الخلافة تمتلك أى عامل من عوامل الضغط أو التأثير عليهم سوى الرباط الدينى يعد دليلا هاما على غلبة الهوية الإسلامية .

وعلى صعيد أخر ينبغى الإشارة إلى الدور الذى لعبته الطرق الصوفية فى أبعاد العلاقة بين دولة الخلافة العثمانية وبين هذه المنطقة، فعلى الرغم من أن دولة الخلافة قد هيأت الظروف الكاملة لتطور وانتشار العديد من الطرق الصوفية فى العالم الإسلامى، وهو أمر يرجع إلى طبيعة إسلام العثمانيين فى البداية والذى كان على يد الطرق الصوفية ـ كما سبقت الإشارة ـ وأن ذلك قد فرض ارتباط هذه الطرق بنظام الدولة، وعلى الرغم من أن هذه الطرق قد لعبت دورا واضحا فى إبراز الهوية الإسلامية لشعوب هذه المنطقة من خلال دورها فى صهر كافة العناصر تحت لوائها وكذلك من خلال دورها فى الجهاد ضد الهجوم الصليبى الغربى، إلا أن الخلاف بين هذه الطرق فى المنهج أو فى الأسلوب قد أسهم فى أن تلعب دورا معاكسا لهذا الاتجاه فى علاقة الدولة العثمانية بالقوى الإسلامية فى

شمال إفريقيا . فقد أدى اختلاف الطرق الموجودة فى شمال إفريقيا " كالدرقاوية " و" التيجانية " مع الطرق العثمانية التى كان من أشهرها الجلالية والبكتاشية، وكذلك مع منهج السلطة العثمانية المحدود، إلى تزعمها لبعض الحركات المناوئة للسلطة العثمانية وبخاصة فى ولاية الجزائر، الأمر الذى دعا البعض لأن يربط بين دور هذه الطرق وبين النزعة الوطنية(٧٨) . على أن هذا التفسير لا ينبغى أن يوضع فى إطار تجسيد البعد القومى سواء لكون هذه الطرق – مهما كان الأمر – ذات بعد إسلامى من جهة أو لأنها كانت منتشرة بين التجمعات القبلية التى تخطت حدود ولاية الجزائر أو حتى ولايات المغرب من جهة أخرى .

أما من حيث القوى التى ظهرت فى المنطقة والتى بدت فى قالب الاستقلال عن الإدارة العثمانية كالحسينيين فى تونس فعلى الرغم من أن "حسين على" مؤسس هذه الأسرة قد استأثر بالحكم له ولأسرته وبشكل يدعو إل إلحاقه بصفوف المتمردين عل سلطة الدولة العثمانية إلا أن طبيعة العلاقة التى كانت بين الدولة العثمانية وبين ولايات الشمال الإفريقى بصفة عامة والتى خلت من التدخل المباشر فى شئونها أو فرض أسلوب معين فى الإدارة،وكذلك استناد مؤسس هذه الأسرة على طائفة الانكشارية العثمانية (٧٩)، إلى جانب تولى هذه الأسرة دورا بارزا فى الجهاد ضد النفوذ الأجنبى وفى نفس الوقت الحرص علىالارتباط بالدولة العلية وفى إطار الحرص على استمرار نفوذها ووحدتها (٨٠)، كلها أمور لا تدعو إلى إعتبار دور هذه الأسرة تعبيرا عن النضج القومى فى البداية على الأقل،وفى الفترة التى لم يكن فيها هذا العامل قد تبلور حتى بعد خضوع تونس للاحتلال الفرنسى سنة ١٢٩٨هـ ١٨٨١م .

التشكيك الأوروبى فى حركات الجهاد :

دأب المؤرخون الأوروبيون على التشكيك فى حركات الجهاد الإسلامية بشكل عام وفى منطقة الشمال الإفريقى بالتبعية،وتركزت محاور التشكيك فى جانبين الأول فى أصل المجاهدين البارزين مثل خير الدين وعروج وكذلك حسين بن على والثانى فى وصف دورهم بالقرصنة .

أما من حيث التشكيك فى أصل الأخوين " عروج " و" خير الدين" فقد أكد المؤرخون أنهما ينتميان إلى أسرة مسلمة، وأن انتماء أمهما إلى مسلمى الأندلس هو الذى دفعهما لأن يوجها نشاطهما إلى الحوض الغربى للبحر المتوسط (٨١).

وأنهما ليسا من أصل نصرانى يونانى كما ورد عند بعض المؤرخين الأوروبيين (٨٢).

كما أن لجوء هذين الأخوين إلى أسلوب الكر والفر فى الجهاد البحرى والذى وصف بالقرصنة إنما يرجع إلى عدم قدرتهما على الدخول فى حرب نظامية ضد القوى المسيحية من الأسبان والبرتغاليين وفرسان القديس يوحنا، وكان أسلوبهما أشبه بالكمائن البحرية ضد سفن خصومهم لمنع الصادرات والواردات أو الإستيلاء عليها بقصد الإضرار بعدوهم، وكانت حركتهما فى عمومها رد فعل لأعمال القرصنة الأوروبية التى صبغت عملها ضد القوى الإسلامية بالأبعاد الدينية (٨٣).

كما حاول المؤرخون الأوروبيون التشكيك فى أصل مؤسس الأسرة الحسينية " حسين على " الذى تولى دور الجهاد ضد الأطماع الأوروبية فى تونس(٨٤)، فذكروا أنه يرجع إلى أصل نصرانى يونانى باعتبار أنه من طائفة الانكشارية التى هى فى الأصل تطور لضريبة الغلمان النصاري . علي أن عناصر هذه الطائفة لم يكونوا في مجموعهم من العناصر النصرانية، بل أن ما حصلت عليه هذه الطائفة من امتيازات مادية ومركز مرموق في الدولة العثمانية قد دعا البعض من المسلمين للإقبال علي إلحاق أبنائهم بها، كما أن التربية الإسلامية التى كان يتلقاها أبناء هذه الطائفة من الصغر لا تدعو إلي التشكيك فى ارتباطهم بالإسلام وجهادهم فى سبيله، وما كان لهم أن يحققوا نجاحا فى ارتباط المجاهدين وعموم أهل المنطقة بهم لولا هذا الارتباط الذى يعد أساسا للفخر وليس عاملا للتشكيك (٨٥).

<u>البعد الدينى للأطماع الفرنسية فى الجزائر</u> :

يعود تطلع فرنسا لولاية الجزائر إلى بدايات ارتباط هذه الولاية بالدولة العثمانية حيث لم يكن الفرنسيون يكتفون بسماح الدولة العلية لهم بامتلاك حصن القالة، وهو حصن على سواحل الجزائر ظل وجودهم فيه محل رفض أهل المنطقة، وحق إنشاء المخازن فيه (٨٦)، بل إن " شارل العاشر" ملك فرنسا كان قد اقترح سنة ٩٧٩هـ ١٥٧٢م، على حكومة الباب العالى التنازل لهم عن ولاية الجزائر كلها مقابل جزية وهو الأمر الذى لم توافق عليه الآستانة، وتأزمت علاقة أهل هذه الولاية بفرنسا على أثر قتل فرنسا لوفد منهم ذهب ليتفاوض بشأن

الحصن مبررين ذلك باعتداء سفن في سواحل الجزائر علـــى ســفينة فرنســية، وحاولت فرنسا التودد لإعادة علاقاتها التجارية بعد فشل أسلوب العنف وعقــدوا معاهدة سنة ١٠٣٥هـ ١٦٢٨م، ولكن فرنسا سرعان ما عــادت إلــى أســلوب العنف وهاجمت ميناء " جيجل " فى النصف الثانى مـــن القـــرن الحــادى عشــر الهجرى السابع عشر الميلادى الأمر الذى أشعل روح المقاومة ضدهم فى الولايــة بمساعدة العثمانيين، ووصلت المقاومة إلى حد مهاجمة سواحل فرنسا الجنوبيـــة وأسر الكثير من أهلها كرد على أعمال مماثلة من قبل الفرنسيين .

ووصلت نيابة الجزائر من القوة البحرية إلى حد تقـــارب الإنجلــيز معــها فى إطار التنافس بينهم وبين الفرنسيين فى البحر المتوسط، كما أن الدولة العثمانية قد استخدمت هذه القوة كوسيلة من وسائل الضغط على الفرنسيين فى مطلع القرن الثالث عشر الهجرى التاسع عشر الميلادى .

وحين طافت بذهن " نابليون " فكرة الإستيلاء على شمال إفريقيا كله أرســل أحد مسئوليه لدراسة أحوال الجزائر على وجه الخصوص وهو " بوتـــان " الــذي رسم له خطة حربية لدخول الجزائر، ولكنه لم يوافق على فكـــرة إمكانيـــة إثـــارة النعرة القومية لدى عناصر العرب ضد حكامهم من الترك مؤكدا تضامن الجـــانبين وسيادة النظرة الإسلامية الدينية لكنه طرح إمكانية استمالة بعض رجـــال الطـــرق الصوفية (٨٧) .

وتبلورت النزعة الدينية الأوروبية حول الجزائر فى مؤتمـــر فيينـــا ســـنة ١٢٢٩هـ ١٨١٤م، حين طالب فرسان الصليب المالطيين بإعادة الجزيرة إليهم أو منحهم قواعد متقدمة فى البحر المتوسط للوقوف أمـــام مـــا أســموه بالقرصنـــة الإسلامية وبخاصة فى الجزائر وتخليص الأسرى المسيحيين، وتجاوب المؤتمرون مع هذا المطلب ومن منظور دينى متعصب حيث كان من بين قـــرارات المؤتمـــر ضرورة قيام أوروبا بعمل جماعى ضد " القراصنة " فى المغرب لأن فرسان مالطـــة لا يستطيعون القيام بهذه المهمة وحدهم، ورأت بريطانيا أن الدولة العثمانية لـــن تعارض هذا العمل لأن فيه إعادة لسيادتها على هذه المنطقة بعد إبعاد زعماء هـــذه المنطقة .

وحاولت بريطانيا أن تنوب عن أوروبا المسيحية فى القيام بعمل عســـكرى صليبى ضد الجزائر وهو أمر أثار حفيظـــة الفرنســـيين، فقـــاموا بحملـــة ســـنة ١٢٣١هـ ١٨١٦م، حققت نجاحا محدودا . وأمام مواصلة الجزائريين للمقاومـــة

ورفض الشروط التى أرادها البريطانيون حاول الأوروبيون تكوين حلف جماعى لا يسمح بانفراد البريطانيين وحدهم حيث كانت روسيا تتزعم الحلف المقدس ضد دولة الخلافة العثمانية، وكانت فرنسا ترى أن أمر التدخل ينبغى أن يكون قاصرا على دول البحر المتوسط ومن منظور دينى، فقد عبر " شاتوبريان " أحد أعضاء مجلس النواب الفرنسى عن ذلك بقوله : " لقد كان الفرنسيون هم أول الصليبيين فليكونوا الآن آخرهم " (٨٨)، ومع أن الخلاف بين الدول الأوروبية قد جعلها تتحفظ ضد تدخل بعضها البعض سياسيا إلا أن الروح الصليبية المعادية للمسلمين كانت الروح السائدة بين كل هذه الدول، وقد أدى إحساس الدولة العثمانية بهذه الروح أن ساعدت حكومة الداى فى الجزائر بثلاث سفن حربية تحسبا لما تعده الدول الأوروبية .

دور محمد على فى التمهيد لاحتلال الجزائر :

فى الوقت الذى كان يستعد فيه حكام ولاية الجزائر ومن خلفهم الدولة العثمانية لمقاومة المخططات الصليبية الأوروبية الرامية إلى الإعتداء عليهم أو لاحتلالهم، طرحت على الساحة فكرة إمكانية قيام " محمد على" بعمل عسكرى ضد هذه الولاية لصالح فرنسا . فقد أرسل قنصل فرنسا فى مصر " دروفتى " بتقرير إلى رئيس وزرائه " بولينياك." تضمن اقتراحا بتدخل محمد على فى الجزائر . وعلى الرغم من اختلاف المؤرخين حول ماهية هذا الاقتراح هل كان نابعا من محمد على نفسه كما ذكر المؤرخون الفرنسيون أم من" دروفتى " بناء على توصية من بعض رجال حكومته، فإن الثابت أن الفرنسيين هم الذين سعوا لإقناع محمد على بفكرة التدخل، وأن قبول محمد على لها كان بمثابة تأكيده للارتباط بفرنسا وسعيه لكسب ودها وفى نفس الوقت محاولة لتحقيق أطماعه الشخصية فى التوسع، كما أن الفرنسيين كانوا ينظرون إلى دوره فى المحاولة باعتباره عميلا لهم (٨٩) .

ومن السذاجة قبول تفسير البعض لدور محمد على الذى تخطى مرحلة الاقتراح إلى حد عقد اتفاقية مع القنصل الفرنسى بأنه كان محاولة لإبعاد الاحتلال عن دولة عربية، فالجزائر حتى ذلك الوقت لم تكن دولة ولكنها كانت ولاية عثمانية وأن اتفاقه على أمر كهذا مع دولة أجنبية ينم عن عدم اكتراثه بوحدة الدولة الإسلامية أو اكتراثه بها ومسايرته للمخطط الصليبى الرامى إلى تمزيقها،

كما أن مساعدة دولة أو ولاية ضد هجوم أجنبى لا يكون باحتلالها بل كان مد يـد المساعدة لها كما فعلت الدولة العثمانية، ولعل فى هذا الموقف وقربه من موقفه فى نوارين البحرية سنة ١٢٤٢هـ/ ١٨٢٧م، تحت قناع مساعدة السلطان ضد ثورة المورة والبلقان ما يدعم ما سبق أن توصلنا إليه فى طبيعة دور محمد على فى المنطقة (٩٠) .

وبشكل عام فإن الإتفاق قد تضمن قيام محمد على بحمله عسكرية برية حتى الجزائر، يقوم بعدها محمد على بضم هذه المناطق إلى نفوذه، باسم السلطان، ويدفع جزيتها لدولة الخلافة، وفى نفس لوقت يضمن لفرنسا كل ما تتطلب من امتيازات اقتصادية وعسكرية فى الجزائر دون أن تتحمل أية أعباء فى هذه الحملة .

وفى الوقت الذى نظرت فيه فرنسا إلى هذا الاتفاق بجدية لتحقيق أهدافها فى الجزائر، وكذلك تحويل اتجاه محمد على عن الشام الذى كانت تسعى لزيادة نفوذها فيه، بدت معارضة بريطانيا لامتداد نفوذ محمد على إلى هذه المنطقة متفقة فى ذلك مع الباب العالى وهو أمر أدركه محمد على من البداية، ويبدو أن ذلك هو الذى أثناه مبدئيا عن السعى لتنفيذ الاتفاق مع فرنسا وليس حرصه على عدم إثارة الرأى العام الإسلامى كما يرى البعض .

فحين أدرك محمد على عزم بريطانيا على مواصلة المعارضة لهذا المشروع حتى لو أدى الأمر إلى استخدام القوة التقى بالقنصل البريطانى فى مصر وأبلغه بوجود خلافات بينه وبين فرنسا حول هذا الاتفاق،وأنه يود " لو وثقت بريطانيا به لأن من مصلحتها الاعتماد عليه فى مواجهة الخطر الروسى" (٩١) . وأبدى، نتيجة لذلك العديد من التحفظات وعدم القبول للاتفاق الذى أعده رئيس وزراء فرنسا بعد إحداث تعديلات على اتفاق " دروفتى" وكان من شأن هذه التحفظات رفض المشروع نهائيا .

<u>احتلال فرنسا للجزائر</u> :

لم تكن معارضة قيام محمد على بدور عسكرى فى شمال إفريقيا قاصرة على دور بريطانيا والباب العالى وكذلك حكومة " مترنخ " فى النمسا المعروفة بتحفظها، لكن المعارضة نمت داخل الدوائر الفرنسية نفسها حيث تراءى للمحافظين الفرنسيين أن محمد على لا ينبغى أن يشارك فى دور فرنسا الذى

يحاول بضربه للمسلمين أن ينتصر للكنيسة الكاثوليكية، وكانت هذه النزعة وراء نظرة بعض السياسيين الفرنسيين لمحمد على بأنه مهما كان عميلا لـهم إلا أنـه يستوجب النظر إليه باحتقار باعتباره شرقيا لا يزيد عـن الـداى فـى الجزائـر وباعتباره متخلفا وكافرا، وقد عبرت بعض الصحف الفرنسية عن هـذه النزعـة وأيدت هذا الإتجاه مفضلة قيام فرنسا بعمل عسكرى مباشر .

وقد تجلت الروح الصليبية بشكل عام وبأسلوب أكثر حدة فى سياسة فرنسا تجاه الجزائر، ولقيت سياسة العسكريين التوسعيين الراغبين فى تعويض الخسائر الاستعمارية بعد الحروب النابليونية فى هذه الروح ما يدعم توجهها لإعادة فكـرة التوسع على حساب الأراضى الإسلامية فى شمال أفريقيا، فطرحت فكرة زعامـة فرنسا للدول الكاثوليكية . فقد نص بيـان لمجلـس الـوزراء الفرنسـى فـى عصـر" شارل العاشر" ١٢٣٩ـ ١٢٤٥هـ ١٨٢٤ـ ١٨٣٠م، على مـا يؤكـد هذه النزعة فذكر : " لقد أرادت العناية الإلهية أن تثار حمية جلالتكم بشـدة فـى شخص قنصلكم على يد ألد أعداء المسيحية، ولعله لم يكن من بـاب الصدفـة أن يدعى ابن لويس التقى لكى ينتقم للدين وللإنسانية، ولإهانته الشخصية فى نفـس الوقت.. وربما يساعدنا الحظ بهذه المناسبة لننشر المدنية بين السكان الأصليين وتدخلهم فى النصرانية . وقد وصف أحد المؤرخين الفرنسـيين احتـلال فرنسـا للجزائر بأنه " أول إسفين دق فى ظهر الإسلام " (٩٢) .

ولعب اليهود دورا واضحا فى احتلال فرنسا للجزائر سواء من خلال انتماء مجموعة العسكريين الفرنسيين للمحافل الماسونية التى تخضع لتـأثير وتوجيـه اليهود، أم من خلال مشاركتهم المباشرة فى هذه الأحداث، فقد استقر فى الجزائـر منذ أواخر القرن الثانى عشر الهجرى الثامن عشر الميلادى بعض التجار اليـهود الذين اشتهر منهم " بيت بكرى" الذى كان يقوم بأعمال الوساطة التجارية (٩٣) .

وكان بعض الدايات فى الجزائر يقوم باقتراض بعـض الأمـوال مـن العنـاصر اليهودية لتمويل بعض النواحى التجارية، واستغلت العناصر اليهودية هذه الثقـة التجارية ليوقعوا بعض الدايات فى ديون لدى التجار الفرنسـيين بضمانـهم، ثـم سرعان ما نقلوا نشاطهم إلى فرنسا، ودخلت حقوق الدايـات لـدى الفرنسـيين واليهود فى لعبة السياسة مما عرضها للضياع والمساومة، فكانت من بين أهـم أسباب الأزمة بين فرنسا ودايات الجزائر (٩٤) .

وبشكل عام فإن هذه العوامل مجتمعة قد دعت مجلس الـــوزراء الفرنســـى لاتخاذ قرار فى نهاية سنة ١٢٤٥هـ-يناير ١٨٣٠م، بإرسال حملــــة لتفـــرض شروط فرنسا على الجزائر،وتم إرسالها بالفعل، ولم يحالف التوفيق أهل الجزائـــر فى المقاومة فقبلوا شروط فرنسا، ولكن فرنسا لم تحترم أى تعـــهد تعـــهدت بـــه وبخاصة ما يخص احترامها للشعائر الدينية حيث حول المسجد الكبير فى الجزائر إلى كتدرائية (٩٥)، وكذلك قيامها بمصادرة أملاك المسلمين من أهل البلاد .

نتائج سياسة محمد على فى عدن وجنوب الجزيرة العربية :

على الرغم من توافق دور محمد على فى الجزيرة العربية فى البدايـــة مـــع السياسة الإنجليزية التى كانت تسعى إلى إضعـــاف الدعـــوة الســـلفية المســـاندة للقواسم من جهة والمثيرة للمشاعر الدينية المعادية للأجانب فى المنطقة والتـــى كانت ذات أبعاد سلبية على مصالحهم فى المنطقة بشكل عام من جهة ثانيـــة، إلا أن محمد على كان يدرك طبيعة تغير السياسة الإنجليزية وإمكانية تـــهديدها لـــه عندما يتوافق ذلك مع مصالحها. لذلك انتهز فرصة وجود قواتـــه فـــى الجزيـــرة العربية وأرسل حملة عسكرية إلى اليمن سنة ١٢٣٤هـ-١٨١٩م . ومع أن ذلـــك لم يكن مثيرا للإنجليز لانشغالهم فى دعم وجودهم فى الخليج العربى بعد دخولـــهم رأس الخيمة كنتيجة لدخول قواته الدرعية، وكذلك بعدم تأثر مراكزهم التجارية فى موانى اليمن إلا أنها ظلت تتابع الموقف عن كثب . وكان محمد على يـــدرك أن وجوده فى جنوب البحر الأحمر سيكون أمرا له تأثيره على السياسة الإنجليزيـــة التى كانت تحافظ على الطريق إلى الهند، وبالتالى يضمن عدم تقلبـــها ضـــده أو معارضتها لطموحه السياسى إذا كثرت أوراقه التى كانت هذه من بينها.على أنـــه ربط هذا الدور بتشجيع الإنجليز على فتح الطريق التجارى إلى السويس ولينشـــط دورهم التجارى فى موانى البحر الأحمر(٩٦) .

وعلى الرغم من أن هذه الخطوة فى دخول قوات محمد على اليمن كـــانت بعلم الباب العالى العثمانى ولصالح نفوذه إلا أن السلطة العثمانية حـــذرت محمـــد على من أبعـــاد الدور البريطانى الذى سيترتب عليها (٩٧)، فقد تضمنت مذكرة الباب العالى إلى " محمد على" أنه لا يجوز إئتمان الدول الأجنبية أو الإعتماد على أقوالهم " (٩٨) .

وتابعت بريطانيا هذه المسألة بترقب وحذر، وانتهزت أول فرصة تمثلت فى حدوث إهانة للمقيم البريطانى فى ميناء المخا وأرسلت أسطولها لدعم نفوذه وتأكيد هيبته،هذا فى الظاهر ولكن الحقيقة هى دعم نفوذها فى هذا الممر الحيوى، وأجبرت إمام اليمن فى أعقاب قصفها للميناء ونتيجة له على التوقيع على اتفاقية تقضى باحترام حقوق المقيم الإنجليزى سنة ١٢٣٦هـ ١٨٢١م (٩٩) .

على أن هذا العمل الذى قامت به بريطانيا قد تم فى إطار اعتراف البريطانيين بتبعية المخا واليمن عامة لوالى مصر،فقد أرسل " وليم روس" مبعوث حكومة الهند البريطانية للسلطات اليمنية المحلية إلى "هنرى سولت " قنصل بريطانيا فى مصر مذكرة يبلغه فيها بإبلاغ والى مصر ذلك، وكان ذلك تعبيرا عن تفوق مركز محمد على اليمن (١٠٠)، وكذلك عدم رغبة بريطانيا فى هذه الفترة فى فقدان تعاون محمد على على ساحة الخليج العربى والجزيرة العربية .

على أن محمد على قد أرسل قوات عسكرية سيطرت على موانىء اليمن وأبعدت المسئولين العثمانيين أثناء صدامه معهم فى الشام سنة ١٢٤٨هـ١٨٣٣م . وعلى الرغم من أن بريطانيا كانت وراء دفع محمد على للصدام مع العثمانيين فى الشام للتمهيد بدفعه لصد أى هجوم روسى، إلا أن دوره فى اليمن قد أثار مخاوفهم .وقد ازدادت هذه المخاوف بسبب إبلاغ المبشرين النصارى للسلطات البريطانية بعزم محمد على على الدخول فى اليمن والمناطق المجاورة لها حيث أدركت الأبعاد الخطيرة على مصالحها من أبعاد هذا المشروع (١٠١) .

وسارع الإنجليز إلى اتخاذ التدابير الكفيلة بمحاصرة دور محمد على فى الخليج العربى وجنوب الجزيرة العربية، فقد انتهزوا فرصة إرسال محمد على لحملة بزعامة " خورشيد باشا " لمحاصرة قوات الموحدين بزعامة " فيصل بن تركى " فى دلم وهى الحملة التى انتهت باستسلام الموحدين، وأرسلوا قواتهم البحرية لدعم نفوذهم فى الخليج وأنهار العراق أمام تزايد نفوذ قوات محمد على وبخاصة بعد فوز هذه القوات على القوة العثمانية فى معركة نزيب في ١٢٥٤هـ ١٨٣٩م، ووجهوا إنذارا إلى والى مصر بضرورة تراجعه عن أهدافه فى الخليج والمتمثلة فى الزحف على العراق بعد السيطرة على الإحساء (١٠٢) .

وفى نفس الوقت واصل الإنجليز سياستهم ضد محمد على فى جنوب الجزيرة العربية حيث حملت السلطات البريطانية شيخ عدن على تقديم أرضه لها

مقابل مبلغ بسيط جدا قدره ١٥٠٠ جنيه، واستندت على ذلك العقد المصطنع ضد دور " محمد على " في المنطقة وأرسلوا له إنذارا بالحرب إذا حدث ذلك (١٠٣) .

وعلى صعيد آخر سعت بريطانيا لتقويض دور محمد على في الشام وفي إطار إدعائها سياسة التقرب من الباب العالى العثمانى ضد أطماع والي مصر وكذلك الأطماع الروسية،وأرسلت قواتها لتعزيز نفوذها فى أنهار العراق وشمال الخليج،وفى نفس الوقت أرسلت حملة عسكرية استولت على ميناء عدن ١٢٥٤هـ-١٨٣٩م (١٠٤) .

وفى أعقاب معاهدة لندن سنة ١٢٥٦هـ ١٨٤١م التى أقرت خروج قوات والى مصر من الجزيرة العربية بما فيها شمال اليمن سلم محمد على المناطق الداخلية مثل تهامة لحاكم شمال اليمن لتكون بذلك تابعة للدولة العلية وكذلك الموانيء التي كانت في يده مثل المخا والحديدة . ونجح الإنجليز في جعل ميناء عدن هو الميناء الرئيسى باتباع سياسة التضييق علي الموانيء، إلى جانب سوء إدارة الموانيء الأخرى على عكس عدن، وأدى ذلك إلى هجرة التجار إلى ميناء عدن.على أن التجار كانوا فى أغلبهم من جنسيات مختلفة صوماليين وألبانيين وأتراك وغير ذلك، وبالتالى فقد ربطت بينهم المصالح المرتبطة بالبريطانيين وانفصلوا إلى حد كبير عن الشمال اليمنى من حيث البعد الاقتصادى والاجتماعى، وهذا أمر يؤكد أثر البعد الاقتصادى في تشكيل القوى السياسية العربية .

الهـــوامـــش

(١) د . شوقى ضيف : فصول من الشعر ونقده ـ القـــاهرة ـ ســنة ١٩٧١م ص٢٧٨ إلـــى ص٢٨٠ . وحول هذه القضية أنظر : د . محمد محمد حسين : الاتجاهات الوطنيـــة فـــي الأدب المعاصر؛ د . نفوسة زكريا : تاريخ الدعوة الي العامية وآثارها في مصر .

(٢) محمد أديب غالب : من أخبار الحجاز ونجد ص١١٠ .

(٣) المرجع السابق ص١١١ .

(٤) المرجع السابق ص١١١، ١١٢ .

(٥) المرجع السابق ص١١٤ (الجبرتى ـ أخبار يوم ٢٣ شوال سنة ١٢٢٢هـ (٢٤ ديســمبر سنة ١٨٠٧ م)

(٦) محمد أديب غالب : المرجع السابق ص١٤٥ عن أخبار الجبرتى فى ٢٥ جمـــادى الآخـــرة سنة ١٢٢٨هـ (٢٥ يونية سنة ١٨١٣م)، ويراعى أن والى الشام سليمان باشا مما جعـل محمد على يطلب من السلطان العثمانى عزله وتعيين يوسف كنج والى دمشق بدله كشــرط لمحاربة الدعوة السلفية، ولكن بعد نجاح محمد على فى الاتصال بالإنجليز واتجاه حملتـــه العسكرية إلى الجزيرة العربية كان سليمان باشا حليف الدروز والإنجليز من أهم المـــهننين بذلك . وثائق سياسية من تاريخ لبنان ص١٩٨. ويقال أن السبب فى طرد الشريف غـــالب يرجع إلى عدم تعاونه من قبل مع أحد البريطانيين بشأن عقد اتفاقية تجارية، كما أنه كـــان يعتقد أن الهدف من الحملة هو العودة للعثمانيين ولهذا كان استمراره معوقا للبريطـــانيين ومحمد على . د. سليمان الغنام : ص٢١، وعن عرض عبد الله بن سعود الصلـــح علـــى محمد على أنظر : محفظة ٢ بحريرا ـ وثيقة ـ بدون ـ صورة مكاتبة عربية من عبد الله بن سعود إلى محمد على .

(٧) الجبرتى : عجائب الآثار، أخبار يوم آخر العقدة سنة ١٢٢٨هـ (النصف الثانى من نوفمبر سنة ١٨١٣م) . أديب غالب : ص١٤٩ .

(٨) د . عمر عبد العزيز : المرجع السابق ص ٣٠٩ .

(٩) حرص محمد على فى تكوين الجيش ألا تدخله عناصر مصرية واستبدل المرتزقة الأجـــانب بعناصر سودانية ومن غيرهم من الأفارقة، أنظر : د . تمام همام تمام : الرقيق والجنديـــة فى نظر محمد على، مجلة الجمعية التاريخية المصرية – م ٢٧ لسنة ١٩٨١م ص١٣٤ .

(١٠) د . محمد أنيس : الدولة العثمانية ص٢٣٣ .، د . جوزيف حجـــار : أوروبـــا ومصـــير الشرق العربى، د . بطرس الحلاق وماجد نعمه بيروت ١٩٧٦م ص٦

(١١) الجبرتى : عجائب الآثار - ١٠ محرم سنة ١٢٢٧هـ (٢٥ يناير سنة ١٨١٢م)، نقلا عن : محمد أديب غالب : المرجع السابق ص١٣٤، ١٣٥ . ويلاحظ أننا لم نغير فى حديث الجبرتى ونقلناه بأخطائه النحوية .

(١٢) د . سليمان الغنام : المرجع السابق ص ١٥ .

(١٣) د . بدر الدين عباس الخصوصى : دراسات فى تاريخ الخليج العربى ـ جـ١ ـ ذات السلاسل ـ الكويت ـ ب . ت، ص٦٤ .

(١٤) ونعارض هنا بعض ما ورد فى كتاب د . محمد حسن العيدروس : دولة الإمارات العربية من الاستعمار إلى الاستقلال (١٤٠٩ـ ١٩٨٩) ـ ذات السلاسل ـ الكويت، ص٤١ والتى استعان فيها بكتابات الدكتور جمال زكريا قاسم .

(١٥) د . جمال زكريا قاسم : دولة بو سعيد فى عمان وشرق أفريقيا، ص ٨ وما بعدها، د. بدر الدين الخصوصى : المرجع السابق، ص٦٦ .

(١٦) السالمى : تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان، جـ٢، ص٣ .

(١٧) السالمى : المرجع السابق، ص٦٥، وما بعدها، د . جمال زكريا : الأصول التاريخية للعلاقات العربية الأفريقية، ص١٠٨ .

(١٨) يعد تحالف العشائر الصغيرة التى استقطبتها المنطقة مع القواسم دليلا على عدم وجود تكتلات أو قوى قبلية

كبيرة، ومن أبرز هذه العشائر آل على وآل زعاب والحبوس والمطاريش والخواطر وغيرها، د . محمد حسن العيدروس : المرجع السابق، ص٤٥ .

(١٩) د . بدر الدين الخصوصى : المرجع الساق . ص٩٢ .

(٢٠) د . صلاح العقاد : التيارات السياسية فى الخليج العربى، ص٩٧ .، د . سيد نوفل : الأوضاع السياسية فى الخليج العربى، جـ٢، ص٥١، ٩٢، ويراعى تأثر د . صلاح العقاد بالأفكار الغربية فى وصفه القواسم بالقراصنة .

(٢١) د . عبد الرحيم عبد الرحمن : فى تاريخ العرب الحديث، ص١٨٦ .

(٢٢) د . بدر الدين الخصوصى : المرجع السابق، ص٩٤ .

(٢٣) د . عبد الله سراج منسى : المواجهة العثمانية البريطانية فى الخليج العربى ١٨٦٩ـ ١٩١٤ـ ١٩٩٤، ص١٠ .

(٢٤) د . عبد الله سراج منسى : المرجع السابق ص٩٠ .

(٢٥) المرجع السابق : ص١١ـ ١٣ .

(٢٦) بدر الدين عباس : المرجع السابق، ص٢٠٠ .

(٢٧) د . فائق حمدى طهبوب : المرجع السابق، ص٩٢ .

(٢٨) عن شـروط المعاهـدة، أنظر : د . صلاح العقـاد، المرجع السـابق، ص١٠٥، ١٠٦، د. سيد نوفل : المرجع السابق، الكتاب الثانى، ط٢ ـ القاهرة ١٩٧٢م، ص١٦٧.

(٢٩) محمد حسن العيدروس : دولة الإمارات العربية المتحدة من الاستعمار إلى الاسـتقلال ـ ذات السلاسل ـ الكويت سنة ١٩٨٩م، ص٨٩ ـ وما بعدها؛ د . فائق حمدى طـهبوب : المرجع السابق، ص٩١، وقد أكد دور بريطانيا المساند لمحمد على ضد الدعوى السلفية .

(٣٠) د . بدر الدين عباس : المرجع السبق، ص ١٢٩ .

(٣١) د . فائق طهبوب : المرجع السابق، ص٩٧، ٩٨ .

(٣٢) عثمان بن بشر : عنوان المجد فى تاريخ نجد، ح٢، ص٥٠ .

(٣٣) د . بدر الدين عباس : المرجع السابق، ص١٢٩ .

(٣٤) تقرير " كامبل " القنصل البريطانى فى القاهرة إلى وزيـر خارجيتـه بالمرسـتون فـى ٢٤/١١/١٨٣٨م، Correspondence Re (Persian) Gulf , Vol , 64 I060 Of 1839. Part Vi Chap Xliv, No. 369

(35) Correspondence Re (Persian) Gulf, Vol, 64 I060 Of 1839. Part Vi Chap Xliv, No. 369

(٣٦) د . عبد العزيز نوار : تاريخ العراق الحديث، ص٢١٨ .

(٣٧) د . عبد الله سراج منسى : المرجع السابق، ص١٣ .

(٣٨) د . بدر الدين عباس : المرجع السابق، ص١٥٢ .

(٣٩) د . بدر الدين عباس : المرجع السابق، ص١٥٢ هامش (١) . ولعل رد خورشيد يوضـح طبيعة دوره وكيف أنه مال لصالح الإنجليز أو على الأقل لا يخرج عن دائـرة التنسـيق بينهما .

(٤٠) المرجع السابق .

(٤١) محفظة ٢٦٧ عابدين ـ من ميرميران خورشيد إلى سنى الهمم الباشمعاون الخديـوى ـ من نرمدة فى ٣ شعبان ١٢٥٥هـ، نقلا عن د . بدر الدين عبـاس : المرجـع السـابق، ص١٥٦، هامش (١) .

(٤٢) الوثيقة السابقة الملحق المرفق بـها العربـى، ١٣٧ حمـراء فـى ١٣ ربيـع ثـانى ١٢٥٥هـ .

(٤٣) د . جمال زكريا قاسم : الخليج العربـى ١٨٤٠ـ ١٩١٤، ص ٦٩. د . محمـد حسـن العيدروس : المرجع السابق، ص١١٣ وما بعدها

(٤٤) د . سليمان الغنام : المرجع السابق ص٧٠، ٧١ .

(٤٥) المرجع السابق ص٨٠ .

(٤٦) المرجع السابق ص٩٢ .

(٤٧) د . محمد عبد الرحمن برج : دراسات فى تاريخ العرب الحديث ص٤٣ .

(٤٨) المرجع السابق .

(٤٩) د . عمر عبد العزيز : المرجع السابق ص٣٤٦ .

(٥٠) د . محمد عبد الرحمن برج : المرجع السابق ص٤٨ .

(٥١) د . عمر عبد العزيز : المرجع السابق ص٣٤٦ .

(٥٢) أحمد فهد الشوابكة : الجامعة الإسلامية ص١٠١، ومما أعطاه إبراهيم باشا من امتيازات للنصارى فتح محلات علنية لبيع الخمور فى دمشق والسماح بحمل الصلبان وشرب الخمر فى الشارع .

(٥٣) انضمت فرنسا إلى جانب بريطانيا والدولة العثمانية فى الضغط على محمد على لقبول شروط الاتفاقية بعد أن هاجمت روسيا الدولة العثمانية . وكانت بريطانيا تهدف فى إثارة القوى الداخلية ضد جيش إبراهيم عدم إتاحة الفرصة لاستقرار وجود قوة والى مصرى، أنظر : عبد العزيز محمد عوض : الإدارة العثمانية فى ولاية سورية ١٨٦٤، ١٩١٤م ــ دار المعارف ــ مصر سنة ١٩٦٩م ص٣٢٥ حيث يتناول دور محمد على فى فتح الشام للتمثيل القنصلى الأجنبى وأثر ذلك على موقف الدول الأوروبية فى التأثير على الطوائف .

(٥٤) د . محمد أنيس : المرجع السابق ص٢٦٢ .

(٥٥) ذكر بعض كتاب التاريخ أن المبشرين هم الذين كانوا يعانون من الاضطهاد، أنظر : د. عبد الرحيم عبد الرحمن : دراسات فى تاريخ العرب ص١١٢ .

(٥٦) جورج أنطونيوس : يقظة العرب ص٩٧ .

(٥٧) جورج أنطونيوس : المرجع السابق ص٩٧، د .عبد الرحيم عبد الرحمن:المرجع السابق ص١١٢ .

(٥٨) جورج أنطونيوس : المرجع السابق ص١٠٠، ١٠١ .

(٥٩) عن دور بعض هذه المدارس فى إثارة الطائفية والولاءات المتعارضة أنظر : د . عمر عبد العزيز : المرجع السابق ص٤١٧ .

(٦٠) أطلق إسم " كلوت بك " على أحد شوارع القاهرة، وتركز فى هذا الشارع وجود دور البغاء الرسمية فى مصر التى أنشأها الاحتلال البريطانى . وما زال هذا الشارع يحمل نفس الإسم حتى الآن كرمز للدلالة على الآثار الأخلاقية للأوربيين فى مصر .

(٦١) جورج أنطونيوس : المرجع السابق ص٩٥، ١٠٢، ١٠٣ وذكر أحد الكتاب أن دافع رجال الكهنوت المحليين من هذه السياسة هو حفظ الذات وحب الخير، أنظر : د . عبد الرحيم عبد الرحمن : المرجع السابق ص١١٣ .

(٦٢) د. زكريا سليمان : التيارات السياسية والاجتماعية بين المجدين والمحافظين ص١٧.

(٦٣) جورج أنطونيوس : المرجع السابق ص٩٢، بيير رنوفان : تاريخ العلاقات الدولية ١٨١٧-١٩١٤ م، ت : د . جلال يحيى : ص١٣١، د . جوزيف حجار : أوروبا ومصير الشرق العربى، تـ : بطرس الحلاق وماجد نعمه - بيروت سنة ١٩٧٦م ص٧ .

(٦٤) د . سليمان الغنام : المرجع السابق ص١٦ . د . عمر عبد العزيز : المرجع السابق ص٢٦٦ .

(٦٥) د . أحمد عبد الرحيم مصطفى : فى أصول التاريخ العثمانى ص٢٠ .

(٦٦) د . محمد أنيس : المرجع السابق ص٢٦٥ .

(٦٧) جورج أنطونيوس : المرجع السابق ص٩٣ .

(٦٨) المرجع السابق ص ٨٩ .

(٦٩) د . سليمان الغنام : المرجع السابق ص١٢٤ .

(٧٠) د . جوزيف حجار : المرجع السابق ص٢٣٢، ٢٣٣ .

(٧١) المرجع السابق ص٢٤١ .

(٧٢) المرجع السابق ص٢٤٤ ـ ٢٥٠ .

(٧٣) د. جلال يحيى : المغرب الكبير ـ العصور الحديثة، ص ٢٩

(٧٤) د . صلاح العقاد : المغرب العربى ـ القاهرة، ١٩٦٩، ط٣، ص١٠ .

(٧٥) د . صلاح العقاد : المرجع السابق، ص١١، ٣٢ . وقد أشار إلى أن الكتاب الفرنسيين، والأوربيين بشكل عام، هم الذن أطلقوا مصطلح البربر على هذه الولايات فى إطار دورهم فى إثارة النعرة القومية .

(٧٦) بدأت أول هذه المساعدات فى إرسال السلطان سليم الأول ألفين من جنود الإنكشارية لعروج وخير الدين وإصداره أمرا لرعاياه بالتطوع للجهاد فى جيشهما. د. صلاح العقاد : المرجع السابق، ص٢١ .

(٧٧) المرجع السابق، ص٣٢ .

(٧٨) د . صلاح العقاد : المرجع السابق، ص٣٣ .

(٧٩) د . جلال يحيى : المغرب الكبير (٣) العصور الحديثة سنة ١٩٦٦م، ص٥٦ حيث ذكر أن حسين على من أصل أرناؤوطى وأنه أحد ضباط الانكشارية، كما حافظت هذه الأسرة على طابعها العثمانى .

(٨٠) د . صلاح العقاد : المرجع السابق، ص٣٥ . وذكر أن من أهم جوانب هذا الحرص هو جعل المذهب الحنفى هو المذهب الرسمى فى للدولة على الرغم من أن المذهب المالكى هو الذى كان سائدا .

(٨١) د . زكريا سليمان : قراءة جديدة فى تاريخ العثمانيين، عالم المعرفة - جدة سنة ١٤١١هـ، ص٧٨، وما بعدها .

(٨٢) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية، ص٩٥ .، وكأن كل ما هو مضىء يحتكره أصحاب الأصل الأوروبى فقط .

(٨٣) حول طبيعة القرصنة أنظر : أحمد توفيق مدنى : حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وأسبانيا سنة ١٤٩٢ ـ ١٧٩٢، ط٢ ـ الجزائر ١٩٧٦، ص٧٢، وما بعدها، وعن الصبغة الصليبية للعدوان الأوروبى، ص ٧٥ .

(٨٤) د . صلاح العقاد : المرجع السابق، ص٣٤ .

(٨٥) لمزيد من التفاصيل أنظر : د . عبد العزيز الشناوى : الدولة العثمانية ـ جـ٢، ص٧١٠.

(٨٦) يراعى أن استخدام مسمى الجزائر يشير إليها باعتبارها ولاية عثمانية .

(٨٧) د . صلاح العقاد : المرجع السابق، ص٤٩، ويصعب التمييز بين هذه العناصر، عربى أو تركى أو بربرى، لكنها تعبير عن مساعى الاستعمار لزرع الشقاق بين أتباع الهوية الواحدة .

(٨٨) د . صلاح العقاد : المرجع السابق، ص٨٣ .

(٨٩) د . صلاح العقاد : المرجع السابق، ص ٩٢ .

(٩٠) د . جلال يحيى : المرجع السابق، ص ١٠٤ .

(٩١) د. صلاح العقاد : المرجع السابق، ص ٩٣، ٩٤. د . جلال يحيى : المرجع السابق، ص ١٠٦ .

(٩٢) د . صلاح العقاد : المرجع السابق، ص٨٦ .

(٩٣) الإسم الكامل لصاحب بيت بكرى ميشيل كوهين بكرى المعروف بابن زاهوت وكان صاحب تجارة فى أوربا ثم فتح مركزا له فى الجزائر وانضم إليه إخوته الثلاثة

وابنه داود وصهره نافتالى بوشناق المعروف باسم يوحنا، انظر أبو القاسم سعد الله : محاضرات فى تاريخ الجزائر ـ القاهرة سنة ١٩٧٦ ص ١٤ .

(٩٤) د . صلاح العقاد : المرجع السابق، ص٨٩ . د . جلال يحيى : المرجع السابق، ص٩٩ .. ولمزيد من التفاصيل حول دور اليهود فى الأزمنة المالية .

(٩٥) د . صلاح العقاد : المرجع السابق، ص ١٠٢ .

(٩٦) د. أحمد عزت عبد الكريم : سياسة مصر واستراتيجيتها فى البحر الأحمر على عهد الحملة الفرنسية ومحمد على، ندوة البحر الأحمر ـ جامعة عين شمس ص ٣٤٢ .

(٩٧) د . جوزيف حجار : المرجع السابق ص ٢٢ .

(٩٨) وثائق عابدين : دفتر ٤ معية تركى فى ١٣ رمضان سنة ١٢٣٦هـ ص ٦٣، ومخفظة ٦ معية سنية فى ذى الحجة سنة ١٢٣٦هـ .

(٩٩) د. عبد العزيز نوار : التأثير الاستراتيجى المتبادل بين منطقتى البحر الأحمر والخليج العربى فى النصف الأول من القرن التاسع عشر، ندوة البحر الأحمر ص ٣٤٩.

(١٠٠) د . فاروق أباظة : التنافس الدولى فى جنوب البحر الأحمر فى النصف الأول من القرن التاسع عشر، ندوة البحر الأحمر ص ٣٧١ .

(١٠١) د . جوزيف حجاز : المرجع السابق ص ٢٤ .

(١٠٢) وثائق عابدين دفتر ٢١٢ فى ٢٧ محرم سنة ١٢٥١هـ .

(١٠٣) د . جوزيف حجاز : المرجع السابق ص ١١٢ .

(١٠٤) د . عبد العزيز نوار : المرجع السابق ص ٣٥٤، ٣٥٥، وعلى الرغم من أن الحملة البريطانية كانت بسبب هذه الأحداث فى المقام الأول إلا أن دخول الأمريكيين كمنافسين تجاريين للإنجليز فى اليمن قد شكل سببا هاما آخر في التعجيل باستيلاء بريطانيا علي عدن، د. فاروق أباظة : المرجع السابق ص ٣٧٩ .

الفصــــل الســـادس

المخطط الماسونى الصليبى وانتشار الفكرة القومية فــى العالم الإسلامــى

- الماسونية
- المحافل الماسونية في عاصمة الخلافة العثمانية
- انتماء الجمعيات القومية التركية إلي المحافل الماسونية
- التحالف الماسوني الصليبي ودفع الاتجاه القومي في المشرق العربى
- الماسونية في مصر. نشأتها ومساندتها لدور محمد على
- الماسونية في الشام
- التحالف الماسوني الصليبي وراء فكرة القومية العربية
- مسئولية النصارى والدول الأوروبية عن أحداث ١٨٦٠م في الشام
- التحالف النصراني اليهودي وقيام الجمعيات الماسونية في الشام

الحركة الماسونية - أهدافها ووسائلها

الماسونية أو البناء الحر أو حركة البنائين الأحرار من أقدم المنظمات أو الجمعيات السرية في العالم التى مازالت قائمة، وهى مشتقة من كلمة " ماسون " التى تعنى بالفرنسية والإنجليزية " البناء " أو" المعمار" وتضاف إليها عادة كلمة " فرى " الإنجليزية بمعنى " حر " أو فرانك ماسون" وكان هذا الإسم ينطق في العصر العثمانى بمعنى " فرمسون"، وعرفت فى العراق والشام بمعنى " فرمصون" (١) .

والمحفل هو المكان الذى تمارس فيه هذه الجمعية طقوسها وممارساتها، والطريقة التى تدار بها اجتماعات فروعها المحلية . وعلى الرغم من تعدد الأبحاث التى تناولت نشأتها وأهدافها إلا أن جانباً منها مازال يكتنفه الغموض، فلا يوجد اتفاق حول نشأتها أو حول غاياتها الحقيقية. ويرجع بعض الباحثين أصلها إلى إثنتى عشر نظرية، لكن الأكثر قبولاً وعقلانية منها حسبما رجّح بعض الباحثين هو ارتباطها بالجمعية الرومانية وجماعة البنّائين فى القرون الوسطى التى بدأت فى إنجلترا ثم انتقلت منها إلى بعض بلدان شرق أوروبا (٢) .

ويتفق عديد من الباحثين على أن عدد المنتمين إلى هذه المحافل حالياً بستة ملايين تقريباً منهم أربعة ملايين في الولايات المتحدة الأمريكية وحدها، ومليون فى الجزر البريطانية، والمليون الباقي موزّع على أنحاء العالم، ويرجّح أن يكون هذا العدد قد ازداد كثيرا وبخاصة بعد انتشار محافل ماسونية بأسماء أخرى كالليونز والروتاري، وفى ظل التعمية والتخفي والسرية التي تحيط بهذه الجمعيات وفى ظل الإعلام الموجّه الذى لا يسعى لكشفها وتوضيح طبيعتها أهدافها بعد أن سيطر أعضاؤها على كل وسائل الإعلام فى كثير من بلدان العالم .

وتقدر الثروة التى تمتلكها هذه المحافل فى بريطانيا وحدها فى سبعينات هذا القرن بحوالى عشرين مليون جنيه إسترليني، وتزيد عن مائة مليون فى الولايات المتحدة الأمريكية فى نفس الفترة ومعها محافلها فى بقية بلدان العالم، وهذه الثروة المتزايدة مسخّرة لتحقيق أهدافها واتساع تأثيرها.

والأهداف المعلنة لهذه المحافل تشير إلى حبها للخير والإنسانية والسعى لرقيّها وتقدمها من خلال التعاون والتآزر واتخاذ كافة الأسس المادية والمعنوية

للتعامل الاجتماعي والفكرى للإنسانية، وتطبيق مبادئ هامة كالتسامح واحترام الغير وحرية الضمير والبعد عن التعصب الديني والمذهبي (٣) .

على أننا فى بحث تاريخي كهذا سنكتفي بمجرد الإشارة إلـــى ارتبـــاط المحافل الماسونية باليهود وبالحركة الصهيونية وبالتـــالي بعلاقتـــها بـــالدين والسياسة على غير ما يعلن عنها فى مبادئها، فتذكر نشرة المحفل الأعظـم الفرنسى سنة ١٣٠٤هـــ ١٨٨٦م " كنا ندّعى بأنه لا علاقة لنا مـــع الديـــن والسياسة هل كان هذا خداعاً منا ؟ لا أظن، ولكننا خشـــية مطـــاردة قـــوى البوليس والقوانين كنا نضطر إلى إخفاء مقاصدنا وغاياتنا ... نعم نحن نشتغل بالسياسة وبالسيـــاسة فقط فى محافلنا ... لا بل بالسياسة العليا " (٤) .

وتشير مضابط المجلس الماسونى الأكبر الفرنســـى سـنة (١٣١٤هــــ ١٨٩٧م، إلى أنه " لا يقبل المتديّنون فى المحافل الماسونية لأن الذى ينخرط فى المحافــــل يجب أن يكون حراً والماسونى الحقيقى لا يكون متديّنـــاً (٥) . كما توضح تعليمات هذه المحافل أنه " بوسع الماسونى أن يكون مواطناً على أن يكون ماسونياً قبل كل شئ وفى وسعه بعد ذلك أن يكون موظفاً أو نائبـاً أوعيناً و رئيس جمهورية، وعليه أن يستلهم الأفكار الماسونية، ومهما علت مكانته الاجتماعية فإنه يستوحى مفاهيمه من المحفل الماسونى لا من مكانتـــه (٦) . ويجب على الماسونيين الذين بيدهم زمام الأمور أن يأتوا بالماســـونيين إلى دست الحكم وأن يقرّبوهم من كراسيه وأن يكثروا من عددهم فيه " (٧) .

وعن نشاط هذه المحافل دعت نشرة الشـــرق الأعظـــم الفرنســـى ســـنة ١٣٤١هـــ ١٩٢٣م إلى أنه فى سبيل دعم النظام الجمهورى فعلى الماســـونية أن تتفق مع الذين لا يدعون إلى الدين أمثال الاشـــتراكيين والديمقراطييـــن ودعاة حقوق الإنسان والجمعيات المتحررة الأخرى، وعليها أن تشترك فـــي المجالات الأخرى للعمل كالجامعات الشعبية والمدارس السياسية والمؤسســـات الأخرى (٨) .

وأوحت التعاليم الماسونية إلى الماسونيين بالتسرب إلى الجمعيات الدينية وغيرها بل والأكثر من ذلك أشارت عليهم تأسيس مثل هذه الجمعيات على أن لا تشم منها أية رائحة حقيقية للدين، وكانت التعليمات الموجهة فـــى هـــذا المجال والموجّهة إلى الماسونيين " عليكم أن تلمّوا شمل قطيعكم أينما كنتم، حتى فى المعابد الصغيرة، وعليكم أن تولوا أمورها السذّج من رجال الديـــن

ولتطعموا – خفية – ذوى القلوب الكبيرة من الرجال بقطرات من سمومكم، وبغية التفرقة بين الفرد وأسرته والاقتراب من الأمور المحرمة لأنها تفضل " الثرثرة " فى المقاهى على القيام بتبعات الأسرة، وأمثال هؤلاء من الممكن إقناعهم بالدرجات والرتب الماسونية، ويجب أن يلقن هؤلاء بصورة عريضة متاعب الحياة اليومية، وعليكم أن تنتزعوا أمثال هؤلاء من بين أطفالهم وزوجاتهم وتقذفوا بهم إلى ملاذ الحياة البهيمية (٩) .

وأهم الميادين التى رأى مؤتمر الشرق الأعظم الفرنسى سنة ١٣٤١هـ-١٩٣٢م، أنها المرتع الكفيل بنمو الماسونية وزيادة نشاطها نحو أهدافها الجمعيات والنوادى الرياضية والفرق أو المؤسسات التى تهتم بالموسيقى وما يتفرع عنها(١٠) وتسعى الحركة الماسونية من خلال كل هذا إلى الاستيلاء على العالم عن طريق بث أفكارها، وأن تجعل سير الأمور حسب مشيئتها دون أن تلقى فى طريقها مقاومة من أحد، وعلى الماسونيين أن يقاتلوا فى الصفوف الأولى لمناهضة الأديان والقوميات والتقاليد (١١) .

والهدف البعيد لهذه الحركة هو تأسيس جمهورية ديمقراطية عالمية خفية وفقا للبيان الماسونى المؤرخ فى سنة ١١٥٩هـ-١٧٤٤م، وبالتالى جمهورية خفية يسيطر عليها اليهود بحكم سيطرتهم على هذه الحركة (١٢) .

علي أن هناك حقائق جديرة بالتسجيل فى مثل هذا الموضوع الشائك وهو أن كثيرا من الأبحاث التى تناولته قد تأثرت إلى حد كبير بتصور سابق عن الحركة سواء بعدائها للديانات وغير ذلك أم بالجوانب البراقة والنشاط الإنساني الذي تزاوله أو تتخفى وراءه، كما أن أحدا من الباحثين لا يستطيع القطع بإلمامه بكل جوانبها أو أسرارها، وبالتالى فإن إصدار أحكام قاطعة حولها يكون نسبيا فى دقته، وإن كان الحكم على نوعية المنتمين إليها أو تقويم نشاطهم واتجاهاتهم ،إلى جانب ما تم التعرف عليه من أسلوبها ومنهجها وجانب كبير من أسرارها يوضح كثيرا من جوانبها وأهدافها .

كما أن التناقض والتباين بين الباحثين الذين تناولوها بين قدح أو مدح قد أسهم فى تبديد حيرة الباحثين من أصحاب الرؤية المسبقة حيث يجد كل بغيته فى القدح أو المدح فى حين ظلت الحيرة تكتنف طريق الأبحاث التى تنشد الحيدة والموضوعية إلى حد كبير .لكن الشئ الثابت فى أساليب هذه الحركة هو الاعتماد على العوامل الاقتصادية فى تنفيذ أهدافها سواء علىمستوى الأفراد أو مستوى

المجتمع أو على مستوى العلاقات بين المجتمعات، وهـــى بـــهذا الأسـلوب قـد استطاعت رغم صغر حجمها وقلة عدد المنتمين إليها أن تنفذ إلى كل شـــئ، وأن تجعل ما عدا ذلك من عوامل تتراجع إلى حد كبير، علاوة على أسـاليب أخـرى تخدم هذا الهـدف .

وعلى ذلك يرجع انتشارها فى العالم الإسلامى بعد أن تهيأت الظروف لرواج العوامل الاقتصادية على العوامل الدينية أو حتى القومية، وقد زاد تسيّدها بعـد نجاحها فى السيطرة على أغلب وسائل التأثير وبفعل هيمنة العوامل الاقتصادية. وقد أسهم ذلك في تغلغلها في المصالح والمؤسسات والهيئات الحكومية وغـير الحكومية في كثير من بلدان المشرق العربي، وأصبحت عناصرها بمثابة عناصر استخبارات وتجسس للمشاركة في منظومة تسعى لتحقيق هدف الحكومة العالمية اللادينية الواحدة أو ما يعرف بالعولمة .

انتشار الفكرة القومية في العالم الإسلامي

من الأمور التى تدعو للغرابة اتجاه الباحثين إلى دراسة انتشـار الفكـرة القومية فى البلاد الإسلامية فى ظل تجزئة للأجناس الإسلامية حيث أن ذلك أمر يدعم مسبقاً الاتجاه إلى تعميق هذه الفكرة حتى قبل أن توجد أو تصبـح ذات ملامح بارزة لها تأثيرها فى الميدان الثقافى ثم الميدان السياسى وهو أمر لم يكن وارداً حين رصد هذه الفكرة، كأن تدرس القومية التركية أو العربية كل على حدة فى وقت لم تبرز فيه الخصائص المميزة أو التحديد الدقيق لمن هو تركى أو من هو عربى وبخاصة بعد مرور فترة تاريخية امتزج فيها الجانبان، ولم يكن أى منهما يستطيع أن يحدد هويته بشكل واضح برغم مكان ميلاده، فالرصيد الثقافى بينهم كان رصيداً واحداً، وعدم وجود قيود على حرية التنقل والاسـتقرار أدى إلى انصهار شديد بين كافة رعايا الدولة، وابتعد بهذا المؤرخون العلمانيون عن الصواب والموضوعية فى تحديد أبعاد الحركة التاريخية وبخاصة أنهم قد اتبعوا منهج دراسة التاريخ من منظور الصفوة والمشاهير، وبعد بهم عـن تصويـر حقيقة الاتجاهات الشعبية وتحديد أهدافها وميولها وحياتها، فبدا التاريخ المدون من أتباع هذه المدرسة مزوّراً وملفّقاً .

وحتى إيران التى أسهم اعتناقها للمذهب الشيعى وصراعها السياسى مع الجزء السنى من العالم الإسلامى بقيادة العثمانيين فى أن تبرز فيـها ملامـح

القومية مبكرة فإنها ظلت ــ ومازالت ــ تحتفظ بجسور دينية وثقافية بالعالم الإسلامي فى شرقها وغربها لم تكن تجعل عودة التصاقها بهذا العالم أمراً مستحيلاً على الأقل فى نظر المجتمع الغربى، وهو أمر يفسّر أسباب حرص المؤرخين الغربيين ــ والمؤرخين العلمانيين فى بلادنا بالتبعية ــ على تعميق الجذور القومية في إيران كجزء من مخططهم في العالم الإسلامى كله حتى يحققوا أهدافهم فى فصل القوى الرئيسية في العالم الإسلامى (إيران ــ تركيا ــ العرب) كمرحلة أولى . ثم إثارة الفتن الطائفية والعرقية من خلال الأقليات وكذلك القوميات المحلية المحددة كمرحلة ثانية .

ومع أن العداء بين الكنيسة الأوروبية والشرق الإسلامى يعود إلى جذور تاريخية قديمة إلا أن المحافل الماسونية التى تدعّم موقفها فى فرنسا بالذات بعد قيام ثورتها كانت أسبق من الكنيسة فى القيام بهذا الدور، وإن كانت قد استعانت بجهود الكنيسة فى إثارة الأقليات المسيحية فى الشرق الإسلامى علي الرغم من الاختلاف في المذهب واستغلاله لتحقيق هدفها فى تمزيق الدولة الإسلامية . ففى باريس كانت المحافل الماسونية التى كانت وراء حركة الترجمة الموسّعة للعديد من الكتب الفرنسية المعدة لتحقيق الهدف إعداداً جيداً ومسبقاً ومخططاً إلى اللغات التركية والعربية والفارسية، وفى باريس كانت جمعيات الدعوة القومية العربية والتركية على السواء . ولم تستطع فرنسا أن تتخفى طويلاً فى مساندتها لهذه الاتجاهات تحت قناع الحرية ومساندة دعاتها حيث خرجت حملتها بقيادة نابليون بونابرت إلى مصر، وتبعتها بحملة احتلت على أثرها الجزائر فى حين وقفت مدافعة عن استقلال أقاليم البلقان، وأكدت بهذا وبعديد من المواقف المشابهة، أن الحرية المنشودة قاصرة على الشعوب الأوروبية وأن العداء الشديد موجّه للشعوب الإسلامية.

وإذا كانت هذه المحافل قد خضعت في البلاد الاستعمارية لسياسة هذه البلاد إلا أنها استطاعت أن تتسرب لتهيمن علي صانعي القرار السياسي من خلال العناصر اليهودية ذات التأثير الاقتصادي، وتمكنت سياسة اليهود في هذه المحافل من أن تجد سبيلا مقبولا حتي لدي بعض الكارهين لليهود في هذه البلدان وهو مساعدتهم حتي تتخلص منهم في إنشاء وطن قومي لهم ملتقين في ذلك مع النزعة الصهيونية ومن خلال التوافق مع الأهداف الاستعمارية بكل أبعادها

المحافل الماسونية فى عاصمة الخلافة العثمانية

تعود نشأة المحافل الماسونية فى الدولة العثمانية إلى نهاية القرن الثانى عشر الهجرى الثامن عشر الميلادى فى عهد السلطان سليم الثالث، وقد بدا ذلك من خلال احتفال الجالية الفرنسية فى العاصمة العثمانية بذكرى الثورة الفرنسية سنة ١٢٠٧هـ ـ ١٧٩٣م ، حيث تليت وثيقة حقوق الإنسان، وشرب المحتفلون " الخمور نخب الجمهورية الفرنسية ونخب السلطان سليم الثالث أيضاً ونخب أصدقاء الحرية والأخوة العالمية " ومع أن هذه الأفكار لم تؤثر فى البداية فى المجتمع العثمانى المسلم إلا أن ابتعاد هذه الأفكار عن الارتباط بالدين المسيحى قد سمح لها بفتح قنوات ثقافية وسط بعض المثقفين من المسلمين الذين بهروا بشعارها (حرية ومساواة وإخاء) وهى شعارات الحركة الماسونية (١٣) .

ويبدو أن مثل هذه الأفكار قد أخذت فى طريقها السلطان العثمانى سليم الثالث نفسه، فقد وطّد صلته بالأوروبيين، وبخاصة الفرنسيين، فاستقى العديد من المعلومات السياسية وغيرها من قادة فرنسيين كى تعينه على تطبيق خطته الإصلاحية، واعتقد أن فرنسا هى أرقى دول الفرنجة (١٤) وقد تولى سليم السلطنة فى نفس العام الذى قامت فيه الثورة الفرنسية ١٢١٤هـ ـ ١٧٨٩م، ورأى مصير لويس السادس عشر الذى ظل يراسله مدة طويلة.

ولم يكن هذا دافعه إلى الإصلاح فقط حتى يتقى مثل هذه النهاية بل إن أحوال الإمبراطورية العثمانية التى كانت تسير في طريق التدهور، وتوصية والده بضرورة إصلاحها، كلها كانت دوافع أقنعته ـ وهو فى سن الشباب ـ على ضرورة السير فى اتجاه الإصلاح .

ويذكر الدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى أن الثورة الفرنسية قد وفّرت ـ من خلال حملة نابليون بونابرت على مصر ـ نموذجاً فرنسياً للاقتباس عن الغرب، وهو ـ فى رأينا ـ النموذج الماسوني الذي اتبعه " محمد على " . " كما أن تقلّبات الثورة الفرنسية جعلت الآستانة تغص بعدد كبير من الفرنسيين الذين نشروا أفكاراً جديدة عن الحرية، وقدموا المساعدة العسكرية للعثمانيين، ورغم تذبذب النفوذ الفرنسى صعوداً وهبوطاً، إلا أن أفكاراً غير تقليدية أخذت تنتشر لدى بعض شباب العثمانيين،بل فى الباب العالي والقصر" (١٥) . ولم تكن هذه الأفكار إلا الحركة الماسونية التى بدأت توطّد أقدامها فى عاصمة الخلافة الإسلامية .

وعرفت هذه الأفكار الخبيثة من خلال الحكام الذين وقعوا فريسة لها وهم سليم الثالث فى الآستانة ومحمد على في مصر وعثمان باشا فى البلقان، طريقها إلى الانتشار من خلال حركة ترجمة واسعة كانت فى بدايتها حكومية الطابع، وقد نقلت العديد من الكتب الفرنسية إلى العربية والتركية، وأسهمت فى خلق جيل جديد من المثقفين فى العالم الإسلامى يتبنى أفكارها ويروج لها، ويعتبرونها الأساس الذى لا بديل عنه إلى الإصلاح والتقدم .وزاد من حجم وكيف هذا الاتجاه البعثات العلمية التى أرسلها هؤلاء الحكام إلى فرنسا حيث عاد المبتعثون متشبعين بالاتجاه العلمانى المقترن بالدعوة إلى القومية (١٦) .

وقد توارت – إلى حد ما – الحركة الماسونية فى تركيا فى بداية عهد السلطان محمود الثانى (١٢٢٢ – ١٢٤٣هـ) وذلك بسبب الثورات الدينية التى قامت ضد سليم الثالث ثم قتله، إلا أنها سرعان ما عادت لتمارس نشاطها حيث نجحت فى أن تضم العديد من المثقفين والعسكريين والسياسيين الأتراك إلى صفوفها كان من أبرزهم " مصطفى رشيد باشا " الذى وصل إلى منصب وزير الخارجية فى أواخر عهد السلطان محمود الثانى.

وكان مصطفى رشيد سفيرا للدولة العثمانية فى لندن وباريس وتعلم اللغة الفرنسية، وأبدى من خلال ما قرأه بالفرنسية سعيه لمسيرة الإصلاح على نمط غربى علمانى ملحد وهو نفس الخط الذى سلكه محمد على الذى كان رشيد يحبه ويغبطه على حب الأوروبيين له، وكان أول عمل يقوم به فى هذا السبيل، والذي ساعده عليه صغر سن السلطان الجديد عبد المجيد، حيث لم يكن يتعدى السادسة عشر عند توليه السلطة،هو " خط شريف جلخانة " الذى يعتبر بمثابة دستور ينظم خطوات الإصلاح المنشود .فلم يكن هذا الدستور مستمدا من الشريعة الإسلامية (١٧) ،بل سار على هدى كثير من الدساتير الأوروبية وبخاصة الفرنسية التى كانت بعيدة عن معالجة مصالح المسلمين والعثمانيين بشكل خاص .

وقد استغل رشيد باشا صغر سن السلطان وعدم خبرته، وساعدته الأزمات التى كانت تحيط بالدولة وبخاصة الخارجية، فلم يجد أمام هذه الظروف عناء فى إقناع السلطان الشاب بمنهجه الإصلاحى . وحاول أن يستحوذ على رضا السلطان ودعمه، فعقد حفلا أرضى فيه غرور الشباب فى الظاهر ولكنه قصد به دعم خططه وأحاطه بالقوات العسكرية، وسمح لبطريركى الكنيستين اليونانية

والأرمنية وكبير حاخامات اليهود بحضور الحفل وقدم مصطفى رشيد "خط شريف جلخانة" على أنه من السلطان، ثم قدمه للصدر الأعظم وفى حضور شيخ الإسلام، فأقر ذلك الخط أو الدستور فى هذا الحفل المدبر(١٨) وكان أبرز ما تضمنه ذلك الدستور هو الإعلان عن المساواة بين جميع رعايا الدولة وتوفير الإخاء بين الجميع علي أسس غربية لا إسلامية، وهو أمر اعتبره بعض الأوروبيين بمثابة "العهد الأعظم" بالنسبة للعثمانيين (١٩) .

ولم يلق "الخط الشريف" أو الدستور الذى سانده مصطفى رشيد وقلة من المحيطين به ترحيبا أو تأييدا من الرأى العام العثمانى المسلم لعموم ما تضمنه وليس بشأن المساواة – المقررة في المبادئ والتشريعات الإسلامية أصلا – فأعلن علماء الدين تكفيرهم لرشيد باشا، واعتبروا الخط الشريف منافيا للقرآن الكريم فى مجمله، ورأوا أن ذلك وبغض النظر عن النواحى الدينية سيؤدى إلى إثارة القلاقل بين رعايا السلطان (٢٠) وكان هذا الهدف بالفعل هو ما خططت له الحركة الماسونية وهو إثارة الشعور القومى لدى الشعوب المسيحية فى البلقان، سواء أكان رشيد باشا قد تنبه له أم لا، وذلك على الرغم من انضمام بعض رجال الدين المسيحيين إلى الاتجاه الإسلامى المعارض للدستور الجديد .

ومع أن هذه المعارضة لرشيد باشا ودستوره قد نجحت فى إقصائه سنة ١٢٥٦هـ-١٨٤١م إلا أنه عاد بعد أربع سنوات سنة ١٢٦٠هـ-١٨٤٥م ، تسانده مجموعة من أعضاء المحافل الماسونية الذين ركزوا على السير فى طريق التحول العثمانى، وإفساح المجال لتدعيم الدعوة إلى القومية الطورانية، وتدريب عناصر عسكرية من الولايات تكون قادرة على مساندة هذه الدعوة في الولايات في الوقت المناسب وليكتمل مخطط تمزيق الإمبراطورية الإسلامية، وتم تجنيد عناصر ماسونية مسيحية ويهودية لهذا الغرض تحول بعضها ظاهريا إلى الإسلام مثل الكونت قسطنطين بورزيسكى الذى تسمى باسم " مصطفى جلال الدين باشا " وهو مسيحى من أصل بولندى، ودخل إلى الدولة العثمانية بعد فشل ثورة ١٢٦٣هـ ١٨٤٨م، وانضم إلى المحفل الماسونى، ومارس نشاطا كبيرا فى نشر الفكرة الطورانية (٢١) .

وهكذا استطاعت المحافل الماسونية من خلال انتشارها فى دولة الخلافة الإسلامية أن تبث أفكارها من خلال عناصر مجندة ومدربة تحركها أطماعها

الشخصية، وبغض النظر عن إدراكها لحقيقية الدور الذي تلعبه أم لا، أن تسـهم فى المرحلة الأولى في تمزيق دولة الخلافة الإسلامية، ففى وقت واحد كان دور محمد على فى مصر والمنطقة العربية، وعثمان باشا فى البلقان، وإصلاحـات تنحو إلى العلمانية يتبناها بعض السلاطين العثمانيين ودعاة الطورانية والتحديث الذين تحولوا من المسيحية واليهودية إلى الإسلام إسما حتى يكتمـل المخطـط المنشود . وتؤكد بروتوكولات حكماء صهيون هذا المخطط حيـث ورد- فـى البروتوكول الخامس عشر- سنعمل كل ما فى وسعنا على منع المؤامرات التـى تدبر ضدنا حين نصل إلى السلطة متولين إليها بعدد من الانقلابـات السياسـية المفاجئة التى سننظمها بحيث تحدث فى وقت واحد فى جميع الأقطار، وإلـى أن يأتى الوقت الذى نصل فيه إلى السلطة سنحاول أن ننشئ ونضـاعف خلايـا الماسونية الأحرار فى جميع أنحاء العالم " (٢٢) .

انتماء الجمعيات القومية التركية إلي المحافل الماسونية :

يتفق أغلب المؤرخين على أن ظهور الدعوة إلى القومية التركية يرجع إلى حركة تركيا الفتاة التى تأسست فى عـهد السـلطان عبـد العزيـز ١٢٧٨ـ ١٢٩٣هـ ١٨٦١ـ ١٨٧٦م، أو قبله بسنوات قليلة (٢٣)، وقد اتخذت فـى البداية من باريس ولندن مقرا لها حوالى سنة ١٢٧٧هـ-١٨٦٠م، ثم انتقلـت بعد ذلك إلى جزيرة سالونيك وتسمت باسم الاتحاد والترقي .ويبرر المؤرخـون نشأتها خارج تركيا بأنه يرجع إلى استبداد السلاطين دون أن يبحثوا عن الأسباب الحقيقية فى ذلك.والتى ترجع ـ فى رأينا ـ إلى انتماءات مؤسسيها وطبيعـة مبادئها.

أما عن انتماءات مؤسسيها فيذكر أحد المستشرقين أنهم كانوا " خليطـا من الأتراك واليهود وعناصر عثمانية من أجناس أخرى" (٢٤)، والحقيقـة أن العناصر التركية التى شاركت فىهذه الجمعيات كانت فى أغلبها من اليهود الذين استوطنوا جزيرة سالونيك بعد خروجهم من الأندلس، ثم تحولوا فى أغلبهم إلـى الإسلام ظاهريا،وهم من يطلق عليهم اسم يهود الدونمة، وقد استمر ارتباط هذه العناصر باليهود أكثر من ارتباطهم بالدولة العثمانيـة بعـد تحولـهم إلـى الإسلام،وشاركوا العناصر اليهودية في العمل على تحقيق أهدافهم فى تمزيـق الإمبراطورية العثمانية، ومن الدلائل التي تؤكد هذه الحقيقة ما قاله رئيس دولة

إسرائيل " إسحاق بن زفى " فى كتاب له بعنوان " الدونمة " صدر في ١٩٥٧م ذكر فيه " أن يهودا كثيرين، وكثيرين جدا يعيشون بين الشعوب بطبيعتين إحداهما ظاهرة وهى اعتناق دين الشعب الذى يعيشون فيه اعتناقا جماعيا وظاهريا، والثانية باطنية وهى إخلاص عميق لليهودية " (٢٥) وفى تعريفه للدونمة ذكر أنها "طائفة مسلمة يهودية لا تزال منذ زعمت الإسلام تعيش فى تركيا بوجه مسلم، وهذا ما ساعدها على التداخل فى شؤون تركيا السياسة والاقتصادية والتربوية والتوجيه الفكرى (٢٦) ولم تمتزج هذه العناصر بالعناصر الإسلامية سوى من الناحية الظاهرية فى حين ظلت تحافظ على استمرار يهوديتها وفقا لتعاليم ثابتة ومتوارثة يحفظونها بينهم ويواصلون الالتزام بها، ويوضح رئيس دولة إسرائيل فى مؤلفه هذه التعاليم فيقول : " لا تتزاوجوا إلا فيما بينكم ولا تأخذوا من عادات الآخرين إلا الظاهر، ينبغى أن نعمى عيونهم عن الحقيقة، ونحافظ على الإسم المزدوج " (٢٧)، وكان من أبرز هذه العناصر فى الجمعية أنور وطلعت وجمال وجاويد وخالدة أديب ثم مصطفى كمال الذى عرف بعد ذلك بأتاتورك.

أما العنصر الأخير الذى تكونت منه جمعية الاتحاد والترقى فكان من بعض النصارى والمسلمين من العرب، وهم جميعا من أعضاء المحافل الماسونية من أمثال خليل غانم وهو عربى مسيحى من بيروت ونائب فى مجلس المبعوثان، وأنشأ جريدة أسماها " تركيا الفتاه " وكذلك " أحمد رضا " الذى أصدر مجلة "المشورة " (٢٨) أما عن أهداف الجمعية فقد تعددت بتعدد عناصر تكوينها، وبالقطع كان هدفها الرئيسى هو تحقيق الأطماع اليهودية التى تشكل العنصر الغالب فيها والذى يتركز فى الهجرة إلى فلسطين، ورأت أن ذلك لن يتحقق إلا بالسيطرة على مقاليد الأمور فى الحكومة التركية، وهو ما يسميه أحد المستشرقين إقامة حكومة صالحة للدولة على أساس انصهار الأجناس كلها (٢٩)، وبشكل يمكنهم من تغيير القوانين التى تعوق تحقيقهم لهذا الهدف، إلى جانب بعض الأهداف التى تسهم فى توجيه الدولة إلى الاتجاه العلمانى وهى الأهداف التى كان يرمى إليها دستور سنة ١٢٩٢هـ-١٨٧٦م الذى أعده مدحت باشا .وحين تنبه السلطان عبد الحميد لأبعاد هذه الجمعية وحقيقة أهدافها المنافية للاتجاه الإسلامى، اتخذ العديد من التدابير لمحاصرة نشاطها، فتحولت إلى جمعية سرية (٣٠)، واتخذت مقرها سالونيك حيث الأغلبية اليهودية إلى

جانب الحماية الأوروبية، ورأت أن كل أهدافها عرضة للتجمع أو الفشل إذا ما استمرت هذه السياسة. فجعلت هدفها هو السعى لخلع أو قتل السلطان عبد الحميد، واتهمته بالاستبداد والرجعية، وهى تهم التصقت باسمه وشاعت بين كثيرين من المؤرخين باختلاف منظورهم (٣١)، وتناقلها كثيرون من كتاب التاريخ ــ بوعي أو بغير وعى ــ حتى جعلوها من البديهيات والمسلمات نظرا لامتلاك الماسون لوسائل النشر والتأثير.

ويؤكد بعض المؤرخين صلة الحركة القومية التركية بشكل عام وجمعية الإتحاد والترقى بشكل خاص بالحركة الماسونية، فيذكر الدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى أن بعض الشباب العثمانى الذى تلقى تعليمه فى أوروبا قد أسسوا جمعية " شباب العثمانيين " سنة ١٢٨١هـ-١٨٦٥م، والتى " كانت تستلهم أفكار الكاربونارى الإيطاليين"، ومن أعضائها نامق كمال والأمير مصطفى فاضل الأخ غير الشقيق للخديوى إسماعيل حاكم مصر (٣٢)، وأن " نامق كمال ورفاقه قد حاولوا نشر أفكارهم عن طريق تربية الرأى العام على نمط ما كان يجرى فى أوروبا الغربية " (٣٣)، قد وقف هذا الفريق من الشباب ضد السلطان عبد العزيز حين أراد أن يستعيد السلطة بيده ويقوى مركزه مستعينا ببعض المحافظين المسلمين، وساندهم أحد أعضاء المحفل الماسوني وهو مدحت باشا فى اتجاههم الرامي إلى إثارة القلاقل ضد السلطان وتعيين ولى العهد الأمير مراد الذى كان هو الآخر منتميا لهذه المحافل (٣٤) .

وتؤكد الوثائق البريطانية ارتباط جمعية تركيا الفتاة أو الاتحاد والترقى بالمحافل الماسونية، فقد ورد فى رسالة السفير البريطانى " جيرارد لاوثر" إلى وزير خارجيته " هاردينغ " فى سنة ١٣٢٧هـ ٢٩مايو ١٩١٠م، أن " عمانوئيل قوة صو " وهو يهودى من سالونيكا، ويمثلها فى مجلس المبعوثان العثمانى، أسس بالتعاون مع الماسونية الإيطالية محفلا فى سالونيكا سماه محفل ماسيدونيا ريزورتا، ويبدو أن " قوة صو " أقنع رجال تركيا الفتاة ضباط ومدنيين بالانتماء إلى الماسونية، وهدفه من ذلك فرض النفوذ اليهودى غير المستساغ على الأوضاع الجديدة فى تركيا، وإن كان يتظاهر بأنه إنما يريد مساعدة رجال تركيا الفتاة فى تضليل جواسيس السلطان عبد الحميد، ومنحهم الأمن فى محفله الماسونى، لأن المحفل الذى ينعقد فى بيت أجنبى يتمتع بالحصانة الممنوحة للأجانب فى الدولة العثمانية ضد الملاحقة والتفتيش ويظهر أن المخططين

لحركة تركيا الفتاة كانوا بالدرجة الأولى من اليهود، وكانت شعارات أعضاء تركيا الفتاة الحرية والعدالة والإخاء من ابتكار الماسونيين الإيطاليين، وكانت ألوان علم الحركة الأحمر والأبيض هى نفس ألوان علم الماسونية الإيطالية، وبعد مدة قصيرة من انقلاب ١٣٢٥هـ-١٩٠٨م، وحالما انتقلت جمعية الاتحاد والترقى إلى القسطنطينية - استانبول - أصبح معروفا أن عددا كبيرا من قادتها كانوا ماسونيين، وأخذ - قوة صو - يلعب فيها دورا كبيرا، ومن ذلك نجاحه فى السيطرة على فرع جمعية الاتحاد والترقى فى البلقان . وقد لوحظ أن اليهود المحليين والأجانب على اختلاف انتماءاتهم كانوا متحمسين للعهد الجديد، ومع أن جمعية الاتحاد والترقى تظاهرت كذبا وزيفا بتحويل نفسها من جمعية ثورية سرية إلى حزب سياسى وجمعية اجتماعية ذات نظام داخلى معلن، إلا أنه لوحظ فى الوقت نفسه أن المحافل الماسونية أخذت تظهر بكثرة،كما ينبثق الفطر من باطن الأرض، فى جميع المدن الرئيسية والصغرى فى مقدونيا والعاصمة كذلك. ولا يحتاج المرء إلى كثير من التحري والتحقيق ليعلم أن سرية المحافل الماسونية قد استخدمت جزئيا لإخفاء الإجراءات الداخلية للجمعية،التى أعلنت أنها لم تعد سرية، ويبدو أن جمعية الاتحاد والترقى مازالت تقوم بدعاية سرية،ويبدو أن ذوى المناصب المهمة وغيرهم من الموظفين قد أفهموا أن مناصبهم وترقياتهم، وبالتالى موارد رزقهم تتوقف على دخولهم في المحافل الماسونية حيث يصبحون أخوة، وقد دخل فى الماسونية معظم نواب جمعية الاتحاد والترقى فى مجلس المبعوثان والأعيان، وأصبحوا أعضاء فى المحفل الماسوني) الدستور (،والذى كان من كبار رؤسائه طلعت بك وزير الداخلية وجاويد بك وزير المالية (٣٥) .

ولعل هذه الوثيقة ترد على ما ذهب إليه كل من الدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى والدكتور محمد أنيس فى أن المحافل الماسونية لم تلعب دورا رئيسيا فى الثورة بحكم أن الكثيرين من أعضاء تركيا الفتاة كانوا يقيمون فى المناطق الريفية الداخلية التى لم تشهد نشاطا ماسونيا، وأن التنظيم الذى ساعد المحافل الماسونية تمثل فى الطريقة البكتاشية الصوفية (٣٦)، فمع أننا لا ننكر الدور الذى لعبته هذه الطريقة فى مساندة الحركة الماسونية فى الدعوة للقومية التركية المناهضة لاتجاه السلطان عبد الحميد إلا أننا نؤكد انتماء الكثيرين من مشايخ

هذه الطريقة للمحافل الماسونية(٣٧)، وأن الأعضاء الماسون كانوا أسبق من غيرهم فى مساندة الثورة .

التحالف الماسوني الصليبي ودفع الاتجاه القومي في المشرق العربي الإسلامي

أولا : الماسونية فى مصر - نشأتها - ومساندتها لدور محمد على باشا

انبعثت الماسونية فى مصر سنة ١٢١٢هـ ١٧٩٨م، على يد رجال الحملة الفرنسية حيث مهد لها نابليون، ثم أسس خلفه " كليبر " ومعه مجموعة من ضباط الجيش الفرنسي الماسونيين محفلا فى القاهرة سمى محفل إيزيس، وأوجدوا له طريقة خاصة به هى الطريقة الممفيسية أو الطريقة الشرقية القديمة (٣٨)، وقد تمكن هذا المحفل من أن يضم إليه بعض الأعضاء من المصريين وإن كانوا قلة، ثم انحل هذا المحفل رسميا فى أعقاب اغتيال كليبر سنة ١٢١٤هـ-١٨٠٠م، وظل أعضاؤه يعملون فى الخفاء وبسرية تامة كطبيعة هذه الحركة حتى أعيد تأسيسه سنة ١٢٤٥هـ-١٨٣٠م (٣٩) .

ويشير المنشور الأول الذى وزعه نابليون على المصريين إلى أنه قد سعى لنشر هذه الأفكار منذ بداية وصول الحملة فيذكر فيه " قولوا لهم - أى المصريين - أن جميع الناس متساوون عند الله وأن الشيء الذي يفرقهم عن بعضهم هو العقل والفضائل والعلوم فقط "(٤٠)، وكان من أهم الموضوعات التي أثارت الجبرتى فى هذا المنشور هو ادعاء الفرنسيين بأنهم مسلمون ومحبون للإسلام، وأبدى تعجبه من تضمن المنشور لعبارة " لا إله إلا الله لا ولد له" حيث وجد فى ذلك تناقضا مع ديانتهم المسيحية، وعلق على ذلك بقوله ": كيف وأن الله خلق الناس بعضهم فوق بعض درجات " بسم الله الرحمن الرحيم لا إله إلا الله لا ولد ولا شريك فى ملكه " إن فى ذكر هذه الجمل الثلاث إشارة إلى أنهم موافقون إلي الملل الثلاث، ومخالفون لهم بل وبجميع الملل، موافقون للمسلمين فى ذكر التسمية ونفى الولد والشريك، ومخالفون لهم فى عدم الإتيان بالشهادتين وصحة الرسالة، ورفض الأقوال والأفعال الشرعية المعلومة من الدين بالضرورة .وموافقون للنصارى فى غالب أقوالهم وأفعالهم، ومخالفون لهم فى القول بالتثليث وجحد الرسالة أيضا ورفض ديانتهم وقتل القسس، وهدم الكنائس،

وموافقون لليهود فى التوحيد، فإن التوحيد لا يقوله اليهود بالتثليث، وإنما هـم مجسمة مخالفون لهم فى ديانتهم، والذى تحرر من عقائدهم أنهم لا يتفقون على دين، ولا يتفقون على ملة، فكل واحد منهم ينحو دينا، يخترعه بتحسين عقلـه ومنهم الباقي على نصرانيته المتكتم لها، وفيهم فرق من اليهود الحقيقيين، ولكن كل ذى دين فهو سائر مصر عليه، موافق للجمهور فى ضلالـهم المصرين عليه(٤١)، ولا نتفق مع من يرجع ذلك إلى أثر الفكر العلمانى الذى ساد فرنسا بعد الثورة بل إن مبدأ المساواة بين الأديان، لا إنكارها، هو أساس فـى الفكـر الماسونى (٤٢) .

وقد أبدى العلماء المصريون تخوفهم من هذا الاتجاه برغم عدم فهمهم له أو إدراكهم لطبيعته أو لأبعاده(٤٣)، فحينما وضع نابليون طيلسانة موشاة بعلـم الثورة الفرنسية المثلث (حرية ــ إخاء ــ مساواة)على كتف الشيخ الشـرقاوى ألقى بها الشيخ على الأرض رافضا ارتداءها (٤٤)، كما رفض المشايخ كذلـك وضع علامة - الجوكار" على صدورهم وهى علامة يقال لـها الـوردة (٤٥)، ولاشك أن العلم والعلامة (الجوكار والوردة) هى إشارة ماسونية تشير إلى تأثير الحركة الماسونية على الثورة الفرنسية، وكذلك تعبير عن تأثر قادة الحملة بفكر هذه الحركة .

ويبدو تأثرهم بفكر هذه الحركة كذلك وسعيهم لنشره بين المصريين فيما حاولوا فرضه من العادات التى استهجنها المصريون كالبغاء والسفور وتشـجيع النساء من الحرافيش ونساء الهوى على ارتكاب المحرمـات بشـكل علنـى واضح(٤٦)، حيث يعد هذا الأمر من بين أساليب انتشار الماسونية (٤٧) .

وتوحى بعض الدلائل على أنهم ــ أى الفرنسيين ــ قد نجحوا فى ضـم بعض المصريين من المشايخ والعلماء من بينهم الشيخ - حسن العطـار" إلـى المحفل الماسونى الذى أسسه كليبر سنة ١٢١٤هـ ١٨٠٠م، فبعـد أن هـرب الشيخ حسن العطار إلى الصعيد فى أعقاب قدوم الحملة كغيره من العلماء ثم عاد إلى القاهرة على أثر دعوة الفرنسيين للعلماء اتصل على الفور برجال الحملـة ونقل عنهم علومهم، وفى نفس الوقت تولى تعليمهم اللغة العربية (٤٨)، وقـد اندمج إلى حد كبير فى علومهم،وكثيرا ما تغزل العطار فى أشعاره بأصدقائه منهم (٤٩)، ودعت هذه الأمور أن يوصف العطار بأنـه من دعاة التجديد(٥٠) وقـد توثقت صلة الشيخ العطار بمحمد على بعد توليه الولاية وأصبح من الركائز التى

يعتمد عليها محمد على فى خطواته التجديدية وهو أمر يشير إلى وجود صلة بين محمد على والمحفل الماسونى المصرى الذى تأسس إبان الحملة الفرنسية(٥١) .

كما أن تطور الأحداث يشير إلى تشبع محمد على بالأفكار الماسونية التى كان مهيأ لها بحكم تكوينه الطبيعى، فينقل عن محمد على قوله وهو يفاوض الفرنسيين على مسألة احتلال الجزائر " ثقوا أن قرارى لا ينبع من عاطفة دينية فأنتم تعرفوننى وتعلمون أننى متحرر من هذه الاعتبارات التى يتقيد بها قومى.. قد تقولوا أن مواطنى حمير وثيران وهذه حقيقة أعلمها "(٥٢) .

وقد شهد عصر محمد على تأسيس أكثر من محفل ماسونى فى مصر فقد أنشأ الماسون الإيطاليون محفلا بالإسكندرية سنة ١٢٤٥هـ ١٨٣٠م، على الطريقة الاسكتلندية، وذكر البعض أنه لم يكن محفلا ماسونيا بل كربوناريا وأن العامة قد خلطوا بينهما لوجود بعض السمات المشتركة كالسرية التامة واستخدام الرموز ووحدة التعارف بين أعضائها بواسطة إشارات ولمسات .لكنهما يختلفان من حيث التكوين والوسائل الخاصة بتحقيق الأهداف حيث أن الماسونية متدرجة فى تطبيق أهدافها فى حين أن الكربونارية تلجأ إلى أسلوب الثورة الفجائية (٥٣)، وأن أول محفل ماسونى أنشأه الإيطاليون سنة ١٢٦٥هـ ١٨٤٩م، ثم تلاه العديد من المحافل التى أنشاوها فى مصر مثل محفلى كايوغراكور بمباى بشرق الإسكندرية ومحفلى أهرامى والكون بشرق القاهرة (٥٤)، كما تم تأسيس مقام يشتغل بالدرجات العليا حتى الدرجة ٣٣ عام ١٢٨٠هـ ١٨٦٤م، وأعطى له سلطة تشييد مقامات أخرى فى الجهات المصرية المختلفة، وذكر جورجى زيدان أن هذه المحافل كانت على وفاق تام مع محفل الأهرام الفرنسى.

أما الفرنسيون الماسون فقد أسسوا محفلهم الأول من كوادر المحفل المؤسس إبان الحملة سنة ١٢٥٣هـ ١٨٣٨م، فى القاهرة وسمى محفل ممفيس وكان تحت المجلس العالى الممفيسى الفرنسى، وتبعه محفل آخر لهم فى الإسكندرية سنة ١٢٦١هـ١٨٤٥م، تحت رعاية الشرق الأعظم الفرنسى وضم العديد من أبناء مصر إلى جانب العناصر الأجنبية، وكان منهم الأمير حليم بن محمد على وكذلك الأمير عبد القادر الجزائرى (٥٥)، إلى جانب الإيطالى" زولا" الذى وصل إلى درجة أستاذ أعظم للشرق الأعظم والمحفل الأعظم المصرى، لكنه هاجم الماسونية وشهر بها فى نهاية حياته فطردته وتم شطب اسمه منها

وتأخر إنشاء المحافل الإنجليزية فى مصر إلىعهد " الخديوى إســـماعيل" حيث أنشىء " محفل الكونكورد الشرق " وكان أغلب أعضائها من ضباط الجيش (٥٦) وكانت اللغة العربية والإنجليزية هى اللغة الرسمية لهذه المحافل ما عــدا محفل " جرسيا " الذى كان يعمل باللغة اليونانية، ومحفل " كوكب الشرق " الذى اشتغل باللغة العربية (٥٧) .

وبشكل عام يعتبر عصر إسماعيل هو أزهى عصور الماسونية فى مصر بعد عصر" محمدعلى " حيث كان انضمامه إليها وحمايته ودعمه لها سببا فــى ازدياد عدد محافلها وتوسع نشاطها (٥٨)، تأسست المحافل الماسونية الوطنيــة إلى جانب المحافل الأجنبية، وانتمى إليها عدد كبير من كبار الملاك والأعيــان والعلماء وبعض مشايخ الأزهر وفى مقدمة كل هؤلاء ولى العهد " توفيق ".

وقد سعت إنجلترا لتقريب بعض أعضاء محفل " كوكب الشرق الماســونى المصرى " وبخاصة الذين كانوا يضيقون بسياســة الخديــوى الاســتبدادية، وشجعتهم على سياستهم المتوافقة مع سياستها الرامية إلــى عرقلــة النفــوذ الفرنسى الذى كان يساند الخديوى وبالتالي المساهمة فى زيادة حجــم النفــوذ الإنجليزى (٥٩)، وكانت تلك الأمور تشير إلى دخول الصراع السايســى بيــن انجلترا وفرنسا حول نفوذهما فى مصر داخل هذه المحافل .

ونجح الإنجليز فى تقريب عدد من أعضاء المحفل الماسونى المصــرى بفروعه الراغبين فى مقاومة إسماعيل ومن خلفه النفوذ الفرنسى باسم مقاومــة نفوذ الأجانب، كما نجحوا من خلال محافلهم فى العاصمة العثمانية فــى دفــع السلطان " عبد العزيز" لتقريب الأمير حليم بن محمد على الذى كان يطمع فــى تولى عرش مصر بعد " إسماعيل" ،ولكن " إسماعيل " سعى إلى تغيــير نظــام الوراثة ووضع ابنه " توفيق" وليا للعهد، فتقرب الإنجليز من الأمــير حليــم وكرسوه فى محفل " البلور ـــ أو البلوار " الإنجليزى سنة ١٢٨١هـ ـ١٨٦٥م فى حفل كبير شهده كبار الماسونيين الإنجليز، ورقوه إلى أعلى المراتب فــى هــذا المحفل وعينوه " أستاذ أعظم إقليمى للديار المصرية"، وثبتوه فى وظيفته عنــد زيارته لانجلترا سنة ١٢٨٣هـ ـ١٨٦٧م (٦٠) .

وقد أدى الاهتمام الماسونى الإنجليزى بالأمير" حليم" إلــى اضطــهاد إسماعيل له ولمحفله بعد أن توجس خيفة من نشاطه فصادر أملاكه ونفاه خارج البلاد، وتم تعيين الإيطالى " زولا " خلفا له (٦١) وتعهد الماســون الإنجلــيز

بسبب هذه الإجراءات بعدم تأسيسهم لمحافل أخرى فى مصر(٦٢)، لكنهم عادوا وأسسوا المحفل الأكبر الإقليمى لمصر والسودان سنة ١٣١٦هـ ١٨٩٩م، بعد احتلال إنجلترا لمصر والسودان، وعينوا اللورد" كتشنر" أستاذا أعظم لـــهذا المحفل (٦٣) .

وفى عام ١٢٩٣هـ ١٨٧٧م، تقرر الانتقال بالمحفل الأكبر المصرى من الإسكندرية إلى القاهرة. وأصبحت أغلب المحافل الماسونية المصرية التى وصل عددها حتى هذا التاريخ إلى ٢٩ محفلا تابعة له باستثناء مجامع الدرجات العليا، ولكن تم إنشاء مجمع آخر هو"الشرق الأعظم المصرى" الذى نازع - الشـــرق الأعظم الوطنى المصرى - السلطة، وظل الصراع بينهما إلى فترة طويلة (٦٤) .

ثانيا - المحافل الماسونيــة فى الشـــام

بعد أن نجحت الحركة الماسونية فى تثبيت أقدامها فى مصر بعـــد حملـــة نابليـــون، ومن خلال تمكين أحد أتبـــاعها فى تولى السلطة وهو " محمد علـــى باشا "، كانت الخطوة التالية هى الانتشار فى الولايات العربية، وسبقت الإشـــارة إلى أن الدور الذى لعبه- محمد على - وابنه - إبراهيم باشا- فى الشـــام ومـــا أحدثه من تغييرات كانت فى مجملها لصالح العنـــاصر غـــير الإســـلامية مـــن المسيحيين واليهود، وكذلك ما قام به من فتح الباب للعديد مـــن الإرســـاليات التبشيرية والجمعيات السرية ودور التعليم التابعة لها قد هيأ الفرصة لتأســـيس المحافل الماسونية فى بيروت ودمشق وغيرها، وبخاصة أن فرنسا قـــد أبـــدت حرصا فى التنويه على استمرار رعايتها لهذه المؤسسات فى اتفاقية لندن ســـنة ١٢٥٥هـ-١٨٤٠م ، والتى أقرت عودة هذه الولايات إلى الدولة العثمانية بعـــد محمد على.

وتشير المراجع إلى أن أول محفل ماسونى فى بلاد الشام قد تأســـس فـــى بيروت سنة ١٢٧٨هـ-١٨٦٢م تحت رعاية الشرق الأعظم الإسكتلندى بشـــرقى فلسطين رقم ٤١٥، وانضم إليه عدد غفير من أعيان البلاد وطنيين وأجـــانب، وكانت لغته الرسمية الفرنسية، وقد توقف سنة ١٢٨٤هـ-١٨٦٨م، بسبب غياب رئيسه. وظل كذلك حتى جددت رخصته سنة ١٣٠٥هـ-١٨٨٨م (٦٥)، وتـــلاه محفل آخر فى دمشق فى عهد الوالى راشد باشا سنة ١٢٨٠هـ ١٨٦٤م (٦٦)، وهو المحفل الذى تشير بعض الدراسات إلى سعيه لدعم اتجاه الأمير عبد القـــادر

الجزائرى الذى كان منتميا لهذه الحركة، والرامى إلى الاستقلال بالشام بنفس الطريقة التى ساعدت به الحركة الماسونية اتجاه " محمد على " فى مصر (٦٧).

على أننا لا نتفق مع ما ذكره جورجى زيدان من أن أول محفل تأسس فى فلسطين كان فى سنة ١٢٨٩هـ-١٨٧٣م، حيث أشير فى تأسيس محفل بيروت الأول إلى تبعيتة لمحفل الشرق الأعظم الإسكتلندى بشرقى فلسطين مما يوحى بوجود محفل فى فلسطين سابق لهذا التاريخ (٦٨)، ولعدم وجود دلائل بين أيدينا تؤكد وجهة نظرنا فإننا نميل إلى أن هذا التاريخ ١٢٨٩هـ-١٨٧٣م، هو تاريخ الإعلان عن وجود المحفل وليس تاريخ بدايته وبخاصة أن السرية والتخفى هى من الأمور الهامة التى تعتمد عليها الحركة الماسونية .

ولا شك أن هناك ارتباطا وثيقا بين تبعية محفل فلسطين للمحفل الإسكتلندى وبين قوة نفوذ بريطانيا السياسى فى المنطقة العربية فى هذه الفترة، وارتباط العديد من المحافل الماسونية التى أنشئت بعد ذلك فى فلسطين بالمحافل المصرية فترة الاحتلال البريطانى، وكذلك يوجد ارتباط بين نمو هذا الاتجاه وبين تبعية فلسطين للإنجليز وفقا لاتفاقية سايكس بيكو سنة ١٣٣٤هـ- ١٩١٦م، وهو أمر ساعد كثيرا على صدور وعد بلفور سنة ١٣٣٥هـ-١٩١٧م، فضلا عن دور بعض النصارى فى دعم هذا النشاط فى فلسطين منذ بدايته وبخاصة دور " الأخ الماسونى ". وليم أسعد خياط " الذى كان يعمل مترجما فى القنصلية الإنجليزية والذى رأس المحفل الفلسطيني سنة ١٣٠٠هـ- ١٨٨٤م، ولمدة أربعة سنوات (٦٩)، وتوالى بعد ذلك تأسيس المحافل فى بلاد الشام فتأسس محفل آخر فى بيروت تحت رعاية الشرق الأعظم الفرنسى سنة ١٢٨٥هـ-١٨٦٩م، وتبعه العديد من المحافل فى سوريا وفلسطين، وبلغ مجموع هذه المحافل سنة ١٣٤١هـ-١٩٣٣م، وبانتماءاتها المختلفة ثلاثون محفلا ضمت فى عضويتها خمسة عشر ألف ماسونى بخلاف المحافل الموجودة فى مصر التى كانت تعد المركز الرئيسى لهذه الحركة فى المنطقة بأكملها (٧٠) .

التحالف الماسونى الصليبى وراء فكرة القومية العربية

ترتبط بداية ظهور حركة القومية العربية بالفترة التى سيطرت فيها قوات " محمد على باشا " على بلاد الشام (١٢٤٥- ١٢٥٢هـ) (١٨٣٣- ١٨٤٠م)

حيث سمح للعديد من الإرساليات التبشيرية الفرنسية والأمريكية بالدخول بشكل واسع، وسمح كذلك ببناء العديد من الأديرة والكنائس وتزويدها بالمطابع دون غيرها من المدارس حيث حرصت الدول الأوروبية على حصرها في يد المسيحيين، وقامت بطبع الكتب وتوزيعها فى شتى أنحاء البلاد،ولهذا ارتبط ظهور هذه الحركة بدور بعض الكتاب من المسيحيين (٧١) .

واحتوت هذه الكتب والنشرات وغيرها على ما يدعو إلى إحياء التراث العربى السابق للإسلام ، وما يثير العناصر العربية على دولة الخلافة الإسلامية، وعلى الرغم من مساندة إبراهيم باشا لهذا الاتجاه بنفس قدر مساندته للعناصر المسيحية واليهودية المروجة له إلا أنه لم يكن يمثل اتجاه العرب المسلمين الذين ظلوا على ولائهم للنظام الإسلامي المتمثل فى دولة الخلافة (٧٢) وظلت هذه القلة من المسيحيين، وبرغم مساندة جيش محمد على والدول الأجنبية والمحافل الماسونية لها وامتلاكها لأسباب انتشارها فكانت لا تمثل إلا نفسها وقلة من الذين انضموا إليها .

ولم يكن أغلب هؤلاء المسيحيين من دعاة القومية مخلصين فى اتجاههم لإحياء الأمجاد العربية حيث كان هدفهم الأساسى، المرتبط بأهداف المحافل الماسونية والاستعمار الغربى، هو تمزيق دولة الخلافة الإسلامية، واستبدال حكم العثمانيين المسلمين بحكم دول أوروبية مسيحية، فقد رفعت مجموعة ذكرت أنها تمثل مسيحيي الشام عريضة إلى الملك لويس فيليب فى باريس سنة ١٢٥٩هـ ـ ١٨٤٤م، أكدوا فيه عبوديتهم له وأنهم يعتبرون أنفسهم من جملة رعاياه وأنه وحده الذى يملك تقرير مصيرهم بالشكل الذى يمكنهم من الخلاص من دائرة النفوذ العثمانى ويؤهلهم كيما يكونوا عبيدا طيعين لجلالة ملك فرنسا، ورفعت عريضة أخرى إلى رابطة نساء فرنسا بالجامعة الدينية التى تجمعهن بمسيحيي الشرق، وأن الجميع يدينون بدين واحد وينتمون إلى كنيسة واحدة ويخضعون لرئيس روحى واحد، وذكروا فيها التاريخ المشترك للمنتمين الفرنسيين مع أبناء دينهم مسيحيي الشرق خلال الحروب الصليبية مما أدى إلى تخالط الدماء والأنساب بين أبناء الديانة الواحدة (٧٣) .

ومن دعاة القومية النصارى نصيف اليازجي ١٢١٤ـ ١٢٨٧هـ/ ١٨٠٠ـ ١٨٧١م، ولد فى لبنان وتعلم فى الأديرة . بدأ حياته بالعمل كسكرتير لأحد رجال الدين، ثم اتصل بالإرسالية التبشيرية الأمريكية ـ التى وظفته ـ لتستعين به فى

وضع كتب باللغة العربية توزع على المدارس بعد طباعتها وتخدم هدف هذه المدارس فى إثارة الاتجاه القومى العربى من جهة وبقصد تدعيم نفوذهم فى المنطقة من جهة أخرى (٧٤)، وقد أمدته هذه الأديرة بالعديد من المخطوطات المحفوظة لديها والمتعلقة بقضايا ثقافية وأدبية فى العصر الجاهلى، وقد استعان اليازجى بها وبغيرها فى سبيل تحقيق هدفه وهو ما يطلق عليه البعض - إحياء روح العروبة - وبالطبع فإنه من السذاجة أن ينساق كتاب التاريخ إلى حد تتبع نشأة هذا التيار من خلال عناصر مأجورة تعلمت فى مدارس لا تخدم أهداف شعوب المنطقة مثل اليازجى، وهذه العناصر لا تمثل إتجاه الأغلبية المسلمة أو حتى العربية ولا تنتمى إلى هذه الأغلبية كذلك، ووصل حد السذاجة ببعض هؤلاء الكتبة للتاريخ إلى اعتبار اليازجى - رسولا يبشر ببعث ذلك الأدب " (٧٥) .

وفى نفس الفترة – تقريبا – ظهرت شخصية مماثلة لليازجى فى أسلوب التعليم والتكوين والهدف وهي شخصية- بطرس البستانى" (١٢٣٤هـ – ١٣٠٠هـ ١٨١٩ – ١٨٨٣م)، فهو مسيحى لبنانى تعلم فى مدرسة - عين ورقة - القائمة على نظام الأديرة، وقد اختاره الرهبان ليدرس على نفقتهم فى الكلية المارونية فى روما، لكنه لم يسافر إلى روما مفضلا التعلم فى بيروت بعد أن توثقت صلته بالإرسالية الأمريكية فيها، ووظفته كما وظفت اليازجى قبله فى علم اللغة العربية فى مدارسها، وتأليف الكتب المدرسية (٧٦) .

ومع أن البستانى قد أسهم بإضافة معجم للغة العربية استغرق منه وقتا وجهدا كبيرين، وصدر سنة ١٢٨٦هـ–١٨٧٠م باسم - محيط المحيط- ، وكذلك قام بتصنيف ستة أجزاء من دائرة معارف عربية، إلا أن هذه الأعمال – رغم فائدتها الواضحة – كانت تدور فى محيط هدفه وهو إثارة النعرة القومية العربية بغية الخلاص من الإطار الإسلامي الذي كانت تمثله فى ذلك الوقت الدولة العثمانية، وهو اتجاه حظي فى عمومه بتأييد بعض المفكرين فى العالم العربى.

وعلى الرغم من التنافس الظاهري بين الإرساليات التبشيرية الأمريكية البروتستنتية والإرساليات الفرنسية الكاثوليكية والذى كان القصد منه هو توسيع دائرة نفوذهم، إلا أنهم التقوا على هدف واحد رأوا فيه الوسيلة لتحقيق هذه الأهداف وهو إثارة الروح القومية العرقية من خلال إحياء الثقافة العربية، فسعى كل فريق من الفريقين لتأسيس الجمعيات التى تتولى هذا الدور، وتأسست أولى هذه الجمعيات سنة ١٢٦٣هـ–١٨٤٧م، بناء على اقتراح تقدم به كل من

اليازجى والبستانى إلى الإرسالية الأمريكية، وأطلق عليها إسم " جمعيـــة الآداب والعلوم " (٧٧) .

ولم تنجح هذه الجمعية فى أن تضم إليها عضوا واحدا من المســلمين. واقتصر أعضاؤها علي مجموعة من النصارى الشوام إلـــى جـانب اليـازجى والبستانى، وكان رئيسها هو الدكتو " فان ديك " رئيس مبشرى الأمريكان، كما ضمت لعضويتها الكولونيل ونستون تشرشل الإنجليزى الذى أصبح من رجـــال السياسة المشهورين بعد ذلك والذى كان موجودا فى بيروت (٧٨) .

ولا يرجع عزوف العناصر الإسلامية عن الاشتراك فيها إلى كون أغلـب أعضائها من المبشرين فقط بل لأنها قد ركزت فى نشاطها على مـــا اعتـبره المسلمون استفزازا وإثارة ليس فقط لتقاليدهم الاجتماعية المستمدة من الديـــن الإسلامى نفسه، فقد اشتملت مجموعة الخطب والمقالات التى تظهر نشاط هـذه الجمعية على تعليم النساء الموسيقى إلى جانب الزراعة والطب (٧٩)، وحـــث المرأة على السفور وغير ذلك من الأمور التى تستفز استقرار الأســرة وهـز البنيان الاجتماعى.

وعلى غرار هذه الجمعية أقام المبشرون الفرنسيون(اليسوعيون) جمعية أخرى سنة ١٢٦٦هـ ١٨٥٠م، هى " الجمعية الشرقية " ضمت مجموعة مـن نصارى الشـام إلى جانب مجموعــة من المبشرين الفرنسيين والأجانب، ولـم يشترك فيها هى الأخرى أى من الأعضاء المسلمين (٨٠) .

وكان من الطبيعى أن ينتهى دور هاتين الجمعيتين وذلك لأن الأهـــداف التى قامتا من أجلها ليس القصد منها أن يعرفها النصارى ولكن الهدف هو إثارة النعرة القومية لدى المسلمين إلى جانب الأهداف الاجتماعية التى كان الـــهدف منها هو اهتزاز القواعد الإسلامية التى يقوم عليها البناء الأسرى وغير ذلك من أهداف، ولهذا تركز نشاط المبشرين واليهود وأعضاء المحافل الماسونية علـــى ضرورة تحقيق هذه الأهداف من خلال جمعية تضم عناصر إســلامية، وتنشـر أفكارها بين المسلمين فظهرت " الجمعية العلمية السورية " سـنة ١٢٧٣هـــ ١٨٧٥م، وكان أغلب أعضائها من أعضاء المحافل الماسونية، وركزوا هدفـهم على إثارة النعرة القومية العربية الذى كان هو الهدف الرئيسى للجمعيات السابقة التى أقامها المبشرون، ولهذا فحينما اشترط مؤسسوا الجمعية الجديدة ألا يدخلها مبشرون وافق المبشرون على ذلك فى نفس الوقت الذى قدمـــوا فيــه كـل

التسهيلات والمعونات للجمعية، وإن كانت قد ضمت عناصر من كل الطوائف كان من بينهم من هم أوثق صلة بمدارس التبشير كإبراهيم اليازجي ابن ناصيف اليازجي الذى ألقى قصيدة فى افتتاحها السرى دعا فيها العناصر العربية للتمود على الأتراك، وتغنى بأمجاد العرب فى نفس الوقت الذى ندد فيه بالترك واتهمهم بالظلم (٨١) .

مسئولية النصارى والدول الأوروبية عن أحداث ١٢٧٦هـ ١٨٦٠م فى الشام

لاشك أن نشاط هذه الجمعيات، إلى جانب التنظيمات الحكومية التى صدرت فى الشام منذ عصر إبراهيم باشا، ومساندة الدول الأجنبية التى ساعدت على قصر أغلب جوانب الرواج الاقتصادي على النصارى دون غالبية المسلمين،كل هذه العوامل قد أسهمت فى أن يصبح للنصارى وضع متميز على المسلمين. وأدت هذه الأوضاع إلى تطاول أغلب النصارى على كثير من المسلمين الذين لم يعتادوا على ذلك ولدرجة وصفها أحد الكتاب النصارى فذكر أن الأمر زاد عقولهم تصلبا وصاروا يتباهون به وظنوا أنهم قبضوا على مفاتيح السماء (٨٢)، وفى نفس الوقت ظلت بعض الطوائف الدينية المسيحية تتجه إلى الدول الأوروبية لحمايتها وتأييد وضعها شبه المستقل.

وكانت هذه الأوضاع مقدمة طبيعية لمذابح سنة ١٢٧٦هـ-١٨٦٠م، بين المسيحيين والمسلمين، وقد زادت اشتعالا بفعل تدخلات الدول الأوروبية وتدبيرها حيث وقف الفرنسيون وراء الموارنة فى حين وقف الإنجليز وراء الدروز، فكان لذلك أثر بالغ فى التهيئة لاحتدام الموقف بين الجانبين (٨٣) وإذا كان هناك دور للتنظيمات العثمانية فى هذه الأحداث فينبغي أن يكون واضحا أن التنظيمات الجديدة التى صدرت فى الدولة العثمانية فى هذه الفترة ـ كما سبق التوضيح ـ كانت بفعل الاتجاهات الماسونية ودور الدول الأوروبية، وأن ما تضمنته من السعى لتطبيق المساواة على أسس علمانية لم يكن من السهل تقبلها والانصياع لها فور صدورها لكونها لم تسلك سبيل التدرج على أن ذلك لا يعنى أن التنظيمات العثمانية السابقة عليها والتى كانت مستمدة من الأحكام والمفاهيم الإسلامية لم تكن تطبق المساواة بل كانت تراعى حقوق الأقليات ومساواتهم بالمسلمين فى حدود ما يقره الإطار الحضاري الإسلامي، وارتضاها جميع رعايا الدول بكل طوائفهم، ولم تظهر أية مظاهر للتمرد عليها إلا بفعل الدور الذى

قامت به الدول الأجنبية التى طالما سعت لإثارة العوامل الطائفية بغية أن توجد مبررا لتدخلها ثم لتوسيع دائرة نفوذها وتحقيق مصالحها الاقتصادية والسياسية .

ولم يكن من السهل على العناصر الإسلامية في الشام والتى تعرضت للكثير من الضغوط منذ حكم إبراهيم باشا أن تقبل هذه الأوضاع التى تتطور فى غير صالحها من كافة الجوانب، تنظيمات وقوانين تصدر لتعلى من شأن المسيحيين. ومساندة واضحة من قبل الدول الأجنبية التى ازداد نفوذها فى البلاد، ورواج اقتصادي أدى إلى اتساع دائرة الطبقة البورجوازية التي أصبحت فى أغلبها من الطوائف المسيحية،ومساندة فرنسية للفلاحين المارونيين لإثارتهم ضد الإقطاعيين الدروز، وإعلان صريح بالعداء للديانة الإسلامية، ويسوق بعض الكتاب ما يؤكد هذا فيما حدث من نصارى زحلة، وهى قرية قريبة من دمشق تسكنها أغلبية نصرانية . فيذكر أن النصارى فيها كانوا يسبون النبى محمدا صلى الله عليه وسلم جهرا، ويجبرون الراكبين من المسلمين أن يترجلوا إذا ما دخلوا زحلة، وساند الفرنسيون التجار النصارى كى ينافسوا التجار المسلمين (٨٥)، ولهذا كانت هذه البلدة مستهدفة من قبل المسلمين والدروز إبان أحداث سنة ١٢٧٦هـ ـ ١٨٦٠م.

وعلى الرغم من كل هذا الاستفزاز المستمر من المسيحيين للمسلمين إلا أن الأسباب المباشرة لأحداث سنة ١٢٧٦هـ ـ ١٨٦٠م كانت من العناصر المسيحية، فقد قامت عناصر منهم من قرية " بيت مرى " سنة ١٢٧٥هـ ـ ١٨٥٩م، بالهجوم على مسلمي القرية والاعتداء عليهم وطردهم من القرية، وحاولوا حث المسيحيين فى القرى الأخرى على أن يقوموا بأعمال مماثلة (٨٦)، ونتج عن هذا الحادث سريان روح عدائية لدى المسلمين وتحفز وهيبة من العناصر النصرانية التى انتظرت رد فعل الدروز على هذه الأحداث . وفى مايو ١٢٧٦هـ ـ ١٨٦٠م، قامت مجموعة من نصارى زحلة بمهاجمة قرية درزية هى قرية - عيد دارا - فتصدى لهم أهلها من الدروز وردوهم على أعقابهم، وتشجع الدروز وقاموا بمهاجمة العديد من القرى التى يسكنها نصارى وحدثت العديد من المذابح بين الطرفين التى تحمل فيها النصارى النصيب الأكبر (٨٧)، وهو أمر جعل بعض المؤرخين ينظرون إلى نتائج الأحداث وليس إلى أسبابها

ودوافعها، فأدانوا المسلمين والتنظيمات العثمانية وليلصقوا بتاريخ المسلمين والعثمانيين ما ليس صحيحا ولا يستند إلى دليل.

وعلى أية حال فقد وجدت الدول الأوروبية في هذه الأحداث مسوغا لتدخلها فى شئون بلاد الشام ومنحوا جبال لبنان نظاما للحكم يضمن تسيد العناصر المسيحية على حساب الأغلبية المسلمة (٨٨) .

التحالف النصراني اليهودي وقيام الجمعيات الماسونية في الشام :

عاود مسيحيوا الشام نشاطهم بعد أن ساندهم التدخل الفرنسى الذى جاء فى أعقاب أحداث الصراع الطائفى، فعادت الجمعية العلمية السورية لتزاول نشاطها من جديد فى الدعوة إلى القومية وتهاجم استمرار الارتباط بدولة الخلافة الإسلامية. وتكونت جمعيات أخرى فى بيروت ودمشق ذات هدف دينى غايتها نشر المبادئ المسيحية،إلى جانب جمعيات عديدة تدرب المدرسين على الخطابة حتى يمكن توظيفهم لأهداف الدعوة إلى القومية فى كل ربوع الشام(٨٩) .

ولعل أخطر هذه الجمعيات جميعا جمعية بيروت السرية التى أسسها خمسة من خريجى الكلية البروتستانتية سنة١٢٩١هـ١٨٧٥(٩٠)، فقد اتجهت إلى تحويل دورها إلى النشاط فى الدعوة إلى القومية ومناهضة فكرة الجامعة الإسلامية(٩١)، وقد استطاعت هذه الجمعية أن تضم اثنين وعشرين عضوا من الطوائف المختلفة، وكذلك ضمت عددا من اليهود، وكان من بينهم يعقوب صروف وإبراهيم اليازجى وفارس نمر وإبراهيم الحورانى وشاهين مكاريوس وإلياس حبالين، وأعلنوا انضمامهم جميعا إلى الجمعية الماسونية حيث رأوا أن فى ذلك كل الخير لقضيتهم (٩٢) .

وقد دأبت هذه الجمعية على توزيع المنشورات السرية الداعية إلى الثورة على العثمانيين وإقامة نظام ذاتى لسوريا ولبنان وفصلهما . ولم تقتصر منشوراتها على الدعوة للانفصال عن دولة الخلافة فقط بل إنها أعربت عن عدم رغبتها فى أن تقوم أية حكومة إسلامية، وفضلت صراحة الخضوع لحكم دولة مسيحية أجنبية، فاقترح المارونيون فرنسا فى حين اقترح البروتستانت بريطانيا أو أمريكا (٩٣) .

ومن الأمور التى أسهمت فى دعم هذا التيار القومى الماسونى دور مدحت باشا الذى عينه السلطان عبد الحميد واليا على سوريا سنة ١٢٩٤هـ ١٨٧٨م،

فعلى الرغم من الجهود التى قام بها فى سبيل الإصلاح والتحديث فى العراق ثـم فى سوريا إلا أنه قد سار فى سبيل تعميق الشعور القومى المعادى لفكرة الجامعة الإسلامية بغية أن يستقل بالشام كما فعل محمد على في مصر، كما ســـار فـــى طريق تحقيق الهدف المنشود للجمعيات المسيحية والماسونية وهـــو التخطيـط لتقسيم الدولة العثمانية (٩٤)، واستبدال القوانين المســتمدة مــن الشــريعة الإسلامية بأخرى غربية، ويعتبر الدستور الذي أصدره سنة ١٢٩٢هـ ١٨٧٦م، فى بداية عهد السلطان عبد الحميد من أهم الخطوات التى ترجمت الخطوات إلى علمنة الدولة العثمانية وتمزيق ولاياتها .وقد استعان فى تنفيذ أهدافه بمجموعة من المسلمين الشوام ممن استطاع أن يضمهم إلى المحافل الماسونية كى ينفــذ من خلالهم إلى داخل البلاد بعيدا عن عنصر الإثارة الذى كان يواجه العنـــاصر النصرانية، فأنشأ جمعية المقاصد الخيرية بناء على اقتراح من الشـيخ طــاهر الجزائرى الذى كان يريد إحياء العلوم الإسلامية مع الاستفادة من علوم الغرب. وحين ساند السلطان عبد الحميد رجال هذه المدرسة من المسلمين وكون منـــهم مجلسا للمعارف، وزاول بعضهم نشاطا يتسم بالترويج للثقافة الإسلامية، داهمها ــ بعد ذلك ــ أعضـــاء جمعية الاتحاد والترقى الماسونية وأنهوا ذلــك النشـــاط (٩٥).

الهـــوامـــش

(١) حول تعريف الماسونية ونشأتها وفقا لما ورد فى الموسوعات المعرفية المختلفـة أنظر : أبو إسلام أحمد عبد الله : الطابور الخامس فى الشـرق الإسـلامى ـ الماسونية الجديدة ـ القاهرة، سنة ١٩٩١م، ص ١٧ وما بعدها، وتعرف فـى دائرة المعارف البريطانية بأنها " التعاليم والممارسات الخاصة بالطريقة الأخوية السرية للبنائين الأحرار والمقبولين من غير البنائين، وهى أكبر جمعية سرية فى العالم، انتشرت بفعل تقدم الإمبراطورية البريطانية .. وأن المحفل الأكبر تأسـس ١٧١٧م، د. على شلش : اليهود والماسونية فى مصر ـ الزهراء للإعـلام ص ١٩٤.

(٢) لمزيد من التفاصيل أنظر : جواد رفعت أتلخان (الجنرال)، ت : نور الدين رضـا الواعظ، سليمان محمد أمين القابلى :أسرار الماسونية ب. ت ص٠٧، محمد عبد الله عنان : تاريخ الجمعيات السرية والحركات الهدامة ـ مطبعة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة، ط٢ سنة ١٩٥٤، ص (٨٨) وما بعدها، حسين عمر حمادة: الماسونية والماسونيون فى الوطن العربى، دار قتيبة ـ دمشق ـ ب، ت، ص١٥، نجدة فتحى صفوة : الماسونية فى الوطن العربى، مركز الدراسات العربية ـ لندن سنة ١٩٨٠م ص ٧ وما بعدها، ويرى الأخير ـ نقلا عن دائرة المعارف البريطانية أن هذه الجمعيات سرية فقط باحتوائها على طقوس وأسرار لا تفشى لغير الأعضاء الذين يقسمون لدى انتمائهم إلى الجمعية على كتمانها والحرص على عدم إفشائها، ولكن محافلها تؤسس بموافقة السلطات الحكومية، فى البلاد التى تفتـح فيـها، وأماكن اجتماعها تكون معروفة عادة. والهيئات التى تديرها تنشـر إجراءاتـها سنويا. وأعضاء هذه الجمعيات ـ وبخاصة فى الولايـات المتحـدة الأمريكيـة ـ معروفون يجهرون بعضويتهم فيها ولا يخفونها ولذلك لا يمكن وصفها بأنها جمعيات سرية، والأدق أن يقال أنها جمعية ذات أسرار . وحول مزيد من التفاصيل أنظر "جورجى زيدان : تاريخ الماسونية العام، شاهين مكاريوس : الأسرار الخفية فى الجمعية الماسونية، د.صابر طعيمة : الماسونية ذلك العالم المجهول ـ دراسة فى الأسرار التنظيمية لليهودية العالمية ... ويرى البعض أن الماسونية لم تبرز إلى حيز العمل إلا عام (١٧١٧م) عند تأسيس أول محفل فى إنجلترا، ثم أسس أول محفل فى باريس سنة (١٧٣٢)، وفى ألمانيا سنة ١٧٣٣، و فى البرتغال سـنة ١٧٣٥،

وفى هولندا (١٧٤٥) وفى سويسرا سنة ١٧٤٠، وفى إيطاليا سنة ١٧٦٣، وفى بلجيكا سنة ١٧٦٥، وفى روسيا سنة ١٧٧١، وفى السويد سنة ١٧٧٣م، وفى الهند سنة ١٧٧٣، وفى أمريكا أسس أول محفل فى نيويورك وبعض المدن الأمريكية. أنظر : سعيد عبد الله حارب .. أضواء على الماسونية ـ مكتبة الأمة ـ دبى ـ الإمارات ـ ط١، سنة ١٩٨٥، ص ٢٧-٢٩. ، وعرف البعض المحفل الأكبر بأنه الرابطة التى تجمع جميع المحافل فى انجلترا ثم انتقلت فكرته إلى البلدان الأخرى .د على شلش : المرجع السابق ص ١٩٤.

(٣) جواد رفعت أتلخان : المرجع السابق، ص (٢٣،٢٢) ويراعى تركيز هذه المحافل على التأثير الاقتصادى فى نشاطها الخفى والعلنى والذى من خلاله استطاعت التأثير على كافة الأبعاد السياسية والاجتماعية والفكرية بل وحتى الدينية.

(٤) المرجع السابق، ص ٢٤ . وانظر بشكل عام حول هذه القضية : ـ

ALEXANDER HOORME : KING SOLOMANS TEMPLE IN THE TRADTION,LONDON 1972 BROTHER HOOD–THE SECRET WORLD OF THE FREEMASONS. LONDON .

وعن أبعاد الصلة بين هذه الحركة وبين الحركة الصهيونية ووقوعها فى قبضة اليهود وتنفيذها لأهدافهم هناك عدد كثير من الأبحاث والدراسات منها : د. صاب طعيمة : المرجع السابق، حسين عمر حمادة : المرجع السابق، نجدة صفوة : المرجع السابق، وقد أشار أحد أعضاء هذه الجماعة بعد خروجه منها وهو ـ الدكتور أحمد غلوش الذى اشتهر فى مصر فى الثلاثينات والأربعينيات من هذا القرن أن هذه الحركة والصهيونية صنوان كلاهما شىء واحد ويكمل أحدهما الآخر، وأنها تهدف إلى أحد الأغراض وأن وجودها ينذر بخطر جسيم، وله كتاب بعنوان : الجمعية الماسونية حقائقها وخفاياها . ويذكر أحد الكتاب ما جاء فى النشوة اليهودية الماسونية الأوربية الصادرة سنة ١٣٢٧هـ/ ١٩١٠م بنيويورك ما معناه " أن الماسونية الأوربية تشيد بناءها حيث يعيش إله إسرائيل إلى الأبد " ويقول الحاخام الدكتور إسحاق وايز فى مجلة (THE ISRAELISE AMERICA) وفى عددها الصادر فى ٣ أغسطس سنة ١٢٨٢هـ/ ١٨٦٦م ما معناه ": الماسونية مؤسسة يهودية فى تاريخها ودرجاتها وتعاليمها وكلمات السر فيها وإيضاحاتها ـــ يهودية من البداية إلى النهاية . " وعن مزيد من التفاصيل أنظر : سعيد عبد الله حارب : أضواء على الحركة الماسونية ـ مكتبة الأمة ـ دبى ـ الإمارات ـ ط١ (١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م)، ص (١٠) وما بعدها، وجاء فى البروتوكول الرابع من بروتوكولات حكماء صهيون " أن المحفل الماسوني المنتشر في كل أنحاء العالم ليعمل فى غفلة كقناع لأغراضنا . ولكن الفائدة التى نحن دائبون على تحقيقها من هذه القوة فى خطة عملنا وفى مركز

قيادتها ما تزال على الدوام غير معروفة للعالم كثيرا، محمد خليفة التونسى : بروتوكولات حكماء صهيون ــ الخطر اليهودى ــ دار الكتاب العربى ــ ط٧ (١٤٠٤هـ ــ ١٩٨٤م)، ص(١١٩)، (١٢٠) د .عبد الصبور مرزوق : الغزو الفكرى ــ أهدافه ووسائله ط٣ ــ مكة المكرمة ١٣٩٤هـ (١٩٧٤م)، ص ٩٦ وما بعدها.

(٥) المرجع السابق، ص ٢٤ لا تتمسك المحافل الماسونية الأمريكية بالاعتقاد بوجود الله وبالكتاب المقدس وعدم دخول السياسة فى المحفل أو عدم التمييز الديني أو المذهبي وينتمي العديد من رؤساء الجمهورية في أمريكا إلى هذه المحافل من أول جورج واشنطن وكان الرئيس جون كنيدى هو أول رئيس كاثوليكي لا ينتمي إليها بحكم تحريم الكنيسة الكاثوليكية لها، ولكنه لم يستطع أن يتخذ شيئا ضدها فى ظل الدستور الأمريكي، أما الدول الشيوعية والاشتراكية فلا تسمح قوانينها بتأسيس هذه المحافل، أنظر : نجدة فتحى صفوة: المرجع السابق، ص١٨، ١٩ على أن يراعى أن أغلب المفكرين الاشتراكيين والزعماء الشيوعيين من اليهود ، كما أن البعض يشير إلى انتشارها فى بولندا فى القرن التاسع عشر، كما ظهروا فى روسيا فى فترة سابقة. د . على شلش المرجع السابق ص ١٩٥.

(٦) جواد رفعت أتلخان : المرجع السابق، ص٢٦، نقلا عن bulten masonik 1899. p. 67

(٧) مؤتمر المحافل الماسونية سنة ١٨٨٤ نقلا عن المرجع السابق، جواد أتلخان، ص ٢٦.

(٨) المرجع السابق، ص ٢٧

(٩) المرجع السابق، ص ٢٧.

(١٠) يلاحظ أن هذه الأساليب قد ازداد اتساعها وتأثيرها فى أغلب بلاد العالم، وهذا يوحى باتساع انتشار وتأثير الحركة الماسونية وما تفرع عنها مثل جمعيات الليونز ونوادى الروتارى، وقد سيطرت على وسائل التأثير الإعلامى الأكثر تطورا والأكثر تأثيرا مثل السينما والتليفزيون والمجلات والصحف والفيديو وأشرطته وكلها أسهمت فى تلويث ثقافة الشعوب وابتعادها عن الحقيقة ووقوفها فى دوائر الغفلة، محمد خليفة التونسى: بروتوكولات حكماء صهيون . ونشير الي تشكيك البعض في صحة هذه البروتوكولات.

(١١) المرجع السابق، ص ٢٩، نقلا عن مجلة أكاسيا الماسونية الإيطالية سنة ١٩٠٤، ص٢٥٦. وفى مضابط مؤتمر بلجراد الماسونى سنة ١٣٢٨هـ/ ١٩١١م إعلان بعدائهم للأديان وسعيهم للقضاء على مظاهرها، وفى تعميم للمشرق الأعظم سنة ١٣٢٠هـ/ ١٩١٣م، أشار إلى ضرورة تنشئة أخلاق تضاهى الأخلاق الدينية فى قوتها، وتوضح مضابط المؤتمر الماسونى العالمى سنة ١٣١٧هـ/ ١٩٠٠، ص ١٠٢ إلى ضرورة إبادة الدين من الوجود ،وتوضح مجلة أكاسيا الماسونية الإيطالية سنة ١٩٠٢٣ إلى أن النضال ضد الأديان

لا يبلغ نهايته إلا بعد فصل الدين عن الدولة ولنا بعد ذلك أن تقوم أهدافها ونظرتنا إلى المنتمين إليها فى مشرقنا الإسلامى.

(١٢) المرجع السابق، ص ٤٣، وما بعدها، ويوضح الأعداد الهائلة من اليهود التى تسيطر على كافة أجهزة هيئة الأمم المتحدة، وبشكل عام تشير بعض التصريحات الصادرة عن جمعيتين يهوديتين بأن غاية الماسونية قد انبثقت من اليهودية، وأن أكثر عادات الماسونيين من معبد سليمان، كما أن أكثر الإشارات والرموز عبرانية . وانظر أي؟! : حسين عمر حمادة: المرجع السابق، ص ٥٧.، محمود عبد المنعم مراد : العالم المجهول وحكومته الخفية ــ جريدة الوفد المصرية، ١٩٩١/٨/١م. وعن نموذج ارتباط هذه المحافل بالعصابات الإجرامية التى تعينها على تحقيق أهدافها كعصابات المافيا فى إيطاليا أنظر : الأهرام المصرية) جريدة (فى ١٩٩٢/١١/٢٣ص٥ . وقد أشار التحقيق إلى إنجاز أعضائها فى المخدرات وتوريد السلاح إلى منطقة الشرق الأوسط وبالطبع بقصد الثراء الذى يوجد القدرة على تحقيق الأغراض بشكل عام والأهداف اليهودية لإسرائيل بشكل خاص.

(١٣) برنارد لويس : الغرب والشرق الأوسط ص ٦٩.

(١٤) د .أحمد عبد الرحيم : فى أصول التاريخ العثمانى ص ١٧٤

(١٥) د .أحمد عبد الرحيم : المرجع السابق ص ١٧٥، ١٧٦.

(١٦) برنارد لويس : المرجع السابق ص ٥٧.

(١٧) د .أحمد عبد الرحيم : المرجع السابق ص ١٩٩ . ولا نتفق مع ماذكره الدكتور عبد العزيز الشناوى فى اعتباره هذا الدستور دليلا على عالمية الدولة العثمانية حيث أن فترات التزامها بالشريعة الإسلامية تعبر عن هذا الاتجاه أكثر مما يعبر عنها هذا الدستور . د . عبد العزيز الشناوى : الدولة العثمانية جـ ١ ص ٩٦.

(١٨) د .أحمد عبد الرحيم : المرجع السابق ص ٢٠٠.

(١٩) نقلا عن د .أحمد عبد الرحيم : المرجع السابق ص ٢٠١. ،
Pears : Life Of Abdul Hamid , P . 2 .

(٢٠) د .عبد العزيز الشناوى : الدولة العثمانية جـ١ ص ٩٧.

(٢١) برنارد لويس : المرجع السابق ص ١٢٧ : وظهر فى عصر السلطان سليم الثالث من هذه العناصر " باسبان أوغلى " النمساوى الأصل الذى اعتنق الإسلام وسمى باسم عثمان باشا، وقاد حركة تحرر فى البلقان ضد دولة الخلافة، ولم يكن ملتزما بما ينسبه إلى الإسلام، وانتهت حركته بموته ١٨٠٧م، وكذلك " إنجليز مصطفى " وهو مسيحى إنجليزى دخل الإسلام وقام بتدريب الجيش. د . الشناوى جـ١ ص ٥٢٢.

(٢٢) أبو الفدا : محمد عزت محمد عرف : نهاية اليهود ص ١٣١.

(٢٣) د .محمد أنيس : المرجع السابق ص ٢٤٨ . د. عمر عبد العزيز : المرجع السابق ص 286.

(٢٤) جورج أنطونيوس : يقظة العرب ص ١٧٦.

(٢٥) د . محمد على الزغبى : الماسونية فى العراء ص ٢١٩ . محمد صفوت السقا وسعدى أبو حبيب : الماسونية ص ١٥٨.

(٢٦) د . محمد على الزغبى : المرجع السابق ص ٣١٩ : د .أحمد عبد الرحيم مصطفى: المرجع السابق ص ٢٦٣ حيث يذكر أن يهود الدونمة هم من أبناء اليهود من أتباع المسيح الدجال شبتاى (١٦٣٢ــ ١٦٧٥م) الذين تحولوا معه إلى الإسلام سنة ١٦٦٦م حين أرغمه السلطان على إعلان زيف ادعاءاته بأنه المسيح وقد حافظوا طويلا على شخصيتهم باعتبارهم جماعة متميزة، فكانوا لا يتزاوجون مع المسلمين أو مع اليهود كما مارسوا سوا بعض الطقوس اليهودية.

(٢٧) د .محمد الزغبى : المرجع السابق ص ٢١٩.

(٢٨) د .عمر عبد العزيز : المرجع السابق ص ٢٨٦.

(٢٩) جورج أنطونيوس : المرجع السابق ص ١٧٦.

(٣٠) د . عمر عبد العزيز : المرجع السابق ص ٢٨٦.

(٣١) د .عمر عبد العزيز : المرجع السابق ص ٢٨٦، جورج أنطونيوس : المرجع السابق ص ١٧٦وغيرهما من المؤرخين.

(٣٢) د.أحمد عبد الرحيم مصطفى : فى أصول التاريخ العثمانى، ص٢٢٧، والكاربونارى أسلوب من أساليب الحركة الماسونية.

(٣٣) المرجع السابق ص ٢٢٦.

(٣٤) حسين عمر حمادة : المرجع السابق ص ١٠٦، ١٠٨، د . محمد أنيس : المرجع السابق ص ٢٤٨ وقد وصف السلطان عبد العزيز بالاستبداد.

(٣٥) F . O . 8001 , 193 . A .

نقلا عن : حسين عمر حمادة : المرجع السابق ص ١١٢، ١١٣.

(٣٦) د .أحمد عبد الرحيم : ص ٢٦٥ : د .محمد أنيس : الرجع السابق ٣٥٥.

(٣٧) محمد صفوت السقا وسعدى أبو حبيب : الماسونية ص ٢١٤.

(٣٨) حسين عمر حماده : الماسونية والماسونيين فى الوطن العربى ــ دار قتيبة ــ دمشق ــ ب ــ ت ص ٢١٥، مجلة المجتمع الكويتية : حقائق فى وثائق . النشاط الماسونى فى مصر. حلقة، فى ١٥ نوفمبر سنة ١٩٨٣ م العدد (٦٤٥) بقلم : العقيد محمد كامل إبراهيم. والماسونية منظمة سرية خفية لم تتضح هويتها أو تاريخها برغم كثرة الكتابات عنها . لكنها

تتخفى وراء أهداف تبدو نبيلة فى مقاصدها كدعوتهم للخير والمحبة والسلام والتعايش السلمى فى حرية وإخاء ومساواه تحت ظل حكومة عالمية موحدة بعيدة عن التعصب، وقد ظهرت حديثا فى أسماء متعددة كالروتارى والليونز وغيرها . ومن بين الذين ذكروا تاريخها أشاروا إلى أنها ترجع إلى الحكم البابلى . والمتفق عليه بين كل من تناولوها هو صلتها باليهودية كديانة ثم بالحركة الصهيونية، وبالتالى تحولت أغراضها إلى سياسة دون أن يكون ذلك أمرا معلنا . وقد ارتبط الفكر الماسونى بالفكر الليبرالى وبخاصة فى انجلترا، وبفكر الطبقة الوسطى فى مرحلة نشوء وتطور الرأسمالية،واهتمت المحافل الفرنسية منذ بدايتها بالأمور السياسية والدينية،وسلكت أسلوب العمل الخفى حتى تستطيع أن تسيطر على كافة الأمور .على أن اهتمامها بالنواحى الدينية ليس إيجابيا بل ترى أن كافة الأديان هى العدو الحقيقى للبشرية وأنه لابد من العمل على إبادتها . انظر د .عبد الصبور مرزوق: الغزو الفكرى . أهدافه ووسائله، ط ٣ رابطة العالم الإسلامى ص٩٢، ٩٣ (ب.ت)، أبو إسلام أحمد عبد الله : الماسونية فى المنطقة ٢٤٥، القاهرة سنة ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م ط٥ ص ٣١،٣٠ . وعن وجودها فى مصر يرى البعض أنها عرفت سنة ١٧٤٧م وأن الأجانب قد أسسوا محفلا فى الإسكندرية فى هذا التاريخ ولكن هذه الرواية ضعيفة. د .على شلش: المرجع السابق ص ٢١٠.

(٣٩) حسين عمر حمادة : المرجع السابق ص ٢١٦.، أبو الفدا " محمد عزت محمد عرف:" نهاية اليهود، جدة سنة ١٤١٠هـ ص ١٣٢.

(٤٠) د . إبراهيم العدوى : المرجع السابق ص ٨٣ . وحول الأسس والجوانب البراقة لهذه الحركة أنظر : أبو إسلام أحمد عبد الله : الروتارى ـ شرخ فى جدار . دار الإعتصام القاهرة سنة ١٩٨٨م ص ٣٧ - ٣٨.

(٤١) د صلاح العقاد : الجبرتى والفرنسيين . بحث ضمن مجموعة دراسات الجبرتى ص ٣١٣.

(٤٢) المرجع السابق.

(٤٣) تعجب الجبرتى من ادعائهم الإسلام ثم قيامهم بالعبث بالأماكن المقدسة أنظر: عجائب الآثار، جـ٣ أحداث سنة ١٣١٣ هـ جـ٣. ص ٢٦.

(٤٤) د صلاح العقاد : المرجع السابق ص ٣٢٠.

(٤٥) د .إبراهيم العدوى : المرجع السابق ص ٨٥.

(٤٦) الجبرتى : عجائب الآثار جـ٣ ص ١٦١.

(٤٧) عبد الجبار الزبيدى : الماسونية تحت الأضواء ـ بيروت سنة ١٩٨٨م ص ٣٣.

(٤٨) د .إبراهيم العدوى : المرجع السابق ص ٨٥.

(٤٩) د .صلاح العقاد : المرجع السابق ص ٣١٦.

(٥٠) د .جمال زكريا قاسم : المرجع السابق ص ٥٩.

(٥١) أصبح اسم " محمد على " رمزا من رموز الماسونية، وإسما لأحد محافل الإسكندرية وعن صلة محمد على باليهود أنظر : محمد على الزغبى : الماسونية فى العـــراء، مؤسســة الرسالة، بيروت سنة ١٩٨٨م ص ٣٠٠.

(٥٢) د .سليمان الغنام : المرجع السابق ص ٨٤.

(٥٣) حسين عمر حمادة : المرجع السابق ص ٢١٧.

(٥٤) حسين عمر حمادة : المرجع السابق ص ٢١٨.

(٥٥) المرجع السابق : ص ٢١٩، وقد انتشرت المحافل الماسونية فى بعض المدن الداخلية على يد الفرنسيين مثل بور سعيد والسويس والإسماعيلية.

(٥٦) نجدة فتحى صفوة : الماسونية فى الوطن العربى، ص ٢١.

(٥٧) حسين عمر حمادة : الماسونية والماسونيون فى الوطن العربى، ص ٢٢١.

(٥٨) دخل إسماعيل الماسونية فى ٢٩ /أبريل سنة ١٨٧٣م بعد سنوات من دعمه لـــها وســـعيه للإنضمام إليها، وساعده الإمبراطور الفرنسي نابليون الثالث، أنظر : حسين عمر حمـــادة : المرجع السابق، ص ٢٢١، نقلا عن شاهين مكاريوس : إسماعيل باشا، اللطائف ـــ جـــ٣، السنة ٨ فى ١٨٩٥/٣/١٥، ص ١٠١، ١٠٢، ويذكر البعض أن زولا قد مثل بيـــن يـــدي إسماعيل وقدم واجب العبودية وأعرب عن حسن مقاصد العشيرة الماسونية فذكر إســماعيل بعض الشروط وسمح له بعدها بمزاولة نشاطه . أنظر : د . على شلش : المرجع السابق ص ٢١٣.

(٥٩) حسين عمر حمادة : المرجع السابق، ص ٢٢١.

(٦٠) المرجع السابق : ص ٢٢٢.

(٦١) عبد المجيد يونس : المحفل الأكبر الوطنى المصرى، ص ٩، وتعرض حليم لمحاولة مـــوت من الماسون الطليان التابعين لإسماعيل سنة ١٢٨٥هــ/ ١٨٦٩م . أنظر د .على شلش : المرجع السابق ص ٢٢٣.

(٦٢) زكى إبراهيم : صوت الماسونية أو التقويم الماسونى العام لمحفل منف ص ١٦٦.

(٦٣) حسين عمر حمادة : المرجع السابق، ص ٢٢٢ .ويراعى أن عـــام ١٣١٦هـــ/ ١٨٩٩م الذى أنشىء فيه هذا المحفل هو نفس العام الذى وقعت فيه اتفاقية السودان بين انجلـــترا ومصر (الواقعة تحت احتلال انجلترا)وهى أمور تشير إلـــى الربـــط بيـــن المخططـــات الاستعمارية ونشاط المحافل الماسونية.

(٦٤) نوقان قرقوط : الماسونية العربية ــ محاولة أولية لتقديم صورة عن موقفها من الصهيونية فى فلسطين ــ مجلة قضايا عربية ــ العدد ٩ بيروت ــ يناير سنة ١٩٧٥م، ص ١٢.

(٦٥) حسين عمر حمادة : المرجع السابق ص ١٧٦.

(٦٦) المرجع السابق ص ١٠٣.

(٦٧) المنار : جـ١١، ١٢ ص ٨٣١ سنة ١٩٠٩، مقال بعنوان ": العرب والتراث. "

(٦٨) حسين عمر حمادة : المرجع السابق ص ٢٥٥.

(٦٩) حسين عمر حمادة : المرجع السابق ص ٢٥٥.

(٧٠) حسين عمر حمادة : المرجع السابق ص ١٨٤.

(٧١) جورج أنطونيوس : المرجع السابق ص ١٠٠، ١٠١، ١٠٥ :د محمد أنيس : المرجع السابق، ص ٢٦٦، ولا نتفق مع ما أورده البعض من أن إتباع الدعوة السلفية فى الجزيرة أو الشيخ محمد بن عبد الوهاب قد دعوا إلى هذه الفكرة ولم يرد ذكر هذا إلا عند مؤرخ فرنسى ثم ردده بعض الكتاب من أمثال صبحى وحيده فى كتابه : فى أصول المسألة المصرية،ط٢ ــ القاهرة ــ بت ــ، ص (١٩٠) .

(٧٢) برنارد لويس : المرجع السابق ص ١٣٢.

(٧٣) أحمد فهد الشوابكة : الجامعة الإسلامية ص ١٠٣.

(٧٤) د .محمد عبد الرحمن برج : دراسة في التاريخ العربى الحديث والمعاصر ص ٥٤.

(٧٥) د .عبد الرحيم عبد الرحمن : دراسات فى تاريخ العرب الحديث والمعاصر ص ١١٥.
وقد تبع فى هذا جورج أنطونيوس فى يقظة العرب ص ١١١ - ١١٢.

(٧٦) جورج أنطونيوس : المرجع السابق ص ١١٣ : د .عبد الرحيم عبد الرحمن : المرجع السابق ص ١١٥، ١١٦٦ . د . محمد عبد الرحمن برج : المرجع السابق ص ٨٢.

(٧٧) جورج أنطونيوس : المرجع السابق ص ١١٧ : د .محمد عبد الرحمن برج : المرجع السابق ص ٩١ : د .عبد الرحيم عبد الرحمن : المرجع السابق ص ١١٧.

(٧٨) د .محمد عبد الرحمن برج : المرجع السابق ص ٩٢ : جروج أنطونيوس : المرجع السابق ص ١١٧.

(٧٩) د .محمد عبد الرحمن برج : المرجع السابق ص ٩٢.

(٨٠) جورج أنطونيوس : المرجع السابق ص ١١٨ :د . محمد عبد الرحمن برج : المرجع السابق ص ٩٢ : د .عبد الرحيم عبد الرحمن : المرجع السابق ص ١١٨ .وقد ذكر أن مؤسس هذه الجمعية من اليسوعيين الأمريكان وهذا ليس صحيحا.

(٨١) د . محمد عبد الرحمن برج : المرجع السابق ص ٥٨، نقلا عن ميخائيل مشاقه.

(٨٤) جورج أنطونيوس : المرجع السابق ص ١٢٢.

(٨٥) د . محمد عبد الرحمن برج : المرجع السابق ص ٦٤.

(٨٦) المرجع السابق ص ٦٥ نقلا عن ميخائيل مشاقة.

(٨٧) المرجع السابق ص ٦٩ وما بعدها، وقد أدان جورج أنطونيوس الدروز المسلمين واتهمهم ببدأ الاعتداء ووصفهم بالمعتدين، يقظة العرب، ص ١٢٤ .

(٨٨) جورج أنطونيوس : المرجع السابق ص ١٢٦ . وعن دور الدول الأوروبية فى إثارة هذه الفتن ومساندة العناصر المسيحية ضد المسلمين أنظر الوثائق فى : د . عبد العزيز نوار: الوثائق السياسية ص ٤٢٩ وما بعدها.

(٨٩) د . محمد عبد الرحمن برج : المرجع السابق ص ٩٥.

(٩٠) د . محمد أنيس : المرجع السابق ص ٢٦٧.

(٩١) أحمد فهد بركات الشوابكة : فكرة الجامعة الإسلامية ص ١٠٣.

(٩٢) حسين عمر حماده : المرج السابق ص ١٧٦، ١٧٧ وقد انتقل بعض أعضاء هذه الجمعية إلى مصر ليقوموا بنشاط مماثل فى الدعوة إلى القومية والانفصال النهائى عن دولة الخلافة ومساعدتهم بريطانيا على ذلك بعد احتلالها مصر . وانضموا للمحفل الماسونى فيها، وقاموا بنشر بعض الصحف ومنهم فارس نمر ويعقوب صروف : جورج أنطونيوس : المرجع السابق ص ١٤٩.

(٩٣) أحمد فهد الشوابكة : المرجع السابق ص ١٠٣، حسين عمر حماده : المرجع السابق ص ١٧٧.

(٩٤) جورج أنطونيوس : المرجع السابق ص ١٥٣، وعندما كان مدحت واليا على الدانوب أمر بإضافة الصليب على العلم العثمانى ذى الهلال والنجمة ليصبح علما محليا، ورأى تد?يس اللغات القومية كالبلغارية فى مدارس الدولة الرسمية وقام بتعيين ولاة يهود ومسيحيين فى ولايات تسكنها أغلبية مسلمة، ولعب دورا مماثلا فى ولايته فى الشرق.

(٩٥) د . محمد عبد الرحمن برج : المرجع السابق ص ٨٦، ٨٧.

الفصــل الســابع

الهجــوم الاستعمـارى
علـى بقيـة الوطـن العـربى

- الاحتلال الفرنسي لتونس سنة ١٢٩٨هـ/ ١٨٨١م :

(البعد الصليبي الماسوني اليهودي لاحتلال فرنسا لتونس)

- الاحتلال الإنجليزي لمصر سنة ١٢٩٩هـ/ ١٨٨٢م .

(ثورة عرابي بين التآمر الماسوني الاستعماري والبعد الشعبي الإسلامي)

البعد الصليبي الماسوني لاحتلال فرنسا لتونس سنة ١٢٩٨هـ/ ١٨٨١م :

كانت تونس تمثل جزءاً من حركة الجهاد الإسلامى التى اتخذت من سواحل الجزائر مقراً لها منذ فتحها سنة ٩٨١هـ/ ١٥٧٤م، إلا أن حاميتها التى زاد عددها إلى أربعة آلاف قد دعتها إلى أن تطلب من السلطان العثمانى أن تكون نيابة مستقلة ٩٩٧هـ/ ١٥٩٠م، ووافق السلطان على ذلك .

وخلال القرن الحادى عشر الهجرى/السابع عشر الميلادى توالى ظهور بعض (الدايات) الضعاف الأمر الذى أدى إلى زيادة نفوذ (البايات) فى الأقاليم، واستطاع أحد هؤلاء البايات وهو " مراد بك " أن يخضع حكومة الداى فى العاصمة لنفوذه الشخصى فى منتصف ذلك القرن، وأن يورثه لأولاده فيما عرف بالأسرة المرادية التى ظلت تسيطر على الإدارة حتى أوائل القرن الثانى عشر الهجرى الثامن عشر الميلادى .

على أن الخلاف الذى دب بين أبناء هذه الأسرة واستعانة بعضهم بدايات الجزائر قد أعاد نيابة تونس إلى دائرة نفوذ دايات الجزائر حتى تمكن أحد ضباط الإنكشارية وهو " حسين على" من السيطرة على زمام الأمور ووضع نظام أساسى لحكمه وحكم أسرته التى عرفت بالأسرة الحسينية سنة ١١١٦هـ/ ١٧٠٥م .

وتخللت هذه الفترة موجات من الصراع بين ولايتي الجزائر وتونس حيث سعى بعض دايات الجزائر ضم تونس إليهم أملاً فى توحيد صفوف الجهاد ضد الهجوم الصليبى الأوربى، لكن حكام الأسرة الحسينية أبدو حرصاً على وجودهم باسم الحرص على الاستقلال وهو أمر كان يلقى دعماً من قبل السيطرة عليهم، وقد أسهمت هذه الأمور فى دخول تونس فى صراع القوى الأوربية من جهة والأوربية الإسلامية من جهة أخرى (١) .

ففى الوقت الذى وقفت فيه ولاية الجزائر أمام القوى الأوروبية المعادية سعى حكام ولاية تونس للتقرب إلى هذه القوى لحمايتها وضمان استقلالها سواء من الجزائر أو من الدولة العثمانية فى بعض الأحيان وهو الأمر الذى دعا البعض لوصف الحسينيين بالتمرد على دولة الخلافة متأثرين بتوجيه الأوربيين وبخاصة الفرنسيين . كما أن هذه السياسة التى سلكها من قبل ذلك حكام تونس قد مهدت الطريق للقوى الأوربية وبخاصة فرنسا لاستخدام تونس فى تحقيق أهدافها حيث فرضت العديد من المعاهدات التى انتقصت من استقلالهم – أى حكام تونس – لصالح النفوذ الفرنسى شيئا فشيئا . وكانت أول هذه المعاهدات معاهدة عقدت

سنة ١٠٩٦هـ/ ١٦٨٥م، تضمنت امتيازات اقتصادية وقضائية لصالح الرعايا الفرنسيين، بل وتعهد حاكم تونس بالقبض على السفن المعادية لفرنسا وقفل الموانيء التونسية فى وجهها فى حالة حدوث حرب. وقد تم تعديل بنود هذه المعاهدة تعديلا محدودا فى عهد الحسينيين سنة ١١٣٩هـ/ ١٧٢٨م .

على أن بعض حكام الحسينيين قد أبدى عدم تقيده بهذه المعاهدات وحاول التقرب إلى دايات الجزائر والمشاركة فى حركة الجهاد بشكل أوسع من ذى قبل، وفى نفس الوقت أظهر جانب العداء للقوى الأوربية ولذلك فلم تكن التهديدات الأوربية التى أخذت شكلا دينيا صليبيا، والتى نتجت عن مؤتمر فيينا سنة ١٢٤٠هـ/١٨١٥ م، وما تبعه من مؤتمرات سيطرت عليها الروح الصليبية المعادية للمسلمين، قاصرة على حركة الجهاد في الجزائر وحدها بل شملت تونس كذلك حيث وجهت الحملة الإنجليزية الفرنسية، التى خرجت باسم أوربا المسيحية والمدعومة من البابوية، إنذارا إلى تونس تنفيذا لقرارات مؤتمر إكس لاشابل سنة ١٢٤٤هـ/ ١٨١٩م (٢) .

وفى الوقت الذى أبدى فيه دايات الجزائر رفضهم للتهديدات الإنجليزية الفرنسية وأعلنوا عزمهم على مواصلة الجهاد تخاذل بايات تونس وأعلنوا رضوخهم للمطالب الأوربية، ووصل الأمر إلى حد رفض الباى فى تونس استقبال وفد من الدعاة المجاهدين قبيل احتلال فرنسا للجزائر سنة ١٢٥٥هـ/١٨٣٠م فى حين استقبل مبعوث الحكومة الفرنسية (٣)، بل إن الباى أعطى وعدا للمبعوث الفرنسى بمساعدة الحملة الفرنسية على الجزائر يتمثل فى إرسال وفد إلى فرنسا للتهنئة بنجاح الحملة وانتصارها على الجزائريين قبل أن تتضح نتيجة الحملة بشكل حاسم، ولم يثر انتباهه أو حفيظته الطابع الصليبى لهذه الحملة، أو يراعى تعاطف الرأى العام في تونس مع إخوانهم المجاهدين، أو ينتبه لأطماع فرنسا فى تونس نفسها وهو ما كان يسهل إدراكه من شروط المعاهدات وتحركات الأسطول الفرنسى حول السواحل التونسية .

ويبدو من السياسة التى اتبعها " الباى حسين " سنة (١٢٤٩-١٢٦٠هـ) (١٨٢٤- ١٨٣٥م) والتى اتسمت بالعداء لتوجهات الرأى العام الإسلامى فى تونس أو خارجها، وارتمائه في أحضان الفرنسيين، أن هناك وجه شبه بينه وبين " محمد على " والى مصر. ولم تتوفر لدينا وثائق عن دور الحركة الماسونية فى تونس التى لاشك أنها كانت الدافع الأساسى وراء هذه السياسة . ولقد أدت هذه

السياسة إلى أن يبدى أحد المؤرخين الليبراليين وهـو الدكتـور صـلاح العقـاد استغرابه وحيرته فى تفسير موقف " الباى حسـين " وخلفـه " البـاى أحمـد " (١٢٦٢ـ ١٢٨٠هـ) (١٨٣٧ـ ١٨٥٥م) حيث نفى أن تكون هذه السياسة ترجع إلى العداء مع دايات الجزائر وبخاصة بعد توقيع معاهدة معهم بوساطة البـاب العالى العثمانى سنة ١٢٥٢هـ/ ١٨٢٧م، أو ترجع إلى خشـيتهم مـن سـيطرة الدولة العثمانية التى لم يكن لها سوى سيادة إسمية لم تسـع إلـى تغييرهـا، أو ترجع إلى بعد قومى " لعدم وجود فكرة قومية محلية تعـارض فكـرة التضـامن الدينى (٤) "، أو حتى ترجع إلى الرغبة فى الاحتماء بالفرنسيين من سلطان دايات الجزائر حيث أن فرنسا سرعان ما طالبت ولاة تونس ـ بعد احتلالها للجزائـر ـ بالإتاوة التـي كانوا يدفعونها للجزائر، فضلا عن أنها ـ أى فرنسا ـ قد واصلت فرض شروطها من خلال معاهدات متعاقبة أدت إلى زيادة نفوذها بـاضطراد فـى تونس .

ولم تقتصر سياسة بايات تونس المتخاذلة على المجال الخارجي بـل شـملت الأوضاع الداخلية كذلك حيث سمح للفرنسيين ببناء كاتدرائية فى مواجهة مدينـة تونس، وعهد إليهم بفتح المدارس وتدريب الجيش الذى لم يكن يسـتخدمه فـى تحقيق أطماع شخصية مثل محمد علـى بـل لـهدف آخـر توافـق فيـه مـع محمد على أيضا وهو حمايته من الرأى العام الإسلامى الذى كـانت تثـيره هـذه السياسة .

وتبع " أحمد باى " خلفـه " محمـد بـاى " (١٢٧١ـ ١٢٧٥) (١٨٥٥ـ ١٨٥٩م) الذى كان فى بعض جوانب سياسته يشبه الخديوي" إسـماعيل " فـى مصر حيث وقع فى مظاهر الإسراف وبناء القصور ونفقات الحريم التى أوقعـت البلاد فى شباك الديون الأجنبية، كما نتج عنها زيادة نفـوذ الأوربيين . ومـن أبرزهم اليهود مما اضطره إلى إصدار دستور سنة ١٢٧٣هـ/ ١٨٥٧م، الـذى كان مشابها لخط شريف جلخانة (الدستور) الذى صدر فى الدولة العثمانية كتعبير عن زيادة نشاط ودور العناصر الماسونية، ثم تبعه دستور آخر فى نيابة " محمد الصـادق " (١٢٧٥ـ ١٢٩٩هـ) (١٨٥٩ـ ١٨٨٢م) صـدر سـنة ١٢٧٧هـ/١٨٦١م، وقد أتاحت بنود هذا الدستور الفرصة للعناصر الأجنبية مـن السيطرة على الموارد الاقتصادية وبالتالى التحكم فى المراكز الرئيسية فـى الإدارة التونسية (٥)، وأصبحت هذه المراكز مرهونة بشكل عـام بتوجيـهات العنـاصر

اليهودية التى كانت تشكل العناصر الاقتصادية الهامة وكذلك السيطرة على المحافل الماسونية .

وكان من الطبيعي أن تسهم هذه الأوضاع بدور كبير فى إثارة الرأى العام المسلم فى تونس، فقامت ثورة شاملة ذات طابع إسلامى وبعد اقتصادى " على بن داغام " استولت على بعض الموانىء التى كانت تمتلىء بالعناصربية مثل سفاقس، وبدت ملامح الغضب والكره لكل ماهو أجنبى على هذه الثورة، وأعلن الثائرون ارتباطهم بدولة الخلافة العثمانية،ورفعوا العلم السلطانى فى مدينة سفاقس (٦) .

وسارعت الدولة العثمانية بالتدخل لدعم الثورة وحماية تونس من التدخل الأجنبى تحت إدعاء حماية الأجانب والمصالح ، لكن الجنود العثمانيين ووجهوا بتكتل من الدول الأوربية ــ وببعد دينى أيضا ــ حيث حالت أساطيلها دون نزول الجند العثمانيين إلى تونس، وشاركت فى هذا التكتل أساطيل كل من إنجلترا وفرنسا وإيطاليا (٧) .

وسعى المبعوث العثمانى للتوسط بين "محمد الصادق " وزعيم الثوار المسلمين، واستجاب " الصادق " لهذه الوساطة، وفى نفس الوقت أدرك مدى قوة الاتجاه الإسلامي المعارض، وأصدر أمرا بإلغاء دستور سنة ١٢٧٧هـ/١٨٦١م .

ولم تكن العناصر اليهودية والماسونية المسيطرة على كثير من جوانب الاقتصاد والإدارة لتترك الأوضاع تتطور لصالح الرأى العام الإسلامى فبدأت تكشف عن وجهها الذى حاولت إخفاءه من قبل من خلال سياسة اتبعتها فى إيقاع البلاد فى شباك الديون، وبدا أمام الباى ما كان غافلا عنه من جوانب هذه السياسة وحقيقة الديون التى أوقعت البلاد فى يد الأجانب، وكانت هذه السياسة التى اتبعتها هذه العناصر فى مصر قبيل الإحتلال مما يوحى بوحدة السياسة ووحدة المصدر والمتمثل فى المحافل الماسونية .

ومن أبرز الشخصيات التى لعبت دورا فى هذا المجال شخصية " مصطفى الخزنة دار " الذى شغل منصب الوزير الأعظم (١٢٦٢ــ ١٢٨٩هــ) (١٨٣٧ــ ١٨٧٣م)، فقد اتبع سياسة أوقعت تونس فى المزيد من الديون ولصالح فرنسا على وجه الخصوص، ثم لصالح عناصر يهودية ومالطية . وحين قامت ثورة المسلمين سنة ١٢٨٠هــ/ ١٨٦٤م سارع ــ باسم الإصلاح ــ بعقد المزيد من القروض الخارجية أدت إلى زيادة الديون . ونتج عن هذه السياسة تكوين لجنة

من الأجانب للإشراف على المالية فى تونس سيطرت على أغلب الموارد الاقتصادية فيها وفى هذه الأثناء أسندت الحكومة إلى أحد الذين اشتهروا بالإصلاح وهو " خير الدين التونسى " على أمل إخراج البلاد من أزمتها .

على أن وصول " خير الدين التونسى " لرئاسة الوزارة لم يكن يراد به وجه الرأى العام المسلم وإنما أريد به امتصاص موجة غضب هذا التيار، فقد سبق أن أسند إليه القيام بجهد واضح فى تأسيس مجلس الشورى سنة ١٢٧٧هـ/ ١٨٦١م، الذى كان على أسس غربية مما جعله مستهدفا بالهجوم من قبل الثائرين المسلمين حتى تم إبعاده عن العمل السياسى . ثم عكف على كتابة مؤلفات تحمل آراءه فى الإصلاح والتجديد التى تنحو نحو التقريب بين القيم الإسلامية وجوانب الحضارة الأوربية، وظل على ذلك حتى أعيد إلى ممارسة نشاطه السياسى كرئيس للجنة الدين سنة ١٢٨٦هـ/١٨٧٠م (٨)، ويبدو أن عودته لممارسة نشاطه السياسى كان مرتبطا برحلته التى جاب خلالها أغلب بلدان أوربا خلال فترة بعده عن النشاط السياسى والتى كان مكلفا فيها للقيام ببعض المهام من قبل الباى وكذلك من قبل والد زوجته " مصطفى الخزنة دار"، وقد زكت هذه الرحلة نهجه فى الإصلاح والمرتبطة بالمدنية الغربية (٩) .

وجاء توليه رئاسة الوزارة سنة ١٢٨٩هـ/١٨٧٣م، بعد إبعاد صهره " مصطفى الخزنة دار" الذى أغرق البلاد فى الديون(١٠)، وحاول فى البداية أن (١١) . واتبع سياسة مماثلة فى العلاقات الخارجية حيث ساوى بين امتيازات الدول الأجنبية وإن كان قد غلب فرنسا على غيرها فى نفس الوقت الذى أبدى تقاربا لدولة الخلافة العثمانية، على أن يتبع سياسة متوازنة فى جمع الضرائب لسد عجز الميزانية متلافيا طريقة العنف والقهر التى اتبعت من قبل، كما أنه لم يعد إلى طرح فكرة العودة إلى مجلس الشورى على النهج الغربى خشية عودة الرأى العام المسلم للثورة عليه، وبرز ذلك بما كان ينبغى أن يدركه من قبل حين دعا إلى تأسيسه وهو أن مثل هذه المجالس لابد أن تكون مطلبا جماهيريا وليست فرضا على الجماهير، كما أنه بهذا التبرير قد وجد تبريرا آخر لأسلوبه الاستبدادى فى الإدارة هذه السياسة كانت متوازنة فى ظاهرها حيث كانت العلاقة مع الدولة العثمانية قاصرة على الميدان السياسى، وقد جعلتها الفرمانات قاصرة على سيادة إسمية، فى حين كانت السياسة مع الدول الأوربية تتصل بالمصالح

الاقتصادية التى أصبحت فى أيديهم بحكم زيادة حجم الامتيازات الممنوحة لـــهم، وبالتالى كانوا الأكثر قدرة على التأثير فى مصير البلاد .

وبشكل عام لم تلق هذه السياسة، التى استمرت أربع سنوات (١٢٨٩ــ ١٢٩٣هـ) (١٨٧٣ــ ١٨٧٧م)، قبولا لدى الرأى العام المسلم فى تونس الـــذى اتهم " خير الدين " بممالأة الفرنسيين، كما أن " خير الدين " لم يسع إلى طـــرح إصلاحات اجتماعية تسهم فى تخفيف العبء عن كاهل الكادحين إلا بشكل محـــدود. لا تصطدم ومصالح كبار الملاك الذين ينتمى إليهم حيث كان يملك مزرعة كبـــيرة فى إقليم الساحل تسمى الأنفيدا (١٢)، فضلا عن أنه كان متأثرا بالنهج الفرنســـى فى الإصلاح بحكم أنه قد تعلم على يد ضباط البعثة الفرنسية فى نشأته العســكرية والثقافية، وكان أحد أعضاء المحافل الماسونية المرتبطة بالمحافل الفرنسية(١٤).

وعلى الرغم من ذلك فإن توجه " خير الدين " للدولة العثمانية لـــم يصـــادف ارتياحا لدى الفرنسيين، وفى نفس الوقت لم تحظ سياسته بقبول لدى الباى الـــذى كان " خير الدين " قد أخضع مصروفاته لرقابة شديدة (١٥)، فكان من الطبيعى أن يترك الوزارة، بل ويتعرض للتضييق بعد خروجه منها، مما اضطره إلى الســـفر إلى دولة الخلافة والاستقرار فيها ومزاولة نشاطه الذى صادف دعـــوة الســلطان عبد الحميد الثانى لفكرة الجامعة الإسلامية (١٦) .

أما على صعيد تنافس الدول الأوربية حول تونس وهـــى إنجلـــترا وفرنســـا وإيطاليا فقد كانت رهينة سياسة التحالفات والتكتلات العسكرية التى ظهرت فـــى أوربا بعد توحيد ألمانيا وإيطاليا، وأن هذه الدول كانت قد بدأت تتخلى عن سياســة المحافظة على ممتلكات الدولة العثمانية وتطرح فى مؤتمراتها فكرة المســـاومات والتعويضات فيما بينها، فالنمسا تسيطر على البوسنة والهرسك، وألمانيا تســـعى لإبعاد الفرنسيين عن الألزاس واللورين، وإنجلترا تساوم على مصر ثـــم قـــبرص مقابل ترك يد الفرنسيين فى تونس والإيطاليين فى طرابلس .

وحين أدرك الفرنسيون أن حجم المعارضة لتوجههم نحو تونس قد خف عـــن ذى قبل ولم يبق فى ساحة معارضتها سوى الإيطاليين فى الغـــالب بـــدأت تتخـــذ سياسة فى تونس كان من شأنها زيادة نفوذهـــم حيـــث تغلغلـــت فـــى النواحـــى الاقتصادية، وقد لعبت العناصر اليهودية دورا واضحا فى هذا الميـــدان . وكـــان عليهم أن يتبعوا ذلك ــ كما كان مخططهم ــ بإيجاد الأســـباب المباشـــرة لتدخـــل عسكرى . وجاءت هذه الأسباب، المختلفة كعادة الأوربيين. فى إدعاء الفرنســـيين

أن بعض القبائل الموجودة على الحدود الجزائرية التونسية قد أغارت عليهم وأن على السلطات التونسية تأييدهم فى مهاجمتها لضمان الأمن، وأرسلوا حملة عسكرية كانوا قد أعدوا لها قبل اختلافهم، وهى أشبه بحجة الإنجليز فى تدخلهم فى مصر بعد ذلك بعام واحد، ودخلت القوات الفرنسية تونس سنة ١٢٩٨هـ/١٨٨١ م .

وقد نالت هذه الحملة تأييد الإنجليز-وبخاصة " جلادستون " الذى عرف عنه كرهه الشديد للعالم الإسلامى بحكم أنه كان قسيسا قبل اشتغاله بالسياسة، ولم يكن بوسع إيطاليا أن تدخل فى حرب مباشرة مع الفرنسيين، وكذلك كانت أحوال الدولة العثمانية لا تساعدها على القيام بدور حاسم لوقف هذه الموجه . وعلى الرغم من احتشاد جموع من التونسيين لمقاومة الاحتلال إلا أنهم لم يستطيعوا الصمود أمام تكتل القوى الأوربية .

احتلال الإنجليز مصر سنة ١٢٩٩هـ/ ١٨٨٢م

ثورة عرابى بين التآمر الماسونى الاستعمارى
والبعد الشعبى الإسلامى

مقومات الثورة ـ الأجانب والسيطرة الاقتصادية :

على الرغم مما أبداه بعض المؤرخين من تحفظ فى إطلاق مصطلح ثـورة على هذه الأحداث إلا أننا نتفق مع الذين يعتبرونها ثورة ذات بعد اجتماعي يمثله ـ فقط ـ اشتراك جموع الفلاحين من غالبية الشعب المصرى حيث حاولوا مقاومة نفوذ الأجانب فى الداخل والتدخل الأجنبى الخارجى (١٧)، وذلك على الرغم من أن هذا البعد ينتفى عن الشرائح التى تصدرت هذه الأحداث أو سطت عليها .

وتعود الجذور الحقيقية لهذه الثورة إلى عصر " محمد على " وما ساده من مظالم واستبداد بجموع المصريين، وفى نفس الوقت إلى سياسته التى اتبعها حين فتح الباب على مصراعيه للأجانب فى دخول البلاد، فحوت هذ العناصر حثالة شعوب البحر المتوسط من السماسرة والعاطلين والمجرمين والفقراء الساخطين، ومكنتها تشريعات " محمد على " ثم تشريعات أبنائه من السيطرة على الحياة الاقتصادية شيئا فشيئا والتحكم فى وسائل أرزاق جموع المصريين (١٨) .

وقد تمكن الأجانب فى ريف مصر، وبفعل الحماية والامتيازات الأجنبية وسريان القوانين الأجنبية، ووجود المحاكم المختلطة التى أنشئت سنة ١٢٩٢هـ/ ١٨٧٦م، بعد أن أخذت أشكالا متعددة، من نسج خيوط مكنتهم من الاستيلاء على أراضى البلاد، ففتحوا الملاهى وأماكن الشهوة والقمار والفنادق والخمارات وبيوت الدعارة، وفتح الباب على مصراعيه للهوي والإسراف والفجور، وبرز فى ساحة المجتمع عناصر من دعاة الهوى والغانيات والقوادين، وأدى ذلك إلى وقوع بعض أصحاب الأراضى فى الإسراف وشباك الفسق، فباعوا أرضهم للأجانب . فعلى سبيل المثال اشتري " يوسف زغيب " قنصل البرتغال فى الإسكندرية مساحة (٧٩٧) فدانا من أطيان " على حيدر باشا " فى الدقهلية، وبيعت أطيان حسن باشا رسمى ومساحتها (١٦٨٧) فدانا " لإبراهيم الدرعى الإسرائيلى " التاجر بالسنبلاوين و" إيليا هوتوربيل " من رعايا فرنسا " وروفائيل وسعد سوارس " (١٩) . هذا إلى جانب قيام العناصر الأجنبية بشراء بعض أراضى الفلاحين الذين اضطروا لبيعها أمام كثرة الديون بسبب الضرائب وأعباء المعيشة (٢٠) .

وفى الريف أيضا أحكم الأجانب سيطرتهم على وابورات المياه ووابورات حلج الأقطان وطحن الحبوب، فكانت سبيلهم لإيقاع الفلاحين فى الديون وكثر

المرابون اليهود فى الغالب، ونتج عن ذلك بيع كثير من الفلاحين لأراضيهم . وقام الأجانب بتأجير الأراضى المملوكة للدولة ثم إعادة تأجيرها من الباطن للفلاحين بأجور أعلى فزاد العبء وزادت الديون (٢١)، وازداد بيع الأرض للأجانب، وتحولت جموع كثيرة من أبناء البلاد إلى أجزاء لدى الأجانب الذين يخالفونهم فى الدين .

أما فى المدن فسيطرت العناصر الأجنبية على وابورات تنقية المياه والمتاجر ووسائل الوساطة التجارية والوظائف بشكل زاد عن كل حد، ووصل أمر سيطرتهم إلى حد المتاجرة فى الحمير والبغال، إلى جانب فتح العديد من حانات الخمور ودور اللهو وبيوت الدعارة والقهاوى (٢٢) .

ولاشك أن مثل هذه الأوضاع قد أتاحت الفرصة لتدخل رأس المال الأجنبى المصحوب بمزيد من النفوذ السياسى للدول الأجنبية وبخاصة إنجلترا وفرنسا . فقد حاول الإنجليز فرض نفوذهم فى عهد " عباس الأول " حين سمح لهم بإنشاء مشروع السكك الحديدية، إلا أن الفرنسيين قد حققوا نفوذا أقوى حين نجحوا فى الحصول على امتياز شق قناة السويس فى عهد " سعيد " وازداد النفوذ الفرنسى إلى حد كبير فى عهد " إسماعيل " حيث زاد حجم البعثات العلمية إلى فرنسا، وتم إدخال القانون الفرنسى فى المحاكم وتأسست دار الأوبرا (٢٢)، وكانت زيارة ملكة فرنسا من الدلائل الواضحة على زيادة نفوذ فرنسا فى مصر، وقد أدى ذلك إلى إثارة حفيظة الإنجليز. وبشكل عام كان عصر إسماعيل وابنه " توفيق " صراعا بين الإنجليز والفرنسيين للسيطرة على السلطة والعناصر المتسترة بالحماية الأجنبية فى مصر .

على أن ما ينبغى مراعاته هو أن العناصر اليهودية قد تمكنت من السيطرة على خيوط الوجود الأجنبى فى مصر سواء من خلال المحافل الماسونية بوسائلها الاقتصادية أم من خلال الديون المالية، فقد سيطر آل روتشيلد على مصلحة الدين والسكك الحديدية، ووصلت عناصر يهودية إلى السلطة ومواطن التأثير منذ عصر " محمد على " مثل نوبار وباغوص وغيرهم .(٢٣)

وأدرك " إسماعيل " أنه قد أصبح فى يد القوى الأجنبية لتحكم مصيره بعد أن كثرت الديون وأحكموا السيطرة على الاقتصاد فى الداخل، فحاول الاستعانة بعناصر محلية من المصريين، لكنها كانت فى أغلبها – وبفعل اضطهاد أبيه – عاجزة عن القيام بأى دور وبخاصة أنه واصل اضطهاد الكثير منها . فقد كان

دور مشايخ الأزهر ـ الذين بقوا على الساحة ـ محدودا وقاصرا على المشاركة فى الحفلات الرسمية المرتبطة بالسلطة، واستطاع الكثير منهم من خلال توليهم نظارة الأوقاف أن يكونوا ثروة كبيرة، وأصبح شيخ الأزهر " الشيخ عبد الرحمن نافد" وكذلك الشيخ البكرى شيخ الطرق الصوفية من أصحاب الأملاك الكبيرة . واستقطب " إسماعيل " بعض رجال العلم بعطاياه فمنح " الشيخ عليش " مائة فدان ومعاش شهرى، ومائة وعشرون فدانا للشيخ " أبو العلا الخلفاوى " والشيخ " السادات " والشيخ " حسن العدوى "، كما كان " رفاعة الطهطاوى " يملك (١٥٤٦) فدانا، وكان الشيخ " الامبابي " الذى أصبح شيخا للأزهر إبان الثورة العرابية تاجرا للأقمشة ووكيلا لمصانع إنجليزية فى مانشستر (٢٤) .

وسعى " إسماعيل " لتقريب فئة أخرى وهم الأعيان عقب انشقاق أخيه " حليم " عليه على أثر استصداره فرمانا سلطانيا يسمح بتولي ابنه " توفيق" ولاية العهد، وكون من الأعيان مجلس شورى القوانين بانتخابات صورية زائفة . ولم يكن القصد من تكوين هذا المجلس قاصرا على تقريب الأعيان فقط ولكن بقصد مساعدة أعضاء المجلس له فى جمع المزيد من الضرائب للتخفيف من حدة الأزمة المالية من جهة، ولكى يبدو أمام القوى الغربية أنه يسير فى طريق الارتباط بهم وبالتالى لا خوف على مصالحهم فى بلاده من جهة أخرى .

على أن مجلس " إسماعيل " لا ينبغى أن يعتبر من الدلائل أو الشواهد على وجود شكل من أشكال الحياة النيابية فى مصر، فكان هذا المجلس من وضع الحاكم لا تلبية لمطالب ورغبات المحكومين، كما كان أغلب أعضائه ينتمون إلى شرائح أجنبية لا تمثل مصالح الأغلبية أو تتوافق معهم، وإلى جانب صورية الانتخابات وتزييفها فكان مديروا المديريات هم الذين يختارون النواب، وكان على النواب إبلاغ الأهالى بأوامر الخديوي واستجلاب الموافقة ـ فقط الموافقة ـ على هذه الأوامر فى حين لم يكن من حقهم تلقى التماسات الأهالى، هذا إلى جانب أن النواب كانوا يشغلون مناصب حكومية وبالتالى لا يمكنهم مراقبة الحكومة بل التبعية المطلقة للحاكم . ومن الدلائل على ذلك أن " إسماعيل " حين أراد أن يظهر بمظهر المقلد للجمعية الوطنية الفرنسية والبرلمانات الأوربية وطلب من أعضاء مجلسه تقسيم أنفسهم إلى يمين ويسار ووسط لم يجلس أحد منهم فى اليسار أو الوسط رغم إدراك الجميع لصورية المجلس (٢٦)، وكذلك حين عزل " إسماعيل " وعين ابنه " توفيق " وأمر أعضاء المجلس بالبقاء فى قراهم إمتثلوا للأمر دون

إبداء رأى أو مشاركة فيما يحيط بالبلاد . وعلق الدكتور " أحمد عبد الرحيم مصطفى " على ذلك بأن التحول فى مصر لم يتم بشكل تدريجى وبشكل عضوى نابع من ظروف محلية إذا ارتبط بإرادة حكام فرضوا على البلاد إصلاحات معينة بقصد اقتباس مظاهر معينة من الحضارة الغربية وبالتالى لم تقترن بيقظة ذهنية وظل النمط العقائدى السائد دون أدنى تغيير (٢٧).

ومع ذلك حاول " إسماعيل " أن يستخدم المجلس فى الوقوف أمام الحكومة التى ضمت وزيرين أجنبيين،كما كون من بعض أعضائه جبهة المعارضة التى سعت لإسقاط وزارة " توفيق " وأطلق عليها اسم الجمعية الوطنية (٢٨) .

وعلى صعيد آخر حاول " إسماعيل " أن يفتح الباب لعناصر صحفية وثقافية ليستعين بهم على فك الطوق الذى أحكمه الأجانب حول رقبته، فساعدهم وسمح لهم بفتح الصحف، فوفدت العديد من العناصر، واجتمعت " بإسماعيل " وبالمحافل الماسونية التى زادت فى عهده، وراحوا ينفذون أهدافه وأهدافهم تحت ستار مقاومة النفوذ الأجنبى . فشاطره الأجانب بزيادة عناصرهم فى هذه المحافل وتأسيس المزيد منها، ووجدوا من خلالها عناصر صحفية ساعدوها على فتح صحف تهاجم استبداد " إسماعيل " واختلط الحابل بالنابل(٢٩)، وامتلأت الساحة بالمغامرين والمقامرين وتجار السياسة .

فمن أعضاء هذه المحافل، الذين استعان بهم " إسماعيل "، " مصطفى رياض باشا " الذى كان والده " إسماعيل الوزان " ناظر سك العملة، وينحدر من أسرة يهودية بأزمير . تولى مديرية الجيزة وعمره عشرين عاما (١٢٧٠هـ/ ١٨٥٤م)، وشغل عدة وظائف بالقصر والمديريات فى عهدى " عباس" و" سعيد ". (٣٠)، وكان يعمل لحساب المحافل الماسونية ووفق توجهاتها من خلال المناصب التى تولاها فى مصر، كما كان يعمل لحساب بيت روتشيلد اليهودى، ووقف إلى جانبه فى سياسته هذه كثير من مشاهير الفترة مثل " على مبارك " و " على إبراهيم " و" حسين فخرى" و" بطرس غالى " و" عبد الله فكرى" و" سالم سالم " و" محمود الفلكى" و" إسماعيل فكرى" إلى جانب استقطابه لبعض مشاهير الصحافة والسياسة فى هذه الفترة (٣١) .

وكذلك " نوبار باشا " الذى ينتمى هو الآخر إلى أصل يهودى من أزمير، وقد تلقى تعليمه فى فرنسا، وانضم إلى المحافل الماسونية فيها، ورشحه عمه " باغوص بك " ناظر خارجية " محمد على " لوظائف الإدارة العامة وهو فى

السابعة عشرة من عمره ١٢٥٧هـ/ ١٨٤٢م، وظل يترقى حتى أصبح من أبرز وزراء " إسماعيل " (٣٢) .

وظهر أيضا " محمد شريف باشا " الذى ولد فى القاهرة سنة ١٢٤١هـ/ ١٨٢٦م، وكان ابنا لقاضى مصر العثمانى، ولم يعد مع أبيه إلى استانبول، وتولى " محمد على " تربيته فأرسله إلى مدرسة ضباط الأركان، وأوفده ضمن بعثة الأمراء إلى فرنسا سنة ١٢٥٩هـ/ ١٨٤٤م، حيث التحق بالأكاديمية العسكرية(٣٣)، ثم عاد سنة ١٢٦٤هـ/ ١٨٤٩م، ليعمل مع " إسماعيل باشا الفرنساوى " (وهو يهودى من قادة محمد على)، وتزوج ابنته، وتنقل فى بعض وظائف رجال القصر حتى عصر إسماعيل الذى برز فيه كواحد من الثلاثة المقربين منه بعد " رياض ونوبار" (٣٤)، وكان من أبرز أعضاء المحافل الماسونية .

ولعل من أبرز العناصر التى وفدت إلى مصر فى عصر " إسماعيل " وحظيت بعنايته " جمال الدين الأفغاني" الذى دخل مصر من خلال صلته " برياض باشا "، واستغله " إسماعيل " فى محاولة التخفيف من سطوة النفوذ الأجنبى، وعينه ـ لقاء ذلك ـ عالما بالأزهر، ودفع له مبلغ ألف قرش شهريا . واستطاع " جمال الدين " أن يجمع حوله مجموعة من الصحفيين والكتاب مثل " محمد عبده " و" سعد زغلول" و" إبراهيم اللقانى" و" إبراهيم الهلباوى" وغيرهم .

وتبع " جمال الدين " مجموعة من الصحفيين الشوام مثل " أديب إسحاق " الذى تعلم بإحدى مدارس الإرساليات فى دمشق، وعندما انتقل إلى بيروت اهتم بترجمة المسرحيات الفرنسية الموجهة .

وسبقه " سليم نقاش " الذى ينحدر من أسرة مسيحية فى بيروت وقد شارك " أديب إسحاق" فى إصدار جريدة " مصر" التى فتحها لهم " رياض" و" الأفغانى" سنة ١٢٩٣هـ/ ١٨٧٧م، ثم جريدة التجارة سنة ١٢٩٤هـ/ ١٨٧٨م(٣٥)، كما شارك فى عروض الأوبرا المسرحية، وحظى بعناية كاملة من " إسماعيل " وعلى الرغم من أن " رياض" هو الذى فتح " لأديب إسحاق " باب دخول مصر إلا أنه عمل لحساب " شريف باشا " حين اختلف مع " رياض " وحرر لحسابه من باريس صحيفة "مصر القاهرة "، ثم عاد إلى مصر فى عهد " توفيق " ليتعاون معه ومع سلطات الاحتلال البريطانى، وحين اختلف معهم طردوه من مصر(٣٦) .

ومن بين الصحفيين الماسون الشوام " سليم تقلا" الـذى أصـدر، بمسـاعدة " إسماعيل "، جريدة الأهرام التى كانت منبرا للمصالح الفرنسية فى مصر لفـترة طويلة، وكان بعض مشاهير الفترة من بين كتابها الداعين إلى الأخذ بعلوم الغـرب واقتفاء منهجه وحضارته، إلى جانب اهتمامه بالثقافة الدينية (٣٧) .

واجتذبت هذه الصحف، وهذه المحافل، بعض العناصر من المصريين الذين تأثروا بالثقافة الغربية وساروا فى ركب مصالحهم، فظهر " ميخائيل عبد السيد " الـذى أسس جريدة " الوطن" التى سارت فى طريق معارضة سياسة " إسماعيل " لصالح الإنجليز .

ومن العناصر التى قربها " الأفغانى " ووضعها فى طـريق معارضة إسماعيل " يعقوب صنوع " وهو يهودى من مواليد القاهرة سـنة ١٢٥٤هـ/١٨٣٩م، وأسرته من أصل إيطالى وفدت إلى مصر ضمن موجة السطو الأجنبى الذى فتـح له محمد على الباب وتلقى تعليمه فى موطنه الأصلى (إيطاليا) بين عـامى (٦٨ ــ ١٢٧١هـ) (٥٢ ــ ١٨٥٥م) على نفقة أحد أفراد أسرة " محمد علـى " الذيـن احتوتهم المحافل الماسونية وهو " أحمد يكن " (٣٨) . وتنقل فى وظائف التعليـم الخاص حتى وجهه " إسماعيل " لتسييس مسرح الشعب، لكـن انتمـاءه لمحفـل ماسونى تابع للمحافل الإنجليزية فى البداية قد دعاه إلى الانضمـام إلـى ركـب المعارضين لسياسة " إسماعيل " التى كان فيها ــ من خلال المسرح ــ أكثر تأثيرا وحين نفاه إسماعيل سنة ١٢٩٤-١٨٧٨م هاجم " إسماعيل " هجوما شديدا عـبر جريدته " أبو نضارة "، وتلقى معونات ــ أو أموالا ــ فى هذا الشان من " حليـم " الذى طرده " إسماعيل "، وكذلك من الباب العالى الذى انقلب عليـه " إسـماعيل " واتبع سياسة الاستقلال عنه (٣٩)، وروج " صنوع " لشعار " مصر للمصرييـن " إبان الثورة العرابية (٤٠)، وقد دعا هذا الترويج البعض لأن يجعـل مـن هـذا اليهودى الإيطالى الأصل بطلا قوميا على حساب طمس الشعار الحقيقـى للثـورة وللفترة بأكملها الذى برز مـن خـلال اشـتراك جمـوع الكـادحين المسـلمين والمسيحيين من الفلاحين ويعبر عن طبيعتهم وحقيقة هويتهم الإسلامية .

ومن الملاحظ أن الصحف وروادها من دعاة الوطنية فى هذه الفـترة كـانوا مفروضين على الساحة المصرية، فمنهم من استجلبه " إسماعيل " ومنـهم مـن استجلبه الأجانب ليعبر عن صراع النفـوذ والمصـالح بينـهم، كمـا أن أغلـب الصحفيين كانوا فى توجههم ومنهجهم وما يكتبونه لا يعبرون إلا عـن أنفسـهم

ومصالحهم التابعة، ولهذا فمن الخطأ أن ننعت أى من هـذه العناصر بالوطنية وكذلك صحفهم حتى ولو صادف وجود بعض الجوانب الوطنية فيما كتبوه والتى وردت بشكل عارض فى طريق تنافسهم أو تناحرهم من أجل أهدافهم ومصالحهم(٤١) .

ولعل متابعة المحافل الماسونية خلال هذه الفترة يضفى مزيدا من الضوء على القوى الخفية الكامنة وراء الأحداث والمحرك الفعلى لها والتى استفحل دورها وتأثيرها فى مصر منذ الحملة الفرنسية وخلال عصر " محمد على ".

المحافل الماسونية ودورها إبان أحداث الثورة العرابية سنة ١٢٩٩هـ/ ١٨٨٢م

يعتبر عصر" إسماعيل " هو أزهى عصور الحركة الماسونية فى مصر بعد عصر " محمد على" حيث كان انضمامه إليها وحمايته ودعمه لها سببا فى ازدياد عدد محافلها وتوسع نشاطها (٤٢)، فتأسست المحافل الماسونية الوطنية إلى جانب المحافل الأجنبية، وانتمى إليها عدد كبير من كبار الملاك والأعيان والعلماء وفى مقدمة هؤلاء جميعا ولى العهد " توفيق " .

وقد سعت إنجلترا لتقريب بعض أعضاء محفل " كوكب الشرق الماسونى المصرى " وبخاصة الذين كانوا يضيقون بسياسة الخديوي الاستبدادية، وشجعتهم على سياستهم المتوافقة مع سياستها الرامية إلى عرقلة النفوذ الفرنسى الذى كان يساند الخديوى وبالتالى المساهمة فى زيادة حجم النفوذ الإنجليزي (٤٣)، وكانت تلك الأمور تشير إلى دخول الصراع السياسى بين إنجلترا وفرنسا حول نفوذهما فى مصر داخل هذه المحافل .

ونجح الإنجليز فى تقريب عدد من أعضاء المحفل الماسونى المصرى بفروعه الراغبين فى مقاومة " إسماعيل " ومن خلفه النفوذ الفرنسى باسم مقاومة نفوذ الأجانب، كما نجحوا من خلال محافلهم فى العاصمة العثمانية فى دفعهم السلطان " عبد العزيز " لتقريب الأمير " حليم بن محمد على" الذى كان يطمع فى تولى عرش مصر بعد " إسماعيل " لكن " إسماعيل " سعى إلى تغيير نظام الوراثة ووضع ابنه " توفيق " وليا للعهد، فتقرب الإنجليز من " الأمير حليم " وكرسوه فى محفل " البلور- أو البلوار " الإنجليزى سنة ١٢٨١هـ/ ١٨٦٥م، فى حفل كبير شهده كبار الماسون الإنجليز، ورقوه إلى أعلى المراتب فى هذا المحفل

وعينوه " أستاذ أعظم إقليمي للديار المصرية " وثبتوه فى وظيفته عند زيارته لإنجلترا سنة ١٢٩٤هـ/ ١٨٦٧م (٤٤) .
وقد أدى الاهتمام الماسونى الإنجليزى بالأمير " حليم " إلى اضطهاد " إسماعيل " له ولمحفله بعد أن توجس خيفة من نشاطه فصادر أملاكه ونفاه خارج البلاد، وتم تعيين الإيطالى " زولا " خلفا له (٤٥). وتعهد الماسون الإنجليز بسبب هذه الإجراءات بعدم تأسيسهم لمحافل أخرى فى مصر، ولكنهم عادوا وأسسوا المحفل الأكبر الإقليمي لمصر والسودان سنة ١٣١٦هـ/ ١٨٩٩م (٤٦)، بعد احتلال إنجلترا لمصر والسودان، وعينوا اللورد "كتشنر" أستاذا أعظم لهذا المحفل (٤٧) .

وفى عام ١٢٩٣هـ/ ١٨٧٧م تقرر الانتقال بالمحفل الأكبر المصرى من الإسكندرية إلى القاهرة، وأصبحت أغلب المحافل الماسونية المصرية، التى وصل عددها حتى هذا التاريخ إلى ٢٩ محفل تابعة له باستثناء مجامع الدرجات العليا، ولكن تم إنشاء مجمع آخر هو" الشرق الأعظم المصرى" الذى نازع " الشرق الأعظم الوطنى المصرى " السلطة، وظل الصراع بينهما إلى فترة طويلة (٤٨) .

الماسونية والثورة العرابية والاحتلال الانجليزى لمصر سنة ١٢٩٩هـ/ ١٨٨٢م

فى سنة ١٣٠٤هـ/ ١٨٨٧م قرر " المحفل الأكبر الوطنى المصرى " اختيار الخديوي " توفيق " رئيسا له بدرجة " أستاذ أعظم " ونال هذا المحفل الممثل لكثير من المحافل المصرية عناية " توفيق " ودعمه (٤٩) . على أن هذا الاختيار يعد تغيرا فى توجه " توفيق" الماسونى من ميول إلى المحافل الفرنسية إلى المحافل المصرية التى تنال تأييد وعناية المحافل الماسونية الإنجليزية فى الغالب، منذ بداية توليه الحكم، كما كان ذلك متوافقا مع زيادة نفوذ إنجلترا على حساب النفوذ الفرنسى فى مصر بعد الاحتلال الإنجليزي لمصر بالطبع وهى أمور تزيد تأكيد اشتغال هذه المحافل بالأمور السياسية .

ويشير البعض إلى أن من أبرز من انضم إلى المحافل الماسونية خلال هذه الفترة " السيد جمال الدين الأفغانى " الذى انضم إلى محفل كوكب الشرق التابع للمحفل الإنجليزي الأعظم سنة ١٢٩٢هـ/ مايو ١٨٧٥م، وتبعه بعض تلاميذه مثل الشيخ محمد عبده، وأنه رقى فى غضون سنوات ثلاث حتى أصبح رئيسا

لهذا المحفل، لكنه برز كمصلح اجتماعي وسياسي إسلامي، وحاول أن يستغل انتماءه للماسونية للمساعدة فى هذا الصدد فلقى معارضة من أتباع هذا المحفل لإدراكهم لمدى ضرر هذا الاتجاه على نفوذ الإنجليز الأمر الذي أدى إلى خروجه منه لا من الماسونية ككل، وأسس محفلا جديدا برئاسته تابعا " للشرق الأعظم الفرنسى " (٥٠)، ونجح فى أن يضم العديد من تلاميذه حتى بلغ عددهم ثلاثمائة كانوا فى أغلبهم من المفكرين والعلماء وحقق نجاحا فى سياسته الإصلاحية التى تأثرت بالفكر الغربى إلى حد كبير (٥١) .

وحين طالب " الأفغانى " وتلاميذه بالدستور والحياة النيابية ومزيد من الإصلاحات، وكان من قبل قد نجح ــ من خلال انتمائه للمحفل الإنجليزى ــ فى مساعي عزل " إسماعيل "، وارتاب " توفيق " من ذلك ومن خلفه الإنجليز فقبض على الأفغاني ونفاه من مصر (٥٢) .

وكان أغلب رواد الفترة من الكتاب والمفكرين الذين وفدوا فى أغلبهم من بلاد الشام أعضاء فى محافل ماسونية، وكانوا فى أغلبهم من اليهود والنصارى من أمثال " سليم نقاش" و" أديب إسحاق" إلى جانب اليهودي الإيطالي " يعقوب صنوع" ، وانضم إليهم بعض الكوادر المصرية ممن شاركوا فى تأسيس جمعية حلوان وجمعية مصر الفتاه (٥٣).

على أن ما ينبغى ملاحظته هو أن الإنجليز رغم حذرهم من أسلوب الأفغانى فى إشعال الروح الوطنية المعادية للأجانب ونفوذهم فى مصر بشكل عام إلا أنهم قد ساعدوا هذه المجموعة ــ بشكل مباشر أو غير مباشر ــ على نشاطهم الداعى إلى غرس الروح القومية من جهة وعلى وقوفهم في تيار معارض لتوفيق ومن حوله من جهة أخرى وهو الدور الذى ساهم في الإنجليزى " ولفريد سكاوبلانت "، حتى يساعد ذلك على احتدام الموقف فى ظل تنامى نفوذهم وبالشكل الذى أشعل الثورة العرابية، وأتاح لهم فرصة التدخل العسكرى الذى أدى إلى احتلالهم لمصر سنة ١٢٩٨هـ/ ١٨٨٢م .

ولعل ذلك يشير بشكل واضح إلى اشتغال المحافل الماسونية بالسياسة بل واستخدامها فى تحقيق أهداف سياسية (٥٤)، وهو أمر يتناقض مع دعوى هذه المحافل فى عدم دخول السياسة فى نشاطها، وبررت هذا التدخل وهذا الاستخدام بمساندتها لحركات التحرر المتمثلة فى الثورة العرابية، أو تفسير تخفى العرابيين وراءها فيما أسماه أحد المؤرخين المصريين بالواجهة الماسونية(٥٥) .

ومما يؤكد دور المحافل الماسونية فى الثورة العرابية أنها ـ أى هذه الثورة ـ لم تكن ثورة ـ إذا اتفقنا مع الذين قوموها كذلك ـ تحركها عوامل إجتماعية طبيعية فى أغلب مراحلها منذ البداية، أوحتى ثورة سياسية، فالحزب الوطنى الذى يعد أول القوى الداعية للثورة كان عبارة عن محفل ماسونى، وكانت الجمعية الوطنية التى تفرعت عنه سنة ١٢٩٦هـ/ ١٨٧٩م تمثل الأرستقراطية الجركسية والأجنبية التى أفرزها عصر " محمد على" والتى كانت لها السيادة فى عصر " إسماعيل " وتقلص دورها بعد إبعادها . ثم تكونت من أعضائها جمعية حلوان التى تزعمها " شريف باشا " أحد أعضاء المحافل الماسونية والذى كان يستهين بالمصريين (٥٦) وضمت فى عضويتها " إسماعيل راغب " " أحد أهم أعضاء المحفل الماسونى ووالد إدريس راغب " الذى أصبح رئيسا للحركة الماسونية فى مصر على مدى ثلاثين عاما (٥٧). وتكونت جمعية مصر الفتاه من مجموعة من المفكرين الشوام من أعضاء المحافل الماسونية فى الشام ثم فى مصر، وكان أغلب أعضائها من اليهود، وقد احتوى بيانها الأول على بند يؤكد حرصها على صيانة الأملاك الذى يعنى الحفاظ على الهيكل الاجتماعى الذى كان الأجانب يشكلون فيه دورا كبيرا بما لديهم من ملكيات إلى جانب النفوذ (٥٨) .

أما جماعة العسكريين فقد انحصرت مطالبهم الذاتية لا الوطنية فى أمور خاصة بإصلاح أحوالهم فى الجيش كتعديل الرواتب وفتح باب الترقى أمامهم، والخوف من الإحالة إلى الاستيداع أو الطرد من الخدمة، كما كان " عرابى " قد أصبح من أصحاب الملكيات الزراعية الكبيرة نسبيا حيث كان يملك (٩٧٦) فدانا، وعبد العال حلمى " يملك (٥٤) فدانا (٥٩) .

وعلى الرغم من اختلاف شكل هذه الواجهات الوطنية إلا أن الصلة والتنسيق بين أعمالها كان يتم من خلال أساليبها الاقتصادية، فالأفغانى كان على صلة " بشريف باشا " قبل وبعد طرد " إسماعيل " من الحكم (٦٠)، وكان " محمد سلطان باشا " وهو رئيس مجلس النواب وأحد أعضاء جمعية حلوان على رأس قسم المخابرات العسكرية التى تجسست على عرابى لصالح الإنجليز والخديوى (٦١) .

وكانت الصحف والمنشورات الى تدعو إلى أفكار التحرر في الظاهر تستمد مواردها الكاملة من المحافل الماسونية. وكان قسم كبير منها يصدر باللغات

الأجنبية كالفرنسية والإنجليزية سواء فى مصر أو فى باريس وبالتالى لم تهتم بمخاطبة جماهير المصريين بقدر اهتمامها بمخاطبة الأجانب أو من يدور فى فلكهم من أصحاب السطوة والتأثير، والمصالح، ولهذا كانت بعض هذه الصحف تطبع فى باريس وتوزع مجانا على المراد التأثير عليهم مثل صحيفة " أبو نضارة " لصاحبها " يعقوب صنوع " التى كانت ترسل وتوزع مجانا على جماعة العسكريين من عرابى وصحبه بعد أن أصبحوا من أصحاب المصالح (٦٢)، وكان الممول الأساسى لكل هذا مو محفل كوكب الشرق الفرنسى الماسونى .

كما ان المحررين الشوام الذين كانوا يروجون لهذه الأفكار من أعضاء المحافل الماسونية وممن لا ينتمون فى جذورهم إلى السواد الأعظم من شعب مصر " كسليم " العنحورى " " ويعقوب صنوع " و " ميخائيل عبد السيد " وسليم نقاش " وبشارة تقلا " وغيرهم، وكانوا فى أغلبهم يستظلون بحماية السفارات الأجنبية، كما لم يكن حب مصر او مصلحة شعب مصر هو شاغلهم كما راج عنهم من خلال شعارهم " مصر للمصريين " ولم تكن علاقة مصر بدولة الخلافة أو إحياء الشعور الوطنى والسعى لاستقلال مصر هو الحل لخروج المصريين من قضايا الظلم الإجتماعى التى أطبقت على خناقهم، وكانت هذه الأوضاع قد حددت وضع مصر فى إتفاقية لندن سنة ١٢٥٥هـ/ ١٨٤٠ م، بل كان نفوذ الأجانب الذين أزداد عددهم فى مصر منذ عصر " محمد على " وبتخطيطه وبخاصة العناصر اليهودية والسماح لهم بالسيطرة على ثروات البلاد والسخرة التى فرضوها على الكادحين قبل وأثناء وبعد حفر قناة السويس هى لب المشكلة الحقيقية فى مصر، والتقى معهم أصحاب المصالح من الوافدين الشوام أو المصريين للدفاع عن مصالحهم وإن اختلفوا فى أسلوب تطويع العامة واستخدام العامل الدينى وهو ما نظمته المحافل الماسونية .

تبعية المحافل الماسونية فى مصر للمحافل الأجنبية

حاول محفل ممفيس الماسونى المصرى إيجاد فروع له فى الدول الأوربية لكنه لم يستطع بسبب عدم تقبل الأوربيين لأسلوبه الشرقى أو لتعرضه للحرب من قبل المحافل الأوربية . بل إن الأسلوب الماسونى المصرى لقى حربا مشابهة على الساحة المصرية من قبل المحافل الأوربية أو العناصر الأوربية الموجودة داخل محافل مصر، وانتهت هذه المنافسة أو الحرب بسيادة المحافل الأوربية فى مصر

والقضاء على محفل أو طريقة ممفيس الماسونية، وقد نتج عن ذلك اتباع كافة المحافل المصرية للمحافل الأوربية وفقا لتوجهاتها وأهوائها (٦٣) .

وقد بدت عدة محاولات للماسون المصريين من أتباع المحفل الممفيسي تكوين كيان ماسوني مستقل في محاولة للتخلص من التبعية للمحافل الأجنبية والاعتماد على عناصر مصرية، وبدت أولى هذه المحاولات حين تمكن الماسوني الإيطالي " اسكاروترا " من الحصول على تصريح من المجلس السامي الايطالي للدرجة ٣٣ للمملكة الإيطالية بفرع مستقل في وادي النيل سنة ١٢٨٠هـ/ ١٨٦٤م، كما حصل الماسوني " بوريجار" على براءة بتأسيس مجلس بطاركة بدرجات ٩٥ للعظماء المحافظين عل طريقة منفيس البنائية (الطقس الشرقي) سنة ١٢٨١هـ/ ١٨٦٥م، وفي سنة ١٢٨٣هـ/١٨٦٧م، حصل " الأمير حليم بن محمد على " عل براءة تأسيس المحفل الأكبر الإنجليزي الإقليمي للبلاد المصرية وملحقاتها (٦٤) . لكن صعوبات عديدة واجهت محاولة استقلال الماسونية المصرية لعل في بدايتها وأهمها عدم إقبال العناصر المصرية لاعتقادهم — الصحيح — بأنها عدوة للدين، كما أن العناصر الأوربية المشاركة في محفل ممفيس كانت من العدد والقوة بشكل جعلها تبطل هذه المحاولات .

وبعد خلع " إسماعيل " من الحكم، وتخلي الخديوي " توفيق " عن رئاسة المحفل الماسوني المصري سنة ١٣٠٨هـ/ ١٨٩١م، تم تعيين " إدريس راغب " أستاذا أعظم للمحافل المصرية . وقد حارب " راغب " سلطات المحافل المصرية لصالح المجلس السامي الماسوني المصري التابع للمحفل الإسكتلندي(٦٥)، وأضعف قوة محفل ممفيس حتى قضى عليه، و أكد تبعية المحافل المصرية للمحافل الأجنبية بشكل كامل حيث كانت براءات التكوين وشهادات التكريس والترقي والالتحاق في المحافل الماسوني والنظام الداخلي لهذه المحافل وعلاقاتها بأعضائها أو ببعضها البعض تصدر من المحافل الأجنبية في إيطاليا وفرنسا وإنجلترا وأمريكا (٦٦) .

أحداث الثورة :

أما عن الثورة فقد أدرك الضباط المصريون نية " توفيق " لتصفيتهم حين عين " عثمان رفقي " ناظرا للجهادية وخاصة بعد إحالة عدد كبير منهم للاستيداع. فبدأ الخوف من الطرد من الخدمة يساورهم. وتجمع أربعة منهم هم أحمد

عرابى" و" عبد العال حلمى" و" أحمد عبد الغفار" و" على فهمى" فى بيت " عرابى" فى منتصف يناير سنة ١٢٩٨هـ/ ١٨٨١م واختاروا " عرابى " ليتحدث باسمهم بشرط مؤازرته (٦٧) .

وأعد " عرابى " مذكرة تعرب عن توجس هذه المجموعة من ناظر الجهادية لكنها تؤكد على عدالة " توفيق "، وتضمنت المذكرة الإشارة إلى تعسف ناظر الجهادية ضدهم وبخاصة فى فصل القائم مقام " أحمد عبد الغفار" وطالبوا بإقصائه من الوزارة (٦٨) .

ثم اتجهوا للقاء ناظر الداخلية " رياض باشا " الذى أسموه " أبا المصريين " فى السابع عشر من يناير، وفى اليوم التالى (٦٩) . وعرض " رياض " أمرهم على الخديوى الذى قرر إلقاء القبض عليهم ومحاكمتهم محاكمة عسكرية يرأسها رئيس الأركان وهو جنرال أمريكى يدعى " ستون" وعضوية جنرالات أجانب هم " لارمى" و" فون بوليتر" وأربعة لواءات جراكسة . وجرد الثلاثة من سلاحهم ودخلوا السجن فى انتظار المحاكمة وأهينوا إهانة بالغة، وعين ناظر الجهادية ثلاثة مكانهم . ولكن حدث أمر لم يكن يتوقعه الخديوى وناظر الجهادية حيث رفض ضباط الآلايات الثلاثة تسليم القادة الجدد، وقام أحد هؤلاء الضباط وهو " محمد عبيد " بالقبض على قائد الحرس الخديوي الجديد، ورابطت أورطة بقيادة " البكباشى " أحمد فرج " أمام قصر عابدين، وتحرك البكباشى" محمد عبيد" والبكباشى " محمد عيسى " إلى قصر النيل، وأحكموا الحصار على نظارة الجهادية، وأطلقوا النار عليها ففر الجميع بما فيهم ناظر الجهادية، وأطلقوا سراح القادة الثلاثة وعادوا إلى ثكناتهم (٧٠) .

وأسرع " عرابى " بالكتابة إلى القنصل الفرنسى، ومن خلال المحفل الماسونى، طالبا الوقوف إلى جانبهم ضد الخديو والضباط الجراكسة، وكذلك إلى "روفائيل بورج " نائب القنصل الإنجليزى وأحد أبرز الأعضاء الماسون فى مصر (٧١) .

ويبدو من خلال المرحلة الأولى من الأحداث أن المسألة كانت تخص الضباط ومطالبهم ومصالحهم ولا تتصل بأي مطالب شعبية أو وطنية من بعيد أو قريب، كما أن هؤلاء الضباط وهم " عرابى " وصحبه كان دافعهم الحرص على مصالحهم الخاصة التى دعتهم لتدعيم صلتهم بإخوانهم العسكريين وإبداء ولائهم للخديوى فى نفس الوقت، كما يبدو واضحا صلتهم بالمحافل الماسونية وأن لها أثرا وضحا

فى توجيههم، وكذلك قناصل الدول الأجنبية دون أى من القوى الشعبية، فحين أشار قناصل الدول على " توفيق" قبول مطالب العسكريين وإقالة ناظر الجهادية استمع إلى ذلك وعين " البارودى " مكان " عثمان رفقى " وأعاد العسكريين الثلاثة إلى مناصبهم (٧٢) . واقتصرت مطالب العسكريين من " البارودى "، والتى كانت لجس النبض، على مطالب خاصة بفئتهم وهو ما يؤكد عدم وجود أى بعد شعبى لدور " عرابى " وصحبه حتى هذه الأحداث، فقد طالبوا ببدل نقدى للغذاء ورواتب كاملة عن الأجازات التى لا تتجاوز شهرا ونصفها فيما يزيد، والسفر بنصف أجرة فى السكك الحديدية، وصرف بدل ملابس للجنود وإلغاء ورش الترزية، وعدم إجراء ترقيات إلا وفق اللوائح، وزيادة رواتب الضباط والجنود، وإعادة " أحمد عبد الغفار" إلى منصبه . وبعد أن رفع " البارودى" الأمر لمجلس النظار برئاسة " رياض " ووافق على أبرز مطالب العسكريين وأقيمت وليمة كبرى أكد فيها " رياض" بأن الخديوى قد بعث فى مصر الحياة، وتحدث " عرابى " فاعتبر المصريين والأجانب إخوانا يعملون من أجل الوطن، ثم أقسم وصحبه يمين الطاعة للخديوى (٧٣)، ولم يشر من قريب أو بعيد إلى ما يعانيه الشعب من الأجانب وبخاصة الفلاحين، ولم تكن هناك أية أبعاد لما قاموا به بل كانت ـ كما سبق القول ـ مطالب خاصة نابعة من الخوف، وموجهة من جهات غير شعبية تخلو تماما من البعد الوطنى .

وأقال الخديوى " البارودى " من منصبه حين رفض " البارودى" إبعاد " عبد العال حلمى" وعين صهره " داود يكن" ناظرا للحربية مما دعا الضباط للارتياب مما ينويه الخديوى تجاههم، وقدموا مذكرة إلى " رياض باشا " ببعض المطالب كنوع من جس النبض أيضا، فصدق ما توقعوه حيث أعاد " رياض" المذكرة إلى " عرابى " مشفوعة بلفت نظر (٧٤) .

وتحت ستار الإصلاح أصدر " رياض " بعض التشريعات بمساندة من " توفيق" والتى كانت ستلحق الضرر بكبار الملاك من الأعيان، فاندفع الأعيان لمساندة العسكريين، واندفعت الصحف ـ من خلال المحافل ـ لدفع الأحداث إلى طريق العنف الذى حذر منه البعض مثل " الشيخ محمد عبده " (٧٥) .

وعلى أثر قيام ناظر الجهادية بنقل بعض الآلايات العسكرية بعيدا عن العاصمة أدرك الضباط أن القصد هو محاولة إضعاف قوتهم ثم تصفيتهم، وأثير شعور الارتياب عن تفكيرهم فى القيام بمظاهرة عسكرية سنة ١٢٩٨هـ/ يوم ٩ سبتمبر

١٨٨١م، وقد لعبت الصحف ـ وبخاصة ذات التوجه الإسلامي ـ دورا واضحا فى هذه الأحداث، وكان اشتعال فكرة الجامعة الإسلامية، واحتلال فرنسا لتونس من أهم العوامل التى أسهمت فى إثارة جماهير المسلمين فى مصر ضد الأجانب والتى ألهبتها مقالات الشيخ " حمزة فتح الله " الذى فرمن تونس إلى مصر ليشارك فى تحرير جريدة الإسكندرية، وكذلك الحجاز والفسطاط " لإبراهيم سراج "، وصحيفة الاتحاد العربى التى كانت تصدر فى لندن والتى كان وراءها " بلنت " و" جريجورى" و" محمد عبده "، والتنكيت والتبكيت " لعبد الله النديم "، والوقائع والشورى " لمحمد عبده "، وكانت جريدة مصر من أوضح الصحف التى يبدو منها تحريك الإنجليز لها حين نادت بشعارات وطنية ولكن فى إطار الدعوة للتفاهم مع الإنجليز الذين يؤيدون ـ كما أعلنت الصحيفة ـ على لسان ملكهم " شارل ديلك " ـ ثورة عرابى(٧٦)، ولعل ذلك يوضح دور المحافل الماسونية والقوى الأجنبية وراء الأحداث وهدفهم منها .

وعلى الرغم من أن " عرابى " قد حركته الريبة والمطالب والمصالح الخاصة بفئته العسكرية حتى هذه الأحداث وهو الأمر الذى جعل البعض يذكر أنه لم يكن يمثل مطالب الأمة (٧٧)، وأنه كان يحسب حساب القوى الأجنبية دون أن يسعى ـ وكان هذا أكثر من حدود إمكانياته ـ للقوى الشعبية، إلا أن الصحف التى قصدت إثارة القوى الشعبية، ومن خلال العامل الدينى فى المقام الأول، وربطها به قد وجهت " عرابى " وصحبه تجاه هذ القوى، فتلاقت دوافع الصدق ـ النسبى ـ فى مظاهرة عابدين سنة ١٢٩٨هـ/ ٩ سبتمبر ١٨٨١م (٧٨)، وعبر عنها " عرابى " فى العريضة التى قدمها للخديوى وأطلق عليها مطالب الأمة على الرغم من خلوها من تفاصيل لمطالب تحد من ظلم الكادحين أو تتفق ومصالحهم .

وتركزت مطالب العسكريين بزعامة " عرابى " عل إسقاط وزارة " رياض" وتشكيل مجلس نيابى على النسق الأوربى وزيادة عدد الجيش إلى القدر المحدد فى الفرمانات السلطانية، وقد رفض الخديوى هذه المطالب وذكر لعرابى " أنكم عبيد إحساننا "، فرد " عرابى " لقد خلقنا الله أحرارا ولم يخلقنا تراثا وعقارا فوالله الذى لا إله إلا هو إننا لا نورث ولا نستعبد بعد هذا اليوم " (٧٩) .

وعلى أثر توسط القنصل الإنجليزى " كوكس" أقال الخديوى الوزارة، وترك "عرابى " ميدان عابدين، وطالب بتعيين " شريف باشا " رئيسا للوزراء (٨٠) .

وجاءت وزارة " شريف " مخيبة للآمال حين شرعت في تشتيت شمل العسكريين، وحذر " البارودى " " شريف باشا " من ترك " عرابى " بالقرب من موطنه " الشرقية "، ولعل ذلك يؤكد حرصهم على استخدام العسكريين فى سبيل مصالحهم أكثر من حرصهم على استخدام العسكريين فى إحداث أى نوع من الإصلاح . وحاول " شريف " استدعاء " عرابى " وترقيته، لكن عرابى رفض — خوفا — هذا العرض لإدراكه لطبيعة دور هؤلاء (٨١) .

وفى سنة ١٢٩٩هـ/ فبراير سنة ١٨٨٢م، انتخب مجلس جديد للنواب برئاسة " محمد سلطان باشا " (٨٢)، واندفع أعضاء المجلس من الأعيان لحماية مصالحهم من خلال مناقشة الميزانية، ولم يرق هذا الأمر لإنجلترا وفرنسا فرفضتا مناقشة المجلس لها وأيدهم رئيس الوزراء " شريف باشا "، فثار النواب عليه ساندهم العسكريون الذين سيطروا على الموقف داخل المجلس، فأقيل " شريف " وعين البارودى" رئيسا جديدا للوزراء وعين " عرابى" ناظرا للجهادية . وأقدم " عرابى" على التخلص من الضباط الجراكسة فى الجيش فأحال الكثير منهم إلى الاستيداع، وأرسل أغلب من بقى منهم إلى السودان مما دفعهم لتدبير مؤامرة لإغتياله، فقبض على الكثير منهم وحاكمهم وقضى بنفيهم إلى أقاصى السودان (٨٣)، ورفض الخديوى التصديق على الأحكام مما أثار العسكريين، وعرض الخديوى إرسال لجنة تحقيق من الباب العالى فى حين رأى العسكريون عرض الأمر على مجلس النواب، ورفض الخديوى إستدعاء المجلس، وتحجر الموقف لينذر بقرب حدوث إنفجار (٨٤) .

وأدرك لخديوى أن الموقف قد حان للإعراب عن حاجته إلى قوة عسكرية من الخارج فطلب ذلك من الباب العالى، ويبدو أنه حين طلب منه الباب العالى توضيح من يقف وراء الثوار ذكر أنه لايدرى، ولكن يعلم وقوف فرنسا خلفهم وهو أمر أعلنته جريدة " اللطائف" (٨٥)، وأنها — أى فرنسا — تؤيد " حليم " ضده، وكذلك يبدو من إبلاغه الباب العالى أن صحيفة " أبو نضارة " كانت تطبع فى باريس وتهرب إلى مصر وتوزع مجانا على العسكريين(٨٦)، كما كان يدرك أبعاد الدور الإنجليزى فى إثارة الأحداث ففى الوقت الذى نصحه فيه مندوبى إنجلترا وفرنسا " ماليت " وسفنكى " باستخدام صلاحياته فى مسألة مؤامرة إغتيال" عرابى " دون إنتظار الباب العالى نصحوا فيه " البارودى " بفصل الضباط الجراكسة المتآمرين دون استشارة الخديوى، كما اتفق " توفيق" و" ماليت " على الكتابة إلى البلاد

الأوربية عن طريق القناصل بأن " البارودى" يهدد بعمل مذبحة للأوربيين في مصر، في نفس الوقت الذى أبلغوا فيه ذلك " للبارودى " (٨٧).

وتمكن الخديوى و" ماليت " من تقريب " محمد سلطان " رئيس مجلس النواب ـ الذى كان يقوم بدور التجسس للمخابرات العسكرية الإنجليزية على " عرابى " وأحد أعضاء جمعية حلوان الماسونية ـ واتفقوا على طلب إستقالة الوزارة وإبعاد الضباط في نفس الوقت الذى تحركت فيه الأساطيل الإنجليزية الفرنسية صوب الإسكندرية . وقدم " ماليت " مذكرة معلنة إلى الخديوى بالمطالب التى كانوا قد اتفقوا عليها لعرضها على " البارودى " و" عرابى "، وأبلغ " البارودى" الخديوى برفضه هذه المطالب، فرفض الخديوى الرد، فقدم " البارودى " إستقالته مما أدى إلى تفاقم الأحداث وبخاصة بعد أن دبر الإنجليز مذبحة للأجانب في الإسكندرية كى تكون مبررا للتدخل العسكرى (٨٨)، وفى نفس الوقت طلب الخديوى من " عرابى " الاستمرار كناظر للجهادية إستكمالا للتدبير .

وكان الباب العالى قد أبدى إحتجاجه على أى نوع من التدخل العسكرى الخارجي في مصر، وطرح فكرة إرسال قوات عثمانية مما أثار الإرتياب في نفوس قوى التآمر الأجنبى، وسارعت فرنسا باقتراح عقد مؤتمر دولى في الآستانة أقرت فيه الأطراف بعدم التدخل في مصر، ولكن إنجلترا أضافت عبارة إلا في الضرورة القصوى، ولعل في ذلك ما يؤكد دور الإنجليز في دفع الأحداث إلى الحد الذى يسمح لهم بالدخل العسكرى (٨٩) .

الطابع الإسلامى للثورة ومحاولة إنقاذ مصر :

لعل إدارك كل القوى المتصارعة لدور العامل الدينى وإثارة مشاعر المسلمين المصريين في هذا السبيل ليؤكد الطابع الحقيقى لهذه الثورة وهو الطابع الإسلامى إذا كنا سنرصد الحدث التاريخى من زوية صانعة لا مصطنعية .

فذكر المؤرخ الألمانى " شولش أنه على الرغم من إفتقار القرية المصرية إلى الوعى السياسى والتنظيم إلا أن الفقر والعوز لم تضعف سمة الإصرار التى ميزت الشخصية الجماعية فيها فجموع الفلاحين مرتبطون بالأولياء والغيبيات التى كانت تفوق تعاليم الأزهر قوة (٩٠) .

وحين سمح للصحف ذات التوجه الإسلامى ـ والموجهة في أغلبها ـ أن تلهب مشاعر الشعب وتربطه بعرابى، سارعت أقلام الكتاب المسلمين ـ مخلصين

أو موجهين – لإثارة الشعب ضد النفوذ والتدخل الأجنبى والخديوى الأمر الـــذى أثار المندوب الإنجليزى فكتب إلى وزير خارجيته بشـأن إحدى هذه الصحف وهى " المفيد " لمحررها " حسن الشمسى " مما جعل الجريدة ترد على مخاوف المندوب الإنجليزى فكتب الشمسى يقول : " أظهرت لنا الأديان أننا لا نرفع سلاح الكراهيـة إلا فى وجه من حاربنا منهم ونهتنا عن توجيه الإيذاء لمن كان بيننا وبينه مودة " (٩١) .

وحــين نجح الإنجليز فى الضغط على الباب العــالى وأصدر منشورا بعصيان " عرابى " والمحافظة على الخديوى رفض " عرابى " نشر المنشور خشية تقلــب القلوب عنه، ويذكر " إسماعيــل سرهنك " أن " عرابى " وقــع اليأس فى نفســه بعد قراءة منشور السلطان وأقر إخفاء ذلك عن الجند . لكن الخديوى أدرك ذلــك ونشر المنشورين بين الجند مما جعل اليأس يتسرب إلـــى نفوســهم، وضعفـت حميتهم الدينية حين رأوا أنفسهم عصاة على السلطان ومخالفين لكتاب الله وســنة رسوله (صلى الله عليه وسلم) (٩٢) .

وحاول " عرابى " استعادة تأثيره بين الناس فدفع الصحافة فــهاجمت البعثــة العثمانية التى كانت وراء المنشور ولكن حرصت على إبداء حــرص " عرابــى " على دوام الارتباط بالدولة العلية، وركزت على مهاجمة الأجانب واعتبار الحـــرب معهم حربا صليبية . وكان ذهاب المتطوعــين إلى ميادين القتال أفواجـا برئاسة " الشيخ حسن العدوى" من بين عوامل رفع المعنويــات، ووزع طلبــة الأزهــر المنشورات التى تحث على الجهاد، وواصلت الصحف مساعيها لاحتواء الأزهـــر وامتلأت المساجد بالداعين إلى مناصرة عرابى، وقام عرابـــى وصحبــه بتعييـن الشيخ الامبابى شيخا للأزهر، والتبرع بالأموال لمساعدته وفتح بلادهم وبيوتـــهم للمهاجرين بسبب الحرب بعد دخول الإنجليز الإسكندرية (٩٣) .

وكانت الصحف قد واصلت إثارة مشاعر المسلمين فوصفت " عرابى " بحامى حمى المسلمين، وهيجت المشاعر ضد الأجانب، وهاجمت الحضارة الغربية، وممـا زاد من هياجها وهجومها على الأجانب مهاجمة جريدة LE EGYBTE الفرنســية للنبى محمد صلى الله عليه وسلم ووصفه بأنه نبى مزيف (٩٤)، واضطر " شريف باشا " إلى وقف هذه الجريدة خشية حدوث المزيد من هياج العلمـــاء والمشـــايخ وأوقف معها جريدة " الحجاز" بناء على طلب من القنصل الفرنسى (٩٥) .

وبدأت الصحف تصف " عرابى " بمولانا و أمير المؤمنين، وفــى نفــس الوقــت حاولت إثارة الرأى العام ضد الخديوى فذكرت جريدة " المفيد " أن الخديوى أطلــق النار على خطيب دعا فى المسجد للمسلمين بالنصر فى صلاة الجمعة، وأنه أمــر بسجن " الشيخ عفيفى " بسبب دعائه للمسلمين (٩٦) .

وأشيع فى أعقاب ذلك أن الخديو متحالف مع الإنجليز وأنه السبب فى هتــك أعراض المسملين وقتلهم فى الإسكندرية، وأن " عرابى " الذى يحفظ القرآن وابن العالم الأزهرى سيكون واليا عليهم لأنه من السلالة النبوية الشريفة وولــى مــن أولياء الله المكشوف عنهم الحجاب . وطاف العلماء فى القرى ليعلنوا للناس أنــه توجد نصوص قاضية على أن " عرابى " سينتصر ويتسلم ولاية مصر بــدلا مــن الخديوى، ويجرى رفع المظالم، ويعيد قطع دابر الإفرنج والأتراك، وتبقى الحكومة لزمام المصريين فى الوظائف وتنحصر فى الفلاحين الذين هم عمــد البــلاد، وأن "عرابى " سيصير ملكا للعرب عموما بما فيها الشام والحجاز (٩٧) .

وذكرت الصحف الناس بالثواب الذى ينتظر من يجاهد فى سبيل الله ضد أعداء الله، وأن النبى صلى الله عليه وسلم قد وعد من يزود عن بلاد الإسلام بعون مــن الله .. وامتلأت بالآيات القرآنية الداعية إلى الجهاد مثــل " إن الله اشــترى مــن المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة "،" والذين قتلوا فى سبيل الله فلن يضــل أعمالهم سيهديهم ويصلح بالهم ويدخلهم الجنة، " يا أيها النبى حرض المؤمنيــن على القتال "، كما ذكرت بعض الصحف أن الحرمين الشريفين يتعرضان لتــهديد الإنجليز، وطالبت بحماية الوطن والعرض منهم (٩٨) .

وبدت ملامح إستجابة الفلاحين لهذا التأثير فتكــون منــهم حــزب أســموه " حزب الله " أعلن أتباعه الجهاد ضد المعتدين الكفار . وأقبل أبناء الفلاحين علــى التطوع فى الجيش بعد أن اعتادوا الهروب من التجنيد، وتعالت نداءات الأهــالى بنصرة " عرابى " فقد نادى " عبد ربه يوسف عبده " (٩٩) من كفر عبد الخــالق بمديريات المنيا بالتوجه إلى " عرابى " حيث هو من نسل المبرور،، وأن الله بعثه لحماية الوطن والدين وسيجعله واليا على القطر المصرى (١٠٠) .

وذكر البعض أن جموعا من النساء قد تبرعن بحليهن عــن طيــب خــاطر، وهرع الشيوخ إلى المساجد للدعوة لنصرة " عرابى " لدرجة دعــت " عرابــى " للتفكير فى تكوين قوة منهم لحماية المدينة أو إرسالهم إلى جبهة القتال إذا لــزم الأمر (١٠١) .

وردا على فتوى " الشيخ محمد العباسى " بعصيان " عرابى " أفتى " الشيخ حسن العدوى " بشرعية عصيان الخديوى وأن الوقت قد حان لنشوب حرب مقدسة وأيده فى ذلك " الشيخ عليش " حيث اعتبرا جمع من المشايخ معهما أن انحياز الخديوى للإنجليز مروق عن الدين (١٠٢) .

وعلى الرغم من خلو صفوف المتطوعين من النصارى إلا أن بعض كبار الملاك منهم تبرعوا لعرابى، كما أن العناصر النصرانية قد شاركت فى المناطق التى داهمتها أحداث الحرب بالضرورة، هذا على الرغم من أن سلبية البعض منهم أو مساندة البعض للعناصر الأجنبية المعادية ـ وهم قلة ـ قد جعلهم مستهدفين لبعض الإنتفاضات كما حدث فى طنطا حين تعرضوا هم وبعض اليهود والأروام لهجوم أودى بحياة بعضهم (١٠٣) .

ويبدو جليا أن " عرابى " حين طور من حجم المطالب الخاصة بشريحته العسكرية إلى مطالب أغلب الكادحين، ومن حجم دوره فى لعبه التنافس بين القوى الأجنبية إلى دور المدافع عن مطالب وطنية،وربط مصيره بمصير قطاع كبير من الشعب ضد أعداء البلاد وأعداء الدين " الكفرة " تبوأ مكانه الزعامة فى نفوس المصريين وانتقل من مجرد أميرآلاى متمرد إلى بطل شعبى،ولم يعد يبدى أفكارا تنافى توجيهات غالبية شعب مصر المسلم كالدولة العلمانية أو الجمهورية أو الزعامة القومية بل هو الجهاد ضد أعداء الشعب وأعداء الإسلام، ولو أنه أبدى مثل هذه الأفكار المعادية لتوجهات غالبية الشعب خلال التدخل العسكرى الأجنبى، أو عرف الناس طبيعة دوره السابق فى الإتصال بالجمعيات السرية اليهودية أو قناصل الدول الأجنبية لكان قد فقد مكانته لديهم ولما استحق أن يصبح فى نظرهم زعيما لثورة شعبية . وبهذه الروح حقق " عرابى " ـ رغم تباين التسليح والتنظيم ـ العديد من مواطن الإنتصار التى فاقت بعض التوقعات.

وعلى ذلك، وكما سبق القول، فإنه يصعب وصف هذه الثورة بأنها كانت ثورة إجتماعية حيث خلت من البعد الإجتماعى بالنسبة لانتماء القائمين بها والمؤيدين لها فى البداية وهم من الأعيان وكبار الملاك، ومن بينهم " عرابى " إلى فئة تسعى لإقرار الواقع لا إلى تغييره (١٠٤) . كما أنها لم تكن ثورة سياسية تقصد تغيير نظام الحكم وفرض نظام بديل . وكذلك لا يمكن إضفاء الطابع القومى عليها حيث كان دعاة القومية فيها لا ينتمون إلى جذور شعبية أو يعبرون عن شريحة أو فئة من المصريين بل كانوا أقليات وافدة غرباء فى جذورهم وثقافتهم . أما

الذين تمكنوا من إثارة مشاعر غالبية الشعب ونجحوا فى ربطهم بدور " عرابى " وأسهموا فى تحوله إلى زعيم شعبى فكانوا يمثلون البعد الإسلامى بكل أبعاده وإن اختلفت مآربهم وأهدافهم ومصالحهم فالشيخ حمزة فتح الله " من تونس، " والشيخ إبراهيم سراج " من الجزائر، و" الشيخ عليش " من المغرب، " والشيخ محمد عبده " و " عبد الله النديم " من مصر وغيرهم، جمعهم نداء الجهاد ضد أعداء الإسلام بغض النظر عن كون ندائهم أو دعوتهم هدفا أو وسيلة، لكنه الميدان الذى مكنهم من الوصول إلى قلوب الكادحين واستجابتهم، فتأثر هؤلاء الكادحون بالعامل الدينى بغض النظر عن تأثر مهيجيهم بعوامل أخرى تتصل بمصالحهم ومآربهم الإقتصادية والسياسية .

وأدرك " عرابى " تأثير هذا العامل الدينى فبدأ يرسل الصحف ذات التوجه الإسلامى إلى الهند والبلقان والآستانة أملا فى كسب تأييدهم، كما كان أساسا فى جمع الناس حوله فى مصر، وهى فترة يمكن الدمج فيها بين طموحات عرابى وأهدافه العامة للكادحين من المسلمين والنصارى معا .

وبشكل عام، فإن طابع الثورة، كما ذكر المؤرخ الألمانى " شولش " كان نضالا دينيا خلا من مفهوم الدولة القومية العلمانية (١٠٥)، أو بمعنى أوضح كانت ثورة شعبية إسلامية بطلها الحقيقى والأول هو شعب مصر المسلم مهما كان هدف الذين قادوها المتمثل فى الدفاع عن مطالب فئوية خضعت لتأثير المصالح الاقتصادية لدى الدول الاستعمارية التى كانت وراء الأحداث .

المراجــع والهــوامــش

(١) د. جلال يحيى : المغرب الكبير، ص٢٦٠. ويذكر أن كثيرا من المؤرخين قد سـعى إلـى التضخيم فى صراع تونس والجزائر بقصد تأصيل البعد القومى ولكن هذا العامل لـم يكـن موجودا .

(٢) د . جلال يحيى : المرجع السابق، ٢٥٩، د . صلاح العقاد : المغرب العربى، ص ١٧٤ .

(٣) د . صلاح العقاد : المرجع السابق، ص ١٧٤ .

(٤) د . صلاح العقاد : المرجع السابق، ص ١٧٦ .

(٥) د.صلاح العقاد : المرجع السـابق، ص ١٧٩، د. جـلال يحيـى : المرجـع السـابق، ص ٢٦٨ .

(٦) د. جلال يحيى : المرجع السابق، ص ٢٦٩.، ويراعى أنه وصف هذه الثورة بأنها حركـة رجعية .

(٧) د. صلاح العقاد : المرجع السابق، ص ١٨٦

(٨) د. صلاح العقاد : المرجع ألسابق، ص ١٨٣ . تبدو محاولته فى استقطاب الـرأى العـام المسلم من سياسة توثيق الروابط مع الدولة العثمانية وعقـده فرمان معها سـنة ١٨٧١م نظم العلاقات بين الجانبين .

(٩) د . جلال يحيى : المرجع السابق، ص ٢٧٢ .

(١٠) المرجع السابق، ص ٢٧٠ .

(١١) المرجع السابق، ص ٢٧٤ .

(١٢) المرجع السابق، ص ٢٧٤ .

(١٣) د صلاح العقاد : المرجع السابق، ص ١٩٥ .

(١٤) مجلة المجتمع الكويتية : ٢٥مارس ١٩٨٦م (الماسونية العربية) .

(١٥) د. جلال يحيى : المرجع السابق، ص ٢٨٥ . ويذكر أن الإيطاليين هـاجموه واعتـبروه دسيسة فرنسية بل وآله فى يد فرنسا .

(١٦) د. صلاح العقاد : المرجع السابق، ص ١٨٥ .

(١٧) شولش : مصر للمصـريين، ت : د . رءوف عباس، ص ١٣، ويطلق عليـها البعـض حركة .

(١٨) د . على بركات : حركة المطالبة بالأرض فى الثورة العرابية، ص ٣٤٨ .

(١٩) د. على بركات : المرجع السابق، ص ٣٤٩ .

(٢٠) عن أثر سياسة الاحتكار والضرائب والسخرة التى اتبعها محمد على . أنظـر : د. علـى شلبى : الريف المصرى فى النصف الثانى من القرن التاسع عشـر (١٨٤٧ــ ١٨٩١) دار المعارف ١٩٨٣، ص ٥١ وما بعدها .

(٢١) د . على بركات : المرجع السابق، ص ٣٥٣ ــ٣٥٥ .

(٢٢) تبرع إسماعيل بتسعة آلاف جنيه لدار الأوبرا رغم ديونه، وما كان ذلك إلا سعيا للتقـرب من العناصر الأجنبية والمحفل الماسونى الفرنسى . د. الحديدى : عبـد الله النديـم، ص ١٦٧ . وكانت عروض الأوبرا موجهة من هذا المحفل وبقصد هدم التقـاليد الاجتماعيـة والثقافية المستمدة من التراث الإسلامى ومركز من مراكز اللهو والفجور . ونشير هنا إلى أن الذى تولى ترجمة القانون الفرنسى سنة ١٨٦٣م للعمل به فى المحاكم كبديل للشـريعة الإسلامية هو رفاعة الطهطاوى تنفيذا لتوجهات إسماعيل باشا .

(٢٣) د. الحديدى : المرجع السابق، ص ١٦٧، وهى أمور تدعو لإعادة النظر فى أصل " محمد على " ويراعى سيطرة العناصر اليهودية على البنوك التى تأسست خلال هذه الفترة والتى أحكمت قبضتها على الاقتصاد المصرى . أنظر : محمد نور عارف : تـاريخ غـزو رأس المال الأجنبى لمصر ١٨٥٤ــ ١٨٨٢ . رسالة دكتوراه غير منشورة ــ آداب المنيا، سـنة ١٩٨٠، ص ١٤٨ .

(٢٤) شولش : المرجع السابق، ص ٤١، ٤٤ ــ ٤٦، ويراعى أن أملاك الطهطاوى لم تأتـه عن طريق الميراث .

(٢٥) شولش : المرجع السابق، ص ٢٥ ــ ٢٧ .

(٢٦) شولش : المرجع السابق، ص ٢٧ ــ ٢٩ .

(٢٧) د . أحمد عبد الرحيم مصطفى : قيادة الثورة، ص ١٩٠ .

(٢٨) د . رؤوف عباس : المرجع السابق، ص ٥٣ ــ ٥٦ .

(٢٩) تعددت الصحافة بشكل يثير التساؤلات عن مصادر تمويلـها والقـوى الكامنـة خلفـها وأهدافها وغير ذلك، فكانت " مصر" والتجارة " والمحروسة " والفسطاط " والعصر الجديـد" ومـرآة الشـرق " وصـدى الأهـرام " و "الأهـرام و" الوقـت والأفكـار و" الوقـائع " و" الإسكندرية " ثم الصحف ذات التوجه الإسلامى مثل " الحجاز " و" البرهان " و" السـفير" و" المفيـد " وصحف النديم وغير ذلك من صحف مثل " مصر القاهرة " .. وأبو نضـارة " و" الوقائع " والشورى " و .. .. ..

(٣٠) شولش : المرجع السابق، ص ٦٧ .

(٣١) شولس : المرجع السابق، ص ١٦٤، وهذا الارتباط هو أساس الشهرة .

(٣٢) المرجع السابق، ص ٦١، ويراعى أن " محمد على " قد جعل من مصر ميـدان تجـارب لغير أبنائها على حساب شعبها.

(٣٣) حول حقيقة نسبه وما ورد فيه إنظر : د . طلعت اسماعيل رمضان : محمد شريف باشـا ودوره فى السياسة المصرية، القاهرة ١٩٨٣ م ، ص٢٦ وما بعدها .

(٣٤) شولش : المرجع السابق، ص ٧٠ .

(٣٥) د.رؤوف عباس : المرجـع السابق، ص ٤٧ . وقـد مـات نقـاش فـى الإسـكندرية سنة١٨٨٤ .

(٣٦) د. إبراهيم عبده : أعلام الصحافة العربية، ص ١١٦- ١٢٤ .

(٣٧) د . رؤوف عباس : المرجع السابق، ص ٤٦ .

(٣٨) كان " أحمد يكن " يملك ٣٣,٤٣٨ ألف فدان .

(٣٩) شولش : المرجع السابق، ص ١٣٩ . وقد تحول بعد ذلك إلى محفل الأفغانى التابع لأحد المحافل الفرنسية .

(٤٠) د . لطيفة سالم : صحافة الثورة العربية، ص ٢٨٦ .

(٤١) د . على شلبى : الثورة العرابية، ١٣٤ .

(٤٢) دخل " إسماعيل " الماسونية فى ٢٩ أبريل سنة ١٨٧٣ بعد سنوات من دعمه لها وسعيه للإنضمام إليها، وساعده فى هذا السبيل الإمبراطور الفرنسى نـابليون الثـالث . أنظـر : حسين عمر حمادة : المرجع السابق، ص ٢٢١ .، نقلا عن شاهين مكاريوس : إسـماعيل باشا - اللطائف جـ٣ السنة ٨ فى ١٥ مارس سنة ١٨٩٥ م، ص ١٠١، ١٠٢.

(٤٣) حسين عمر حماده : المرجع السابق، ص ٢٢١ .

(٤٤) المرجع السابق، ص ٢٢٢ .

(٤٥) عبد المجيد يونس : المحفل الأكبر الوطنـى المصـرى، ص ٩ . وكـان حليـم يملـك (٤١٤٤٨) كما نفى "إسماعيل" أخوه "مصطفى فاضل "واسـتولى علـى أملاكـه البالغـة (٢٠٧٠٢)فدان، . شولش : المرجع السابق، ص ٣٠، ولهذا احتمى حليم بـالإنجليز فـى حين ظل مصطفى فاضل يهاجم السلطان العثمانى وفكرة الجامعة الإسلامية، ومن بين أبنائه نازلى فاضل التى احتمت بالمحافل الماسونية وشاركت بنشاط فيها . وكان مصطفى فـاضل منتميا إلى جمعية شباب العثمانيين التى تأسست علم ١٨٦٥م وكانت تستلهم أفكارها مـن الكاربوناري الإيطالى وهو أسلوب من أساليب الماسونية . د . أحمد عبد الرحيم مصطفى : فى أصول التاريخ العثمانى، ص ٢٢٧ .

(٤٦) زكى إبراهيم : صوت الماسونية أو التقويم الماسونى العام لمحفل منف. ص ١٦٦.

(٤٧) حسين عمر حمادة : المرجع السابق، ص ٢٢٢ . ويراعى أن عام ١٨٩٩م الذى أنشىء فيه هذا المحفل هو نفس العام الذى وقعت فيه اتفاقية السودان بين انجلترا ومصر (الواقعة تحت احتلال انجلترا) وهى أمور تشير إلى الربط بين المخططات الاستعمارية ونشاط المحافل الماسونية .

(٤٨) نوفان قرقوط : الماسونية العربية ــ محاولة أولية لتقديم صورة عن موقفها من الصهيونية فى فلسطين ــ مجلة قضايا عربية ــ العدد(٩) ــ بيروت، يناير ١٩٧٥م، ص١٢.

(٤٩) حسين عمر حمادة : المرجع السابق، ص ٢٢٢، ٢٣٠، وكان الماسونى " ديوانيس أكونوموبولو " قد عين أستاذا أعظم سنة ١٨٨١م، ولكن الماسونية ضعفت فى عهده مما حدا بأعضائها لطلب تعيين " الخديو توفيق " ليكون أستاذا أعظم، وقبل ذلك سنة ١٨٨٨م وعين الأخ كلى احترام " حسين فخرى " ناظر الأشغال العامة نائبا عنه، ولكن الخديوى أبدى رغبته بترك هذه المهمة سنة ١٨٩١ فعين " إدريس راغب " فى هذا المنصب .

(٥٠) د . رءوف عباس : مصر للمصريين، المعارضة الوطنية وإرهاصات الثورة، ٥٩ .

(٥١) أحمد أمين : زعماء الاصلاح فى العصر الحديث ــ القاهرة سنة ١٩٤٩م، ص ٧٤ .

(٥٢) د . سامى عزيز : الصحافة المصرية ــ القاهرة، سنة ١٩٦٨، ص ٣١٦.

(٥٣) لم تضم جمعية حلوان سوى شريف وشاهين وإسماعيل راغب . وعمر لطفى الذى اشتهر فى مجال العمل التعاونى . وقد عمل يعقوب صنوع فى صفوف الماسون الذين ساندوا حليم ابن محمد على وكذلك أديب اسحاق وسليم نقاش الذين تقلبوا بينه وبين توفيق بتغير انتماءاتهم الماسونية أنظر : د . على شلش : المرجع السابق ص ٢٢٤.

(٥٤) كان للإنجليز شبكة من القنصليين المحليين منهم (روفاييل بورج) نائب القنصل بالقاهرة الذى كانت لديه مصادر المعلومات الخاصة من خلال دوره فى المحافل الماسونية فى مصر. شولش : المرجع السابق، ص ١٠ . على أن جمعية حلوان لم تستمر طويلا حيث سحقها رياض .

(٥٥) د . رءوف عباس : مصر للمصريين ــ المعارضة الوطنية وإرهاصات الثورة ــ القاهرة سنة ١٩٨١م ص ٥٩، ويذكر زكى إبراهيم فى كتابه " صوت الماسونية " أنه لم يكن الإنجليز يستفيدون من أحرار المصريين فحسب بل كانوا يظهرون التودد لعناصر المقاومة أينما كانت يسندونها ويعدونها ويزيدون نارها اشتعالا " زكى إبراهيم : صوت الماسونية أو التقويم الماسونى العام لمحفل منف، ص ١٦٦. ويذكر شولش التوافق بين عرابى وبلنت حول الفكرة العربية . المرجع السابق ص ٢٣٨ ويذكر أيضا أن" كولفن برغم شكه فى

أبعاد الحركة العرابية إلا أنه أوصى بعدم إحباطها بصفتها حركة ليبرالية، وطالب بوضع حدودها بوضوح وأنها لا يجب أن تؤثر على مؤسسات المراقبة،كما رأى " ماليت " أن السياسة البريطانية لا ينبغى أن تضع عقبات فى طريق الحركة بل يجب أن تؤيد ها إذا لم تندفع بسرعة نحو المزيد من التغييرات، وطلب من " بلنت" تهدئة أصدقائه المصريين على النوايا البريطانية، شولش : المرجع السابق ص ٢٤٤ .

(٥٦) قال شريف باشا للمستر " بلانت " إن المصريين أطفال ويجب أن يعاملوا باعتبارهم كذلك د. أحمد عبد الرحيم مصطفى : قيادة الثورة العرابية ــ مصر للمصريين، ص ٢٠٢ .

(٥٧) نجدة صفوة : المرجع السابق، ص ٥٢ .

(٥٨) كانت جريدة " أبو نضارة " لمحررها اليهودى الماسونى " يعقوب صنوع " هى لسان حال جمعية مصر الفتاه د . عبد المنعم الجميعى : وقائع الثورة، ص ٧٥، د . على الحديدى : عبد الله النديم، ص ٨١ . وقال عنها الشيخ محمد عبده (أى جمعية مصر الفتاه) أنها لم تضم مصرى واحد حقيقى وأن أغلب أعضائها من اليهود الذين يتمتعون بالحماية الأوربية فمنهم ٦ أو ٧ من اليونانيين وواحد من مالطة . شولش : المرجع السابق، ص ١٤٥ . وكان بيان الحزب الوطنى الذى وزعه شريف باشا سنة ١٢٩٦هـ/ ١٨٧٩م لمهاجمة وزارة رياض باللغة الفرنسية وناشد فيه الزعيم الألمانى بسمارك أن يوفر لهم الحماية، وبشكل عام فإنه إذا كانت الظروف قد جعلتهم فى موطن صناعة القرار إلا أنهم لم يشكلوا جزءا من نسيج المجتمع المصرى وبالتالى اقتصرت مشاركتهم فى الأحداث على حماية مصالحهم ومن خلال مسرحية صاغتها القوىٰ الأجنبية .

(٥٩) يراعى أن عرابى اشترى ٨١٠ فدان من أملاك الدولة فى أول عام ١٢٩٩هـ/ ١٨٨٢ م وهى الفترة التى كان يعلن فيها نضاله ضد الدولة، شولش : مصر للمصريين ــ ص٤١ . فى حين ورث هو وأخوته عن أبيه ثمانية فدادين ونصف، وكان عرابى فى البداية مجندا برتبة نفر عادى ثم تطور فى سلك الجندية ببعض الوساطات لعل من بينها زواجه بعد ذلك من إحدى بنات وصيفة من وصيفات القصر ــ ومن جهة أخرى .. يذكر المؤرخ الألمانى شولش أن عبد العال حلمى " كان أقل الشخصيات جاذبية ووصفه البعض بأنه جاهل خامل متبجح، وقد رقاه " توفيق " إلى رتبة قائمقام، ولم تشترك فرقته فى الحرب مع " عرابى " . أما " على فهمى " الذى ينتمى إلى المنوفية فكان قريبا إلى البلاط فى عهد " توفيق" فكان ياورا وقائد للحرس الخديوى، ونفى بعد الهزيمة مع " عرابى " وعبد العال حلمى " إلى سيلان "، ثم عاد بقرار عفو سنة ١٣١٨هـ/ ١٩٠١م . على أننا نختلف مع الدكتور رءوف عباس فى اعتباره التنظيم العسكرى الذى ضم هؤلاء الضباط أنه من أبناء الفلاحين

بشكل يوحى بأنه يعبر عنهم .د. رؤوف عباس : المرجع السابق، ص ٦٧ .، ولعل ذلك يتضح من مطالب عرابى التى أسماها مطالب الأمة فى مظاهرة عابدين وهى إسقاط وزارة رياض وتشكيل مجلس نواب على النسق الأوربى وزيادة عدد الجيش وغير ذلك وهى فى مجموعها لا تمثل مطالب الفلاحين ولاتشير إليهم من قريب أو بعيد .د. الجميعى : المرجع السابق، ص ٨١ . كما ذكر الشيخ " محمد عبده " أن الجيش لا يتحدث باسم الأمة، وإن كان قد غير رأيه بعد سقوط وزارة رياض . شولش : ص ٢٠٦ . وأنظر أيضا د. رفعت السعيد : الأساس الاجتماعى للثورة العرابية، مكتبة مدبولى – القاهرة، ١٩٦٦م، ص ١٢٧ .

(٦٠) المرجع السابق : ص ١٣٨ .

(٦١) د. عبد المنعم الجميعى : وقائع الثورة : ص ١١٠ .

(٦٢) د . لطيفة سالم : صحافة الثورة العرابية، ص ٢٨٧نقلا عن البرقيات المتبادلة بين القاهرة والآستانة أثناء الثورة ترجمة الدفتر رقم (٢٨٨) برقية من نظامى باشا إلى كبير أمناء الحضرة السلطانية، ص ١٠ .، كما أن بيان الحزب الوطنى الذى وزعه شريف باشا ليهاجم وزارة رياض سنة ١٢٩٦هـ/ ١٨٧٩م كتب باللغة الفرنسية وناشد الزعيم الألمانى بسمارك أن يوفر لهم الحماية .

(٦٣) حسين عمر حمادة : المرجع السابق، ص ٢٢٣ .

(٦٤) عبد المجيد يونس : المحفل الأكبر الوطنى المصرى، ص .ج .

(٦٥) ولد " إدريس راغب " سنة ١٨٦٢م، وهو ابن " إسماعيل " باشا راغب " الذى أصبح رئيسا للوزارة فى عهد الخديوى " توفيق وأثناء الثورة العرابية وأحد أعضاء جمعية حلوان، وبعد أن قضى " رياض باشا " على هذه الجمعية بإيحاء من " الخديوى " توفيق " حماه القنصل الفرنسى مثل " شريف باشا " . وقد ترك ثروة طائلة " لإدريس " الذى أنفق منها الكثير لخدمة الماسونية . وعين " إدريس" سنة ١٨٩٥م مديرا للقليوبية وأسس بها محفلا ماسونيا باسم عاصمتها " بنها " . وقد اتسع نطاق المحافل الماسونية ونشاطها أثناء رئاسته لها حتى بلغ عدد ها ٥٤ محفلا منها، حمل إسمه " محفل إدريس " نمرة ٤٣، ومحفل راغب نمرة ٥١. وقد ظل رئيسا للماسونية المصرية أكثر من ثلاثين عاما حتى حل محله " الأمير محمد على " كأستاذ أعظم سنة ١٩٢٢م . أنظر : نجدة فتحى صفوة : المرجع السابق، ص ٢٤، شولش : مصر للمصريين، ص ١٦٢، د. رءوف عباس : المرجع السابق، ص ٦٢، حسين عمر حمادة : المرجع السابق، ص ٢٣١ .

(٦٦) عبد المجيد يونس : المرجع السابق، ص . هـ، زكى إبراهيم : صوت الماسونية، ص ١٧١ .

(٦٧) شولش : المرجع السابق، ص ١٨٠، ١٨١ .

(٦٨) المرجع السابق .

(٦٩) لم يكن أحمد عبد الغفار معهم وكانوا ثلاثة .

(٧٠) المرجع السابق : ص ١٨٤، ١٨٥ .

(٧١) المرجع السابق : ص ١٨٦ .

(٧٢) المرجع السابق : ص ١٨٨ . وكان اختيار " البارودى " من الخديوى لا من العسكريين كما يرى البعض .

(٧٣) المرجع السابق : ص ١٩٣ . وقد أقيمت الوليمة فى ١٨٨١/٤/٢٠م .

(٧٤) شولش : المرجع السابق، ص ١٩٤ .

(٧٥) شولش : المرجع السابق، ص ٢٠٦ د. على شلبى، المرجع السابق، ص : ١٥٤حيث يذكر أن اشتراك الأعيان كان يهدف إلى الحصول على قدر كبير من المشاركة فى السلطة فى إطار النظام القائم .

(٧٦) د . لطيفة سالم : المرجع السابق، ص ٢٧٩ ــ ٢٩٦ .

(٧٧) شولش : المرجع السابق، ص ٢٠٦ . ويراعى أنه لم يكتب عن الشورى فى الوقائع إلا بعد خروج رياض من السلطة وقد شبه فى إحدى مقالاته الخديوى توفيق بالخليفة عمر بن الخطاب، واعتبر بعض قرارات توفيق عيدا يستوجب الإحتفال به . نفس المرجع، ص ١٦٩، ١٧٠ .

(٧٨) أحاط عرابى القنصل البريطانى علما فى اليوم السابق للمظاهرة وطمأنه على سلامة رعايا البلاد الصديقة . شولش، ص ٢٠٩ .

(٧٩) د . عبد المنعم الجميعى : المرجع السابق، ص ٨١ .

(٨٠) د. عبد المنعم الجميعى : المرجع السابق، ص ٨٤ .

(٨١) المرجع السابق : ويتضح هنا أن المصالح كانت متبادلة بينهم وبين العسكريين .

(٨٢) كان سلطان قد تقرب إلى السلطان العثماني وقدم له العديد من الهدايا ولكنه كان يعمل جاسوسا لحساب الإنجليز كأحد أعضاء المحفل الماسونى .

(٨٣) د عبد المنعم الجميعى : المرجع السابق، ص ٨٧ .

(٨٤) لعب بلانت دورا واضحا فى هذه الأحداث من خلال صلته بمحمد عبده وعرابى، وسافر إلى بلاده بعد قرب تفجر الأحداث. وكان دوره موجها من قبل المحفل الماسونى .

(٨٥) د. لطيفة سالم : المرجع السابق، ص ٢٩٨ .

(٨٦) شولش : المرجع السابق، ص ٢٢٢.

(٨٧) المرجع السابق، ص ٢٩٣ . ولعل هذا يشير إلى دور الإنجليز في مذبحة الأجانب بالإسكندرية، ويشير البعض إلى قيام عرابى بحرق الإسكندرية قبل أن يدخلها الإنجليز.
د . عبد المنعم الجميعى : المرجع السابق، ص ١٠٠ .

(٨٨) شولش : المرجع السابق، ص ٣١٠، وكان إبعاد عرابى وصحبه عن مصر من بين هذه المطالب .

(٨٩) عقد المؤتمر فى ٢٣/ يونية سنة ١٨٨٢م، ثم كان تدخل الإنجليز فى ١١ يوليو، وقصر المدة بين الحدثين، وصعوبة قبول فكرة فجائية التدخل يشير إلى التدبير الخارجى والداخلى وراء الحدث .

(٩٠) شولش : مصر للمصريين، ص ٥١، ٥٣ .

(٩١) د . لطيفة سالم : المرجع السابق، ص ٢٨٣ .

(٩٢) د . عبد المنعم الجميعى : المرجع السابق، ص١٠٧-١٠٩، شولش : المرجع السابق، ص ٣٤٦ .

(٩٣) د . على شلبى : المرجع السابق، ص ١٣٨، قام بهذا الشيخ محمد عبده .

(٩٤) شولش : المرجع السابق، ص ٢٣١ .

(٩٥) المرجع السابق، ص ٢٢٧ .، وصحيفة الحجاز كان يصدرها إبراهيم سراج الدين المدنى الذى نزح من المدينة المنورة ليدرس بالأزهر وطرد أصلا من الجزائر لموقفه العدائى من الفرنسيين، وكذلك كانت صحيفة البرهان التى كان يحررها الشيخ حمزة فتح الله " التونسى" .

(٩٦) د . لطيفة سالم : المرجع السابق، ص ٢٨٥ .

(٩٧) د . لطيفة سالم : القوى الاجتماعية فى الثورة العرابية ــ هيئة الكتاب سنة ١٩٨١م ص ٣٢٤، د . على شلبى : المرجع السابق، ص ١٧٣ . وقد نادى " يعقوب صنوع " بقيام جمهورية يتزعمها عرابى لكن ذلك لم يكن له تأثيره على جموع الفلاحين .

(٩٨) شولش : المرجع السابق ن ص ٣٤٤.

(٩٩) المرجع السابق، ص ١٦٣ .

(١٠٠) د. على شلبى : المرجع السابق، ص ١٧٥.

(١٠١) د. عبد المنعم الجميعى : المرجع السابق، ص ١٠٧ .

(١٠٢) د علي شلبي : المرجع السابق، ص ١٣٨ . الشيخ عليش مغربي من فاس ولد في وكان مصر معارضا لمحمد عبده والأفغاني، وقد نفي بعد هزيمة عرابي لمدة خمس سنوات شولش : المرجع السابق، ص ٢٢٥ .

(١٠٣) د. علي شلبي : المرجع السابق، ص ١٨٠، وقد استولى بعض الفلاحين في منفلوط بأسيوط على أطيان بعض كبار الملاك من الأجانب والنصارى . د . علي بركات : المرجع السابق، ص ٢٦٧ . كما رفض بعض الفلاحين التخلي عن أراضيهم التي باعوها للأجانب والمرابين كما حدث في شنتنا الحجر مع إخوان بسطولي .

(١٠٤) يمكن اعتبارها ثورة إجتماعية من منظور جموع الفلاحين الذي أعطوها بعدا شعبيا، كما أنهم كانوا يطمعون في التغيير، ولكن ينتفي هذا البعد من قبل قيادات الثورة، وقد اقتصرت رغبة التغيير عند قادة الثورة عند الحد الذي كان سيمكنهم من الحفاظ على مصالحهم الاقتصادية .

(١٠٥) شولش : المرجع السابق، ص ٣٤٤ .

الفصـــل الثــامـــن

العرب والحرب العالمية الأولــى

١٣٣١- ١٣٣٥هـ / ١٩١٤- ١٩١٨م

- مقدمة .
- حركة الشريف حسين ١٣٣٤ هـ ١٩١٦م بين الدعاوى القومية والبعد الإسلامى
- اتفاقية سايكس بيكو واكتمال السيطرة الاستعمارية .
- وعد بلفور سنة ١٣٣٤ هـ ١٩١٧م، وتأثير اليهود على طرفى الحرب .
- الأوضاع السياسية فى الوطن العربى بعد انتهاء الحرب .

مقـــدمة :

كان النفوذ الألماني قد ازداد في الأوساط السياسية العثمانيـــة فـــي الفـــترة السابقة للحرب العالمية الأولى من خـــلال مشـــاركة ألمانيـــا فـــي العديـــد مـــن المشروعات الهامة كمد خطوط سكك حديدية وبعض الاســـتثمارات إلـــى جـــانب المشاركة في إعادة تدريب الجيش العثماني وتسليحه . وقد ســـاعد علـــى ذلـــك استيلاء بريطانيا على العديد من ممتلكات الدولة العثمانية كمصر وقبرص وعدن، وكذلك استيلاء فرنسا على الجزائر وتونس، والتوغل البريطاني في الخليج العربي وأنهار العراق . ومع ذلك ظلت بريطانيا تلعب دور المســـاعد الرئيســـي للدولـــة العثمانية في مواجهة الأطماع الروسية . كما شاركت إيطاليا في هـــذه الموجـــه بالاستيلاء على ليبيا سنة ١٣٢٩هـ ـ ١٩١١م، بعد أن شاركت القوات العثمانية ـ شكليا ـ في الحرب الطرابلسية .

على أن الموقف قد تغير إلى حد كبير عند بدء الحرب حيث تحالفت كل مـــن بريطانيا وفرنسا مع روسيا العدو التقليدي للدولة العثمانية، كما وقفـــت ألمانيـــا وراء النمسا في ضرب الصرب في البلقان وتحطيم أهداف الجمعية السلافية التـــي كانت تود إقامة دولة واسعة ترتبط بروسيا، وبالطبع وقفت روســـيا إلـــى جـــانب الصرب منذ بدء الحرب .

وقد انقسمت الآراء بين أعضاء جماعة الاتحاد والترقي الذين تولوا الســـلطة في تركيا حيث كان الفريق الذي يمثله " جمال باشا " يميل إلـــى اتخـــاذ موقـــف الحياد، وإذا اقتضت الضرورة دخول الحرب فيكون إلى جانب الحلفـــاء بزعامـــة بريطانيا، أما الفريق الذي كان يتزعمه " أنور باشا " فكان يرى دخول الحرب إلـــى جانب ألمانيا . وكان " أنور باشا " متأثرا في ذلك بتعليمه في ألمانيا، كما أنه كـــان يرى أن دخول الحرب إلى جانب ألمانيا سيتيح الفرصة أمامـــه لاســـتعادة مصـــر وقبرص من بريطانيا وأن ألمانيا ليست لها أطماع سياسية في بلاده .

وعلى الرغم من أن " أنور باشا " قد اتجه إلى عقد اتفـــاق ســـري يقضـــي بدخول الحرب إلى جانب ألمانيا دون علم أغلب أعضـــاء جماعتـــه إلا أن وقـــوع حادثة الطرادين قد دفع الرأي العام التركي للتحول إلى تأييده بعد أن كان منقســـما على نفسه أو أقرب إلى الحياد . فكانت بريطانيا تتولى إعداد طراديـــن حربييـــن للدولة العثمانية، واضطرت الحكومة لجمع التبرعات من الناس لســـداد ثمنـــهما، وتبارى الناس في ذلك باعتباره تعبيرا عن الدفاع عن الدولة حتى بلغ الأمر إلـــى

تبرع النساء بالحلى، وفى الوقت الذى تهيأ الناس فيه للاحتفال بنتاج إسهامهم المباشر أعلنت بريطانيا وقف التسليم وضمهما للبحرية البريطانية، وتهيأت الظروف للألمان بتسليم سفينتين كانتا فى مياه المضايق للسلطات العثمانية، فمال الرأى العام لمساندة دخول الحرب إلى جانب الألمان .

وسارع" أنور باشا " الذى أدرك دعم الرأى العام باتخاذ إجراءات استفزازية فى البحر الأسود، وكذلك على الصعيد الاقتصادى أدت إلى أن تعلن دول الحلفاء الحرب على الدولة العثمانية فى آخر أكتوبر ١٣٣٢هـ ١٩١٤م، ولا شك كان لهذه الخطوة أثرها على الأوضاع السياسية فى العالم العربى حيث حاولت تركيا توجيه حملة إلى مصر لطرد بريطانيا سنة ١٣٣٣هـ ١٩١٥م، فى حين أعلنت بريطانيا فصل مصر عن الدولة العثمانية وأحكمت قبضتها عليها. وسعت بريطانيا كذلك لتقويض الوجود العثمانى فى الجزيرة العربية والخليج والوقوف وراء الإعلان عن ثورة عربية باسم الشريف " حسين بن على" شريف الحجاز، إلى جانب عقد العديد من الاتفاقيات والوعود التى كان لها تأثيرها على مستقبل المنطقة العربية بعد الحرب .

حركة الشريف حسين ١٣٣٤هـ ١٩١٦م، بين الدعاوى القومية والبعد الإسلامى :

قبل تناول أحداث سنة ١٣٣٤هـ ١٩١٦م، التى عرفت بالثورة العربية نلقى بعض الضوء على شخصية " الشريف حسين " الذى كان وراء هذه الأحداث، فلم تكن علاقته سوية بالسلطان " عبد الحميد الثانى" لعدم تعيينه له فى منصب شريف مكة سنة ١٢٩٩هـ ١٨٨٢م، مفضلاً عليه عمه الشريف " عون رفيق " (١)، وكان ذلك سبباً فى إثارة " الشريف حسين " للقلاقل ضد عمه حيث أرسل العديد من الشكاوى إلى السلطان، كما كانت بداية لأزمة ثقة بينه وبين الإدارة العثمانية . وقد استطاعت الإدارة العثمانية الوقوف على أطماعه أو طموحاته السياسية بعد أن أرسلت لجنة للتحقيق فى شكاويه فأكدت براءة الشريف عون وإدانة الوالى العثمانى (٢) .

وحرصاً من " السلطان عبد الحميد " على استتباب الأمور فى الحجاز التى كانت أهم مراكز دعمه فى فكرة الجامعة الإسلامية، ولقربها من مصر التى احتلها الإنجليز في ١٢٩٩هـ ١٨٨٢م، استدعى السلطان " الشريف حسين " وأبناءه

ليكونوا ضيوفاً عليه في الآستانة سنة ١٣١٠هـ-١٨٩٣م، وأكرم وفادتهم كعادته، حتى مع خصومه السياسيين، ليقيموا إقامة طويلة (٣) .

واستطاع " الشريف حسين " وأبناؤه خلال هذه المدة تدعيم اتصالاتهم بالسفارة البريطانية، وكذلك بكثير من أعضاء جماعة الاتحاد والترقي، أي بأعداء السلطان، وبخاصة بعد أن رفض السلطان للمرة الثانية تعيين " الشريف حسين " في منصب شريف مكة على أثر وفاة " الشريف عون " سنة ١٣٢٢هـ ١٩٠٥م، وقام بتعيين " على بن عبد الله بن محمد عون " الذى كان من المقرّبين إليه .

وحانت الفرصة للشريف حسين حين نجح الاتحاديون في الثورة على السلطان " عبد الحميد " في ١٣٢٥هـ ١٩٠٨م، وفرار الشريف على شريف مكة إلى مصر، إلا أن الاتحاديين قاموا بتعيين الشريف " عبد الإله " الطاعن في السن مما أغضب " الشريف حسين " ولكن غضبه لم يستمر لأكثر من يومين حيث مات الشريف " عبد الإله " فسارع " الشريف حسين " إلى بذل مساعيه لدى السفارة الإنجليزية وغيرها في استنابول التي قامت بدورها بالسعي لدى حكومة الاتحاديين وتم تعيين " الشريف حسين " شريفاً على مكة (٤) .

ومنذ بداية تولى" الشريف حسين " السلطة لم تتوافق رغباته في إحكام قبضته على الحجاز مع سياسة المركزية التى سعت حكومة الاتحاديين لتطبيقها على الولايات التى كانت ما زالت فى حوزتها ومن بينها الحجاز،وظل هذا الخلاف يتصاعد إلى سنة ١٣٣٢هـ-١٩١٤م قبيل قيام الحرب العالمية الأولى ولهذا سارع " الشريف حسين " بالاتصال ببريطانيا فى هذه الفترة، واستغلت بريطانيا هذا الخلاف لصالحها طوال سنوات الحرب (٥) .

فعلى أثر إعلان تركيا الحرب رسمياً فى الخامس من نوفمبر ١٣٣٢هـ-١٩١٤م، وانضمامها إلى ألمانيا وإمبراطورية النمسا والمجر ضد بريطانيا وروسيا وفرنسا سارعت بريطانيا بالاتصال " بالشريف حسين "، ولقى ذلك استجابة من الشريف حيث رد"عبد الله بن الشريف حسين"على"ستورز"المرسل من قبل اللورد كتشنر وزير الحربية البريطانى بأنه يريد التفاهم مع بريطانيا،وأنه يمكنه الخروج من حالة الحياد إلى إعلان الثورة على الأتراك لقاء بعض المطالب، ورد " كتشنر" من خلال مبعوثه " ستورز" بتعهد بريطانيا بضمان بقائه فى منصب شريف مكة وحمايته من أى عدوان خارجي، وكذلك مساعدة العرب عامة على نيل حريتهم شرط الوقوف إلى جانب الحلفاء ضد تركيا فى هذه الحرب (٦) .

وأيقظت هذه المباحثات المبدئية طموحات الشريف حيث بدا أنه لم يكن مقتنعاً بمنصب الشريف لمكة فقط بل نظر إلى أن يكون ملكاً للعرب وخليفة للمسلمين وبخاصة أنه قد أدرك عن قرب أبعاد التحول القومي للحكومة التركية الاتحادية. وقد اتضح ذلك من الرسالة التى أرسلها الشريف إلى بريطانيا فى ١٣٣٣هـ ١٤يوليو١٩١٥م – وكان هذا فى أعقاب فشل الحملة التركية بقيادة "جمال باشا "على قناة السويس – يطالب فيها بالموافقة على إعلانه خليفة للمسلمين مقابل إعلانه الثورة على الترك،وجاءه رد " السير مكماهون " فى ١٣٣٣هـ أغسطس ١٩١٥م، ليؤكّد له " أن جلالة ملك بريطانيا العظمى يرحّب باسترداد الخلافة إلى بيت عربى صميم من فروع تلك الدوحة النبوية المباركة " (٧)، ولكنه طالب بإرجاء الكلام فى مسألة الحدود لأنه موضوع سابق لأوانه وهو ما اعتبره "جورج أنطونيوس" مراوغة .

وكانت الظروف الحربية قد دعت مجلس الوزراء البريطانى فى جلسته التى عقدت فى ١٣٣٣هـ ٣ فبراير سنة ١٩١٥م، إلى إصدار تصريح فى سنة ١٣٣٣هـ أول يونيو ١٩١٥م يشير إلى أن بريطانيا ستساعد العرب على نيل استقلالهم والاعتراف بخلافة عربية بدلاً من الخلافة العثمانية،وتم توزيع منشورات بذلك فى كل من الحجاز ومصر والسودان (٨) . وقد أشار" لورانس " إلى أن بريطانيا كانت مضطرة إلى ذلك حيث كان هو الوسيلة الأفضل لدفعهم إلى القتال إلى جانبها، ومع أن بريطانيا لم تكن تعوّل على قوتهم كثيراً لكنها كانت فى حاجة إلى واجهة عربية من جهة كما أنها كانت تخشى – وهو العامل الأقوى – من الاتجاه تحت أى ظرف لإعلان دعوة الجهاد الإسلامى ضد الحلفاء التى يسعى لها الأتراك من جهة ثانية (٩)، وقد أكدت الوثائق البريطانية وجهة النظر هذه فيما ذكره " مكماهون " أنه يبذل جهداً لحث الشريف على بذل جهده لمنع العرب من مساعدة الترك (١٠) .

ومع أن البعض يرى أن الجمعيات القومية العربية فى بلاد الشام قد ساندت اتجاه " الشريف حسين " متأثرة بسوء حكم الاتحاديين لولاية الشام، وكذلك بالدور الثقافى المعادي لدولة الخلافة فى مدارس التنصير والمحافل الماسونية فى بلاد الشام مثل حزب اللامركزية الذى ضم الي جانب المفكرين الشوام عناصر من النصارى واليهود، وهم من أصحاب المصالح الاقتصادية، إلا أن الشريف لم ينجح فى استغلال هذه المساندة القومية المحدودة أو الموقف الضعيف الذى كانت عليه

بريطانيا منذ بداية سنة ١٣٣٤هـ ـ١٩١٦م وأظهر فى كل المراحل حاجته إلى المساندة البريطانية واستعداده بالتالى للوقوف بجانبها بكل قوته مما جعل مؤرخاً مثل " كارل بروكلمان " يصفه بأنه " غالى فى تقدير قوته الفعلية بأحلام رومانتيكية عن عظمة البيت الهاشمى كما أخطأ فى تقدير مركزه فى شبه الجزيرة العربية " (١١) . بل إن البعض أشار إلى علمه بالاتفاق الذى كان بين إنجلترا وفرنسا المعروف باسم "سايكس بيكو" بشكل عام دون التفاصيل الدقيقة لهذا الاتفاق كدليل على انحيازه الكامل إلى جانب بريطانيا بنفس قدر ارتباطه بالجمعيات القومية العربية(١٢)، ذلك الارتباط الذى كان فى أبعاده حماية لأصحاب المصالح الاقتصادية فى الحجاز والشام المرتبطة بالمصالح الاستعمارية .

وعلى الرغم من انتهاز الجمعيات القومية العربية (جمعية الفتاة وجمعية العهد) فرصة إعدام " جمال باشا " لبعض الزعماء القوميين العرب فى الشام(١٣)، وكذلك انتهاز " الشريف حسين" فرصة هذا الحادث ليكون توقيتاً مناسباً ومسوغاً مقبولاً لإعلان ما عرف بالثورة على الأتراك، إلا أن قدر الالتفاف حول الشعارات القومية لم يكن ليكفل نجاح هذه الثورة مما اضطر الجميع ـ الشريف والأتراك وحتى الإنجليز ـ لاستخدام العامل الدينى لإثارة الجماهير أو كسب ولائها فيما يؤكد غلبة هذا العامل على غيره من عوامل وقوة تأثيره على مسيرة الأحداث (١٤)، ولعل ذلك يشير إلى استغلال أصحاب المصالح للعامل الدينى السائد عند صناع الأحداث من العامة .

فقد حاول " جمال باشا "، وهو من غلاة الاتحاديين وأحد أعضاء المحفل الماسونى، استغلال العامل الدينى منذ بداية تولّيه قيادة الجيش الرابع التركى فى دمشق للتقرّب إلى العناصر العربية، فذكر فى إحدى خطبه " إنى أناشد الشبان الأتراك والعرب قائلاً إن هذين الشعبين مقضى عليهما بالفناء لا محالة فى اللحظة التى يتخاذلان فيها، فالنزاع والاختلاف بين عمودى الإسلام لا بد وأن يؤدى إلى سقوط ذلك الدين " (١٥) . وسبق أن ذكرنا إعلان " مكماهون " بأن بريطانيا تريد انتقال الخلافة إلى بيت عربى صميم من فرع تلك الدوحة النبوية المباركة .

أما فيما يتعلق بأحداث الحركة فيلاحظ أن درجة وعى أو إيمان سكان المدن الحجازية أو البدو بالبعد القومى العربى لا يذكر على الإطلاق بل إن التلويح بأى أمر غير الإسلام كان كفيلاً بالتصدى له وعدم تقبّله . ولا يرجع ذلك إلى مكانة الحجاز الدينية فحسب بل إلى طبيعة سكان المدن المقدسة التى تجمع خليطاً سكانياً

من المجاورين والوافدين من كل أرجاء العالم الإسلامى، فـــلا تجمــع بينـــهم إلا الرابطة الدينية، وكذلك شدة تمسك البدو بتعاليم الدين الإسلامى (١٦) .

وبقدر إدراك الأتراك لأثر العامل الدينى كان الشـــريف، والإنجلـــيز كذلـــك، يدركون هذه الحقيقة فكانت أول مجموعة من المتطوعين حول الشريف فى المدينة المنورة قد تطوعت تحت دعوي الجهاد إلى جانب دولة الخلافـــة العثمانيـــة ضـــد الإنجليز (١٧)، وجمعها الشريف أثناء مباحثاته السرية مع الإنجليز، أى أنه كـــان يعلم أنه سيقف مع الإنجليز ضد الأتراك، لكنه لم يكن يستطيع إعـــلان ذلـــك فـــى البداية (١٨) .

وحين أعلن ولدى الشريف " على " و" فيصل " ما عرف بالثورة على الأتراك فى المدينة المنورة فى الخامس من يونيه سنة ١٩١٦م ١٣٣٤هـــ، صـــاغوا ــ بالاشتراك مع والدهما ــ بيان هذه الثورة صياغة دينية خشية تسرّب المتطوعين، ومع ذلك لم تستطع هذه القوة السيطرة على المدينة بعد وصول القوات التركيـــة إليها وحتى نهاية الحرب (١٩) . وربما أن قوات الحلفاء، التى كانت تمثل القـــوة الرئيسية وراء ما أسموه بالثورة، لم تكن تعوّل كثيراً على سقوط المدينة، بـــل إن القائد الفرنسى فى الحجاز " بريموند " كان لا يحبذ سقوطها فى يد " الثوار" خشية امتداد الحركة العربية منها وتبدّلها بشكل لا يرضى الحلفاء، ولعل فى ذلك إشـــارة إلى عدم التوافق بين فهم متطوّعة الشريف لطبيعة دورهم وبين ما اتفق الشريف عليه مع الحلفاء . وقد يوحى فى جانب منه إلى إدراك الحلفاء لتطلعات الشـــريف السياسية، وبالتالى خشيتهم من احتمال اتصاله ــ إذا دخل المدينـــة ــ بـــالأتراك وتغير موقفه مع الحلفاء .

كما راعى منشور الشريف الداعى إلى الحركة أو الثورة العامل الدينى حيـــث ذكر أن الاتحاديين خرجوا على الشريعة وبدلوا الأحكام، وأن الاستقلال الذى أعلنه لا تشوبه شائبة مداخلة أجنبية ولا تحكم خارجى، وأن الغاية هـــى نصـــر الديـــن الإسلامى وإعلاء شأن المسلمين مستندين فى كل الأعمال على الأحكام وأصـــول القضاء (٢٠) .

أما فى مكة المكرمة فكان الشريف قد نجح ــ بهذا العامل ــ فـــى اســـتمالة بعض البدو، واستطاع مهاجمة القوة التركية المحدودة فيها، لكنه لم يســـتطع أن يدخل جدة إلا بعد أن ضربها الأسطول البريطانى من البحر الأحمر (٢١) .

وتكرّر فشل قوات الشريف فى دخول الطائف حتى تم دعمه من الإنجليز مما اضطر الإنجليز إلى إرسال كتيبتين مدفعية جبلية من قواتهم فى مصر، وكذلك بعض القادة الإنجليز حيث أرسلت الكولونيل " ولسن " معتمداً لدى الشريف، وعيّن السير" ونجت " قائداً أعلى للعمليات الحربية فى الحجاز وبدأت الأسلحة والعتاد تصل إلى الحجاز عن طريق بورسودان (٢٢) .

وشارك الفرنسيون ــ بناء على طلب الإنجليزــ فى دعم قوة الشريف فأرسلوا بعثة عسكرية وسياسية تضم بعض الضباط برياسة " بريموند " فى ١٣٣٤هــ سبتمبر سنة ١٩١٦م، وطالب الإنجليز بضرورة إرسال الفرنسيين لقوة عسكرية وعتاد ومعدات لمساعدة الشريف (٢٣) .

وتجدر الإشارة إلىأن أغلب القوات التى تجمّعت حول الشريف فى الحجاز كانت فى أغلبهاــ إلى جانب المتطوعين الذين جمعهم باسم مساندة دولة الخلافة ــ من العربان البدو الذين كانوا قد اعتادوا مهاجمة أفواج الحجيج وفرض الإتاوات عليها وإلا تعرضوا للسلب والنهب، وقد أغراهم الشريف بالمال الذى حصل عليه من الإنجليز . إلى جانب نجاحه فى تقريب بعض القبائل والإغداق عليها بالمال والسلطة، وقد انتظمت هذه القوة تحت قيادة بعض الضباط المسلمين الذين عملوا فى صفوف الجيش العثمانى ثم تركوه فى ظل الاتحاديين مثل " عزيز المصرى"، وهو من أصل جركسى وكان منتمياً لإحدى المحافل الماسونية التركية، وجعفر بك وغيرهما (٢٤) .

وانتهز الشريف فرصة تجمّع بعض زعماء القبائل الموالين له فى مكة المكرمة بمناسبة رأس السنة الهجرية (٢محرم١٣٣٥هــ٣ أكتوبر ١٩١٦م) وأعلن نفسه ملكاً على البلاد العربية(٢٥) . وجاء هذا الإعلان مفاجئاً للإنجليز والفرنسيين، كما أنه لم يلق قبولاً فى الدوائر السياسية والعسكرية فى البلدين، وكان الشريف يدرك أن اعترافهما به يعد أمراً ضرورياً وإلا يصبح لا قيمة لإعلانه، ولهذا بذل مساعى متعددة لديهما،فحينما وصلت بعثة فرنسية إلى الحجاز استدعى أحد رجالها ليبلغه حرصه على العلاقة مع فرنسا وإخلاصه لها. ونتج عن هذه المساعى أن أبلغه السير" ونجت " قائد العمليات الحربية فى الحجاز قرار الحكومات الثلاث، روسيا وإنجلترا وفرنسا، بالاعتراف به قائداً للعرب الثائرين على الأتراك . ولكن الشريف واصل مساعيه لعدم قناعته بهذا القرار حتى اعترف

به الإنجليز والفرنسيون ملكاً على الحجاز فقط، وكان هذا فى نهاية سنة ١٣٣٥هـ ١٩١٦م (٢٦) .

ويبدو أن الإنجليز والفرنسيين قد اضطروا إلى هذا الاعتراف حيث كانت قواتهم، والقوات المؤيّدة للشريف، فى طريقها للاستيلاء على الوجه، فقد بلغه الاعتراف فى ١٣٣٥هـ ٣يناير١٩١٧م، فى حين دخلت القوات الوجه فى ١٣٣٥هـ ٥ يناير١٩١٧م، وكانت الوجه تمثّل أهمية بالغة للحلفاء من الناحية العسكرية فقد أصبحت قاعدة تنطلق منها الهجمات على السكك الحديدية التى كانت الوسيلة الرئيسية بين القوات التركية فى المدينة المنورة والشمال، وهو أمر أعرب عن أهميته القائد الفرنسى " بريموند " فى لقاء سابق مع السير " ونجت " عندما التقيا فى السودان فى سنة ١٣٣٤هـ ديسمبر ١٩١٥م، قبل تعيين السير " ونجت " قائداً للعمليات الحربية فى الحجاز (٢٧) .

واتجهت القوة بعد ذلك للاستيلاء على العقبة ذات الأهمية البالغة للأتراك حيث كانت منطلق هجماتهم على السفن الإنجليزية، وكانت على نفس القدر من الأهمية بالنسبة للإنجليز لحماية قناة السويس .

وكان دخول قوات الشريف المدعومة من الحلفاء للعقبة فى سنة ١٣٣٤هـ ٦يوليو١٩١٦م، خطوة هامة أسهمت فى كبر حجم دور الشريف وإغراء البعض من قبائل الشام وفلسطين للانضمام إليه، وفى نفس الوقت كانت ضربة قاسية على الأتراك (٢٨) .

وكنتيجة لسقوط العقبة قرّر " اللنبى" قائد القوات البريطانية فى مصر دخول غزة التى استعصت على بريطانيا كثيراً، وانتقلت تبعيّة قوات الشريف فى العقبة والتى كان يتزعمها ابنه " فيصل"، ثم انضمت إليها قوات ابنه " زيد " الذى انتقل من حصار المدينة المنورة إلى العقبة بعد سقوطها، من السير " ونجت " قائد العمليات الحربية فى الحجاز إلى القيادة المباشرة لـ " اللنبى " (٢٩) .

وأصدر " اللنبى" أوامره إلى " فيصل " بالاتجاه نحو معان ثم التقدم إلى البحر الميت ليلتقى بالقوات الإنجليزية، وكان على " زيد " متابعة إمداد القوات الإنجليزية بعد غزة إلى موانىء فلسطين بالتموين، واستطاعت هذه القوات (الإنجليزية) احتلال الخليل ويافا وبيت لحم ثم القدس التى دخلتها فى سنة ١٣٣٦هـ ٩ديسمبر ١٩١٧م . ولم تنجح قوات " فيصل " فى دخول معان فاكتفت بمهاجمة السكك الحديدية، ولم يتيسر لها دخولها إلا بعد مهاجمة " اللنبى" للقوات

التركية فيها وهزيمتها (٣٠)، وأصبح من السهل على قــوات " فيصـل " دخـول دمشق تحت قيادة " اللنبى" سنة ١٣٣٦هـ فى أول أكتوبر ١٩١٨م، وحلـب فـى السادس والعشرين من نفس الشهر .

ويتضح من أحداث الحركة قلة حجم وعدد الذين ناصروها وهم بعض قبـائل تحيط بالطريق البرى للحجاج القادمين من شمال الحجـاز اعتـاد بعضـها علـى الحصول على إتاوات من وفود الحجيج مقابل تأمين الطريق، وأن نجاح الشـريف فى استمالتها يرجع إلى ما أغدقه عليها من أموال حصل عليها من الإنجليز وليس من خلال إقناعهم بدعاوى الثورة على الترك أو ما تصوره البعض مـن نضـوج للعامل القومى (٣١) .

ولهذا فإن الدور الفعلى الذى أدته هذه العناصر فى العمليات الحربية كـان دوراً محدوداً للغاية حيث لم يستطيعوا دخول المدينة المنورة حتى نهاية الحـرب، كما أنهم لم يدخلوا الوجه إلا تحت قيادة السير " ونجت " قائد العمليـات الحربيـة فى الحجاز، وكذلك مساعدة الأسطول الإنجليزى من البحر، فضلاً عن دور المعدات الإنجليزية والفرنسية التى وصلت إلى الحجاز قبل التحرك إلى الوجـه، وبنفـس الأسلوب والعوامل كان دخول العقبة (٣٢) .

وبدا دور الحلفاء فى العمليـات الحربية اللاحقة واضحاً، فقـد رد الشـريف على " مكماهون " حين طلب منه " مكماهون " التدخل فى سورية بأن على قـوات الحلفاء التعرض لسواحل سورية بأسطولهم لتشجيع أهلها على الثورة ضد القوات التركية، بل طلب منه فرض الحصار على الحجاز لمنع وصول الحبوب إليه بقصـد إثارة الرأى العام ضد الأتراك حتى تتهيأ نفوس الناس للقيام بثورة، ثم طلب وضـع كميات من الأسلحة والعتاد فى بورسودان لتكون جاهزة تحت الطلب (٣٣). بل أن الشريف أرسل رسالة لاحقة إلى " مكماهون " أعرب له فيها عن فقدانه الأمل فـى قدرة السوريين على الثورة ضد الأتراك بعد تفرّق الزعماء الوطنيين منـهم بيـن السجون والمنافى، ثم عاد وطلب منه ضرورة نزول حملة بريطانية فى السـاحل السورى لتسهّل على ابنه " فيصل " وقواته الذين ينظرون إلى الفرج من مثـاقب الإبر مما يقاسونه من أنواع التعديات، وأخبره كذلك بأنه اتخذ ترتيبات لقطع سـكك حديد سورية الحجاز حتى يولجه تفوّق قوات الترك النظامية (٣٤) .

وحين أراد " فيصل" مهاجمة القوات التركية المنسحبة أمام جيش " اللنبـى " متراجعة من فلسطين وشرق الأردن باتجاه دمشق حـذّره " اللنبـى" مـن ذلـك،

ونصحه بعض الضباط الإنجليز بالابتعـاد حتى لا تسحقــه القوات التركية، واكتفى " فيصل " بمهاجمة السكك الحديدية أو بعض الممرات على طريقة الكر والفر، ثـم سار على ميمنة القوات البريطانية حين كانت فى طريقها إلى دخول دمشق (٣٥).

وكانت قوة الشريف قد ظلت فى العقبة حتى جاءت القوات الإنجليزيـــة مــن مصر إلى الشام حيث قاد " اللنبى" الحملة العسكرية من مصر إلى فلسطين ثم إلــى دمشق وحلب، وبالتالى فإن حساسية وضع الحجاز من الناحية الدينية هــى التــى دعت الحلفاء لعدم الإعلان عن تصدّر قادتهم العسكريين للأعمال الحربية فيه .

كما أن القوى الشعبية العربية فى الشام لم تؤيد ــ فى الغالب ــ حركـــة أو دعوة الشريف (٣٦)، وكان موقفها المؤيد نسبياً لقوات " اللنبى" ومعها قـــوات " فيصل بن الحسين " متأثراً إلى حد كبير بأحكام الإعدام التى نفذها " جمال باشا " ضد دعاة القومية العربية فى أوائل الحرب(٣٧)، كما أن بلاد الشام قــد تــأثرت بتصدّر دعاة القومية من رجال الاتحاد والترقّى للحياة السياســـية فــى عاصمــة الخلافة العثمانية بعد إسقاط السلطان " عبد الحميد الثـــانى " سـنة ١٣٢٦هــــ ١٩٠٩م، هذا إلى جانب الدور الذى قامت به مدارس التنصير" التبشير" فى إثــارة مشاعر القومية والنعرة المعادية للأتراك ــ سالكين فى ذلك وسائل كثيرة (٣٨).

ومع ذلك فإنه على الرغم من صغر حجم القـــوة التــى تجمّعـت حـول الشريف، وصغر دورها بالتالى، إلا أن أثرها كان أكبر من حجمـــها بشـكل أفــاد الحلفاء، فقد أسهم حصارها للمدينة المنورة فى تعطل استخدام القوة التركية فيها، كما تأثرت المواصلات،أو خطوط الإمداد التركية، بسبب الهجمات علـــى السـكك الحديدية بفعل هجمات البدو ــ بعد تنظيمهم وبمساعدة القوات الإنجليزية والفرنسية ــ عليها، هذا إلى جانب أن دراية البدو بدروب الصحراء الوعرة وتحمّلهم لمناخها القاسى الذى اعتادوه ومعرفتهم بمصادر المياه النادرة وإفسادها على القوة التركية قد ترك أثراً بالغاً على تحركات هذه القوة، وسهّل فى نفس الوقت علـــى الحلفــاء الاستيلاء على الوجه ثم العقبة . كما أن وجود واجهة عربية مسلمة لدور الحلفاء قد أسهم فى تمزّق وجهة العرب والمسلمين وفى نفس الوقت حرم القوات التركيـة فى الجزيرة العربية والشام من مساندة شعبية كانوا يتوقعونـــها وكـــان الحلفــاء يحسبون لها ألف حساب (٣٩) .

أما بقية القوى والكيانات العربية فلم تكن تؤيّد حركة ــ أو ثورة ــ الشـريف، بل إن بعض هذه القوى كانت ترى أن إعلان الجهاد ضد بريطانيا وفرنسا ضـرورة

بغض النظر عما آلت إليه دولة الخلافة، وبالتالى فإن مناصرة الحلفاء أمر لم يلـق قبول الأوساط الشعبية المسلمة فى العالم العربى .

كانت اليمن، وعسير التى كان يحكمها الإدريسى تناصر ـ فى الغالب ـ دولـة الخلافة (٤٠)، واحتفظ " ابن سعود " فى نجد بحياده الذى فرضه على الإنجليز منذ سنة ١٣٣٤هـ ـ ١٩١٥م، دون أن يزج بنفسه ـ وهو ما كان يرجوه الإنجلـيز ـ فى مهاجمة الأتراك داخل الجزيرة العربية فى المدينة المنـورة أو علـى سـاحل الخليج متأثراً بمساندة الترك لأعدائه من آل الرشيد (٤١) .

ولم تستطع بريطانيا أن تحجب مشاعر العداء الشعبي لحركـة الشـريف والرغبة في الوقوف وراء دولة الخلافة الذى عبّرت عنه الأوساط الشـعبية فـى مصر مما اضطرها إلى نفى المئات من العناصر الوطنية المسلمة إلى خارج مصر، وكذلك إلى سجن الآلاف من الشبان داخل البلاد وحتى انتهاء الحرب .

ووقف سلطان دارفور فى السودان ضد قوات الإنجليز وأعلن الجهاد العـام، وقاد السنوسى الجهاد ضد الإنجليز فى مصر والإيطاليين فى ليبيـا (٤٢)، وكـان الرأى العام فى الجزائر مسانداً للعثمانيين ومعادياً للحلفاء كتعبير عـن التحـالف الإسلامى وإعلان للعداء ضد الفرنسيين المحتلين . وحاولت فرنسا ـ عبر حملـة إعلامية واسعة ـ الحد من هذا الاتجاه، وأرسلت بعثة من الحجاج الجزائريين إلـى مكة بعد إعلان الشريف لثورته كان أغلبها من الشباب الجزائرى المتفرنس للتعبير عن تأييدهم لهذه الثورة وكوسيلة لإيجاد حوار بين الشريف وبين فرنسا، ولم يكن خافياً على أوساط الحلفاء أن هذه البعثة لا تعبر عن اتجاه القوى الشعبية المسلمة فى الجزائر (٤٣) . كما وقفت غزة لفترة طويلة ضد القوات البريطانية التى فشلت فى دخولها عدة مرات وبمعونة شخصيات عربية أرسلها الشريف للتـأثير علـى البدو فيها وإفهامهم بأن الإنجليز أصدقاء للعرب (٤٤) .

وبهذا فإن حجم الإعلان عن الثورة فى الحجاز من خلال جريـدة " القبلـة " وكذلك المنشورات كان أكبر من حجمها الفعلى بكثـير، كمـا أن حـرص الكتـاب والمؤرخين الأجانب ومن تبعهم من دعاة القومية مثل لورانس وجورج أنطونيوس وليموند وساطع الحصرى على وصفها بالعربية وأنها كانت تعبيرا عن نمو الوعى القومى العربى بعيدا عن الموضوعية إلى حد كبير . ومع أن جريدة " القبلة " قـد ركزت منذ عددها الأول الذى صدر فى أعقاب الإعلان عن الثورة سنة ١٣٣٤هـ ـ ١٩١٦م على الفكرة العربية أو إثارة النعرة العرقية لدى العرب ضد الأتراك مـن

خلال ربط العرب بالإسلام وإظهار عيوب الاتحاديين مستعينة فى ذلك بالعديد من الكتاب الشوام كمحب الدين الخطيب وفؤاد الخطيب وجميل العظم، إلا أن هناك العديد من العوامل التى قللت من حجم تأثير هذه الجريدة وما حملته من أفكار لعل فى مقدمتها ظروف الحرب، وكذلك طبيعة سكان المدن المقدسة فى الحجاز الذين لا تجمعهم رابطة جنسية بل رابطة دينية حيث هم من المجاورين الوافدين من كل العالم الإسلامى، فضلا عن عدم انتشار هذه الجريدة بين البدو سواء لعدم انتشار التعليم أم لصعوبة التنقل . على أن شعار هذه الجريدة الذى كان من آيات القرآن الكريم " وما جعلنا القبلة التى كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب عليه " والذى يوضح استخدام الشريف للعامل الدينى كوسيلة لجلب الأنصار حوله يوحى بغلبة العامل الدينى على العامل القومى (٤٥) .

وإذا سلمنا باهتزاز الوجه الإسلامى لدولة الخلافة حتى قبل تولى السلطان عبد الحميد الثانى أو بعده، وهو ما سمح أو ساعد على نمو نسبى للفكرة العربية فى أوساط المثقفين والعسكريين فإن العامل الدينى قد ظل من أهم المؤثرات على مسيرة الحركة السياسية الشعبية فى الأقطار العربية وهو أمر بدا واضحا فى الأحداث التى تلت الحرب العالمية الأولى (٤٦) .

وبغض النظر عن مجريات الحرب فإن بريطانيا وحلفائها ـ تساندهم القوى اليهودية السياسية ـ كانت تخطط لتفتيت الوحدة الإسلامية المتمثلة فى الدولة العثمانية، فيذكر لورانس فى مذكراته "أهدافنا الرئيسية تفتيت الوحدة الإسلامية ودحر الإمبراطورية العثمانية وتدميرها .. وإذا عرفنا كيف نعامل العرب، وهم الأقل وعيا للاستقلال عن الأتراك، فسيبقون فى دوامة من الفوضى السياسية داخل دويلات صغيرة حاقدة ومتنافرة، غير قابلة للتماسك، إلا أنها على استعداد دائم لتشكيل قوة موحدة ضد أية قوة خارجية (٤٧) .

وذكر لورانس فى تقرير له عن سياسات مكة " لو تمكنا من تحريض العرب على انتزاع حقوقهم من تركيا فجأة، وبالعنف، لقضينا على خطر الإسلام إلى الأبد، ودفعنا المسلمين إلى إعلان الحرب على أنفسهم، فنمزقهم من داخلهم وفى عقر دارهم، وسيقوم، نتيجة لذلك، خليفة للمسلمين فى تركيا وآخر فى العالم العربى، ليخوضا حربا دينية داخلية فيما بينهما، ولن يخيفنا الإسلام بعد هذا أبدا (٤٨) .

وكما حاولت بريطانيا استغلال حركة القومية العربية، التي ساهمت في إيجادها، من خلال اتصالها بالشريف"حسين"وسعيها لتكوين مؤسسات جديدة تروج لها ضمت كوادرعربية مثل المكتب العربي البريطاني الذي أسسته في القاهرة سنة ١٣٣٤هـ ١٩١٦م، والذي حاولت من خلاله الاستخبارات البريطانية تطويع حركة القومية العربية لخدمة الأهداف الحربية البريطانية، سعى السياسيون اليهود كذلك لتطويع هذه الحركة منذ ما قبل الحرب وأثناءها، ولعل شخصية لورانس تمثل هذا التحالف المزدوج بين الاستعمار والحركة الصهيونية ضد العالم الإسلامي .

لهذا كانت هذه الحركة أكثر سلبية على الأوضاع السياسية العربية، ومع أن دعاتها كانوا لا يتوقعون ذلك ولا يسعون إليه وكانت لهم طموحات سياسية كبيرة لصالح أمتهم إلا أنهم لم يكونوا في بعض الجوانب ــ وبفعل الظروف السياسية الدولية ــ أصحاب بصيرة سياسية ثاقبة كما حاول البعض أن يصبغ ذلك عليهم وهو أمر لا يقلل من دورهم أو طموحاتهم القومية والإسلامية .

التحالف الصهيوني الاستعماري واتفاقية سايكس بيكو سنة ١٣٣٤ هـ ١٩١٦ م :

لم تكن هذه الاتفاقية التي عقدت سرا بين انجلترا وفرنسا وروسيا والتي اقتصرت على تقسيم الولايات الإسلامية فقط التابعة للدولة العثمانية بين إنجلترا وفرنسا وروسيا نتيجة لانحياز دولة الخلافة لجانب ألمانيا في الحرب العالمية الأولي بل كانت في الحقيقة سببا في الانحياز العثماني المبكر لألمانيا منذ ما قبل الحرب وأثناءها . فقد بدت أطماع هذه الدول في ممتلكات الخلافة الإسلامية منذ أواخر القرن الثاني عشر الهجري الثامن عشر الميلادي حين بدا التنافس بين إنجلترا وفرنسا في الخليج العربي والبحر الأحمر(٤٩) . ولذلك فإن الحملة الفرنسية على مصر والشرق تعد من حلقات التنافس والصراع بين هاتين الدولتين في مساعيهما لبسط نفوذهما على المنطقة والذي اتسمت به سياستهما ــ وراءهما الأطماع اليهودية ــ تجاه المنطقة طوال القرن الثالث عشر الهجري التاسع عشر الميلادي .

كما كانت هذه السياسة الاستعمارية اليهودية سببا فى توجه سياسة السلطان عبد الحميد الإسلامية التي تبلورت فى فكرة الجامعة الإسلامية والتى كان يسعى من خلالها لمقاومة هذه الأطماع بما فيها بوادر الأطماع الألمانية .

وعلى الرغم من قيام تحالف بين إنجلترا وفرنسا وروسيا أسبق من التحالف الألمانى العثمانى فى الحرب العالمية الأولى والذى لعب اليهود دورا فيه إلا أن إنجلترا وفرنسا لم تسمحا بتطور الأطماع الروسية لتصل إلى المضايق والوصول إلى البحار الدافئة، وقد تمكنتا من حصر هذه الأطماع فى الممتلكات العثمانية الشمالية فى القوقاز والقرم والبحر الأسود، وكان ذلك سببا من أسباب إفشاء الثورة الروسية فور قيامها سنة ١٣٣٥هـ ١٩١٧م، لأسرار اتفاقية سايكس بيكو وكذلك إلى خروج روسيا من الحرب .

وتعود بداية هذه الاتفاقية إلى سنة ١٣٣٢هـ أغسطس ١٩١٤م، حين طلب وزير الخارجية الروسى " سازانوف " من سفيرى إنجلترا وفرنسا التباحث بشأن المضايق وتأمين وصول روسيا إلى البحر المتوسط ضمانا لمصالحهما (٥٠) .

وعلى أثر إعلان تركيا دخول الحرب إلى جانب ألمانيا طلبت روسيا من إنجلترا وفرنسا الموافقة على وضع المضايق والقسطنطينية تحت إشرافها مقابل إطلاق يد إنجلترا فى مصر وبلاد فارس وبعض المستعمرات الألمانية فى إفريقيا والتسليم بالمصالح الفرنسية فى سوريا ولبنان وفلسطين، ووافقت حكومتا الدولتين مبدئيا على المطالب الروسية .

وخلال هذه الفترة أبدت فرنسا حرصا شديدا على بسط نفوذها على سوريا ولبنان وفلسطين (٥١)، ولم تسمح لظروف الحرب أن تفرض عليها نزول قوات إنجليزية إلى هذه المنطقة إلا بعد الاتفاقية التى أقرت هذا النفوذ، وحددت أبعاد دور القوة العربية المحدودة التابعة لشريف مكة والتى كان مقررا لها متابعة زحف " اللنبى" فى بلاد الشام .

وكانت إنجلترا تدرك حساسية فرنسا تجاه ما تعتبره مناطق لنفوذها، وأن هذه السياسة قد تعرقل تطور مباحثات " مكماهون" مع الشريف "حسين " الذى كان يطمع فى امتداد نفوذه إلى بلاد الشام . بل إن الشريف كان يدرك أبعاد السياسة الفرنسية الأمر الذى دعاه لاتخاذ سياسة تتسم بالتقارب تجاه فرنسا أملا فى ألا تعارض فى مطالبه من جهة ولمحاولة الكسب من خلال منافستها مع إنجلترا من جهة أخرى، ولهذا لم يمانع " عبد الله بن الشريف حسين " الفكرة

الفرنسية التى كانت تقضى بإرسال قوات أوروبية إلى الحجاز وهى فكرة عارضها الإنجليز خشية إثارة مشاعر المسلمين وإفشال الثورة على الأتراك، كما أن الشريف قد منع أحد رجاله من الصحفيين وهو " السيد رشيد رضا " من إكمال خطبته في موسم الحج سنة ١٣٣٤هـ ١٩١٦م، والتى تعرض فيها إلى أطماع فرنسا فى سوريا، وأعاده بسبب ذلك إلى مصر (٥٢) .

وحين استقرت كل من إنجلترا وفرنسا على تحديد مناطق نفوذها في الولايات العربية من سنة ١٣٣٣هـ أكتوبر ١٩١٥م، حتى مارس سنة ١٩١٦، سافر مندوباهما إلى روسيا، وهناك تم تحديد المطالب الروسية، ومما يسترعى الانتباه أن روسيا قد طلبت فلسطين ضمن نفوذها، وأوضح مندوبا إنجلترا وفرنسا للحكومة الروسية أنه قد تم الاتفاق على تدويل الأوضاع فيها بين الحلفاء، وقد حضر ممثلون عن " الشريف حسين " جانبا من المباحثات التى تمت عن فلسطين (٥٣)، كما أن إنجلترا قد عارضت وضع فلسطين ضمن مناطق النفوذ الفرنسى، ورأت لجنة شكلت بهذا الخصوص أن تقوم مباحثات تخص فلسطين لما لها من أهمية (٥٤) .

وفى الوقت الذى رأى فيه بعض المؤرخين أن هذه المعاهدة كانت سرية، وبرهنوا من خلال ذلك على خديعة الدول الأوروبية لحلفائها العرب (٥٥)، رأى البعض الآخر أن "الشريف حسين" كان على دراية بجوانب فى هذه المعاهدة وبالتالى لم تكن كلها سرية ولم تخدع إنجلترا وفرنسا ــ بالتالى ــ حلفاءها، وصدقت بذلك على وجهة النظر البريطانية الخاصة بأنها ــ أى بريطانيا ــ عقدت المعاهدة وهى تعتقد بإخلاص أن موادها لا تتناقض مع شروط الاتفاق مع " الشريف حسين " . فقد تضمنت الرسائل المتبادلة بين " مكماهون " والشريف حسين ما يشير إلى أن هناك اتفاقا ما بين إنجلترا وفرنسا حول الأراضى العربية منذ أوائل سنة ١٣٣٤هـ ١٩١٦م، كما أن الخلاف الذى دب بين "عزيز على المصرى " والشريف حسين والذى أدى إلى إخراج "عزيز" من الحجاز تاركا منصبه العسكرى فى أوائل سنة ١٣٣٥هـ ١٩١٧م، إلى مصر فسره البعض بأنه كان بسبب إبلاغ "عزيز" للشريف بما دار بينه وبين الكولونيل " نيوكمب " فى لقاء تم بينهما صرح فيه القائد الإنجليزي " نيوكمب " بوجود اتفاق بين إنجلترا وفرنسا بشأن سورية (٥٦)، وأن الاتفاق سيستكمل بينهما بشكل أشمل فى مصر . وقد دعا هذا الأمر الشريف إلى إبعاد " عزيز" إلى مصر حتى لا يفشى هذه المسألة

(٥٧)، كما دعته إلى مزيد من الاستفسارات عن كافة ما تناولته المباحثات فى هذا الشأن بين إنجلترا وفرنسا مما أدى إلى وصول سايكس إلى جدة للاجتماع بالشريف وإبلاغه له بالجانب الخاص بإنشاء دولة عربية مستقلة كما تناولته الاتفاقية (٥٨)، ثم عودة سايكس وبيكو فى زيارة للحجاز فى مايو سنة ١٣٣٥هـ ١٩١٧م، للاجتماع بالشريف مما أدى إلى ارتياح الشريف فى النهاية وإعرابه عن رضاه عما اتفقت عليه إنجلترا وفرنسا وأنه ممتن لفرنسا،كما هو الحال بالنسبة لإنجلترا، لموقفهما تجاه العرب (٥٩) .

على أن مباحثات جدة بين كل من الشريف حسين و سايكس وبيكو ـ كما رأى البعض ـ قد تناولت جانبا كبيرا من الاتفاقية كمطالب فرنسا فى سورية والوضع حول فلسطين وغيرها، كما حرصت فرنسا من جانب آخر على إطلاع الشريف على تفاصيل تتعلق بهذه المطالب من خلال إرسالها لبعثة حج من الجزائريين "المتفرنسين" فى سنة ١٣٣٥هـ مايو ١٩١٧م، والإشارة إليها بإبلاغ الشريف بجوانب المعاهدة وبخاصة فيما يتعلق بالمطالب الفرنسية (٦٠) .

ولهذا فإن قيام البلاشفة بكشف النقاب عن بنود الاتفاقية فى أعقاب ثورتهم فى روسيا سنة ١٣٣٥هـ ١٩١٧م، وكذلك قيام " جمال باشا " بإبلاغ " فيصل بن الحسين " فىسنة ١٣٣٥هـ نوفمبر ١٩١٧م، بجوانب الاتفاقية وطلبه التفاهم بينهما لعقد صلح يقضى بمنح الولايات العربية استقلالا ذاتيا، لم يكن كل هذا بجديد سوى على بعض الأوساط العربية السياسية والشعبية لا على الشريف، وأن الشريف لم يكن فى وضع يسمح له بإعادة النظر فى الموقف بعد علمه بكل جوانب الاتفاقية وبخاصة ما يتعارض مع مطالبه، وكان مضطرا أن يساير ركب الحلفاء الذى اختاره وأدرك أن عليه بذل المزيد من الجهد للحصول على أكبر قدر من المكاسب السياسية من خلالهم، وكان يخشى من تألب الرأى العام على الأوضاع كلية .

وبمعنى آخر فإن ارتباط الشريف وبعض أبنائه بالجمعيات التى كانت تعمل تحت شعارات قومية قد دعاه ـ ربما مضطرا ـ لتغليب الإطار القومى على حساب الإطار الإسلامى أملا في أن يجد من خلاله ما يمكنه من تحقيق الآمال السياسية، كما أن الدور اليهودى الذى يعد المحرك الحقيقى لأحداث وأبعاد هذه الاتفاقية لم ينل أى قدر من العناية سواء من قبل المؤرخين الأوروبيين أو العرب المسلمين على حد سواء .

إتفاقية سيكس بيكو
١٦ أيار - مايو ١٩١٦
(نقلا عن جورج أنطونيوس : يقظة العرب،
ترجمة الدكتور ناصر الدين الأسد)
والدكتور إحسان عباس، دار العلم للملايين، بيروت، ص٥٧٩ - ٥٨٢) .

نص الوثيقة

المادة الأولي : ان فرنسا وبريطانيا العظمى مستعدتان أن تعترفا وتحميا دولة عربية مستقلة أو حلف دول عربية تحت رئاسة رئيس عربى فى المنطقتين (أ) (داخلية سورية) و (ب) (داخلية العراق) المبينتين فى الخريطة الملحقة بهذا ويكون لفرنسا فى منطقة (أ) ولانجلترا فى منطقة (ب) حق الأولوية فى المشروعات والقروض المحلية، وتنفرد فرنسا فى منطقة (أ) وإنجلترا فى منطقة (ب) بتقديم المستشارين والموظفين الأجانب بناء على طلب الحكومة العربية أو حلف الحكومات العربية .

المادة الثانية : يباح لفرنسا فى المنطقة الزرقاء (شقة سورية الساحلية) ولإنجلترا فى المنطقة الحمراء (شقة العراق الساحلية من بغداد حتى خليج فارس) (٦١) إنشاء ما ترغبان فيه من شكل الحكم مباشرة أو بالواسطة أو من المراقبة بعد الاتفاق مع الحكومة أو حلف الحكومات العربية .

المادة الثالثة : تنشأ إدارة دولية فى المنطقة السمراء (فلسطين) يعين شكلها بعد استشارة روسيا وبالاتفاق مع بقية الحلفاء وممثلى شريف مكة .

المادة الرابعة : تنال انجلترا ما يأتى :

(١) ميناء حيفا وعكا .

(٢) يضمن مقدار محدود من ماء دجلة والفرات فى المنطقة (أ) للمنطقة (ب) وتتعهد حكومة جلالة الملك من جهتها بأن لا تدخل فى مفاوضات ما مع دولة أخرى للتنازل عن قبرص إلا بعد موافقة الحكومة الفرنسوية مقدما .

المادة الخامسة : تكون الإسكندرونة ميناء حرا لتجارة الامبراطورية البريطانية، ولا تنشأ معاملات مختلفة فى رسوم الميناء، ولا ترفض تسهيلات خاصة للملاحة والبضائع البريطانية وتباح حرية النقل للبضائع الإنجليزية عن طريق إسكندرونة وسكة الحديد فى المنطقة الزرقاء سواء كانت واردة إلى المنطقة الحمراء أو إلى

المنطقتين (أ) و (ب) أو صادرة منهما . ولا تنشأ معاملات مختلفة (مباشرة أو غير مباشرة) على أى سكة من سكك الحديد أو فى أى ميناء من موانىء المناطق المذكورة تمس البضائع والبواخر البريطانية .

وتكون حيفا ميناء حرا لتجارة فرنسا ومستعمراتها والبلاد الواقعة تحت حمايتها ولا يقع اختلاف فى المعاملات ولا يرفض إعطاء تسهيلات للملاحة والبضائع الفرنسوية ويكون نقل البضائع الفرنسوية حرا بطريق حيفا وعلى سكة الحديد الإنجليزية فى المنطقة السمراء، سواء كانت البضائع صادرة من المنطقة الزرقاء أو الحمراء أو المنطقة (أ) أو المنطقة (ب) أو واردة إليها ولا يجرى أدنى اختلاف فى المعاملة بالذات أو بالتبع يمس البضائع أو البواخر الفرنسوية فى أى سكة من سكك الحديد ولا فى ميناء من الموانىء فى المناطق المذكورة .

المادة السادسة : لا تمد سكة حديد بغداد فى المنطقة (أ) إلى ما بعد الموصل جنوبا ولا فى المنطقة (ب) إلى ما بعد سامرا شمالا إلى أن يتم إنشاء خط حديدى يصل بغداد بحلب مارا بوادى الفرات ويكون ذلك بمساعدة الحكومتين .

المادة السابعة : يحق لبريطانيا العظمى أن تنشىء وتدير وتكون المالكة الوحيدة لخط حديدى يصل حيفا بالمنطقة (ب)، ويكون لها ما عدا ذلك حق دائم بنقل الجنود فى أى وقت كان على طول هذا الخط ويجب ان يكون معلوما لدى الحكومتين، إن هذا الخط يجب أن يسهل اتصال حيفا ببغداد، وإنه إذا حالت دون إنشاء خط الاتصال فى المنطقة السمراء مصاعب فنية ونفقات وافرة لإدارته تجعل انشاءه متعذرا فالحكومة الفرنسوية تكون مستعدة أن تسمح بمروره فى طريق بربورة ــ أم قيس ــ ملقى ــ إيدار ــ غسطا ــ مغاير (٦٢)، قبل أن يصل إلى المنطقة (ب) .

المادة الثامنة : تبقى تعريفة الجمارك التركية نافذة عشرين سنة فى جميع جهات المنطقتين الزرقاء والحمراء والمنطقتين (أ) و(ب) فلا تضاف أى علاوة على الرسوم ولا تبدل قاعدة التثمين فى الرسوم بقاعدة أخذ العين الا أن يكون اتفاق بين الحكومتين .

ولا تنشأ جمارك داخلية بين أية منطقة وأخرى من المناطق المذكورة أعلاه وما يفرض من رسوم الجمرك على البضائع المرسلة إلى الداخل يدفع فى الميناء ويعطى لإدارة المنطقة المرسلة إليها البضائع .

المادة التاسعة : من المتفق عليه أن الحكومة الفرنسوية لا تجرى مفاوضة فى أى وقت كان التنازل عن حقوقها، ولا تعطى ما لها من الحقوق فى المنطقة الزرقاء لدولة أخرى إلا للدولة أو حلف الدول العربية بدون أن توافق على ذلك سلفا حكومة جلالة الملك التى تتعهد للحكومة الفرنسوية بمثل هذا فى ما يتعلق بالمنطقة الحمراء .

المادة العاشرة : تتفق الحكومتان الإنجليزية والفرنسوية بصفتهما حاميتين للدول العربية على أن لا تمتلكا ولا تسمحا لدولة ثالثة أن تمتلك أقطارا فى شبه جزيرة العرب، أو تنشىء قاعدة بحرية فى الجزائر على ساحل البحر الأبيض الشرقى (٦٣) . على أن هذا لا يمنع تصحيحا فى حدود عدن قد يصبح ضروريا بسبب عداء الترك الأخير .

المادة الحادية عشر : تستمر المفاوضات مع العرب باسم الحكومتين بالطرق السابقة لتعيين حدود الدولة أو حلف الدول العربية .

المادة الثانية عشر : من المتفق عليه عدا ما ذكر أن تنظر الحكومتان فى الوسائل اللازمة لمراقبة جلب السلاح إلى البلاد العربية .

وعد بلفور سنة ١٣٣٥هـ ١٩١٧م :

كان صدور هذا الوعد نتيجة طبيعية للتحالف بين اليهود بمؤسساتهم العلنية التى تمثلها الحركة الصهيونية ومؤسساتهم السرية المتمثلة فى الحركة الماسونية وبين الاستعمار الغربى سواء بوجهه السياسى المستغل أم بوجهه الصليبى المعادى للشرق الإسلامى (٦٤) .

فقد سبقت الإشارة إلى دور اليهود فى إضعاف دولة الخلافة العثمانية وإسقاط " السلطان عبد الحميد " بعد رفضه لمساعيهم الخاصة بالاستيطان فى فلسطين، وبدا كيف كان التوافق بين مساعيهم وبين المخطط الاستعمارى الرامى إلى إضعاف قبضة هذه الدولة على ولاياتها تمهيدا للسيطرة عليها .

وسعى اليهود منذ ظهور الحركة الصهيونية فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر الهجرى التاسع عشر الميلادى إلى استغلال نفوذهم لدى كل الدول الاستعمارية لمساعدتهم فى إقامة الدولة اليهودية بدءا بروسيا، لكن أوضاع اليهود فيها ـ أى فى روسيا ـ تعرضت للمقاومة بعد أن تكشف للروس دورهم فى اغتيال القيصر " إسكندر الثانى" سنة ١٢٩٨هـ ١٨٨١م، إلى جانب دورهم الاقتصادى فى روسيا الذى أصاب الطبقات الكادحة الأمر الذى أدى إلى صدور قوانين سنة ١٢٩٨هـ مايو ١٨٨١م، المشهورة ضدهم (٦٥) . ومع أن اليهود قد نقلوا نشاطهم إلى ألمانيا إلا أنهم ظلوا يثيرون الفتن فى روسيا ضد الحكومة القيصرية ويحاربون التجارة الخارجية الروسية، ولعبوا بهذا دورا بارزا فى إلحاق الهزيمة بالجيش الروسى فى حربه مع دولة صغيرة بالنسبة لروسيا وهى اليابان، كما ظلت عناصرهم تثير الفتن فى الداخل حتى قامت الثورة الشيوعية التى ضمت عناصر بارزة من المنظمات المنضمة إلى تنظيماتهم السرية من أهمها " لينين" و" تروتسكى " و" زينوفييف " (٦٦) .

وعلى الرغم من أن اقتراح الزعيم اليهودى " وايزمان " وبعض العناصر اليهودية بنقل نشاطهم خارج ألمانيا لم يلق قبولا فى بداية الحرب العالمية الأولى فى سنة ١٣٣٢هـ ديسمبر ١٩١٤م إلا أن تطور النشاط الصهيوني الماسوني في إنجلترا لصالح الأطماع اليهودية قد دعاهم لنقل نشاطهم الأساسى إليها وبخاصة بعد إعلان بريطانيا عن تخليها عن سياسة المحافظة على الأراضى العثمانية وعزمها على تمزيقها (٦٧) .

ولقد كان لليهود قبل ذلك دور واضح فى التأثير على الرأى العام فى بريطانيا من خلال امتلاكهم لأبرز الصحف اليومية فيها مثل صحيفة " الديلى تلجراف " التى أنشأها اليهوديان " موريس ليفى " و" ليفى لوسن " سنة ١٢٧١هـ ١٨٥٥م، كما تمكن اليهودى " الفيكونت نورثكليف " والسير" جون ألرمان وارنهولز" والسير " يومرى نيرتون " من شراء جريدة " التايمز" سنة ١٣٢٥هـ ١٩٠٨م، إلى جانب العديد من الصحف والمجلات التى استطاع اليهود امتلاكها ثم توجيهها (٦٨) .

وقد أثمرت المخططات اليهودية عن وجود العديد من الوزراء البريطانيين أثناء الحرب من الذين يؤيدون الأطماع اليهودية فى فلسطين مثل " هربرت صمويل " وزير الداخلية، " ولويد جورج " (٦٩)، إلى جانب " اللورد كتشنر" الذى أصبح وزيرا للحربية وغيرهم (٧٠) .

وعلى الرغم من ذلك فإن مجريات الحرب قد دعت الحكومة البريطانية إلى عدم الإعلان عن تأييدها العلنى ـ وربما إلى تعاطفها ـ مع المطالب اليهودية وبخاصة أنه كان لفرنسا وروسيا تحفظات فى فلسطين، لخدمة اليهود أيضا، وكذلك سير المباحثات مع " الشريف حسين " التى كانت ستتعثر إلى حد كبير إذا ما لمس أو أدرك التأييد لمثل هذه الأطماع بشكل واسع وصريح سواء هو أو مؤيدوه من القوميين العرب .

واستطاع اليهود من جهة أخرى ممارسة ضغوط واسعة على الألمان من خلال سيطرتهم على كثير من المؤسسات الاقتصادية وهو أمر دعا الألمان للمطالبة لدى الأتراك بأن يلقى اليهود معاملة حسنة فى فلسطين، وسعى اليهود لاستصدار تصريح من الألمان بتأييد أهدافهم فى فلسطين ولكن الحكومة الألمانية رأت إرجاء ذلك إلى ما بعد انتهاء الحرب (٧١) . وشهدت سنة ١٣٣٥هـ أكتوبر ١٩١٧م، قيام الثورة الروسية وخروج روسيا من الحرب، حيث أصبح موقف الحلفاء بعد هذا الحادث محرجا، وأصبح سعيهم ينصب على ضرورة بذل المساعى ـ من خلال اليهود ـ لدخول الولايات المتحدة الأمريكية الحرب إلى جانبهم .

وكانت العناصر اليهودية قد نجحت فى التأثير القوى على الكثير من المؤسسات الاقتصادية ووسائل الإعلام فى الولايات المتحدة الأمريكية منذ فترة مبكرة حيث تملك اليهود شركة للتوزيع والنشر. كما أسس " جوزيف وليتزر" (Joseph Pulitzer) الذى ينحدر من أصل يهودى مجرى صحيفة سانت لويس بوست ديباتش سنة ١٢٩٤هـ ١٨٧٨م، ثم اشترى صحيفة " نيويورك

وورلد " (The New York World) وهى من أشهر الصحف الأمريكية سنة ١٣٠٠هـ ١٨٨٣م، ونشر منها طبعتين صباحية ومسائية، وبلغ توزيعها سنة ١٣١٤هـ ١٨٩٧م مليون نسخة يوميا (٧٢) . وكذلك استطاع اليهودى " أدولف أوسن هنرى " شراء صحيفة " نيويورك تايمز " سنة ١٣١٣هـ ١٨٩٦م، وهى من أشهر الصحف الأمريكية اليومية، إلى جانب التأثير اليهودى على عدد كبير من الصحف والمجلات السياسية والفنية وغير ذلك .

كما استطاعوا ــ أي اليهود رغم قلة عددهم ــ أن يرتكزوا فى المدن الكبرى المليئة بالسكان مما كان له أثر فعال فى مسيرة الانتخابات الأمريكية ومن خلال تملكهم لوسائل التأثير الإعلامى والكثير من المؤسسات الاقتصادية، إلى جانب جمعياتهم السرية الماسونية وفروعها . لذلك لم تستطع الولايات المتحدة أن تظل بمعزل عن القضية الفلسطينية منذ البداية على الرغم من التزامها بسياسة العزلة وعدم التدخل فى قضايا الشرق الأوسط وغيرها (٧٣) .

وقد بلغ تأثير اليهود على طرفى الحرب إلى درجة أدرك معها الطرفان ضرورة السعى للتقرب منهم أو تجنب معاداتهم كما أقر المؤرخ الإنجليزى توينبى، فحين أدركت اللجنة الوزارية لشئون الحرب فى بريطانيا مساعى اليهود لدى ألمانيا لاستصدار تصريح يؤيد أهدافهم فى فلسطين تعجلت وزارة الخارجية البريطانية للسبق فى إصدار هذا التصريح حتى يكسبوا اليهود قبل الألمان. بل أن تركيا نفسها قد سعت للتقارب مع اليهود فالتقى " جمال باشا " مع زعماء الحركة الصهيونية فى ألمانيا سنة ١٣٣٥هـ ١٩١٧م، ووعدهم بمعاملة طيبة فى فلسطين، وأن الحكومة التركية حريصة فى الوقت الراهن على عدم إغضاب العرب وهو أمر لا يجعلها قادرة على السماح لليهود بالهجرة إلى فلسطين (٧٤) .

وبعد أن عقدت لقاءات سرية بين عناصر صهيونية وبعض وزراء فى الحكومة البريطانية من أبرزها اجتماع " مارك سايكس" مع " وايزمان" أرسل الأخير رسالة سرية لأحد أصحاب التأثير فى الحكومة الأمريكية معروف بميوله الصهيونية وهو " برانديز " طالبه فيها بتحرك إيجابى لدخول الولايات المتحدة الأمريكية الحرب إلى جانب الحلفاء . وقبل إصدار التصريح أدركت الحكومة البريطانية أنها لن تلق معارضة من روسيا بعد قيام الثورة فيها وخروجها من الحرب، وفى نفس الوقت حصلت على موافقة مبدئية من الدول الأخرى كالولايات المتحدة وفرنسا وإيطاليا وكان ذلك بفعل تأثير اليهود ونفوذهم فى هذه الدول فى

المقام الأول،كما أن اليهود قد رأوا فى هذا التصريح ــ إلى جانب دخول الولايات المتحدة الحرب إلى جانبهم ــ أن قيام الدولة اليهودية فى شرقى قناة السويس وسيلة للدفاع عنها وقاعدة جوية تيسر طريق مصالحها إلى الشرق .

لهذا أصدر " بلفور" وزير خارجية بريطانيا تصريحه الشهير" بأن حكومة جلالة الملك تنظر بعين من العطف إلى تأسيس وطن قومى لليهود فى فلسطين وستبذل جهدها فى سبيل تحقيق هذه الغاية على أن يفهم جليا أنه لن يؤتى بعمل من شأنه أن يجحف بالحقوق المدنية والدينية التى تتمتع بها الطوائف غير اليهودية المقيمة الآن فى فلسطين، ولا الحقوق أو الوضع السياسى الذى يتمتع به اليهود فى البلدان الأخرى (٧٥) .

واستغل اليهود نفوذهم ــ بعد صدور تصريح بلفور ــ فى إقناع الدول الأوروبية وبخاصة فرنسا التى كانت تربطها بإنجلترا معاهدة سايكس بيكو والتى يصعب افتراض عدم علمها بالتصريح قبل صدوره، ثم إيطاليا والولايات المتحدة الأمريكية، بأن تخضع فلسطين لبريطانيا بدلا من فكرة التدويل التى أشارت إليها هذه المعاهدة .

ويبدو جليا أن التصريح أو الوعد الذى كان يسعى له اليهود ــ والذى أصدره بلفور ــ كان سيصدر سواء من بلفور أو من وزير خارجية فرنسا لو آلت فلسطين إليها أو حتى ألمانيا وتركيا، وهو استنتاج طبيعى يتفق وفهم طبيعة تأثير اليهود عالميا وقد أكده المؤرخ البريطانى " توينبى" فى ذكره أن الحرب الأولى قد أظهرت تنافس كل القوى المتحاربة على كسب ود اليهودية العالمية وتجنب عداوتها (٧٦)، أو ربما الرغبة فى التخلص من تأثيرها ووجودها في أوروبا واستخدامها فى خدمة أهداف استعمارية .

على أنه من الصعب مجاراة الذين يحاولون القول بعدم مبالاة بعض العناصر العربية على هذا التصريح بشكل مطلق مهما قيل عن ارتباطهم بالحلفاء أو انتمائهم للمحافل الماسونية مثل "الشريف حسين"وأبنائه ومن خلال علمهم بأغلب جوانب معاهدة سايكس بيكو، ولعل الحرص الذى أبدته وزارة الخارجية البريطانية فى برقية لها إلى السير " ونجت " على تعليقات الصحف خشية إثارة غضب المشاعر العربية ممثلة فى " الشريف حسين " يؤكد مشاعر عدم الرضا من المسلمين العرب تجاه هذا التصريح (٧٧)، ورجوح كفة ارتباطهم الوطني والإسلامي على غيره .

وبنفس القدر من الصعوبة لم يتم رصد مشاعر الشعوب الإسلامية والعربية تجاه هذا التصريح من المصادر المتاحة فى حينها، فالمصادر التى يمكن أن يستقى منها المؤرخ مادته العلمية تنحصر فى الوثائق البريطانية ومذكرات الساسة الذين سمحت ظروف الاحتلال فى مصر لهم أن يتصدروا العمل السياسى فكان أغلبهم من أصحاب الفكر الغربى ودعاة القومية الليبرالية، وفى نفس الوقت كانوا من أعضاء المحافل الماسونية مثل " سعد زغلول " ورفاقه الذين " امتطوا الركب الثورى " إبان أحداث ثورة الشعب المصرى سنة ١٣٣٧هـ ــ ١٩١٩م، كما أن الصحف التى كانت تصدر فى مصر فى هذه الفترة كانت مملوكة لأعضاء المحافل الماسونية وأغلبهم من اليهود والبعض من المسلمين والنصارى الذين كانوا ينعمون بحماية سلطات الاحتلال، فضلا عن الرقابة العسكرية الصارمة التى لم تكن تسمح بنشر أى شىء إلا بعد موافقة الحاكم العسكرى البريطانى، ولهذا حجبت برقيات الاحتجاج أو رصد مشاعر الرفض عن النشر أو الوصول إلى الخارجية البريطانية فى لندن (٧٨)، ولا شك أن ذلك ــ مع غيره من أحداث ــ كان وراء أحداث سنة ١٣٣٧هـ ــ ١٩١٩م .

وشغلت بقية القوى والكيانات العربية بقضاياها الداخلية، فسورية كانت مسرحا للعمليات الحربية حتى انتهاء الحرب، وكذلك العراق، وبدت بوادر الصراع بين سلطان نجد عبد العزيز بن سعود و الشريف حسين فى الحجاز(٧٩) .

ومع ذلك فقد دارت العديد من المباحثات بين المبعوثين البريطانيين والشريف حسين كى يقف على حقيقة الدور اليهودى فى فلسطين بعد صدور التصريح، ولم يكن الشريف يستطيع تحديد موقفه إلا بقدر ما أتاحته الظروف والتطورات العامة بالنسبة لمسيرة الحرب والتطورات الداخلية، وتقديره لأبعاد دوره وقوته، ومع ذلك فقد أبلغ ــ أى الشريف ــ البريطانيين بأنه لا يقبل قيام دولة يهودية فى فلسطين وإن لم يبد اعتراضا على إقامة اليهود داخلها وبالقدر الذى كانوا عليه وقت المباحثات (٨٠) .

وعندما حاول الأتراك استمالة جيش فيصل بن الحسين والصلح معه بإثارة تصريح بلفور أرسل فيصل إلى أبيه بذلك فأبلغه أبوه بألا يميل إلى محاولة الترك وأن عليه المواصلة مؤكدا له أن الحلفاء لن يخلو بوعودهم التى اتفقوا عليها(٨١) .

وبقدر ما يوحى ذلك بارتباط الشريف بالحلفاء وهو أمر كـان مـن الصعـب تغييره إلا أنه يلقى الضوء علىعدم تقبل الشـريف أو تصـوره لإقامـة الدولـة اليهودية وهو ما دأبت الحكومة البريطانية على مواصلة تأكيده للشريف (٨٢) .

على أن مجرد السماح ــ رغم خروجه عن الإرادة ــ من الشـريف بإقامـة اليهود فى فلسطين وهجرتهم إليها يشير في رأي البعض إلى قدر ــ ولو ضئيل ــ من القبول من الشريف لوعد بلفور، ويذكر الدكتور " أحمد شلبى " أنه فى ينـاير سنة ١٣٣٧هــ ١٩١٩م، حصل وايزمان على اتفاق مع " فيصل بـن الحسـين " يعترف فيه الأخير بوعد بلفور، ووعد فيصل فى هذا الاتفاق بكيان بيـن الـدول العربية التى ستنشأ فى الشرق الأوسـط وبين فلسطين، وورد ذكر هذا الاتفـاق عند " جورج أنطونيوس" (٨٣)، وعلى الرغم من أن ذلك قد تطابق مـع نشـأة إمارة شرق الأردن إلا أنه لا ينبغى أن يدعوا الباحثين بقبول هذا الـرأى بشـكل مطلق .

الهـــوامـــش

(١) د . عبد العزيز الشناوى : الدولة العثمانية - جـ٢، ص١٠١٥ .

(٢) يرى البعض أن الشريف " عون الرفيق " قدم رشوة للباشا " أحمـد راتـب " الـذى جـاء للتحقيق فأدان الوالى، وأن الشريف " عون " هو الذى كـان سـيء السـمعة ويستشـهد المؤلف على ذلك بمقابلة شخصية مع أحد علماء جـدة وهو الشيخ " محمـد نصيـف "، أنظر : سليمان موسى : الحركة العربية ـ بيروت ـ سنة ١٣٩٧هـ ـ ١٩٧٧م، ص٤٥، وفى رأينا أن المؤلف ضد " الشريف عون "؛ وأنظر :
Saleh Mohammad AL Amr : The Hejaz Under Ottoman Rule 1869 - 1914. D . . Of Philosophy at the University Of Leads 1974 .

(٣) د. الشناوى : المرجع السابق، ص١٠١٤، وكان الشريف علي والد الشريف حسين يعمـل مع السلطان عبد الحميد ومؤيدا لفكرته في عودة الطابع الإسـلامي للدولـة العثمانيـة، وحصل علي درجة الباشوية ورتبة الوزارة؛ د.حسين مؤنس، تاريخ قريش ص ١ ٧٧.

(٤) د. الشناوى : المرجع السابق ص١٠١٦، ويرى سليمان موسى : أن " الشريف حسـين " قد تقدم بطلب للسلطان مباشرة فعينه السلطان . المرجـع السـابق، ص٤٧ ويذكـر أن الاتحاديين قد غضبوا لذلك، واستند إلى مذكرات الملك " عبد الله "، ولكـن الكثـير مـن المؤرخين ساروا خلف جورج أنطونيـوس فيما ذكره من أن الاتحـاديين هـم الذيـن عينوا " الشريف حسين " وليس السلطان " عبد الحميد " .

(٥) د. محمد عبد الرحمن برج : دراسات فى تاريخ العرب الحديث، ص١٦٨، وتشير الوثـائق البريطانية إلى خشية الشريف من أن يقوم الاتحاديون بعزله وطلب مساندة بريطانيا لـه فى هذه الحالة، ووعدت بريطانيا بأنها ستمنع مرور أى تعزيزات تركية إلـى الحجـاز . سليمان موسى : الحركة العربية ـ ط٢ دار النهار ـ بيروت سـنة ١٩٧٧م، ص ٦٨، ٦٩ .

(٦) سليمان موسى : المرجع السابق، ص١١٤ . وهنا تكون فكرة الثورة بوعد قيادة وليـس بإرادة شعبية .

(٧) د . الشناوى : المرجع السابق، ص١٠١٧؛ د . عمر عبـد العزيـز : تـاريخ المشـرق العربى، الإسكندرية، ١٩٨٤م، ص٤٥٢ .

(٨) د . محمد برج : المرجع السابق، ص١٧٣؛ سليمان موسى : المرجع السابق ص١٥١ . وقد أعلنت بريطانيا احترامها لمشاعر المسلمين الدينية وعدم التعرض لأماكنهم المقدسة .

(٩) زهدى الفاتح : لورنس العرب على خطى هرتزل، ص ٦٩، ٧٢ ؛ وذكر المستر كلايتون أن الكسب الرئيسى الذى تطمح بريطانيا فى الحصول عليه هو كسب دفاعى بدلا من نجاح الأتراك فى حشد طاقات العرب والمسلمين ضدهم أنظر F . O . 882 \ 2 .

(١٠) F . O . 371 \ 6237 , PP . 33 - 34 .

(١١) كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية، ط ٧ ص ٧٤٨؛ وحول اشتراك النصارى واليهود فى حزب اللامركزية أنظر: سليمان موسى:المرجع السابق ص٦٣ .

(١٢) لجتمع " الشريف حسين " بكل من " سايكس وبيكو " فى جدة فى ١٣٣٥هـ/ ١٩، ٢٠ مايو سنة ١٩١٧م . ولكن هذا ليس دليلا على علمه بكل مخططات إنجلترا وفرنسا ولكن إدراكا منه لطبيعة تحول الأتراك فى ظل الاتحاديين وهيمنة انجلترا وفرنسا على قدر كبير من النفوذ فى المنطقة العربية، وتمشيا مع المبدأ القائل ليس فى الإمكان أبدع مما كان وهو يشير إلى قدر من مشاعر حب الوطن إلى جانب المصالح الذاتية.

(١٣) هو أحمد جمال باشا الذى شغل منصب وزير الحربية فى الوزارة العثمانية، وكان أكثر ميلا إلى فكرة التضامن الإسلامى منه إلى الطورانية، وهو غير محمد جمال باشا قائد الجيش الثامن فى معان. د.عبد العزيز الشناوى : المرجع السابق ن ص٧٧ هامش (١).

(١٤) تشير بعض المراجع إلى صلة الشريف وأولاده وبخاصة عبد الله وفيصل كانوا أعضاء فى جمعية العربية الفتاة السرية الماسونية. جورج أنطونيوس : المرجع السابق، ص٣٣٤، ولا ينبغى أن نعول على جورج أنطونيوس كثيرا؛ وأنظر أيضا : صالح العبود : فكرة القومية العربية، ص٢٠٥ ــ ٢٠٧ .

(١٥) د . محمد برج : المرجع السابق، ص١٨٦ .

(١٦) كان الأتراك يدركون هذه الحقيقة ولهذا توالت مساعيهم لمطالبة الشريف بإعلان الجهاد ضد الإنجليز، وشاركهم الألمان فى ذلك فطبعوا منشورات تحث المسلمين على الجهاد ضد الإنجليز الذين صوروهم بأنهم أعداء الإسلام، د. الشناوى : المرجع السابق، ص ٧٦، ٧٧ .

(١٧) كان المستر كلايتون يرى أن إعلان الشريف للثورة جهارا سيكون ضربة خطيرة لهيبة الترك بين كافة المسلمين . F. O . 882119.

(١٨) د . محمد برج : المرجع السابق، ص١٩٠. وكان جمال باشا قد أرسل خمسة آلاف ليرة تركية للشريف لإعداد هذه القوات للسفر إلى الشام؛ وأنظر أيضا : سليمان موسى : الحركة العربية، ص٢٦٦ .

(١٩) كان إعلان حركة أو ثورة الشريف فى الصيف، وكان جزء كبير من القوات التركية فى الطائف لجوها اللطيف، وانتهزت قوات الشريف الفرصة وقطعت الطرق بين هذه القوات وبين بقيتها فى المدينة ومكة . سليمان موسى : المرجع السابق، ص٢٦٩ .

(٢٠) د . عبد الرحيم عبد الرحمن : تاريخ العرب الحديث، ص٢٦٩ .

(٢١) عندما استعد الأتراك للهجوم ودخول مكة طلب الشريف فتح جبهة ضدهم فى سورية، بل وطلب قوة بريطانية من المسلمين لنزول رابغ لمواجهة الترك . بل أنه وافق على بقاء قوة مسيحية قريبة منه لنجدته وقت تعرضه للهجوم وأرسلت بريطانيا (٦) طائرات فى رابغ ثم أرادت سحبها فذعر الشريف وأبلغهم بوضع حياة أبنائه ضمانا لسلامة الطائرات : F. O. 141/462.

(٢٢) د . محمد برج : المرجع السابق، ص١٩٢ .

(٢٣) نصحت بريطانيا الشريف بمطالبة الفرنسيين بإرسال بطاريات مدفعية دون رجال، وعليه فى حالة رفضها أن يطلب البطاريات بعدد قليل من الرجال .

(٢٤) يراعى أن الإنجليز قد أرسلوا قوات عسكرية من قواتهم فى مصر وفى الهند وكانت هذه القوات هى نواة الجيش العربى النظامى، سليمان موسى : المرجع السابق، ص٢٩١ . كما أن قوات البدو والتى أغراها الشريف بالمال لم تبد ولاء له فى البداية ولا للإنجليز بل وضعوا العديد من العقبات فى وجه القوات الإنجليزية، فقد ذكر الكولونيل نيو كمب فى أحد تقاريره أن البدو عاجزين عن القيام بعمل ضد خط سكة حديد الحجاز أنهم يضعون العراقيل فى وجه قواتنا أكثر مما يفعله الأتراك تجاهنا، وأنهم ــ أى البدو ــ لو اتجهوا لإرهاق الترك كما أرهقونا لما بقى تركى واحد بين المدينة ومعان . F. O. 68016 Part 2 .

(٢٥) يلاحظ أن المناسبة دينية .

(٢٦) أثارت هذه المسألة قلقا لدى بعض الحكام والأمراء العرب. سليمان موسى : المرجع السابق ص٢٩٢ .

(٢٧) د . محمد برج : المرجع السابق، ص١٩٥ .

(٢٨) د . رأفت الشيخ : تاريخ العرب الحديث، ص٢٩٩ . وكان الدور الذى لعبته قوات أبناء الشريف محدودا حيث منعت انجلترا إمداد هذه القوات بالسلاح الفعال، ويرجع السبب فى الموقف البريطانى هذا إلى خشيتها من تحول هذا الجيش لمحاربة ابن سعود حسبما

ذكر : سليمان موسى : المرجع السابق، ص٣٣١ . ولكن السبب الرئيسى فى رأينا هـو خشية بريطانيا من اشتداد عود هذه القوات بعد انضمام بعض القوى العربية من الشـام وفلسطين إليها .

(٢٩) د . محمد برج : المرجع السابق، ص١٩٩.

(٣٠) جورج أنطونيوس : يقظة العرب، ص٣٣٥؛ F. O . 882/25 .

(٣١) كان مجموع ما أنفقته بريطانيا من أموال على ثورة الشريف مـا بيـن عـامى١٩١٦، ١٩١٩م أحد عشر مليون جنيه، الليرات الذهبية منها أقل من ١٠ %، بينما يمثل البـاقى ثمن ما قدمته بريطانيا من مؤن وأسلحة وعتاد ونفقات أخرى، وقد عبر " ستورز " عـن هذه الأموال بقوله : " أن الشريف فتح فاه والحكومة البريطانية فتحـت كيـس نقودهـا أوسع بكثير مما يجب " . سليمان موسى : المرجع السابق، ص٣٣٢ .

(٣٢) تذكر المراجع دور أحد مشايخ القبائل من الفرسان وهو الشيخ " عودة أبو تايه " زعيـم حويطات التوايهة الذين يقيمون فى الغالب حول معان، فقد لعب دورا بارزا فى الاستيلاء على العقبة الأمر الذى جعل الأتراك يتصلون به فى واحدة من مساعيهم لاستعادة العقبة لكنه رفض ذلك . الوثائق البريطانية F. O. 882/7. P . R . O ؛ وأنظر أيضا : جورج أنطونيوس : يقظة العرب، ص٣١٥.

(٣٣) سليمان موسى : المرجع السابق، ص٢٦٢ .

(٣٤) الوثائق البريطانية، نقلا عن سليمان موسى : المرجـع السـابق .F. O. 882/19 371/6237

(٣٥) سليمان موسى : ص ٣١٩، ٣٢٠ .

(٣٦) وقع كل من مفتى سورية وحلب وبيروت وسنجق القدس وهم : محمد أبو الخير عابدين، ومحمد العبيسى، ومصطفى نجا، وكامل الحسينى على فتوى بتكفـير الشـريف حسـين وإدانة الثورة العربية المعلنة منه ويرى البعض أنها كانت بدافع من جمال باشا .

(٣٧) كان من بين من أعدمهم " جمال باشا " " عبد الكريم الخليل " الذى نادى بمساندة الدولـة العلية وكذلك بعض الشخصيات الهامة مما جعل هذه الأحكام تترك أثرا عميقا فى نفـس أهل الشام ضد الأتراك . ومما يسترعى الانتباه أن " جمال باشا " قد أعدم " نخلة باشـا " المطران وأحد وجهاء بعلبك النصارى بسبب عثوره على طلـب منـه لـدى السـفارة الفرنسـية طلب فيه ضم بعلبك إلى لبنان ليكون تحت الحماية الفرنسية، وكـان " نخلـة باشا " قد آوى فى بيته فى استانبول " جمال باشا " و" أنور وطلعـت وجـاويد " حيـن تعرض الاتحاديون لثورة إسلامية مضادة سنة ١٣٢٦هـ ١٩٠٩م، ولعل فى هذا إشـارة

إلى موقف بعض العناصر النصرانية من الاتجاه الإسلامي. أنظر : سليمان موسى : المرجع السابق، ص١١٣ .

(٣٨) اتجه كثير من دعاة القومية من العرب إلى الدعوة لمساندة الدولة العثمانية ضد الحلفاء الغربيين مثل " عبد الكريم الخليل " رئيس المنتدى الأدبى فى استانبول و" أحمد مختار بيهم " أحد زعماء بيروت الإصلاحيين وعضو مؤتمر باريس العربى، والأمير " سعيد الجزائرى " أحد زعماء سورية الذى دعا الشريف حسين إلى تأييد الدولة العلية لدرجة اضطرت الشريف لأن يطلب منه تحسين علاقته " بجمال باشا " رغم مؤامرة الوالى التركى فى الحجاز " وهيب باشا " لقتل الشريف . أنظر : سليمان موسى : المرجع السابق، ص٩٧ ـ ٩٩ .

(٣٩) تشير المراسلات التى دارت بين " اللنبى" والسير " ونجت " إلى أن حجم القوات العربية فى كل المواقع قد يصل إلى عشرة آلاف، وكان هذا بعد دخول العقبة وتحقيق العديد من الانتصارات التى أغرت بعض المتطوعين من عرب فلسطين والشام . سليمان موسى : المرجع السابق، ص٣١٣ .

(٤٠) د . عبد الرحيم عبد الرحمن : المرجع السابق، ص٢٧١ .

(٤١) كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ـ ط٨ ـ سنة ١٩٧٩م، ص٧٤٤، ونعارض ما ذكره الدكتور عبد الرحيم عن تحالف ابن سعود مع الحلفاء والذى استند فيه إلى خطبة حث فيها على ذلك حيث أنه لم يشارك فى أى عملية حربية معهم ـ المرجع السابق، ص٢٧٠ . بل أن الإنجليز كانوا يخشون تحوله ضدهم لصالح الأتراك وهو ما دعاهم لاعتقال محب الدين الخطيب الذى كان موفدا من قبل حزب اللامركزية إلى نجد والعراق قبل أن يلتقى بأمير نجد وأثناء مروره بالكويت، كما أن الإنجليز قد سعوا إلى حياده الذى وجدوا فيه سبيلا لعدم تلاقى القوى العربية أو توحدها حيث كان فى ذلك إرباك لخططهم، أنظر : سليمان موسى : المرجع السابق، ص١٥٩، ١٦٤ . كما يراعى أن خطبة أمير نجد كانت من قبيل المناورة السياسية مع الإنجليز حيث كانت فى أعقاب إعلان الشريف حسين نفسه ملكا على العرب وهو أمر أثار الكثير من الأمراء العرب ومن بينهم " ابن سعود " ولكن المستر كوكس كتب لابن سعود يطمئنه باعتراف الشريف باتفاقهم معه . وأنظر أيضا : د . فتوح الخترش : الحرب الحجازية النجدية سنة ١٩٢٤ ـ ١٩٢٦م . مجلة الخليج العدد (٢٦)، ص٣٨، د . خالد حمود السعدون : المفاوضات التى أدت إلى عقد معاهدة سنة ١٩١٥م، مجلة الدارة، ص٥٤٠ .

(٤٢) د . عبد الرحيم عبد الرحمن : المرجع السابق، ص٢٧١ .

(٤٣) د. فهمى سعد :حركة عبد الحميد بن باديس ودورها فى يقظة الجزائر ــ دار الرحـــاب ــ بيروت، سنة ١٩٨٣م، ص٤٢ .

(٤٤) F . O . 882/19 .

(٤٥) د. طالب محمد وهيم : جريدة القبلة الحجازية والقضية العربية ــ مجلة الخليج العربى ــ العراق ــ العدد (١) سنة ١٩٨٩م، ص٢١ .

(٤٦) د . عبد العزيز الشناوى: المرجع السابق، جــ١، ص٧٣، حيث يذكر ابتعاد الاتحـــاديين عن الإسلام، واضطرارهم لاستخدامه وقت الأزمات الحربية كالحرب الطرابلسية والحرب العالمية الأولى .

(٤٧) زهدى الفاتح : لورانس العرب على خطى هرتزل ــ تقارير لورانس السرية دار النفـــائس ــ بيروت ــ ط٤، سنة ١٩٩١م ، ص٦٤ .

(٤٨) المرجع السابق، ص٧٤،٧٥ . ولعل لورانس بهذا لا يستحق الثناء من بعـــض الكتـــاب العرب، وبدا مدحه واضحا عند جورج أنطونيوس (يقظة العرب ص٣١٦، كمـــا أثنـــى عليه وايزمان فى مذكراته لما قدمه للقضية اليهودية، ويذكر لورانس نفسه أنه قد نجـــح فى إخفاء حقيقة شخصيته عن العرب . أنظر : صالح العبود : فكرة القوميـــة العربيـــة على ضوء الإسلام، ص١٣٣. ويراعى أن القوى الاستعمارية والمنظمـــات والجمعيـــات اليهودية إلى جانب الشريف حسين هم الذين أطلقوا مصطلح الثورة دون بقيـــة القـــوى الشعبية فى المشرق العربى وكذلك أغلب المفكرين .

(٤٩) سليمان موسى : الحركة العربية، ص٣٣٩ .

(٥٠) د . محمد عبد الرحمن برج : دراسات فى تاريخ العرب الحديث، ص٢٠٧ .

(٥١) يراعى أن فرنسا قد حصلت من قبل ذلك فى مؤتمر برلين سنة ١٢٩٥هــ ١٨٧٨م، على اعتراف الدول الأوربية المجتمعة بالاحتفاظ بالحقوق التى تمتلكها فى حمايـــة الأمـــاكن المقدسة فى فلسطين . د . محمد مصطفى صفوت : مؤتمر برليـــن ســـنة ١٢٩٥هـــ/ ١٨٧٨م وأثره على البلاد العربية ــ القاهرة سنة ١٩٥٧م، ص٤٨، كما أن روسيا قـــد طالبت بفلسطين أثناء المباحثات السابقة للمعاهدة ولكنها أفهمت أنها ستدول وهو نظـــام يسمح لكل دول الحلفاء بالاشتراك فى إدارة شئونها. د. محمد برج : المرجع الســـابق، ص٢١٥ . ولعل فكرة التدويل هذه كانت تخفى وراءها الدور الصهيونى وتـــأثيره علـــى الدول الاستعمارية وبخاصة انجلترا وفرنسا، ولا شك أن هذه الفكرة، أو الاتفاقية بشـــكل عام كانت مقدمة لوعد بلفور .

(٥٢) د . محمد برج : المرجع السابق، ص٢١٣ .

(٥٣) د . محمد برج : المرجع السابق، ص٢١٦.

(٥٤) Report Of Committee Set Up to Consider Certain Correspondence between Sir It. Mcmahon and The Sherif of Mecca in 1915, 1916 . Cnd 5974 (1938), P. 51.

نقلا عن سليمان موسى : الحركة العربية، ص٣٤٠، د . عمر عبد العزيز : المرجع السابق، ص٤٦٢.

(٥٥) يؤيد جورج أنطونيوس هذا الاتجاه ويستبعد معرفة الشريف بالمعاهدة : يقظة العرب ـ ٣٥٣ ـ ٣٥٧ . وإن كان أنطونيوس لا يوحى بالثقة فى كثير من الجوانب .

(٥٦) F. O. 882 / 16.

(٥٧) تشير الوثائق البريطانية إلى سبب آخر عن إبعاد الشريف لعزيز المصرى من الحجاز وهو خشيته منه بعد أن أشار عليه الكولونيل ولسن بمنح عزيز المصرى صلاحيات لإنشاء قوة جيش نظامى حيث رأى فى ذلك ما قد يؤدى إلى ثورة عسكرية ضده كما حدث للسلطان عبد الحميد، وبخاصة أن المسألة لم تقف عند عدم رده على اقتراح ولسن حيث أن عزيز المصرى قد طلب من الإنجليز مباشرة أن يمنحوه هذه الصلاحية والمال اللازم لها فازدادت خشية الشريف منه أنظر : F. O. 882/ 6, F. O. 686/ 33, 34.

(٥٨) F. O. 371/ 3059. 28, 30, Apr. 1917.

(٥٩) د . محمد أنيس : الدولة العثمانية والمشرق العربى، ص ٢٩٧، وكان بيكو قد صرح فى القاهرة أمام حشد من السوريين بأن فرنسا ستكون وصية على لبنان .

(٦٠) د . محمد برج : المرجع السابق، ص٢٢٠، د . فهمى سعد : حركة عبد الحميد بن باديس ودورها فى يقظة الجزائر ن ص٤٢ .

(٦١) أصبح يعرف بالخليج العربى .

(٦٢) جاءت الأسماء فى أنطونيوس على الوجه التالى : بانياس ـ أم قيس ـ صلخد ـ تال ـ عسدا ـ مسمية .

(٦٣) ورد فى أنطونيوس : " أو تنشأ قاعدة بحرية فى الجزائر الواقعة على الساحل الشرقى للبحر الأحمر " بدلا من " أن تنشأ قاعدة بحرية فى الجزائر على ساحل البحر الأبيض الشرقى" .

(٦٤) لا نود الوقوع فى خطأ التعميم فالمقصود هنا اليهود الذين ينتمون إلى هذه المؤسسات فقط .

(٦٥) د. صابر طعيمة : الماسونية ذلك العالم المجهول ـ دار الجيل ـ ط ٥، سنة ١٩٨٦م، ص٣٩٩-٤٠١، د . محمد برج : المرجع السابق، ص٢٥٥ .

(٦٦) اشترك لينين فى الحزب الثورى، واسمه الحقيقى فلاديميرا وليانوف، انتقاما لإعدام شقيقه إسكندر أوليانوف بعد فشل محاولته فى اغتيال القيصر اسكندر الثالث، كما ظهر من الزعامات اليهودية فى الثورة الشيوعية تروتسكى الذى نادى بالتقيد الحرفى بآراء وأفكار كارل ماركس. د . صابر طعيمة : المرجع السابق، ص٤٠٢٠ . ويجدر الإشارة إلى أن اليهود لم يكونوا يريدون إحداث ثورة وتغيير فى روسيا بل انصبت مساعيهم على إحداث مزيد من التصدع فى المجتمع الروسى، ولكن قيام الثورة لم يمنعهم من السعى لبسط نفوذهم على مقدرات روسيا السياسية .

(٦٧) د. محمد برج : المرجع السابق، ص٢٥٦ .

(٦٨) زياد أبو غنيمة : السيطرة الصهيونية على وسائل الإعلام العالمية ــ دار عمان ــ الأردن، ط٢، سنة ١٩٨٩م، ص٢٥، وما بعدها، وعن سيطرة اليهود على إنجلترا من المحافل الماسونية أنظر : د . صابر طعيمة : الماسونية، ص٤٢٠ .

(٦٩) تولى لويد جورج وزارة الحربية بعد موت كتشنر، ثم هيأت له الصحافة اليهودية الطريق إلى رئاسة الوزارة التى صدر فى عهدها تصريح بلفور، ويقال عنه أن التوراة قد صنعته، أنظر : سليمان موسى : المرجع السابق، ص٣٦٦ .

(٧٠) تشير الوثائق البريطانية إلى التقارب الشديد بين اليهود والإنجليز فيذكر وايزمان للرئيس الأمريكى ولسن فى اجتماعهما فى باريس سنة ١٣٣٧هـ ١٩١٩م، أن الإنجليز أكثر الأمم فى العالم بعد اليهود تعلقا بتعاليم التوراة . وكانت علاقة وايزمان مع لويد جورج وبلفور قد تدعمت بسبب اختراع وايزمان لمادة الأسيتون الضرورية فى صناعة المتفجرات . د . عمر عبد العزيز : المرجع السابق، ص٥٠٥ .

(٧١) د . محمد برج : المرجع السابق، ص٢٥٩ .

(٧٢) زياد أبو غنيمة : المرجع السابق، ص٣٣ .

(٧٣) د . احمد عبد الرحيم مصطفى : الولايات المتحدة والشرق الأوسط ص٥٤ .

(٧٤) د . محمد برج : المرجع السابق، ص٢٥٤، ٢٦٠، ويراعى أن موقف الاتحاديين من اليهود كان موقفا غير حازم كموقف السلطان عبد الحميد، وكانوا يفرقون بين اليهود من سكان الدولة العثمانية واليهود الذين يأتون من خارجها بأطماعهم وأهدافهم، فضلا عن أن مجموعة كبيرة من رجال الاتحاد والترقى كانوا من أصل يهودى . ويرى البعض أن الاتجاه العام فى الدول الأوربية وغيرها لمساعدة اليهود فى إنشاء وطن قومى لم يكن تعبيرا عن نجاح اليهود فى التأثير على صناع القرار فى هذه البلدان فقط وانما يرجع كذلك الى اتجاه عام يرمى الى التخلص منهم .

(٧٥) سليمان موسى : الحركة العربية، ص٣٦٨ .

(٧٦) د . عمر عبد العزيز : المرجع السابق، ص٥٠٥ .

(٧٧) F. O. 371 / 3054

(٧٨) F. O. 371 / 3054

(٧٩) د . خالد حمود السعدون : موقف إمارة حائل من الحرب العالمية الأولى، مجلة الـــدارة، ص٣٢ .

(٨٠) . F. O. 882 7

(٨١) . F. O. 371 / 3395, 686 / 37, 636

(٨٢) . F. O. 636 / 37, 371 / 3380, 371 / 75

الخاتمة

خـــاتمة :

لعل من أبرز الحقائق التي تناولها هذا البحث المنظور الخاطىء الذي تنـــاول به أغلب المؤرخين لدور الدولة العثمانية وإنكار طابعها الإسلامي وجهودها فـــى الدفاع عن العالم الإسلامي عبر قرون عدة وتسخيرها لمواردها لخدمة هذا الهدف بشكل دعاها للتقصير فى الميادين الاقتصادية والاجتماعية فـــى بدايـــة نشـــأتها وتطورها على الأقل، وعلى الرغم من الضعف الذي كان قد بدأ يدب فى أوصالـــها منذ أواخر القرن الحادى عشر الهجرى السابع عشر الميـــلادى، ممـــا أدى إلـــى ظهور بعد الولاة المتمردين والمغامرين خلال القرن الثانى عشر الهجرى الثـــامن عشر الميلادى من أمثال " على بك الكبير"، إلا أن استنادها ـ أي الدولة العثمانية ـ إلى رصيد واسع بين الشعوب المسلمة قد أسهم، أكثر ممـــا أســـهمت قواتـــها العسكرية، فى القضاء على هذه الحركات . وبدلاً من أن يسجّل المؤرخون هـــذه الحقيقة قلبوها باعتبارهم هؤلاء المغامرين أبطالاً قوميين دعماً لمنظورهم القومي الذي كان يغيب عن الشعوب الإسلامية تماماً .

ويعتبر موقف المؤرخين من دور" محمد على" قمة التزييف للحقيقة التاريخية منذ سطوه على الولاية فى مصر وارتباطه بالحركة الماسونية الوليدة فى مصـــر مروراً بدوره فى تحقيق أهداف الاستعمار الغربي فى ضرب التيار الإسلامي فـــى مصر والشام والجزيرة العربية والخليج وشمال إفريقيا، ومساعيه لتمزيق الوحدة التي كانت قائمة بين الشعوب الإسلامية تحت الخلافة العثمانية بدلاً من أن يسـعى لتقويتها فهيأ المنطقة للاستعمار العربي حيث ساهم فى الوجود البريطـــانى فـــى الخليج والبحر الأحمر والوجود الفرنسى فى الجزائر، واستكمل أبنـــاؤه سياســـته حتى خضعت بقية الشعوب الإســـلامية العربيـــة للاســـتعمار الغربـــي، وحـــاول المؤرخون القوميون صبغ الحركات الوطنية فى الشعوب العربية بالصبغة القومية خلال فترة مقاومة الاستعمار رغم غياب البعد القومـــي عـــن جمـــوع الكـــادحين المجاهدين للاستعمار الذين نظروا إلى الاستعمار من منظور دينى فـــى الغـــالب، واستند هؤلاء المؤرخون فى سبيل دعمهم لمنظورهم علـــى صحـــف ومجـــلات ووثائق خاضعة لعناصر ماسونية تسعى لدعم الفرقة والتمزّق من خـــلال إثـــارة النعرات القومية والجنسية متخفّية وراء دعاوى مشبوهة وهى مساندة حركـــات التحرر،ورحّب الاستعمار بدورهذه العناصر التي أفرزت عنـــاصر مـــن أصحـــاب المصالح لكونها قد يسّرت له سبيل التهام هذه الشعوب باسم حمايـــة مصالحـــها،

فضلاً عن تأثر السياسة الاستعمارية بدور هذه العناصر،فبدا تحالف ماسونى إستعمارى ساندته القوى الدينية المعادية للمسلمين، وكذلك أصحاب المصالح الاقتصادية التي تسيّدت الساحة السياسية .

ومن خلال هذا المنظور تناول المؤرخون حركة " الشريف حسين " سنة ١٣٣٤هـ ١٩١٦م، على أنها ثورة قومية ضد الخلافة العثمانية على الرغم من أن هذه الحركة وإن كان دافعها الأساسي دافع اقتصادي يتمثل فى حرصها على مكاسبها من وضعها الديني وصلتها بالمؤسسات الاستعمارية إلا أنها قد استغلت العامل الديني فى جمع قلة من الأنصار، وجعلت منهم ومن الإعلانات التي كانت أكبر من حجمها ـ على الرغم منها ـ، قناعاً يسمح بدخول الجيوش الاستعمارية الكافرة لأرض الحجاز الطاهرة لتنفيذ مخططات كانت فى دوافعها من قبل الاستعمار ونتائجها بشكل عام معادية لمصالح شعوب المنطقة ومستقبلها وهو أمر لم يكن فى مجمله يتفق ورغبة هذه الزعامات أو حتى مصالحها وطموحاتها الإقليمية .

ثم كانت إتفاقية " سايكس بيكو" سنة ١٣٣٤ هـ ١٩١٦م، والتي مازال البعض يعتبرها خديعة استعمارية فى حين كان بعض الحكام فى المنطقة العربية على علم ببعض أبعادها، وأن الكثير من جلساتها قد عقدت فى ميناء جدة الإسلامي على مرأى ومسمع ممن خدعتهم صداقة الذئاب، وتحملت النتيجة شعوب المنطقة بأسرها دون إدراك طبيعة الخداع عند دول الاستعمار الغربي .

وحتى وعد بلفور فما زال المعروف عنه أنه كان نتيجة مرور بريطانيا بأزمة مالية أسهم اليهود فى حلها، ولكنه فى الحقيقة كان تعبيراً عن التحالف بين الحركة الماسونية والاستعمار،حيث نجحت العناصر الماسونية بتأثيرها الاقتصادى والسياسى المترتبة عليه فى إدخال الولايات المتحدة الأمريكية الحرب إلى جانب الحلفاء . وكانت دول المحور تسعى إلى ذلك أيضاً، وكان كل جانب يسعى لإرضاء اليهود بوعد كوعد بلفور سواء ألمانيا أو تركيا بعد أن دانت لعناصر ماسونية من أعضاء الاتحاد والترقى أو فرنسا، ولو أن الإنجليز قد تأخروا فى إصدار وعد بلفور لكان قد صدر فى مكان آخر أو أماكن أخرى .

ومن أهم الحقائق التي تناولها هذا البحث محاولة تصحيح ما ذهب إليه المؤرخون القوميون فى اعتبارهم معاهدة " سيفر" المهينة التي وقّع عليها الخليفة العثمانى في أنها وصمة فى جبين نظام الخلافة فى نهاية الحرب العالمية الأولى،

وفى نفس الوقت إضفاء طابع الإنقاذ والوطنية علي مصطفى كمال الـذي عـرف باسم " أتاتورك " بعد أن استعاد أراضى تركيا وأجبر دول أوروبـا علـى توقيـع معاهدة لوزان سنة ١٣٤١هـ-١٩٢٣م، والحقيقة أن سلطة الخلافـة الإسـلامية الفعلية فى الآستانة قد انتهت بإبعاد السلطان " عبد الحميد الثانى" سنة ١٣٢٦هـ-١٩٠٩م، وأن مسئولية الحرب وما آلت إليه تقع على جماعة الاتحـاد والـترقى وبعدها عن الطابع الإسلامي، فى حين أن " مصطفى كمال " لم يجتمع المجـاهدون الثوريون المسلمون حوله تحت شعارات قومية بل تحت شعارات إسـلامية ظـل يجاهر بها في البداية، لذلك فان البعد عن العامل الديني كان وراء الهزيمة وتوقيع معاهدة سيفر حتى ولو أجبر الخليفة ظاهريا على التوقيع، والقرب مـن الطـابع الديني أدى إلى نجاح " أتاتورك " وعقده معاهدة لوزان رغم تنكره له بعد ذلك .

على أن العامل الاقتصادى قد لعب دورا مؤثرا فى مسيرة الأحداث سواء على مستوى علاقة الدولة العثمانية مع الدول الأجنبيـة أم علـى مسـتوى الأحـداث الداخلية فى المشرق الإسلامي حيث كان العامل الأكثر تأثيرا فى تشـكيل القـوى والكيانات السياسية العربية. فالحركة الاستعمارية التي بدأتها البرتغال فى مطلـع القرن العاشر الهجرى السادس عشر الميلادى وإن كانت فى بدايتها قـد تـأثرت بالعامل الديني لإرضاء المغامرين أو العوام إلا أن الطبقة البرجوازية التي سـيرت هذه الرحلات وأسست الشركات التجارية كانت تهتم بتحقيق فوائد مادية أكثر مـن أي عامل آخر، وسرعان ما طغى العامل الاقتصادى وسـخر العوامـل الأخـرى لأهداف هذه الطبقة .

ولا شك أن الصراع الروسي العثمانى الدائم قد لعب فيه العـامل الاقتصـادى دورا رئيسيا مهما بدا من أثر للعامل الديني، فقد سخر الإقطاعيون وكبار المـلاك فى روسيا العامل الديني للقيام بحروب عديدة ضد العثمانيين بهدف السيطرة على المضايق والخروج إلى البحار الدافئة أملا فى تحقيق مكاسب اقتصاديـة. وكـان وقوف بريطانيا وفرنسا مع الدولة العثمانية ضد روسيا تأكيدا على غلبة العوامـل الاقتصادية على ما سواها .

وإذا كان العامل الديني قد لعب دورا رئيسيا فى اندفاع جموع المسلمين إلـى ساحل الخليج العربي للاشتراك فى الجهاد ضد الاستعمار الغربي فى البداية فـإن العامل الاقتصادى قد لعب دورا هاما فى هذا الاندفاع لكون المنطقة كـانت أكـثر عطاء من المناطق الداخلية التي تعرضت للجدب والجفاف، فضلا عن زيادة حجـم

الشرائح السكانية المتعاملة مع المراكز التجارية الاستعمارية التي ارتبطت في مصالحها ووجودها شيئاً فشيئاً بالمصالح الاستعمارية إلى أن توافقت مصالحهما وهو ما عبّرت عنه في النهاية اتفاقيات الحماية بينهما .

ويعد العامل الاقتصادى من أبرز العوامل التي اعتمدت عليها المحافل الماسونية فى تحقيق كافة أهدافها رغم صغر حجمها وعدد المنتمين إليها، حيث استطاعت به أن تسخّر محمد على لسياستها بعد أن يسّرت له سبيل الوصول إلى السلطة فى مصر، وبنفس الطريق عثمان بك فى البلقان، و" مصطفى رشيد باشا " فى استانبول، و" داود باشا " فى العراق وكذلك " مدحت باشا " وغير ذلك . وكان البعد الاقتصادى وراء التقارب البريطانى أو الفرنسى من " محمد على " فدعموه فى التمهيد لسياستهم التجارية فى البحر الأحمر والخليج الذي، وحاربوه حين بدت أطماعه مهددة لأطماعهم فى هذه المناطق .

أما من حيث أثر العامل الاقتصادى فى تكوين القوى ، الكيانات السياسية فى العالم العربي فقد بدا هذا العامل واضحاً تشكيل هذه القوى فى الخليج حيث كان وراء هجرة العتوب إلى الكويت، ثم خروج آل خليفة والجلاهمة إلى قطر، وكان العامل الأساسي سواء فى صراع هذه القوى أو فى أبعاد علاقاتها بالقوى الاستعمارية.وكذلك كان هذا العامل وراء تقارب أصحاب المصالح من الشركات التجارية البريطانية فى عدن وارتباط مصالحها بالاستعمار مما مهد السبيل لانسلاخها عن اليمن رغم العمق التاريخى لوجود هذا البلد موحّداً .

وفى شمال إفريقيا لعب العامل الاقتصادى دوراً هائلاً فى التشكيل السياسي للدول فيه، فحين عرض بعض دايات الجزائر ضم تونس إليهم تحت حجة وحدة الجهاد ضد الفرنسيين والأطماع الاستعمارية عموماً أبدت الأسرة الحسينية فى تونس رفضها لهذا العرض متعللة بالرغبة فى الاستقلال الذي كان يعني لها الحفاظ على مصالحها، ولقى الدور اليهودى مناخاً حيث كانت العناصر اليهودية مسيطرة على بعض الجوانب الاقتصادية الهامة والمؤثرة فى صنع القرار .

وفى بلاد الشام لم يفلح دعاة القومية فى فرض الدولة العربية الواحدة المتمثلة فى سورية الكبرى بعد انتهاء النفوذ العثمانى فى نهاية الحرب العالمية الأولى حيث قامت الأقلية من أصحاب المصالح الاقتصادية، ومدفوعة بعوامل طائفية،بطلب استقلال لبنان مع ارتباطه بفرنسا لحماية المصالح المشتركة بينهما.

وفى مصر نجح الاحتلال البريطانى فى ربط مصالح الطبقة البرجوازية وكبار الملاك بمصالحه ووجوده فصاغوا دورهم الوطنى فى إطار وجوده وساعدهم فـى تسيير العمل الوطنى الصورى المتمثل فيهم، ولم تفلح ثورات العامة فى زحزحـة الاحتلال أو تحقيق أي قدر من العدل الاجتماعي بسبب هذا الترابط . وظل الوضـع على هذا التمييع للحركة الوطنية حتى قامت ثورة العسكريين سـنة ١٣٧١هــ ١٩٥٢م، وسط ظروف دولية ساعدتها على القيام والصمود والاستمرار. ومع أن هذه الثورة تمكنت من تغيير نسبي للتركيب الاجتماعي فى مصر من خلال تملـك السلطة إلا أنها لم تحقق أي قدر من العدل الاجتماعي إلا فى حدود ضيقة وبعـد فترة زمنية طويلة بفعل حصار القوى الاستعمارية وخنقها لهذه الثورة خشـية أن تؤدى إلي ضرب مصالحها فى المنطقة إلي جانب عوامل داخلية أخري .

وبشكل عام فإن المصالح الاقتصادية الاستعمارية قد اسـتطاعت أن تسـخّر كافة العوامل السياسية والدينية والفكرية فى تمزيق الدولـة الإسـلامية وإعـادة تشكيلها إلى دول وكيانات سياسية ضعيفة فى الغالب، وأوجدت فيها شرائح وفئات ارتبطت فى مصالحها ووجودها بالقوى الاستعمارية لحمايتها وحماية مصالحـها من نداءات التغيير .

على أن العامل الديني قد ظل يشكل العامل الأساسي لدى صناع الأحداث مـن الطبقات المعانية والكادحة فى العالم العربي، ومع أنه قد أصبح عـاملاً تبريريـاً وغير مؤثر عند صناع القرار إلا أن البحث التاريخى لا ينبغى أن يغفله فى رصـد الأحداث، أي أنه بالعاملين معاً الاقتصادى والدينى يجب رصد الأحداث التاريخيـة ولدى كافة الشرائح الاجتماعية، وبهذين العاملين يمكن اسـتلهام تصـور قـابل للتطبيق فى تحقيق الوحدة المأمولة، فالوحدة الاقتصادية تحقق الوحدة الفعلية من خلال المصالح والتنمية، والإطار الديني يحدد مسار التنمية فى سبل خيّرة ويحمى المصالح من الاضطرابات والقلاقل .

وإذا كانت محاولة تعقب دور الحركة الماسـونية وتحالفـها مـع الدوائـر الاستعمارية بوجهها الاقتصادى والدينى تعد من الجوانب البارزة فى هذا البحـث فإن جوانب خفية تحيط بهذه الحركة مازال يكتنفها الغموض لطبيعتها، وآمـل أن تجد اهتماماً من الباحثين مستقبلاً حتى تتكشف المزيد من الحقائق وينجلى قـدر التزييف الذي مازال يحيط ببعض الأحداث والأشخاص .

علي أن محاولة تقويم الصفوة لاينبغي أن تفهم علي أنـــها اتجـاه لإســقاط الرموز التاريخية بل هي محاولة لإبراز الحقيقة التي ينبغي أن تعلـو فـوق كـل الرموز وإعلاء دور الشعوب من خلال ربط الرموز بقاعدتهم الشعبية، وفي نفس الوقت رفض التسليم بالرموز المفروضة علـي حسـاب رمـوز أهملـها كتّـاب مغرضون فطمسوا دورها في التدوين التاريخي .

كما أن صياغة التاريخ من منظور إسلامي ليس اتجاها للانعزالية أو الاحتماء بالماضي أمام تحدي الحضارة الغربية بل هي تأكيد علي ضرورة إبـراز الهويـة الإسلامية بشكل عام والعربية بشكل خاص ولتساعد هذه الصياغة علي توضيح ما يمكن استلهامه من التاريخ في طريق هذا التحدي .

وهي كذلك ليست محاولة لإثارة التناقض بين العروبة والإسلام لكنها أسـاس لتأكيد مدي احتواء الكل الإسلامي للعروبة وغيرهـا عـبر التـاريخ وأن السـعي للخروج علي هذا الكل قد أسهم وسيسهم في حدوث العديد من الهزات .

ولعل أحداث التاريخ قد أكدت أن الطرح الإسلامي الحضاري لم يكـن طرحـا ثيوقراطياً أو كهنوتياً أو طائفياً بل هو طرح شـامل لكـل الطوائـف والأعـراق والمذاهب والديانات والثقافات واللغات، وأن هذه الشـمولية هـي السـبب فـي استمراره والإصرار علي هـذا الاسـتمرار حتـى مـن المعتدليـن مـن غـير المسلمين.وبالتالي فإن الإشارة إلي بعض العناصر السلبية من النصاري أو حتـى اليهود لا تنبع من نظرة متعصبة بل من نظرة موضوعية شـمولية تسـتند إلـي الرصيد الحضاري الإسلامي الشمولي التاريخي الذي احتمت به هذه العناصر ليس فقط في الإطار النظري .

وآمل فى النهاية أن يوجد جيل حوار حر يدرك ماضيه وحاضره بوضـوح ويسعى إلى إخراج المنطقة من دوائر الظلام المدعوم بوسائل الحضارة الماديـة، وأن تستعيد الأمة التائهة ذاكرتها الحقيقية من تراثها التـاريخي الصحيـح لا أن تفرض عليها ذاكرة التاريخ من مزيّفى التاريخ مهما كـانت أسـاليب دعمـهم أو الظروف المرحلية المحيطة بهذا الدعم .

المصادر والمراجع

الوثـائق غـير المنشـورة :

(١) العـربيــة

وثائق عابدين ــ دار الوثائق القومية ــ القاهرة

- محفظة رقم (٣٦١) خلافة إسلامية .
- محفظة رقم (٦٧) .

(٢) الإنجليزيـة :

- Correspondence Re (Persion) Gulf, VOL 64 - 1060 Of 1839, Part VI .
- F . O . 882 / 13 .
- F . O . 882 / 2 .
- F . O . 371 / 6237 , 3395 .
- F . O . 882 / 19 .
- F . O . 141 / 462 .
- F . O . 686 / 6 .
- F . O . 686 / 33 - 34 - 37 - 636 .
- F . O . 882 / 7 .
- F . O . 371 / 6237 , 75 , 3380 .
- F . O . 882 / 8 .
- F . O . 882 / 16 .
- F . O . 882 / 6 .
- F . O . 371 / 3054 - 3059 .
- F . O . 608 / 98 .

المراجـــع العربيـــة

- د . إبراهيم أحمد العدوى :

الصراع الفكرى بين أجيال العصور الوسطى والعصر الحديـث كمـا صـوره الجبرتى ـ بحث ضمن مجموعة أبحاث نـدوة الجـبرتى ـ القـاهرة سـنة ١٩٧٦م.

- د . إبراهيم عبده :

إعلام الصحافة العربية ـ القاهرة .

- إبراهيم محمد الصبحى :

الحجاز فى القرن السابع عشر ـ رسالة ماجستير غير منشورة ـ كلية الآداب جامعة طنطا، ١٩٨٩م .

- إبن إياس ـ محمد بن أحمد :

بدائع الزهور فى وقائع الدهور، جـ٤ تحقيق د . محمد مصطفى، القاهرة سنة ١٩٦٠م .

- ابن بطوطة :

تحفة الأنظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، دار الكتاب اللبنـانى ب ـ ت .

- ابن العجيمى ـ محمد بن حسن :

خبايا الزوايا، مخطوط رقم (٧) ـ مكتبة الحرم المكى ـ نسخ عبـد السـتار الدهلوى سنة ١٣٢١هـ .

- أبو إسلام أحمد عبد الله :

الطابور الخامس فى الشرق الإسلامي ـ الماسونية الجديدة ـ القـاهرة سـنة ١٩٩١م .

- أبو إسلام أحمد عبد الله :

الماسونية فى المنطقة ٢٤٥، القاهرة سنة ١٩٩٣م .

- أبو إسلام أحمد عبد الله :

الروتارى ـ شرخ فى جدار ـ دار الاعتصام ـ القاهرة سنة ١٩٨٨م.

- أبو الفدا ـ محمد عزت عارف :

نهاية اليهود ـ جدة ـ سنة ١٤١٠هـ .

- أبو القاسم سعد الله :

محاضرات فى تاريخ الجزائر الحديث ـ القاهرة سنة ١٩٧٦م .

- أحمد أمين :

الفتوة فى الإسلام ـ القاهرة سنة ١٩٥٢م .

- أحمد توفيق مدنى :

حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وأسبانيا ـ الجزائر ـ ط٢ سنة ١٩٧٦م .

- د . أحمد صبحى منصور :

السيد البدوى بين الحقيقة والخرافة ـ القاهرة سنة ١٩٨٢م .

- أحمد خاكى :

الجبرتى ومحمد على ـ بحث ضمن ندوة الجبرتى ـ القاهرة سنة ١٩٧٦م .

- د . أحمد عبد الرحيم مصطفى :

فى أصول التاريخ العثمانى ـ دار الشروق ـ بيروت ـ سنة ١٩٨٢م.

- د . أحمد عبد الرحيم مصطفى :

الجبرتى مؤرخاً ـ ضمن مجموعة ندوة الجبرتى ـ القاهرة سنة ١٩٧٦م .

- د . أحمد عزت عبد الكريم :

دراسات فى تاريخ العرب الحديث ـ بيروت ـ سنة ١٩٧٠م .

- د . أحمد عزت عبد الكريم :

الجبرتى مؤرخ على مفترق الطرق ـ ضمن مجموعة ندوة الجبرتى ـ القاهرة سنة ١٩٧٦م .

- أحمد فهد الشوابكة :

فكرة الجامعة الإسلامية ـ مكتبة المنار ـ الأردن سنة ١٩٨٤م .

- د. أحمد فؤاد متولى :

الفتح العثمانى للشام ومصر ـ القاهرة سنة ١٩٧١م .

- أرمينيوس فامبرى :

تاريخ بخارى ـ ت د . أحمد محمود الساداتى ـ المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة سنة ١٩٦٥م .

- أرنولد توينبى :

عبد الرحمن الجبرتى وعصره ـ بحث ضمن مجموعة ندوة الجبرتى ـ القاهرة سنة ١٩٧٦م .

- العبد سعيد مسعود :
  المجتمع الجزائرى فى العهد العثمانى ــ الجزائر ــ ب . ت .
- السالمى :
  تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان ــ ج ٢ .
- أنور الجندى :
  اليقظة الإسلامية فى مواجهة الاستعمار منذ ظهورها إلى أوائل الحرب العالمية الأولى ــ دار الاعتصام ــ القاهرة سنة ١٩٧٨م .
- بارتولد . و :
  تاريخ الترك فى آسيا الوسطى - ترجمة د . أحمد السعيد سليمان ــ ب ــ ت.
- د . بدر الدين عباس الخصوصى :
  دراسات فى تاريخ الخليج الذي الحديث والمعاصر ــ ط٢ الكويت سنة ١٩٨٤م.
- برنارد لويس :
  الغرب والشرق الأوسط ــ ت . د . نبيل صبحى ــ بيروت سنة ١٩٦٥م .
- بيير نوفان :
  تاريخ العلاقات الدولية، ترجمة د . جلال يحيى ــ القاهرة سنة ١٩٧٩م .
- توماس . و. أرنولد :
  الدعوة إلى الإسلام ــ ت . د . حسن إبراهيم حسن وآخرين ــ النهضة العربية ــ القاهرة سنة ١٩٧٠م .
- د . جمال محمد محمود حجر :
  بريطانيا والنشاط السوفييتى فى الحجاز. ١٩٢٤ ــ ١٩٣٨م ــ الدوحة ــ ب . ت .
- د . جلال يحيى :
  المغرب الكبير ــ العصور الحديثة وهجوم الاستعمار ــ القاهرة سنة ١٩٦٦م.
- ج. بيير ــ ت . د . عبد الخالق لاشين :
  دراسات فى التاريخ الاجتماعي لمصر الحديثة ــ القاهرة .
- د . جمال زكريا قاسم :
  الأصول التاريخية للعلاقات العربية الإفريقية ــ القاهرة . د.ت
  دولة بوسعيد فى عمان وشرق إفريقيا. القاهرة ــ د. ت

الصراعات المحلية والدولية فى البحر الأحمر فى النصف الأول مـــن القـــرن السادس عشر . ندوة البحر الأحمر. القاهرة سنة ١٩٨٠م .
عبد الرحمن الجبرتى ـــ سيرة وتقييم ـــ مجموعة أبحاث ندوة الجـــبرتى ـــ القاهرة سنة ١٩٧٦م .
• جواد رفعت أتلخان ـــ تـــ : نور الدين رضا الواعظ ومحمد أميـــن القـــابلى :
أسرار الماسونية ـــ ب . ت .
• جورج أنطونيوس :
يقظة العرب ـــ ت د . ناصر الدين الأسد ود . إحسان عباس ط ٦ .
• د . حسن أحمد محمود :
الإسلام والحضارة العربية فى آسيا الوسطى بين الفتحين الـــذي والـــتركى ـــ النهضة العربية ـــ القاهرة سنة ١٩٦٨م .
• حسين عمر حمادة :
الماسونية والماسونيون فى الوطن الذي ـــ دمشق ـــ ب . ت .
• حسن لبيب :
تاريخ الأتراك العثمانيين ـــ القاهرة سنة ١٩١٧م .
• د . حسين نجيب المصرى :
صلات بين العرب والفرس والترك ـــ الأنجلو المصرية سنة ١٩٧١م.
• د . رؤوف عباس :
مصر للمصريين ـــ المعارضة الوطنية وإرهاصات الثورة .
• د . رأفت غنيمى الشيخ :
دراسات فى تاريخ العرب الحديث ـــ القاهرة سنة ١٩٨٦م .
• د . رفعت السعيد :
الأساس الاجتماعي للثورة العرابية ـــ القاهرة سنة ١٩٦٦م .
• د . خالد حمود السعدون :
المفاوضات آلتي أدت إلى عقد معاهدة سنة ١٩١٥م ـــ مجلة الداره .
• د . رأفت غنيمى الشيخ :
أمريكا والعلاقات الدولية ـــ القاهرة سنة ١٩٧٩م .
• نوفان قرقوط :

الماسونية العربية ـ موقفها من الصهيونية ـ مجلة قضايا عربية ـ العدد ٩ ـ بيروت سنة ١٩٧٠م .

• د . زكريا سليمان موسى :

ـ التيارات السياسية والاجتماعية بين المجددين والمحافظين - دراسة في فكر الشيخ محمد عبده - القاهرة سنة ١٩٨٣م .

ـ موقف مصر من ضم ابن سعود للحجاز - القاهرة سنة ١٩٨٩م .

ـ قراءة جديدة فى تاريخ العثمانيين - جدة سنة ١٩٩١م .

ـ موقف مصر من المتغيرات فى تركيا بين الحربيين العالميتين ـ القاهرة سنة ١٩٨٩م .

• زهدى الفاتح :

لورنس العرب على خطى هرتزل ـ بيروت ـ ط٤ ـ دار النفائس سنة ١٩٩١م .

• د . زكى إبراهيم :

صوت الماسونية ـ التقويم الماسونى فى العام لمحفل منف القاهرة .

• د . سعد زغلول عبد ربه :

البرتغاليون والبحر الأحمر ـ مجموعة بحوث ندوة البحر الأحمر ـ القاهرة سنة ١٩٨٠م

• د . سليمان محمد الغنام :

قراءة جديدة لسياسة محمد على التوسعية ـ دار تهامة ـ سنة ١٩٨٠م.

• د . سليمان موسى :

الحركة العربية ـ بيروت سنة ١٩٧٧م .

• د . سامى عزيز :

الصحافة المصرية ـ القاهرة سنة ١٩٦٨م .

• د . سيد نوفل :

الأوضاع السياسية لإمارات الخليج الذي وجنوب الجزيرة ـ الكتاب الثانى ـ ط٢ ـ القاهرة سنة ١٩٧٢م .

• سعيد عبد الله حارب :

أضواء على الماسونية ـ دبى ـ سنة ١٩٨٥م .

• د . شوقى ضيف :

فصول من الشعر ونقده ــ القاهرة سنة ١٩٧١م .

- زياد أبو غنيمة :

السيطرة الصهيونية على وسائل الإعلام العالميـــة . دار عمـــار ــ الأردن ط٢ سنة ١٩٨٩م .

- صبحي وحيده :

فى أصول المسألة المصرية ــ ط٢ ــ القاهرة ب . ت .

- شولش :

مصر للمصريين ــ ت د . رؤوف عباس ــ القاهرة .

- د . شوقى الجمل :

تاريخ كشف أفريقيا واستعمارها ــ ط٢ ــ القاهرة سنة ١٩٨٠م .

- د . صابر طعيمه :

الماسونية ذلك العالم المجهول .

- صالح عبد الله العبود :

فكرة القومية العربية على ضوء الإسلام ــ الرياض سنة ١٤٠١هـ.

- د . صلاح العقاد :

المغرب فى بداية العصور الحديثة ــ القاهرة سنة ١٩٨٠م .

التيارات السياسية فى الخليج الذي ــ القاهرة سنة ١٩٧٤م .

الجبرتى والفرنسيين ــ بحث ضمن ندوة الجبرتى ــ القاهرة سنة ١٩٧٦م .

دراسة مقارنة للحركات القومية ــ معهد الدراسات العربية ــ القاهرة .

- صلاح عيسى :

منهج عبد الرحمن الجبرتى فى رؤية الظواهر التاريخية ــ ندوة الجـــبرتى ــ القاهرة سنة ١٩٧٦م .

- د . طالب محمد وهيم :

جريدة القبلة الحجازية والقضية العربية ــ مجلة الخليج فى سنة ١٩٨٩م .

- د . عبد الحميد البطريق وآخرون :

التاريخ الأوربى الحديث ــ دار الفكر الذي ــ القاهرة سنة ١٩٧٦م.

- عبد الجبار الزبيدى :

الماسونية تحت الأضواء ــ بيروت سنة ١٩٨٨م .

- عبد الرحمن الجبرتى :

عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ــ دار فارس ــ بيروت ــ ب.ت.

- د . عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم :

الوثائق الخاصة بشبه الجزيرة العربية فى عصر محمد على ــ قطر .

الدولة السعودية الأولى - معهد الدراسات العربية - القاهرة .

دراسات فى تاريخ العرب الحديث والمعاصر ــ القاهرة سنة ١٩٨٦م.

- عبد الصبور مرزوق :

الغزو الفكرى ــ اهدافه ووسائله ــ ط٣ ــ مكة المكرمة ب . ت .

- د . عبد العزيز نوار :

الوثائق السياسية من تاريخ لبنان الحديث ــ بيروت سنة ١٩٧٤م .

- د . عبد العزيز محمد الشناوى :

الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ــ ٣ أجزاء ــ الأنجلو المصرية سنة ١٩٧٨م .

- د . عبد الكريم غرايبة :

تاريخ العرب الحديث ــ بيروت سنة ١٩٨٤م .

- د . على شلبى :

الريف المصرى فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ــ القاهرة سنة ١٨٣م .

- د . على بركات :

حركة المطالبة بالأرض فى الثورة العرابية ــ من كتاب مصر للمصريين ــ القاهرة .

- د . على الحديدى :

عبد الله النديم ــ سلسلة أعلام العرب .

- د . عبد الله سراج منسى :

المواجهة العثمانية البريطانية فى الخليج الذي ١٨٦٩ ــ ١٩١٤ ــ القاهرة سنة ١٩٩٤م .

- عثمان بن بشر :

عنوان المجد فى تاريخ نجد ــ ج ٢ .

- د . على حسون :

الدولة العثمانية ــ المكتب الإسلامي ــ بيروت سنة ١٩٨٠م .

• على معتوق القط :
الحجاز فى القرن الثامن عشر ـ رسالة ماجستير ـ القاهرة سنة ١٩٦٩م .
• د . عمر عبد العزيز عمر :
تاريخ المشرق الـــذي ١٥١٧ـ١٩٢٢م ـ دار المعرفـــة الإســـكندرية ســـنة ١٩٨٤م .
• فائق حمدى طهبوب :
تاريخ البحرين السياسى ـ الكويت سنة ١٩٨٣م .
• د . فاروق عثمان أباظه :
عدن ـ السياسة البريطانية فى البحر الأحمـــر ١٨٣٩ـ ١٩١٨م ـ القـــاهرة سنة ١٧٦ .
• فتحى رضوان :
مصطفى كمال أتاتورك ـ القاهرة سنة ١٩٨٣م .
• عبد المجيد يونس :
المحفل الأكبر الوطنى المصرى ـ القاهرة .
• د . على شلش :
اليهود والماسون فى مصر ـ دراسة تاريخية الزهراء للإعلام الذي ـ القاهرة سنة ١٤٠٧هـ ١٨٦م .
• د . فهمى سعد :
حركة عبد الحميد بن باريس ودورها فى يقظـــة الجزائـــر ـ بـــيروت ســـنة ١٩٨٣م .
• د . فتوح الخترش :
الحرب الحجازية البحرية ١٩٢٤ ـ ١٩٢٦م ـ مجلة الخليج العدد ٢٦ .
• فيشر هربرت :
فى اصول التاريخ الأوربى الحديث ـ ت . د . زينب راشد . د . أحمـــد عبـــد الرحيم مصطفى ـ ط٣ .
• قطب الدين النهروالى :
أخبار مكة المشرفة ـ مكة ـ ب . ت .
• كارل بروكلمان :

تاريخ الشعوب الإسلامية ـ ترجمة منير البعلبكى ونبيه أمين فـــارس ط٨ ـ دار العلم للملايين ـ بيروت سنة ١٧٩م .

• كلود كاهن :

تاريخ العرب والشعوب الإسلامية منذ ظهور الإسلام حتى ظهور الإمبراطوريـة العثمانية ـ دار الحقيقة ـ بيروت ط٣ . سنة ١٩٨٣م .

• كوبلبرينج ـ ت :

الشرق الأدنى مجتمعه وثقافته ـ ت : د . عبد الرحمن أيوب ـ سلسلة اللـف كتاب ـ العدد (١١٦) القاهرة سنة ١٥٢م .

• د . لطيفة سالم :

صحافة الثورة العرابية ـ مصر للمصريين ـ القاهرة .

• د . لويس عوض :

تاريخ الفكر المصرى الحديث ـ الخلفية التاريخيـة ـ ط١ ـ القـاهرة سـنة ١٩٧٩م .

• د . ليلى عبد اللطيف أحمد :

تاريخ ومؤرخى مصر والشام فى العصر العثمانى ـ القاهرة سنة ١٩٨٠م .

• د . أبير :

التجديد والرجعية وإمبراطورية محمد على ـ ت : مكى حبيب المؤمن ـ مجلة المؤرخ الذي ـ العدد ١٨ سنة ١٩٨١م .

• محمد أديب غالب :

من أخبار الحجاز ونجد فى تاريخ الجبرتى ـ دار اليمامة السعودية ط١ سـنة ١٧٥م .

• د . محمد العيدروس :

دولة الإمارات العربية من الاستعمار إلى الاستقلال (١٤٠ ـ ١٨٩) الكويت .

• د . محمد أنيس :

الدولة العثمانية والمشرق الذي ـ القاهرة سنة ١٩٦٣م .

• د . محمد أنيس :

مدرسة التاريخ المصرى فى العصر العثمانى ـ القاهرة سنة ١٩٨٦م.

• محمد خليفة التونسى :

بروتوكولات حكماء صهيون ـ ط٧ ـ دار الكاتب الذي سنة ١٩٨٤م .

• محمد عبد الله عنان :
تاريخ الجمعيات السرية والحركات الهدامة ـ القاهرة ـ ط٢ ـ سنة ١٩٥٤م .
• محمد علاء الدين منصور :
جماعات الفتوة فى الأناضول فى العصرين السلجوقى والعثمانى ـ رسالة دكتوراه غير منشورة ـ آداب القاهرة سنة ١٩٨٣م .
• محمد على الزغبى :
الماسونية فى العراء ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ سنة ١٩٨٨م .
• د . محمد فؤاد شكرى :
مصر فى مطلع القرن التاسع عشر (١٨٠١-١٨١١م) ـ القاهرة سنة ١٩٥٨م .
• محمد فؤاد كوبريلى :
قيام الدولة العثمانية ـ ت : د. أحمد السعيد سليمان ـ دار الكاتب الذي ب. ت .
• محمد أبو الخير عبد القادر :
نكبة الأمة العربية بسقوط الخلافة العثمانية ـ مكتبة وهبه ـ القاهرة سنة ١٩٨٥م .
• محمد فريد بك :
تاريخ الدولة العلية .
• محمد كامل إبراهيم :
النشاط الماسونى فى مصر ـ مجلة المجتمع الكويتية ـ العدد (٦٤٥) سنة ١٨٣م .
• د . محمد عبد الرحمن برج :
دراسات فى التاريخ الذي الحديث ـ القاهرة سنة ١٩٧م .
• محمد قطب :
التفسير الإسلامي للتاريخ .
• د . محمد محمد حسين :
الاتجاهات الوطنية فى الآدب المعاصر ـ جزءان ـ ط٣ ـ بيروت سنة ١٩٧٢م .

• د . محمد مصطفى صفوت :
مؤتمر برلين سنة ١٨٧٨م وأثره على البلاد العربية ـ القاهرة سنة ١٩٥٧ .
• د . محمد موفاكو :
البكتاشية ـ مجلة الذي ـ العدد (٢٢٠) سنة ١٩٧٧م .
• د . محمود حلمى مصطفى :
الجبرتى ومعاصروه من أمراء المماليك ـ مجموعة ندوة الجبرتى ـ القاهرة سنة ١٩٧٦م .
• د . مصطفى محمد رمضان :
مخطوطة من تأليف الجبرتى ـ مجموعة ندوة الجبرتى ـ القاهرة سنة ١٩٧٦ .
• محمد نور عارف :
تاريخ غزو رأس المال الأجنبى لمصر ١٨٥٤ـ١٨٨٢ ـ رسالة دكتوراه ـ آداب المنيا سنة ١٩٨٠م .
• د . نور الدين حاطوم :
عصر النهضة الأوربية ـ دار الفكر الذي ـ بيروت سنة ١٩٦٨م .
• د . نبيل عبد الحميد سيد أحمد :
الزحف الإمبريالى على مصر فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر ـ الأهرام ـ القاهرة سنة ١٩٨١م .
• نجدة صفوة :
الماسونية فى الوطن الذي ـ مركز الدراسات العربية ـ لندن سنة ١٩٨٠م .
• نورمان بينز :
الإمبراطورية البيزنطية ـ ت : د . حسين مؤنس ومحمد يوسف زايد ـ القاهرة سنة ١٩٦٤م .
• د . يونان لبيب رزق :
الجبرتى والشخصية المصرية ـ مجموعة ندوة الجبرتى ـ القاهرة سنة ١٩٧٦م .

الدوريـــــات :

- المنار :

١٩٠٩ ـ ١٩١٣ ـ ١٩٢٤م .

- الوطن :

١٩٠٨ ـ ١٩٠٩م .

- اللواء :

١٩٠٩ ـ ١٩١٠م .

- الأخبار :

١٩٢٢م .

- الأهرام :

١٩٢٤م .

- المجتمع الكويتية :

١٩٨٣م .

- الذي :

١٩٧٧م .

- قضايا عربية ـ العدد (٩) ـ بيروت ـ يناير سنة ١٩٧٥م .

المراجـــع الأجنبيـــة

- Alexander Horme : King Soloman's Temple in the Tradition. London , 1972 .
- Bernard Lewis : The Emergence of Modern Turky, Oxford u.p. 1961 .
- Kamal Karpat : Turkey's Political : The Translation to Multi - Party , N.J. 1969 .
- Kushmer, David : The Rise of the Turkish Nationalism 1876 - 1908, London, 1977 .
- Marco. E : Yemen and Western World Since 1571, London, 1968 .
- Marston, T.E : Britain, S Imperial Role in the Red Sea area .
- Naday Safran : Egypt in Search of Political Community (Cambridge Harvard University Press, 1961) .
- J.M. London : Prolegamena to a study of secret societies in modern Egypt . Middle Eastern Studies, Vol. I. No. 2,0. London 1965 .
- Saleh Muhammad AL Amr : the Hejaz under Ottoman Rulle 1869 - 1914 ، D. of Philosophy at the University of Leeds , 1974 .
- Smith, W. C. Islam in Modern history , U.S.A. 1955 .
- Stephen Knight : The Brotherhood - the secret World of the Fremasons - London .
- Wittek. P. The Rise of Ottoman Empire, London , 1938 . Page 4040 - 405 .

كتب للمؤلف

- الإخوان المسلمون والجماعات الإسلامية فى الحياة السياسية المصرية ٢٨ ــ ١٩٤٨م، مكتبة وهبة ــ القاهرة سنة ١٩٧٩م .
- الحزب الوطنى ودوره فى السياسة المصرية ١٩٠٧ــ ١٩٥٣م ــ القاهرة سنة ١٩٨٠م .
- التيارات السياسية والاجتماعية بين المجددين والمحافظين ــ دراسة تاريخية فى فكر الشيخ محمد عبده ــ الهيئة العامة للكتاب ــ القاهرة سنة ١٩٨٣م .
- مصر الحديثة بين الانتماء العقائدى والقومى ــ مكتبة وهبه ــ القاهرة سنة ١٩٨٣م .
- الاتجاه الإسلامي فى ثورة مصر سنة ١٩١٩م ــ دار الكتاب الجامعى ــ القاهرة سنة ١٩٨٣م .
- الإخوان المسلمون بين عبد الناصر والسادات من المنشية إلى المنصة ــ مكتبة وهبه ــ القاهرة سنة ١٩٨٧م .
- قضايا الفلاح فى البرلمان المصرى ١٩٢٤ــ١٩٣٦م ــ هيئة الكتاب ــ القاهرة سنة ١٩٨٧م .
- موقف مصر من ضم ابن سعود للحجاز ١٩٢٤ــ١٩٢٦م ــ دار الكتاب الجامعى ــ القاهرة سنة ١٩٨٨م .
- موقف مصر من المتغيرات فى تركيا بين الحربين العالميتين ١٩١٨ــ ١٩٣٨م، دار الكتاب الجامعى ــ القاهرة، سنة ١٩٨٩م .
- الحزب الوطنى الجديد ــ فتحى رضوان ومجموعته ــ دار الكتاب الجامعى ــ القاهرة سنة ١٩٨٩م .
- الصوفية بين الساسة والسياسة فى مصر المعاصرة ــ ١٩٠٣-١٩٨٠م ــ دراسة تاريخية ووثائقية ــ دار الصحوة ــ القاهرة ١٩٩١م .

- قراءة جديدة فى تاريخ العثمانيين ـ التحالف الصليبى الماسونى الاستعمارى وضرب الاتجاه الإسلامي ـ عالم المعرفة ـ جدة سنة ١٤١٢هـ .
- الوجه الإسلامي لتاريخ مصر الحديث والمعاصر ـ تحت الإعداد .
- قراءة إسلامية فى تاريخ الخليج العربى ـ محاضرات لطالبات كلية التربية للبنات بجدة .
- جوانب الإعجاز فى الحضارة الإسلامية ـ بالاشتراك مع آخرين ـ تحت النشر.

المحتـــويـــات

مطبعة العمرانية للأوفست
الجيزة ت : ٧٧٩٧٥٥٠